السلاطين الأوائل

عصر تأسيس الدولة العثمانية



إعداد
حسين جوكتشة - صالح كولن

دار النيل



السلاطين الأوائل

عصر تأسيس الدولة العثمانية

يتناول هذا الكتاب الذي بين أيديكم فترة حكم السلاطين العثمانيين الأوائل مؤسسي الدولة العثمانية وما جرى في عهودِهم من أحداثٍ شتّى، وما دار من حروب، وغزوات، وفتوحات؛ كلُّ ذلك تعيشُه بين صفحات هذا الكتاب الذي يمتاز بصوره الغنية النادرة التى تظهر مدى عراقة التاريخ والفن والحضارة والثقافة العثمانية فى فترة حكم السلاطين الأوائل، ويشعر القارئ أثناء تجوله بين صفحات هذا الكتاب كأنه في متحف تاريخي عريق.

ومما لا شكَّ فيه أنه لولا هؤلاء السلاطين الأوائل وما كانوا يتمتّعون به من شجاعةٍ وقوّةٍ وإخلاصٍ، ورباطة جأشٍ، وفتوّةٍ، وكرم أخلاقٍ، وجَودةِ خصالٍ حتى في أوقاتِ الحروب؛ ما استطاع العثمانيون أن يَصِلوا إلى ما وصلوا إليه من مجدٍ وقوةٍ؛ وما استطاعوا بسطَ نفوذهم على قارّاتٍ ثلاثٍ، وما حازوا بشارةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم بفتح القسطنطينيّة على يد السلطان محمد الفاتح...

ولقد ظهرت واضحةً جليّةً بسالةُ الجنود والقادة في فتحِ البلادِ ودكِّ الحصون والقِلاعِ، وفي الذودِ عن حياضِ الأمّة وتبليغِ الإسلامِ إلى شتّى بقاعِ الأرضِ...

إنه تاريخ الرعيل الأول من السلاطين العثمانيين...


ISBN 978-9778010121
9 789778 010121
www.daralnile.com





السلاطين الأوائل

عصر تأسيس الدّولة العثمانية



مشهد من الجامع الكبير - بورصة

السلاطين الأوائل

عصر تأسيس الدّولة العثمانية

إعداد

حسين جُوكْتشَة (Hüseyin Gökçe)

صالح كولن (Salih Gülen)

لطيف جَنْتش (Latif Genç)

ترجمة

أ. د. سمير عباس زهران



السلاطين الأوائل

عصر تأسيس الدولة العثمانية

الطبعة الأولى

تحرير

يوكسل جلبنار

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

غلاف وتصميم

ياووز يلماز - أحمد علي شحاتة

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-012-1

رقم الإيداع

2016/3364

رقم النشر

1040

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

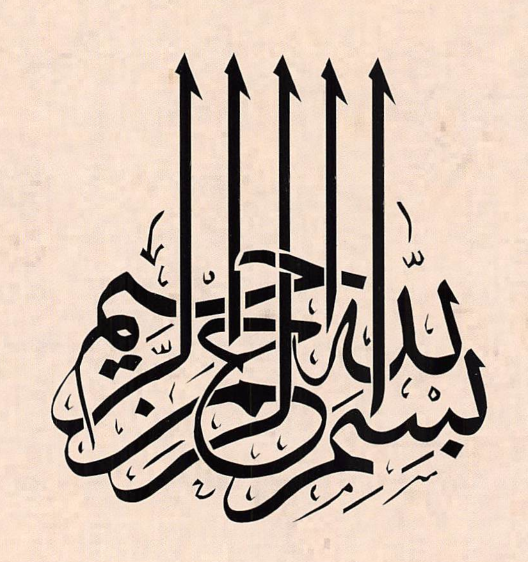
Mobile: 002 01023201001

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

القاهرة - 2016م

الفِهرس


بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يُحكى أن المؤرخ الشهير "والتر رالي (*Walter Raleigh*)" قد قرّر كتابة تاريخ العالم، وذاتَ يومٍ بينما كان في طريق العودة إلى منزله؛ صادف مشاجرة عنيفةً، فوقف يشاهدهم دون أن يتدخل، وعندما هدأت المشاجرة حاول معرفة سبب المشاجرة واستمع إلى أحد الشهود هناك، إلّا أنّ شاهدًا آخر قاطعه مدّعيًا أن ما يقوله الشاهد الأول ليس صحيحًا بل مجافيًا للحقيقة، وبينما يستمع المؤرخ الألمانيّ إلى الشاهد الثاني إذ بشاهدٍ ثالثٍ يُقاطعهم ويدّعي أن شهادة الثاني ليست صحيحةً ولا تمتُّ إلى الواقع بصلة، وعندئذ لاحظ "رالي" أنه يواجه صعوبةً حقيقيةً في الكشف عن سبب المشاجرة التي شاهدها قبل دقائق معدودات، فتنبّه في قرارة نفسه إلى حقيقةٍ مهمّةٍ مفادها؛ أنّ الإنسان إذا عجز عن كشف حقيقةِ أحداث دارت أمامه قبل دقائق؛ فأنّى له أن يكشف عن حقيقةِ أحداثٍ دارت قبل آلاف السنين...! فكانت هذه الحادثة سببًا في أنه أحرق جميع الأوراق التي دونها عن تاريخ عالم القديم.

يعتبر التاريخ عمودًا فقريًا بالنسبة للعلوم الاجتماعية ويحتلّ مكانةً مهمّةً بين العلوم، ولكنه في ذات الوقت صعبٌ للغاية، وتتجلّى الصعوبات أكثر عندما يدون بدافع الحب أو الكراهية، وعلى سبيل المثال فإذا ألقينا نظرةً على الفترة التي نعيشُ فيها؛ نرى البعض يمجّدُ شخصًا والبعضُ الآخرُ يهوي به إلى قاع الأرض، وصفحات الجرائد والمجلّات



برج الساعة - بورصة - تركيا

والكتب مليئةٌ بالآراء التي يناقض كلٌ منها الآخر، فإلى أيّ الوثائق يستندُ مؤرّخُ الغدِ في كتابته لتاريخنا المعاصر؟ وإذا نحينا جانبًا أعمال شخصية عملت جاهدة في شتى المجالات لعدة سنوات وتناولنا عملًا واحدًا منها فإن هذا يعد بخسًا لحقه، فتجد أناسًا يحمدونه وآخرون ينتقدونه، وأما وثائق السلطات الرسمية التي تؤرّخ من أجل التعريف بها في المستقبل فلا يؤخذ بها لأنها تنحاز عادةً لصالحها، وعلى الصعيد الآخر فقد تفتح قطعةٌ من الورق ذابلةٌ أو قطعةٌ من الفخار مكسورةٌ آفاقًا جديدة للغاية أمام المؤرخ.

على المؤرخين والمُحَلِّليين أن يلاحظوا أن منطق التاريخ يولَد من رحم البنية العقليّة المعاصرة للحدث، فمثلًا بينما اعتبر فئة من مؤرّخي العصور الوسطى الحروب المسماة بـ"حرب الثلاثين عامًا"[1] مقدّسةٌ لأن هدفها على حد تعبيرهم إنقاذ الروح، في حين اعتبرها "بروقهارد (*Burckhardt*)" الذي عاش في القرن التاسع عشر حقيرة ومدمرة لأنها أفقدت الكنيسة الغربية نفوذها، وتسببت في انتشار مفهوم القوميّة أو العنصرية بين أوساط المجتمعات الأوروبية، وإذا كان المؤرخون الذين ترعرعوا في ثقافة واحدة يفكّرون بشكلٍ مختلفٍ؛ ألا يكون من الطبيعيّ وجود فرقٍ شاسعٍ بين الذين ترعرعوا في ثقافاتٍ مختلفة؟ إن مثل كتابة التاريخ العثماني من قِبَل مؤرخ ذي أصل ألماني كاثوليكي ينحدر من نسل قائد حارب العثمانيين على مشارف "فيينا" كمثل فيل وطأ حوضًا من الزهور.

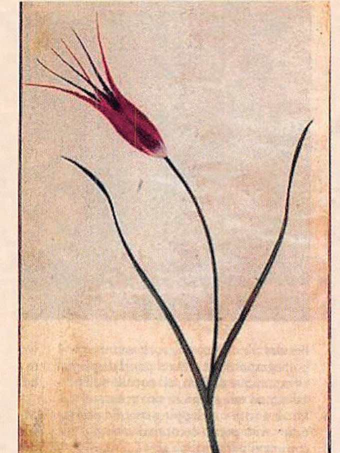
إنه لا يمكن الوصول إلى الحقائق التاريخية بسردِ الأحداثِ والوقائع واحدة تلو الأخرى، وإنما الحقائق التاريخية هي جملة الأحداث الثقافية والاجتماعية على مرّ العصور؛ فالأحداث التاريخية مرتبطة ببعضها؛ حادثة تتسبب في ظهور أخرى وأخرى تفسر وتبين سابقةً لها، ولذا فمن الضروري معرفة سبب الحادثة وما ترتب عليها حتى لا يختلط الحابل بالنابل وتضيع النتائج وسط الأسباب، ومن أجل ذلك يتعين على المؤرّخ أن دراسة الأحداثِ والإلمام بها حتى يُجيد التعامل معها.

إن كتاب "السلاطين الأوائل" لا يتناول أحداث التاريخ العثماني من منظور فريد فحسب بل إنه يساعد القارئ في بناء فكرة جيدة يتطلع بها إلى مستقبل مشرق.

صالح كولن (*Salih Gülen*)

---

(١) هي سلسلة حروب وصراعات دامية مزقت أوروبا بين عامي (١٦١٨-١٦٤٨م)، وقعت معاركها بدايةً وبشكل عام في أراضي أوروبا الوسطى (خاصة أراضي ألمانيا الحالية) العائدة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكن اشتركت فيها تباعًا معظم القوى الأوروبية الموجودة في ذاك العصر، فيما عدا إنكلترا وروسيا (المترجم).



أثناء إعداد هذا الكتاب:

إن كتاب "السلاطين الأوائل" يهدف إلى فهمٍ أفضل للتاريخ دون مَلَلٍ أو كَلَلٍ، واكتشاف جوانبه التي ترتبطُ بحاضرنا اليوم، ومقارنتها بشكلٍ صحيحٍ، وقد فكّرنا في أن ننقل في هذا الكتاب الأحداث والخبرات عن الشخصيّات التي يعتبرها الناسُ في عصرِنا مثلًا مقدّسًا أعلى، دون إيرادِ أيِّ نظرةٍ أو مفهومٍ خاص، ولهذا الهدف فقد أعددنا صفحاتٍ أنيقةً ولطيفةً وعملية، وليس من الصواب أن نلوّث سيرةَ الأشخاص الذين صنعوا التاريخ بإحساسِ النفور والحقد، وقد أولينا أهمّيّةً خاصّةً لذكر النماذج الإنسانيّة وحبّ الخير والبسالة التي أطلقنا عليها اصطلاح "الفتوة" في هذا الكتاب، وجعلناها تنسالُ وتتدفّق كالنهر بين طياته.

ومع أن هذا الكتاب ليس عملًا أكاديميًّا على مستوًى عالٍ إلّا أنه يُقدِّم معلوماتٍ صحيحةً تمامًا تمّ التوصّل فيها إلى وحدة الأفكار، وقد أظهرنا عنايةً دون أن نُتعِبَ القارئ بالتفاصيل المملّة، ولكنّنا ذكرنا بعض المصادر في الهوامش عند الضرورةِ مثلَ (هامر، الجزء الثاني ص ١٧٧)، والمجموعة المستهدفة أو الشريحة التي يُخاطبها هذا الكتاب: هي كلّ من يهتم بالتاريخ وفي مقدّمتهم الشباب.

وقد بذلنا جهدًا خاصًا لإقامة الجسور بين الماضي والحاضر، ولم نكتفِ بالخطوط والصور التاريخية فقط، بل حاولنا إيراد الصور العصريّة الحالية لنفس الأماكن القديمة بقدر الإمكان، وقد بذلنا جهدًا مضنيًا لكي نُضيف إلى الكتاب أيضًا المشاهد والمعلومات الحالية للأماكن التي تتناولها موضوعات الكتاب.

وأنا واثق من أنكم ستفهمون هذا الكتاب بشكلٍ أفضل إذا علمتم أن الوفود الأجنبية كانت تتنافس على زيارة الأرشيفات العثمانية الموجودة في إسطنبول مرارًا وتكرارًا، ومنها الخبراء الإنجليز والألمان واليابانيون والفرنسيون والأمريكيون، وقد قال لي أحد أصدقائي الذين يعملون في الأرشيفات العثمانية: "لقد جاء في اليوم السابق خبراء أمريكيون في التعليم، وكانوا يشيرون إلى عيوب التعليم في المدارس الأمريكية، ويتعمّقون في البحث في الأرشيفات من أجل معرفة كيفية نجاح العثمانيين في مجال التعليم".

لقد بذلت الحضارة العثمانيّة جهودًا مضنيةً وقدّمت خدمات جليلةً إلى العالم أجمع، ولم تتوانَ عن خدماتها حتى في لحظات ضعفها وانهيارها.

وكانت الدولة العثمانية متمسّكةً بثوابت حضارتها من القوّة والبذل والتطوير والتنمية -رغم اقتراب أفول شمسها- فهي الدولة الوحيدة التي فرضت الضرائب في البحار على

الأمريكيّين، وكان ذلك في عهد السلطان عبد العزيز، وهذا السلطان نفسه هو الذي أرسل أموالًا طائلةً من أجل بناء "دار أوبرا" للمؤلف الموسيقي والكاتب المسرحي الألماني "ريشارد فاغنر (*Richard Wagner*)"[٢]، وقد أرسل "السلطان عبد الحميد" أيضًا أموالًا أكثر من باقي رؤساء الدول الآخرين ليطور "لوي باستير (*Louis Pasteur*)"[٣] مختبرَه.

ومن المعلوم أن الشِّعْرَ الجميل كلما أُعيدت قراءته مرّةً جديدةً تلمعُ في الذهن معانٍ جديدة، لذا ينبغي أن ننظر إلى التاريخ العثمانيّ بهذا المنظار، ولمَ لا تكون الحضارة العثمانيّة مصدر إلهامٍ متجدّدٍ لدى القرّاء، وفيضَ أفكارٍ بكرٍ لدى الباحثين؟ بل يجب علينا مطالعة جميع الشواهد التاريخية عن طريق دراسة متفحصة ودقيقة.

كنت أعمل على تأليف هذا الكتاب منذ سبعة وعشرين عامًا، وقد تتبعتُ أثر التاريخ العثمانيّ بالتدريج إلى معظم الجغرافيا العثمانيّة، وقمت برحلات عديدة لأجل هذا الغرض إلى القدس والمملكة العربية السعودية وبلاد الشام وعمان وإلى كل مناطق الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والجمهوريات التركية وجنوب إفريقيا، كما قمت بزيارات إلى كل من بلاد "البلقان" و"مولدافيا (*Moldova*)" وجبال "الكاربات (*Carpathians*)" و"غاغاوزيا (*Gagauz Yeri*)" وإلى أبواب "فيينّا"، وقد عشت في بعض هذه البلاد أشهرًا وسنواتٍ عديدةً، ولكني لم أكن "متعصّبًا عثمانيًّا" في أيّ وقتٍ قطّ، ومع أنني لست أكاديميًّا إلا أنني تناولت الموضوعات مع الالتزام بالحياديّة و القيم الأكاديمية، وأترك للآخرين تقدير ذلك أيضًا، ومع أن هذا الكتاب ليس وليمةً عثمانيةً جيدة، إلا أنه شطيرةٌ عثمانيةٌ جميلةٌ وشطيرةٌ صحيةٌ ومغذيةٌ وعملية ويمكن الوصول إليها بسهولة...

إن الأمم التي كانت تتحارب بالأمس أصبحت اليوم إمّا جيران مسالمون أو أصدقاء أو تربطهم ببعضهم علاقات وطيدة في العديد من المجالات، وآمل أن يكون هذا هو حال جميع الدول مع بعضها، فينحوا الحرب جانبًا ويفسحوا المجال للحكمة والتسامح والحوار.

وفي النهاية أتقدم بخالص الشكر والإمتنان والتقدير للأستاذ مصطفى أوزجان (*Mustafa Özcan*) وللأستاذ أورخان كسكين (*Orhan Keskin*) على مدهم يد العون لنا في إعداد هذا الكتاب، وعرفانا بما بذلوه من جهد وافر عظيم...

حسين جُوكْتشَه (*Hüseyin Gökçe*)

---

(٢) ريشارد فاغنر (*Richard Wagner*): هو مؤلف موسيقى وكاتب مسرحي ألماني، ولد في "لايبزغ"، ألمانيا عام (١٨١٣م)، وتوفى في البندقية، إيطاليا عام (١٨٨٣م) (المترجم).

(٣) لويس باستير (بالفرنسية: *Louis Pasteur*): هو عالم كيميائي فرنسي وأحد أهم مؤسسي علم الأحياء الدقيقة في الطب، ويُعرف بدوره المميز في بحث أسباب الأمراض وسبل الوقاية منها. ساهمت اكتشافاته الطبية بتخفيض معدل وفيات حمى النفاس وإعداد لقاحات مضادة لداء الكلب والجمرة الخبيثة (المترجم).



صور السلاطين العثمانيين

Osman Gazi 1299-1324

Orhan Gazi 1324-1361

I. Murad 1360-1389

Yıldırım Bayezid 1389-1402

Mehmed Çelebi 1413-1421

II. Murad 1421-1451

Fatih 1451-1481

II. Bayezid 1481-1512

Yavuz 1512-1520

Kanuni 1520-1566

II. Selim 1566-1574

III. Murad 1574-1595

III. Mehmed 1595-1603

I. Ahmed 1603-1617

I. Mustafa 1617-1618

Genç Osman 1618-1622

IV. Murad 1623-1640

İbrahim 1640-1648

IV. Mehmed 1648-1687

II. Süleyman 1687-1691

II. Ahmed 1691-1695

II. Mustafa 1695-1703

III. Ahmed 1703-1730

I. Mahmud 1730-1754

III. Osman 1754-1757

III. Mustafa 1757-1774

I. Abdülhamid 1774-1789

III. Selim 1789-1807

IV. Mustafa 1807-1808

II. Mahmud 1808-1839

Abdülmecid 1839-1861

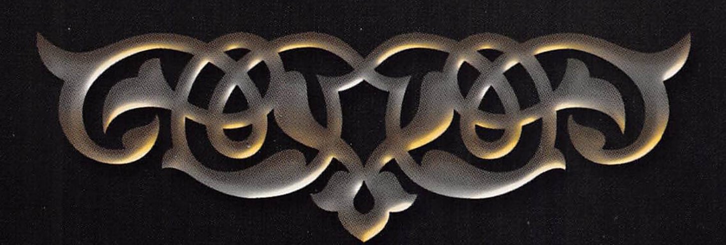
Abdülaziz 1861-1876

V. Murad 1876-1876

II. Abdülhamid 1876-1909

V. Mehmed 1909-1918

VI. Mehmed 1918-1922



الفصل الأول

عثمان غازي



اسم الوالد: "أرطغرل غازي" اسم الوالدة: "حليمة خاتون"

تاريخ ومحل الميلاد : مدينة "سُوغُوتْ (*Söğüt*)"، (١٢٥٨م)

تاريخ توليه رئاسة عشيرته: (١٢٨١م)

تاريخ توليه رئاسة الدولة : (١٢٩٩م)

مكان وفاته وتاريخه : "يَنِي شَهِيرْ(*Yenişehir*)"، (١٣٢٦م)

مقبرته : في "بورصة"

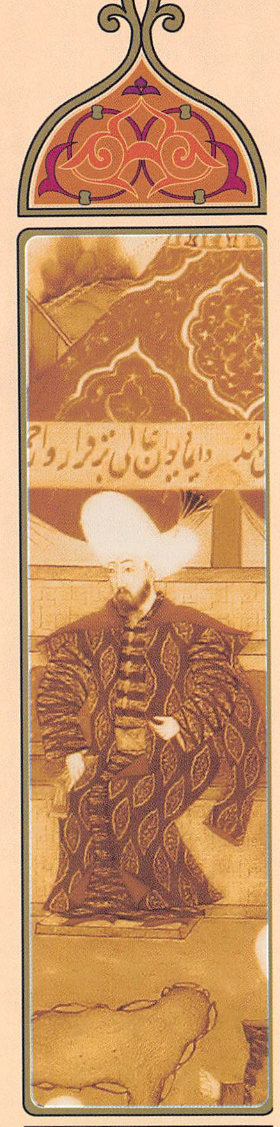
أسماء أبنائه: أُورْخَان، علاء الدين علي، صاوجي، شوبان، مليك، بَازَارْلُو، وحامد.



صورة تظهر "أُورْخَان غازي" وهو يهدي القوس والسهم للأمير البيزنطي "قَالُولُوانِّيس (*Kaloloannis*)" (هُنَر نَامَه، المجلد الأول)

"إن تأسيس العثمانيين للدولة الجديدة يعد من أكبر الأحداث وأكثرها إثارة للدهشة في مسرح التاريخ البشريّ، فلقد كانت بداية التأسيس خارقة للعادة مقارنةً بما آل إليه أمر دولتهم، فقد بدؤوا بعملٍ صغيرٍ جدًّا حقّق نتيجةً كبيرة".

المؤرخ الفرنسي: "فرناند جرينارد (***Fernand Grenard***)"



أربع مائة خيمة أصبحت دولة الثبات والرباط والحلّ والترحال

الحياة في الأناضول وتأسيس الإمبراطورية العثمانية

كان الشباب وكبار السن والنساء والأطفال ومعهم الخيام والخيول والكلاب والأغنام يقومون برحلة نزوحٍ كبيرةٍ ضمن قافلةٍ كبيرة، سوف تطول الرحلة لأيام وأسابيع، كانت آمالهم عظيمةً كعظَمَةِ ثباتهم وشغفهم بالحلّ والترحال.

وهذه الهجرة كانت بمثابة هروبٍ وبحثٍ عن الأفضل، وعُرفت كذلك بأنها رحلةٌ إلى الآمال العظيمة، فلقد اضطرّوا إلى الهروب بسبب الهجمات المتزايدة لجيوش المغول التي أصبحت تضايقهم.



إنهم اتجهوا إلى الأراضي التي تناديهم وتقول لهم "هلموا إلى هذه الأرض"، وذلك بحثًا عن أملٍ جديدٍ، وكأن المعلومات والآمال الآتية من الأناضول قد تبشرهم بمستقبلٍ مشرق، وكان داخل القافلة الكبيرة فئة أخرى يطلقون على أنفسهم عشيرة "قَايِي" التي كانت عشيرة صغيرة.

وكانت هذه العشيرة تتألف من أربعمائة خيمةٍ وأربعة آلاف شخصٍ، وكان يترأسها "جُونْدُوزْ آلْبْ (*Gündüz Alp*)"، وهو زعيم عشيرة "قَايِي" التابعة لـ "بُوزْ أُوقْلَارْ (*Bozoklar*)"[٤] من سلالة "أوغوز خان (*Oğuz Han*)"...

إن كلمة "قَايِي" تعني صاحب القدرة والقوة. أجل، ها هي عشيرة "قَايِي" مهاجرة الآن إلى الأراضي التي نادتهم، والتي كانت تُرسلُ الأمل إلى قلوبهم.

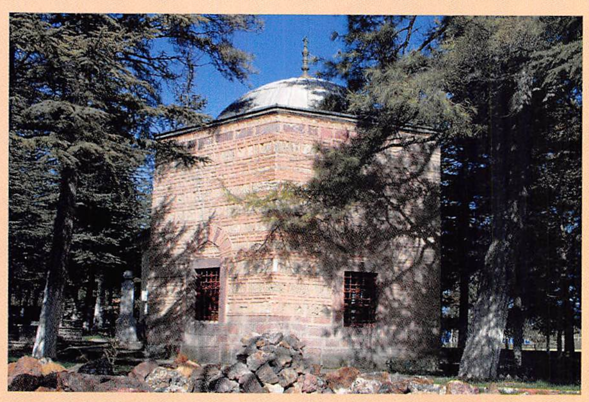
وعندما عبروا أراضي إيران من ساحل بحر "قزوين"[٥] ووصلوا إلى "أخلاط"[٦] الواقعة في شمال غرب بحيرة "وَانْ (*Van*)" كانت الشمس قد توسّطت كبد السماء.



ضريح "علاء الدين كَيْقُبَادْ" - محافظة "قونية"

بدأ التاريخ العثماني في الأناضول عام (١٢٣٠م)، ففي روايةٍ عندما تولّى "أرطغرل غازي (*Ertuğrul Gazi*)" أمور العشيرة خلفًا لـ"جُونْدُوزْ آلْبْ"، وقد قاد عشيرة "قَايِي" في حربٍ مهمّةٍ ولكنها كانت سيئة الطالع إذ إنها اندلعت بين المغول وسلاجقة الأناضول...

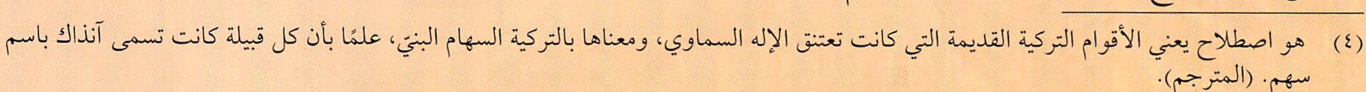
انقلبت تلك الحرب التي كانت نذيرَ شؤمٍ بالنسبة لسلاجقة الأناضول لصالح "أرطغرل غازي" الذي حلّ ضيفًا جديدًا على الأناضول، وقد شارك "أرطغرل غازي" الذي كان يبدو ضعيف القوة في الحرب إلى جانب السلاجقة، وفي مقابل هذا أغدق عليه السلطان السلجوقي "علاء الدين كَيْقُبَادْ (*Alaeddin Keykubad*)" العطايا والهبات، ومنحه الأراضي ليستوطنها هو وعشيرته.



ضريح "أرطغرل غازي" - مدينة "سُوغُوتْ" - محافظة "بِلَجِيك"

"أرطغرل غازي" في الأناضول

وقد سمح السلطان "علاء الدين كَيْقُبَادْ" حاكم سلاجقة الأناضول لعشيرة "قَايِي" بالاستيطان في مناطق المجاورة لجبال "قَرَجَه طَاغْ (*Karacadağ*)" التي تقع ضمن حدود محافظة "أنقرة" الحالية، لم يكتف "علاء الدين كَيْقُبَادْ" بذلك بل أهداهم كذلك مركز "سُوغُوتْ" كمشتى و"طُومَانِيجْ (*Domaniç*)" كمصيف لهم.



(٤) هو اصطلاح يعني الأقوام التركية القديمة التي كانت تعتنق الإله السماوي، ومعناها بالتركية السهام البنيّ، علمًا بأن كل قبيلة كانت تسمى آنذاك باسم سهم. (المترجم).

(٥) هو بحر مغلق يقع في غرب آسيا على مساحة تبلغ ٣٧١,٠٠٠ كم٢ وهو أكبر بحر مغلق في العالم. (المترجم)

(٦) تقع منطقة "أخلاط" على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة "وَانْ" الواقعة شرق تركيا. (المترجم)

وهكـذا بدأت مرحلة جديدة بالنسـبة لعشـيرة "قَايِي" التي تنحـدر من أصل أتراك "الأوغوز"، وقد قـام "أرطغرل غازي" بتوطيد علاقاته مـع سلاجقة الأناضول.

وقد توفي "أرطغرل غازي" في عمر يناهز الثالثة والتسعين، وقد ظل زعيمًا لعشيرة "قَايِي" حتى وافته المنية، وامتدّت في عهده مسـاحة الإمارة إلى أربعةِ آلافٍ وثمانمائة كم[٢]، ودفن "أرطغرل غازي" في مقاطعة "سُوغوتْ" التابعة لمحافظة "بِلَجِيكْ (*Bilecik*)".



نموذج من خيمة عثمانية

"عثمان بك" يظهر على مسرح التاريخ

وقد أثبت "عثمان بك" نفسـه في عهد والده بشـجاعته وبسـالته وإسـهامه في إدارة أمور العشـيرة، وعند وفاة والده كان في الثالثة والعشـرين من عمره، ولكنه كان يمتلك خبـرة رجـل فـي الأربعيـن من عمره، وإن كان الحديث قـد دار حول تولي "دوندار غـازي (*Dündar Gazi*)" عمّ عثمان بك خلفًا لـ"أرطغرل غازي"، إلا أن عشيرة "قَايِي" كلها اتّحدت في رأيها على: "أن يرأس عثمان بك إمارتهم" سيّما بعد أن أثبت عثمان غازي ببسالته ونجاحاته التي حقّقها أنه جدير بتولي هذا المنصب.

وفي غضون ذلك فقد أبدى كل من "جوندوز بك (*Gündüz*)" و"صاري باتي بك (*Sarıbatı*) " الأخوين الكبيرين لعثمان غازي أيضًا رضاهما بتولي "عثمان بك" أميرًا على العشيرة، وقالوا إنه جدير بذلك، ونحن مستعدون للدخول تحت إمرته، فكما أكدا أنهما لم يكونا يتطلعان إلى الرئاسة.

وعندما تولّى "عثمان بك" الرئاسـة ازدادت حميّته، وبدأ يسـعى من أجل توسـيع أراضي عشـيرته، وجمـع إخوته وكبار رجال العشيرة حوله، وكان يعلم أن النجاح والاستقرار ينتجان عن التكاتف والاتّحاد.

وكان يرى "عثمان غازي" أن "سُوغوتْ" مركز عشيرة "قَايِي" ضيقةٌ جدًّا ولا بدّ من توسـيع أراضيها التي تبلـغ مساحتها أربعةَ آلافٍ وثمانمائة كم[٢] ويقول في نفسه "إن خيول عشيرتي قد تقطع هذه المساحة في بضـع ساعات".

وتقـع دولة سـلاجقة الأناضول شـرقي حدود "سُـوغوتْ"، وقد تعتبر عشـيرة "قَايِي" هذه الدولة شقيقة لها، ولكنها الآن ليست في قوتها السابقة، حيث باتت تابعة لدولة "الإيلخانيين"، وأما شمال وغرب الإمارة العثمانية فيوجد أمراء إقطاعيون يُطلـق عليهـم لقـب "تَكْفُورْ" يعتبرون أنفسـهم دولة، وكانوا يبـدون تابعين للإمبراطورية البيزنطيـة، إلا أنهم كانوا يتحركون بحريـة تامـة في المناطق التي يسـيطرون عليهـا، بالإضافة إلى أنهم كانوا يقهرون الأهالي الذيـن تحت إمرتهم، ويظلمونهم ولا يُنصِفونهم.

وفي الواقع أن الاضطرابات التي عمت المناطق المجاورة لعشيرة "قَايِي" قد أتاحت لعثمان غازي فرصةً حقيقيّةً من أجل توسيع أراضيه وتقوية دولته، فلقد أصبح "عثمان غازي" أملًا للمجتمعات البائسة آنذاك.

التاريخ يدعو العثمانيين

التاريخ يفتح أبوابه للعثمانيين وها قد خطا العثمانيون خطاهم الأولى نحو تأسيس دولتهم العظيمة.

أعجب "عثمان بك" بسياسة والده ذات الطابع السلميّ، وعمل على تأمين استمرارها مع جيرانه، حتى إنه عندما كان يخرج للاصطياف ورعي الأنعام مع عشيرته في فصل الصيف كان يترك بعض أشيائه الثمينة أمانة لدى حاكم أو "تَكْفُورْ" "بِلَجِيكْ"، على أن يستردها عند عودته، وفي مقابل ذلك يقدم الهدايا لـ"تَكْفُورْ" عند عودته من المصيف مثل الجبن والزبد والعسل واللباد وأطقم السروج من أجل الخيل.

وفي تلك الفترة بدأ "نيقولا (*Nikola*)" حاكم "إِينَاكُولْ (*İnegöl*)" في مضايقة الأتراك، حيث كان يقطع الطرق ويحاول الاستيلاء على بعض الغنائم منهم، ولم يكتف بذلك، بل كان يحرض الحكام الآخرين ضد الأتراك قائلًا: "إن عثمان بك هذا يقوى باستمرارٍ، وسوف يكون غدًا كارثةً علينا جميعًا، فلنتّحد ولنقض عليه".

وعندما علم عثمان بك الأنشطة العدائية التي يقوم بها "نيقولا" جمع كبار رجال العشيرة من أجل تقييم الموقف واتخاذ الإجراآت اللازمة حيال هذا الخطر الجديد، وحضر الاجتماعَ كلٌّ من "طُورْغُوتْ آلْبْ (*Turgut Alp*)" و"قُونُورْ آلْبْ (*Konur Alp*)" و"آقْجَه قُوجَه (*Akça Koca*)" و"أَيْقُوتْ أَلْبْ (*Aykut Alp*)" و"عبد الرحمن غازي" ولقد انتهى الاجتماع بعد أن أجمعوا على "معاقبة نيقولا عقوبةً تجعل منه كبشَ فداءٍ يتّعظُ به الأمراء والحكماء الآخرين في المنطقة".

وفي ربيع عام (١٢٨٤م)، انطلق المغيرون الأتراك بقيادة عثمان بك من أجل مهاجمة قلعة "تَكْفُورْ نيقولا" بغتة، ولكن "نيقولا" كان قد علم بأمر هذا الهجوم عن طريق جواسيسه، فنصب كمينًا في الممرّ الضيق الذي يطلق عليه اسم "أَرْمَنِي دَرْبَنْدِي (*Ermeni Derbendi*)"، وكان ينوي القضاء على عثمان بك ورفقاء دربه وسلاحه القريبين منه في هذا الممر الضيق، إلا أن خطة "نيقولا" باءت بالفشل، حيث قام رجل يدعى "أراتوس (*Aratos*)" يوناني الأصل بإخبار عثمان بك بأمر الكمين، وعلى ذلك قام عثمان بك -الذي غير خططه بسرعة- بمحاصرةِ "نيقولا" في ممر "دربندي"، وبدأت اشتباكات دموية بين الجيشين، وخاض جنود "تَكْفُورْ" معركةً عنيفةً حاولوا من خلالها إحكام السيطرة على الممرّ وتضييقَ الخناق على العثمانيين، فقد استطاعوا أن يُكبّدوا العثمانيين خسائر فادحةً في العدّة والعتاد، وكان من بين الشهداء الشاب "بَايْقُوجَه (*Baykoca*)" نجل "صاري باتي بك" أحد إخوة عثمان، ودفن هنالك أسفل الممر بقليل، في القرية التي عُرفت فيما بعد بـ"حمزة بي".

النصر الأول

في أولى أسابيع ربيع عام (١٢٨٥م)، وبعد مرور عامٍ واحدٍ على الاشتباك الذي وقع في ممرّ "أرمني دربندي"، كان عثمان بك يستشعر آلام الخسائر في الأرواح إثر تلك المعركة وخاصةً استشهاد ابن أخيه.

فكر عثمان بك أنه يجب أخذ الثأر من "نيقولا" ومحاسبته على ما فعله من أعمال عدائية ضدّهم.

وبعد أيامٍ قليلةٍ من أيّام الربيع مضى عثمان بك على رأس ثلاثمائة فارسٍ إلى "إِينَاكُولْ" وداهموا قلعة "قُولُوجَه حصار (*Kulucahisar*)" التـي تقـع بالقرب من "إِينَاكُولْ"، واسـتطاع عثمان بك وجنوده أن يقتل عـددًا من جنود "نيقولا" بالإضافة إلى ذلك أسـرَ عددًا آخر منهم، وهكذا حققت عشيرة "قَايِي" انتصارها الأول الذي سـجله التاريخ، مما يعدّ إرهاصًا ببداية الفتوحات العثمانية.

الطبل والشعار والراية

إن هـذا النصـر الأول الذي حققه عثمان غازي واسـتيلاءه على "قُولُوجَه حصار" أرعب "نيقولا" كثيرًا، وبدأ لشـدة قلقه يطلب العون من الأمراء الآخرين حيث أرسـل خطابات إلى الحكام الآخرين قال فيها: "لقد قلت لكم إن شـجاعة الأتراك وقوّتهم تزداد يومًا بعد يوم، وها هم اليوم يهاجمونني، وغدًا سيهاجمونكم، يجب أن نتوحّد ونتعاضدَ فيما بيننا بسرعة حتى نقضي على عثمان غازي".

بيـد أن الحـكام الآخرين لم يصغوا لنـداءات "نيقولا"، باسـتثناء حاكم "قَرَاجَـه حصـار (*Karacahisar*)"، فقـد أرسـل عـددًا مـن الجنـود إلى "إِينَاكُولْ" بقيادة أخيه "فلاتوس (*Flatos*)"، وكان هذا الدعم البسيط قد شجّـع "نيقولا" حيث أعدّ جيشًا تحت قيادة "فلاتوس"، وبدأ جنود "تَكْفُورْ" يقودون خيلهم صوب "طُومَانِيجْ" وطنِ العثمانيين.



مشهد من أحد المباني الأثرية في مدينة "أخلاط" - تركيا

ولما علم عثمان غازي بقدوم جنود "تكتور" هبّ كالرياح لملاقاة قوى العدو التي تجمعت في المنطقة المسماة "إيكيزجه (*Ikizce*)" الواقعة بين "إِينَاكُولْ" و"بِلَجِيكْ"، ووقعت اشتباكات عنيفةٌ بين الطرفين.

وكان جنود "تَكْفُورْ" أكثر عددًا، بينما كان عثمان غازي أكثر شجاعة ومهارة، وفي بداية المعركة قُتل "فلاتوس"، وتشتت جنود "تَكْفُورْ" الذين رأوا أن قائدَهم قد مات، ثمّ ولّوا الأدبار وانهزموا شرّ هزيمة وحظيَ شجعان "عثمان غازي" بانتصارٍ آخر.



منمنمة "عثمان غازي"

خطّةٌ عاقلةٌ في مواجهة مؤامرةٍ حمقاء

يمضي الوقت، ويزداد عثمان غازي قوّةً على قوّة، لم تكن هذه القوّةُ مقصورةً على القوة العسكرية فحسب، بل امتدت إلى وضع حجر الأساس لقيام دولةٍ عظيمةٍ ذات مؤسساتٍ ومنظّماتٍ، ممّا دعا القوى المجاورة والإمارات الروميّة والحكام وفي مقدمتهم حاكم "بِلَجِيكْ" الذي كان صديقًا وفيًّا للأتراك منذ سنوات طويلة؛ إلى التحايُلِ والغدر بعثمان غازي، وكان قد أعدّ هو والحكّام الآخرين خدعةً حمقاء للقضاء على عثمان غازي؛ حيث خطّطوا بقيام حفل زواج ابن حاكم "بِلَجِيكْ" على ابنة "يَارْحِصَارْ (*Yarhisar*)" ضمن مراسم حفل عرسٍ ضخمٍ، وأن يكون ضيف الشرف في الحفل عثمان غازي، وأن يتمّ اغتياله في الحفل بسهولةٍ ويُسرٍ دون أيّ معركة أو مواجهة، ولكن حدث تطوُّرٌ غير متوقّعٍ، حيث أخبر "ميخائيل" الأمير الرومي لقلعة "خَرْمَانْ قَايَا (*Harmankaya*)"[(٧)] "عثمان غازي" بالمكيدة المعدّة له سرًّا.

وبدأ "عثمان غازي" الذي علِم بخيانة الحكام بالتخطيط للقضاء على هذه المؤامرة، فأرسل الرسالة التالية إلى حاكم "بِلَجِيكْ" وقال فيها:

"لقد سرّتني دعوتُكم كثيرًا، وفي الواقع لقد حان وقت خروجِنا إلى المصيف، وسوف نأتي إلى العرس بعد أن نترك أشياءنا القيّمة لديكم في قلعة "بِلَجِيكْ" كما هي عادتُنا، وسوف نصطحب نساءنا وبناتنا، وبعد العرس نخرج أيضًا إلى المصيف، ولكن إذا تمّ تنظيم حفل العرس في المروج خارج القلعة وليس داخلها سوف يكون أنسب بالنسبة لنا".

---

(٧) أسلم "ميخائيل" فيما بعد، وسمى نفسه عبد الله، وقام هو وعائلته بخدمة العثمانيين لسنوات طويلة، وكان عثمان غازي يخاطبه قائلاً: "كوسه ميخال (*Köse Mihal*)"، ومقاطعة "ميخال غازي" التابعة لولاية "أسكي شهير" حاليًا قد أخذت اسمها من "كوسه ميخال" (المترجم).

وكان الخبر الذي ورد من "عثمان غازي" قد أسعد "تَكْفُورْ" سعادةً جمّةً، واعتقد أن "عثمان غازي" أراد أن يتمّ تنظيم حفل العرس في الخلاء بدلًا من القلعة لأنه يخاف دخولَ القلعة، وأرسل إليه خطابًا أخبره فيه بأن حفلَ العرس لن يكون في القلعة وإنما سيكون في المرج الذي يُطلق عليه اسم "جَاقِيرْ بِينَارْ (*Çakırpınar*)".

الصياد يُصبح فريسةً

لقد دبر عثمان غازي حيلةً عاقلةً للقضاء على الخدعة الحمقاء، حيث ألبس تسعة وثلاثين من خيرة رجاله زيَّ النساء، كما حمّل الخيول بالسلاح أيضًا وزيّنها لتبدو وكأنها محملة بالهدايا، فقد كانت العادات والتقاليد تقتضي في مثل هذه المناسبات أن يتم تقديم الهدايا من قبل النساء؛ إذ كان هذا التصرُّف يوحي للطرف الآخر بالثقة.

وأخذ عثمان بك طريقه مع أصدقائه المقربين إلى "بِلَجِيكْ"، وعندما وصلوا إلى المكان الذي يقام فيه حفل الزفاف استقبله حاكم "بِلَجِيكْ" استقبالًا رائعًا وأحسن استضافته، واستمرت مظاهر العرس والضيافة حتى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل.

وبينما كان الحاضرون في العرس مستمرّون في اللهو وعثمان بك يشاهدهم، إذ أخرج الجنود الأتراك المُتَخَفُّون بزيّ النساء في قلعة "بِلَجِيكْ" أسلحتهم المخفية على ظهور الخيول، وبدؤوا يقضون على الجنود الروم الثمِلِين واحدًا تلوَ الآخر.

وقد أخبر المهاجمون العثمانيون الذين استولوا على القلعة أميرهم عثمانَ غازي بالوضع في القلعة، وفور سماع الخبر أشار عثمان غازي -الذي كان ينتظر ذلك الخبر في واقع الأمر- إلى الرجال المرافقين له، فامتطوا جيادهم على جناح السرعةِ وابتعدوا عن المكان الذي يقام فيه الحفل.

هاجَ "بِلَجِيكْ" وغضب غضبًا شديدًا لعدم تمكّنه من تنفيذ خطّة اغتيال "عثمان غازي"، لكنّ الخبر الأسوأ لم يكن قد نمى إليه بعدُ فما أن بدأت أعصابه تهدأ حتى علم أن الأتراك استولوا على قلعته، فوقع هذا الخبر على مسمعه مثل الصاعقة التي لا ترحم.

جمع شتات نفسه بسرعةٍ واستدعى الجنود الموجودين خارج القلعة، وتعقّب عثمان غازي دون أن يضيّع الوقت.

ولكن هذا كان ضمن خطّة عثمان غازي المضادّة، حيث كان ينتظرهم في المكان المسمّى "قَالْدِيرَاقْ (*Kaldırak*)"، وفعلًا تلاقى الجيشان فهُزِمَ "تَكْفُورْ" وجنودُه في الاشتباك الذي وقع هناك.

وعندما أنهى عثمان غازي مهمّته هناك عاد بسرعةٍ، وهاجم ساحةَ العرس، ولم يكتف بذلك بل مضى نحو "يَارْحِصَارْ"، واستولى على القلعة في نهاية الاشتباك الذي استمرّ حتى الصباح.

وهكذا تحولت مؤامرتهم للقضاء على عثمان غازي وبالًا عليهم؛ إذ تمكن عثمان غازي من القضاء على أعدائه، وبينما أُريد له أن يكون فريسةً إذ به يصير هو المفترِس.

فتحٌ أم نجاة

كان "عثمان غازي" قد قام بزيادة جهوده بشكل أكبر بعد الانتصارات المتتالية التي حظيَ بها، حيث أعدّ قوّةً كبيرةً قوامها خمسة آلاف جندي بقيادة "طُورْغُوتْ آلبْ"، وكان الهدف من ذلك هو توجيه ضربة موجعة لحاكم "إِينَاكُولْ".

وفي هذه المرة قام بتغيير خطّته حيث خرج إلى السفر بعد صلاة المغرب، وسار في الطريق طوال الليل، ومع إرسال الشمس أشعّتَها الأولى في الصباح هاجم القوّات الروميّة المتمركزة في "إِينَاكُولْ"، فكانَ النصرُ حليف العثمانيين ومُنيَ "نيقولا" وجيشُه بهزيمةٍ نكراء، ولقي "تَكْفُورْ" مصرعه في نهاية المعركة.

وقد غَنِم "عثمان غازي" قدرًا كبيرًا من الغنائم والأسرى للمرّة الأولى، وكان من بين الأسرى ثلاثة من الإخوة الذكور لـ"تَكْفُورْ" وأختان له وابنه وابنته، وتمّ إرسال جزءٍ من الغنائم إلى سلطان السلاجقة، ولم تنته بذلك مهمّة عثمان غازي، لأنه بعد قضائه على حاكم "إِينَاكُولْ" نمى إلى مسامعه أن حاكم "قَرَاجَه حصار" بدأ يحرض الحكام الآخرين ضدّ عثمان غازي، دون أن يعلم بما سيحلّ به من بأسٍ قريب.

فلم يمض وقت طويل حتى وجد حاكم "قَرَاجَه حصار" نفسَه في مواجهةٍ مع شجعان عثمان غازي، حاول بكل ما بوسعه أن يقاومهم إلا أنه لم يستطع الصمود أمام شجعان عثمان غازي حتى اضطرّ إلى الهروب من القلعة.

وقد شعر السلطان السلجوقي "غياث الدين مسعود الثاني" بسرورٍ كبيرٍ حيال هذه الانتصارات التي حقّقها عثمان غازي، وكتعبيرٍ عن سعادته بذلك؛ كما أهداه الطبلَ والشعارَ والرايةَ مع فرمانٍ سلطانيّ مما يَعني تسجيل إمارة عثمان غازي.

وقد استولى عثمان غازي على الكثير من الغنائم والأسرى بالإضافة إلى كنيسةٍ حُوّلت فيما بعد إلى جامع، وهكذا تعتبر كنيسة "قَرَاجَه حصار" أول كنيسة تمّ تحويلها إلى جامعٍ لدى العثمانيين، وبهذا الفتح بدأت تهبُ رياحُ الاستقرار في المنطقة التي عانى سكّانها من مشكلاتٍ اجتماعيّة متراكمةٍ منذ قرون طويلة.

عروسٌ من قصر الروم إلى الخيمة التركية

قد غرقَ عثمان غازي في الغنائم بعد هذا الفتح، ولكنه قام بتوزيعها على مَن معه مِن الغزاة، كما قام بتزويج "هُولُوفِيرَا (*Holofira*)" -الإبنة الجميلة لحاكم "يَارْحِصَارْ" والتي لم ترغب في الزواج من ابن حاكم "بِلَجِيكْ"- لابنه "أُورْخَان غازي (*Orhan Gazi*)" الذي كان لا يزال في ريعان شبابه، وهكذا كانت هذه أوّل عروسٍ قد جاءت من قصر الروم إلى الخيمة التركية، وهذه المرأة التي أسلمت فيما بعد وغيرت اسمها إلى "نِيلُوفَرْ خاتون (*Nilüfer Hatun*)" قدمت لعثمان غازي أحفادًا أجلاء، أسودًا في الميادين، مثل "مراد بك" و"سليمان غازي".

ونهر "نِيلُوفَرْ" الواقع في مدينة "بورصة" حاليًا يخلّد ذكرى تلك الأيام الخوالي، وقد أمرت "نِيلُوفَرْ خاتون" بإنشاء جسرٍ جميلٍ فوق هذا النهر، وأصبحت "بِلَجِيكْ" -التي كانت في غاية الجمال والروعة- عاصمةً جديدةً لعثمان غازي.

وبعد أن اتخذ عثمان غازي "بِلَجِيكْ" عاصمةً له سعى من أجل تحقيق هدفه ألا وهو إقامة دولةٍ كبيرةٍ في الأناضول.

وبعد عامٍ واحدٍ من اتخاذه "بِلَجِيكْ" عاصمةً لإمارته -أي في عام (١٣٠١م)- ضم عثمان غازي قِلاع "يُونْد حصار (*Yundhisar*)" و"يَنِي شَهِيرْ" إلى أراضيه.

عاصمتان في عامين

اختار عثمان غازي مدينة "يَنِي شَهِيرْ" عاصمة لإمارته، وأمر ببناء الأسواق والحمامات والنزل فيها، وهذه البنايات الجديدة تعتبر خطوةً أولى مهمّةً لانتقال العثمانيين -الذين كانوا يُعرفون في تلك الفترة بالبدو- إلى حياة حضارية.

وفي الواقع فإن الأهمية التي أولاها عثمان غازي للنشاط والتغيير المستمرين تُظهر أنه كان يتّسم بشخصيّةٍ متطلّعة، بدليل أنه استطاع خلال فترةٍ وجيزةٍ الارتقاء بمستوى شعبه -الذي كان لا يعدو كونه عشيرةً صغيرةً قبل عشرين عامًا مضت- إلى مستوى يمكنه من تكوين دولةٍ عظيمة تحتلّ مكانةً مرموقةً بين دُول العالم.

إشراقُ شمس دولة تركيّة جديدة في آسيا الصغرى، وغُروب شمس دولة قديمة

تُشرق الشمس وتَغرُب وعثمان غازي يستمرّ في فتوحاته دون توقّف، ويضمّ الأراضي الجديدة والقلاع العنيدة إلى الدولة التركية الجديدة.

وقد انتشرت في الآونة الأخيرة أخبارٌ تفيد بأن الدولةَ "السلجوقيّة" بدأت تنهار حتى إنها تُعاني في اختيار سلطانٍ جديدٍ يعتلي عرشَها، وقد كان الأمراء السلاجقة في حالة من الحيرة والاضطراب، إلّا أنهم سرعان ما اتخذوا هذا القرارَ التاريخيّ للخروجِ من تلك الأزمة:

"لقد أفلت الدولة السلجوقيّة، ويجب اختيار حاكمٍ جديدٍ ودولة جديدة، ومن المناسب أن يكون الحاكم التركي الجديد هو عثمان غازي".



صورة تحمل العلم التركي وراية عشيرة "قَايِي" توضح تأسيس الدولة العثمانية

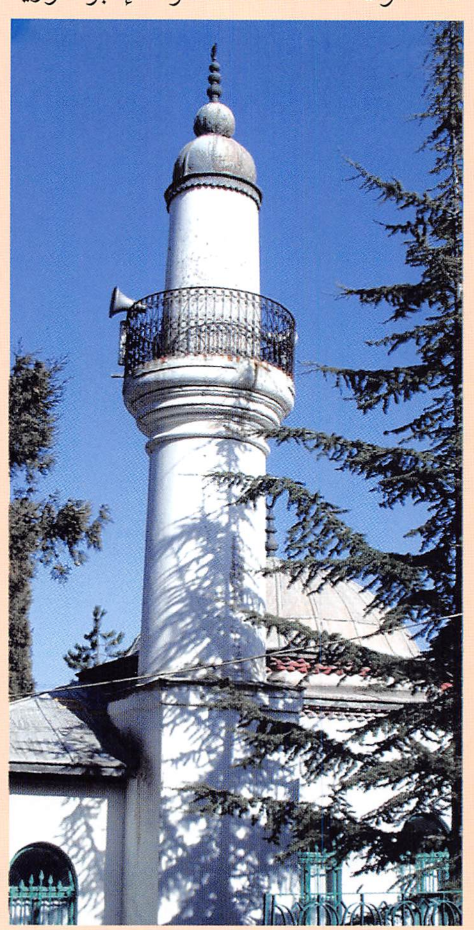
وعندما تمّ إبلاغه بهذا القرار أعلن عثمان غازي موافقته على الفور وقد شعر بسعادةٍ وشرفٍ كبيرَين.

وفي الحال أقيمت الاحتفالات التقليدية لحلف اليمين، واستضاف عثمان غازي الأمراء الأتراك الذين أقسموا بالولاء له وتمنّوا له العافية والسلطة المباركة.

وها هو شأن القدَر؛ فبينما كانت دولةٌ تركيةٌ تأفلُ في أراضي الأناضول التي يُطلق عليها أيضًا اسم "آسيا الصغرى" كانت تولد في نفس المكان دولةٌ تركيةٌ ستكون أعظم منها.

العثمانيّون قوّة جديدةٌ في الأناضول

عندما عجز حكام الأناضول عن إيقاف تقدم عثمان غازي وإمارته في أراضي الأناضول حملت هذه المرة الإمبراطورية البيزنطية على عاتقها مسؤولية القضاء على العثمانيين.



مسجد "أرطغرل غازي" مدينة "سُوغُوتْ" بتركيا

وفي يوم السابع والعشرين من يوليو/تموز عام (١٣٠٢م) التقى الجيش البيزنطيّ بالجنود العثمانيين أمام قلعة "قويون حصار (*Koyunhisar*)" التي يُطلق عليها الروم اسم "بافيون (*Bafeon*)" الواقعة بالقرب من مدينة " إِزْميتْ"، ونشبت هناك معركةٌ دمويّةٌ شرسة، تمخّضت نهاياتها عن هزيمةٍ نكراء مُنيَ بها الجيش البزنطي، وفي أثناء المعركة سقط "آيْدُوغْدُو (*Aydoğdu*)" -ابن "جُونْدُوزْ آلْبْ" وابن أخو عثمان بك- شهيدًا، وبذلك فقد عثمان غازي شخصًا آخر من أقرب الناس إليه.

وقد فتح هذا الانتصارُ الطريق أمام العثمانيين الوصول إلى "إِزْنِيكْ"، ومضى عثمان غازي وجنوده صوب "إِزْنِيكْ"، واستولى في عام (١٣٠٢م) على قِلاع " كَسْتَلْ (*Kestel*)" و"كَاتَه (*Kete*)" و"أُولُوبَاتْلِي (*Ulubatlı*)" -التي كانت في حوزة حاكم "بورصة"- واحدةً تلوَ الأخرى.

وفي عام (١٣٠٨م) استولى عثمان غازي على " قَرَه حِصَارْ (*Trikokıya*)" الواقعة على طريق "إِزْنِيكْ-إِزْمِيت (*Izmit*)"، وبدأ بمحاصرة قلعة "إِزْنِيكْ" بواسطة القوة التي تركها هناك، وعند حلول عام (١٣١٣م) بدأ العلَم العثمانيّ يُرفرف على مجموعةٍ من القلاع مثل "آق حِصَارْ (*Akhisar*)" و"لوبلوجه (*Lüblüce*)" و"كَيْوَه (*Geyve*)" و"لَفْكَه (*Lefke*)" و"يَنِي قلعة (*Yenikale*)".

فتح مدينة "بورصة" ووفاة "عثمان غازي"

حاصر عثمان غازي مدينة "بورصة" للمرة الأولى عام (١٣١٤م)، ولكن هذه المدينة كانت مترامية الأطراف شاسعةً جدًّا، وبالرغم من أنه تمّ الاستيلاء على القِلاع المحيطة بها مثل "قَرَه تكين (*Karatekin*)" و"أَبَه سُويُو (*Ebesuyu*)" و"كَابِيجِيق (*Kapıcık*)" و"طُوزْ بِينَارِي (*Tuzpınarı*)" و"كَرَسْتَه جِي (*Keresteci*)" إلا أن الجنود العثمانيين لم يتمكنوا من الوصول إلى قلب مدينة "بورصة".

كان عثمان غازي يهب كالعاصفة لا يُوقفه أيُّ شيء، ولكن بدنه بدأ يعتلُّ مع مرور الوقت؛ فصار لا يقوى على الخروج للغزوات كما كان في الماضي؛ إذ أصاب المرض قدميه عام (١٣٠٢م)، فعين ابنه "أُورْخَان غازي" على رأس جيش أُعدَّ من أجل فتح "بورصة"، وفكر "أُورْخَان غازي" في أن يكون أوّل عملٍ يقوم به هو قطعُ الاتصال بين "بورصة" والبحر؛ فضمّ موندانيا لأراضيه تحقيقًا لذلك.

وقد قام بغاراتٍ متلاحقةٍ على مناطق التي تخضع تحت سيطرة البيزنطيّين بالقرب من مدينة "بورصة" بغرض ترويع أهالي المدن البيزنطيّة وقطع طرق الإمداد عن مدينة "بورصة"، وكانت مدن "آكْيَازِي (*Akyazı*)" و"مُودُورْنُو (*Mudurnu*)" و"صَبَنْجَه (*Sapanca*)" و"آيَانْكُويْ (*Ayanköy*)" و"قَرَه مُورْسَلْ (*Karamürsel*)" من الأماكن التي فتحها "أُورْخَان غازي" في السنوات الأولى من حكمه.

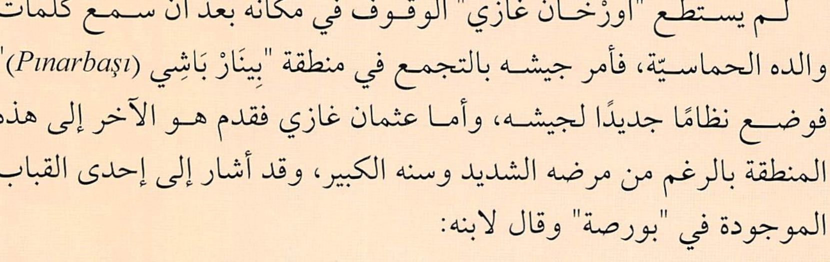
وذات صباحٍ أحسَّ عثمان غازي بالتحسّن في صحّته نوعًا ما، فاستدعى ابنَه "أُورْخَان غازي" إلى جانبه، وأمره بجمع الجيش في وادي "يَنِي شَهِيرْ"، وعندما تجمَّع الجيشُ خاطبهم قائلًا:

"أيها الشجعان إنني أتركُ فتحَ "بورصة" أمانةً في أعناقكم وفي عنق ابني "أُورْخَان".

وبهذه الكلمات غمرت الجيشَ العثمانيَّ نشوةٌ جديدةٌ، فامتلأت العيونُ بالدموع، وخفقت القلوب بالخشوع.

لم يستطع "أُورْخَان غازي" الوقوف في مكانه بعد أن سمع كلمات والده الحماسيّة، فأمر جيشه بالتجمع في منطقة "بِينَارْ بَاشِي (*Pınarbaşı*)" فوضع نظامًا جديدًا لجيشه، وأما عثمان غازي فقدم هو الآخر إلى هذه المنطقة بالرغم من مرضه الشديد وسنه الكبير، وقد أشار إلى إحدى القباب الموجودة في "بورصة" وقال لابنه:

"وصيتي! هي أن تدفنني تحت هذه القبة يا بني!"





مشهد من سوق تقليدي عثماني



خريطة تظهر حدود الإمارة العثمانية في عهد عثمان غازي

وكان المكانُ المشارُ إليه هو قبّة ديرٍ خاصٍ بالمسيحيين، وهكذا تنتهي مسيرةُ حياةٍ مُلئت بالأعمال الخيرية والشجاعة -التي يُطلق عليها فتوّة- بنهايةٍ تُعد نموذجًا ساميًا، وأصبحت تلك القبّة ضريحًا لعثمان غازي بعد الفتح.

لقد مرض عثمان غازي -الذي قضى حياته في الغزوات- كثيرًا وكان يعاني من مرضٍ يُسمّى "النقرس"[٨].

وفي عام (١٣٢٤م) -وهناك من يدعي على أنه في عام (١٣٢٦م)- انتقل إلى رحمة الله في مدينة "يَنِي شَهِيرْ" بالقرب من "بورصة" -وطبقا لوجهة نظرٍ أخرى في مدينة "سُوغوتْ"- وهو في الثامنة والستين من عمره.

إن الإرادة التي كانت لدى عثمان غازي تنبعُ من إصرارهِ على النضال دون كللٍ أو ملل، ومن شغفِهِ بالقتال في سبيل الله، وهذا ما مكّنه من إقامة إمارة مكوّنةٍ من عشرات المدن خلال خمسة وعشرين عامًا بعد أن كانت عشيرته كلّها لا تتجاوز الأربعمائة خيمة فقط.

(٨) هو حالة مرضية تتصف عادةً بتكرار حدوث الإصابة بالتهاب المفاصل الحاد، ويرجع سبب الإصابة إلى ارتفاع مستوى حمض البول في الدم (المترجم).

سمات عثمان غازي

المظهر الخارجي

من الناحية الشكلية كان رجلًا طويل القامة، عريضَ المنكبين، واسعَ الصدر، ذا عيونٍ واسعةٍ، وحواجبَ كثيفةٍ، أسمرَ البشرة، وكانت يداه وذراعاه طويلة للغاية، وشعر رأسه ولحيته كان أسود اللون فكان يُعرف أيضًا باسم "عثمان بك الأسمر".

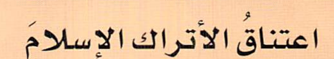
زعامته والبنية الشخصية

- كان يتحرّك في كلّ أحواله ضمن إستراتيجيّة محدّدةٍ مسبقًا، ويتميّز بدهائه العسكري، ودائمًا ما كان يجهّز خططًا مستقبليّة لثلاثِ سنوات، وعشرِ سنوات حتى خمسين عامًا.
- وكان فارسًا عدّاءً يسبق الفتيان المتمرّسين في ركوب الخيل واستخدام السيف والقتال.
- وقد عُرِف بالكرم الشديد فلم تكن مائدته تخلو من الضيوف، وكان يتقابل مع كل الأشخاص دون أن يفرّق بين مسيحيّ والمسلم أو بين فقير وغني.
- كان يمتلك نقاء الأناضول وبراءةَ آسيا الوسطى، إلا أنه لا يتوانى عن الخشونة والتحدّي في وقته وأوانه.
- عاش متواضعًا وكان يترفع عن ارتداء الملابس الزاهية التي تثير فيه شعور الكبرياء.
- وأما إذا تناولنا ميراث "عثمان غازي" مؤسّس الدولة وقائد الفتوحات العظيمة؛ فإننا نجده يتكوّن من: خلعةٍ وسيفٍ وحذاءين وحصان وملاحة وإناءٍ لوضع الملاعق وبضعة أغنامٍ وزوج من الثيران.


ضريح عثمان غازي - مدينة "بورصة" - تركيا



مقتطفات خاصة بالفصل الأول



اعتناقُ الأتراك الإسلامَ

اضطلعت معركة "طالاس" عام (٧٥١م) بدورٍ كبيرٍ في تخلي الأتراك عن عبادة "كوك طانري: أي إله السماء" واعتناقهم الدينَ الإسلامي، وفي هذه الحرب ساعد الأتراكُ المسلمين الذين كانوا يحاربون الصينيين آنذاك، و"صاتوق بوغراخان" هو أوَّلُ حاكمٍ تركي يعتنق الإسلام.

كانت الغالبية العظمى من السكان ذوي الأصل التركي الذين اعتنقوا الدين الإسلامي تُقدَّرُ بحوالي مائتين وخمسين مليون نسمة، وكان إلى جانبها من يدينون بديانات أخرى غير الإسلام، وكان عددهم يُقدّرُ بحوالي أربعة ملايين نسمة، وينتمون إلى قبائل "ياقوت" و"تشوفاش" و"كاكوز".



الأتراك الأوائل

تصف لنا الكتب العلمية المتخصصة في التاريخ أنَّ الأتراك عرقٌ أبيضُ البَشَرَة عريضُ الرأس، وقد كان الأتراك الأوائل -الذين اكتُشِفت آثارُهم ونقوشُهم منذ حوالي أربعة أو ستة آلاف سنةٍ على اختلاف الآراء- يعيشون في مساحة واسعة بين سلسلتي جبال "تيان شان" وجبال "ألتاي" الواقعتين في آسيا الوسطى، وتحديدًا في المنطقة الواقعة داخل الحدود الصينية في يومنا هذا والتي يطلق عليها اسم إقليم "جونغاريا".

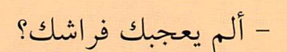
انتشر الأتراكُ الأوائل في بقاع مختلفة من العالم آنذاك بحسب طبيعتهم الشخصية، واشتهروا بتربية الخيل والماشية والإبل، وقد أقر العالم أنَّ الأتراك هم أوَّل مَنْ صنع اللبن الخاثر الذي أُطلِقَ عليه في العديد من اللغات كلمة "يوغورت" أو ما يُعرف أيضًا بالزبادي، وثَمَّةَ اختلافات طفيفةٌ تطرأ على هذا الاسم من لهجة إلى أخرى في المدن التركية.

وقد اشتهر الأتراك عبر التاريخ بالصيد والمهارة في القتال، أما كلمة "ترك" فتعني "القوة"، وأول دولةٍ في التاريخ حملت رسميًا اسم "ترك" هي دولة "كوك ترك"، وكان البيزنطيون هم أول من أطلق تعبير "تركيا" اسمًا لمنطقة جغرافية.

البشرى العظيمة

كان الشيخ "أده بالي" شيخَ الآخية[٩]، وعالمَ دين مشهور حينذاك، وكان عثمان بك كثيرًا ما يتردد على الشيخ "أده بالي" قبل أن يتولى رئاسة قبيلة "قَايِي"؛ يستلهم منه الدروس ويقتبس من أقواله العبر ويستشيره في أمره.

وذات مرة ذهب عثمان بك إلى الشيخ ليزوره، وعندما أقبل الليل وحلَّ الظلام أُعِدَّت له غرفة، فلما أراد النوم لاحظ مصحفًا معلقًا على جدار الغرفة، فنهض من مضجعه وأخذ يتلو القرآن حتى مطلع الفجر احترامًا وتبجيلًا للقرآن الكريم، ولما انبلج الصبح استيقظ الشيخ "أده بالي" فإذا به وجد عثمان بك مستيقظًا، فسأله:



- ألم يعجبك فراشك؟

فقال عثمان:

- إنه لا يليق بنا النوم بمكان فيه كتاب الله.

ومرت عدة سنوات على هذه الحادثة، وحلَّ عثمان ضيفًا على الشيخ "أده بالي" مرة أخرى فرأى في نومه شيخَه "أده بالي" وقد خرج من صدره نورٌ كالبدر وارتفع وسطعَ، ولم يلبث هذا النور أن دخل في صدر عثمان نفسه، وإذ بشجرة تنبت من جسد عثمان بك سرعان ما تفرعت وعظمت، وقد بلغت من الضخامة والعِظَم أنها عمت أرجاء آسيا وأوروبا وإفريقيا، ورأى الجبال العظيمة تستظل بظلها والأنهار العذبة كالنيل والدانوب والفرات تنساب من تحتها مخترقة الغابات والحقول لتصل في النهاية إلى البحار، ورأى المدن والمباني والطرق والجسور والجوامع مصطفة طِيلَةَ ظِلّها، فضلًا عن أنَّ القمر كان يتلألأ في السماء، ثم رأى فجأة هبوب عاصفة شديدة تهز الشجرة من جذورها، فتتناثر أوراقها يمينًا ويسارًا، وتخرج من أحد أغصانها جوهرة لامعة على شكل سيف متجهة نحو إسطنبول، فتشير إلى هذا المكان مرات عديدة.

بعد أن استيقظ عثمان من النوم هرع إلى الشيخ "أده بالي"، وقص عليه رؤياه؛ فعبرها الشيخ:

(٩) الآخية (بالتركية: *Ahilik*) (مفردها آخي)، وهي مؤسسة اجتماعية نشأت في الأناضول في القرن ٨ هـ/ ١٤م، تركزت أعمالها في القيام بخدمة الناس وتعليمهم حب مساعدة المحتاجين والمساكين.



"أبْشِرْ يا عثمانُ، إنَّ الله تعالى سوف يمنحك الحكم أنت وذريتك من بعدك، وسيسود أبناؤك العالم بأسره، وسأزوجك ابنتي، فليبارك الله لكما!"

وبعد فترة وجيزة تزوج عثمان بك من "رابعة خاتون" ابنة الشيخ "أده بالي"، أما الرؤيا المبشرة فقد تحققت كما فسرها "أده بالي" تمامًا.

عثمان غازي

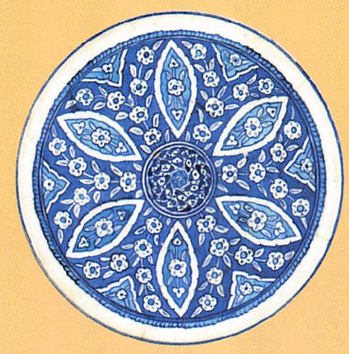
اتصف عثمان غازي بثلاث سمات أدت إلى نجاحه، يمكن أنْ نلخصها في الإخلاص، الجهد، والتخلي عن المتع الدنيوية.

عثمانُ أنتَ ابنُ أرطغرل

أنت مِن نَسلِ "أوغوزخان"

أنت العبد الفقير إلى الله

فافتح إسطنبول واجعلها روضة



حقوق العباد

اتخذ الأتراك العثمانيون من احترام الإنسان وتكريمه وحسن معاملة الخلق أساسًا أقاموا عليه دولتهم، وقد بلغ من تكريمهم الإنسان وحفظهم حقوقه أنه لا يستطيع أيُّ جنديٍّ من جيش تعداده حوالي مائتي ألف مقاتل أن يقطف ولو ثمرة واحدة -حتى وإن كانت فاسدة- من تلك الحدائق والرياض التي يعبرون من خلالها، ويسيرون في ظلالها أيامًا ما لم يأذن له قائده وصاحب هذا البستان أولًا مهما كانت جنسه أو عرقه أو عقيدته.

عين واحدة تكفي للفارس

لم تكن الشمس قد طلعت بَعدُ حين كان "غازي علي بك" أحدُ قادة جيش عثمان غازي قد ارتدى زيه العسكري، وأعد عدته استعدادًا للقتال، بالتأكيد لم تكن المهمة التي حملها على عاتقه أمرًا سهلًا؛ إذ كُلِّفَ بقيادة الجيش للاستيلاء على منطقة "هركه" التي تمهد الطريق للوصول إلى إسطنبول، وعندما وضعت الحرب أوزارها في مساء ذلك اليوم أعلن العثمانيون سيطرتهم على "هركه".

وفي أثناء المعركة وعندما حمي الوطيس واشتد القتال أصاب سهمٌ من سهام العدو عينَ "غازي علي" باشا، فأمسك به ونزعه من عينه ورماه على الأرض، ودون أن يعبأ بتدفق الدم من عينه كينبوع خاطب الجنود الذين كانوا يرمقونه بنظرات الدهشة والذهول قائلًا:

- لا يستغربنَّ أحد أنني أضحي بعيني من أجل فتح "هركه"! فالرأس تكفيها عين واحدة! إنَّ عينًا واحدة تنظر للأمام وتتطلع إلى المستقبل خيرٌ من عينين لا تنظران إلا تحت أقدامها أو خلفها.

هل إطلاق كلمة "عثماني" صحيحٌ؟

في الواقع أن كلمة عثماني صفة مشتقة من الاسم، مثل الكنوز العثمانية والفن العثماني والمواطن العثماني، وبمرور الوقت أصبح يتبادر إلى الذهن كلُّ ما يخصُّ الدولة العثمانية بمجرد ذكر هذا التعبير، ولذلك نجد أنه من المناسب استخدام كلمة "عثماني" للتعبير عن كل ما يخص الدولة العثمانية؛ نظرًا لشيوع هذا المفهوم بين عامة الشعب.

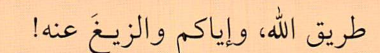
أول تشريع عثماني

كان أول قانون أَمَرَ بوضعه عثمان غازي متعلقًا بشؤون التجارة، وكان نصه كالآتي:

"على كل من يأتي بالسلع والبضائع إلى السوق ليتاجر فيها أن يدفع للدولة ضريبةً قدرُها اثنان أقجة، وإنْ لم يتسن له بيع سلعته أو بضاعته فلا شيء عليه".

نصائح عثمان غازي الذهبية،

- اسألوا أهل الذكر والاختصاص فيما تجهلونه من الأمور، واقدروا العلماء والأدباء حق قدرهم، واحفظوا لهم مكانتهم، وإياكم والغفلة عن الله وعن أوامره!
- إياكم أن تشتغلوا بشيء لم يأمر به الله المولى ﷻ.
- أحيطوا مَنْ أطاعكم بالإعزاز، وكافئوا جنودكم لما يبذلونه من جهد في سبيلكم وفي سبيل دولتكم، وابذلوا لهم العطايا والهدايا لتدفعَهم وتحفزَهم على بذل مزيدٍ من الجهد!
- إياكم والظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة! واملؤوا الدنيا عدلًا، وزنوا بالقسطاس المستقيم، واستقيموا على

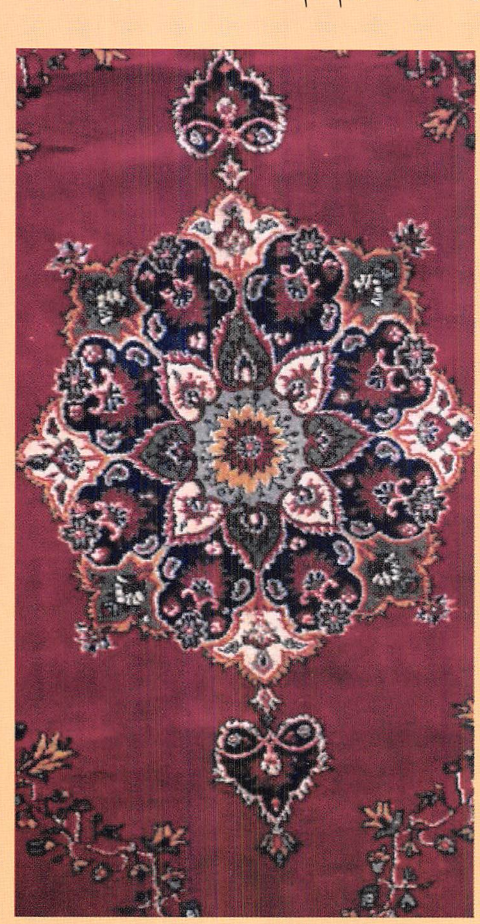


طريق الله، وإياكم والزيغَ عنه!

- إن منهجنا وغايتنا هي سبيل الله ﷻ، لا غزو العالم والسيطرة عليه أو الدخول في حروب ونزاعات من أجل متاع الدنيا الزائف.
- كونوا متسامحين، وارعَوْ أمور الدولة بلا تقصير أو إهمال!

ميراث عثمان غازي

وفقًا لما جاء في كتاب "تواريخ آل عثمان" أو "تاريخ عاشق باشا زاده" قام المسؤولون بالدولة بعد وفاة عثمان غازي ببضعة أيام بتقسيم ميراثه بين ولديه: "أُورْخَان غازي" وعلاء الدين بك، إلا أنهم لم يجدوا ما يُقَسِّمُوه بينهما؛ حيث إنه لم يترك نقودًا ولا ذهبًا سوى الأراضي التي فتحها وبضعةِ أشياء بسيطة وعددٍ من الخيول والأغنام قد يمتلكه أيُّ شخص عادي...



وفي تلك الأيام دار حوار بين نجلي عثمان غازي، فقال علاء الدين بك لأخيه "أُورْخَان غازي":

- لقد فتحنا تلك الأراضي سويًّا، وأنت أحق بهذا الميراث مني، ولا بد لهذه الأراضي من حاكم، وليس هناك من هو أجدر منك لهذا المنصب؟ ولذا فإنني أتنازل لك عن حقي".

فردَّ عليه "أُورْخَان غازي" قائلًا:

- لقد فكرت في نفس الأمر، وأنت يا علاءَ الدين أحق مني بهذا المنصب.

فقال علاء الدين:

- كلا يا "أُورْخَان غازي"! لقد وقع من والدي حالَ حياته ما يفيدُ أنَّك سوف تقوم بهذا الأمر أفضل من أي أحد؛ فقد ولَّاك قيادةَ الجيش؛ وعليه فأنت أحق بالحكم مني".

فرضي "أُورْخَان غازي" بالأمر الواقع، وأصبح القائد والحاكم والراعي الجديد.

وصية الشيخ "أده بالي" الخالدة

إن وصيـة الشـيـخ "أده بالـي" لتلميذه وصهره عثمان غازي بمثابـة خطبة مهمة لكل الحـكام، بل وللإنسـانية جمعاء، وها هـي ذي الوصية التي تحتفظ برونقها وقيمتها منذ ستة قرون، وتستحق أن تكتب بحروف من ذَهبٍ:

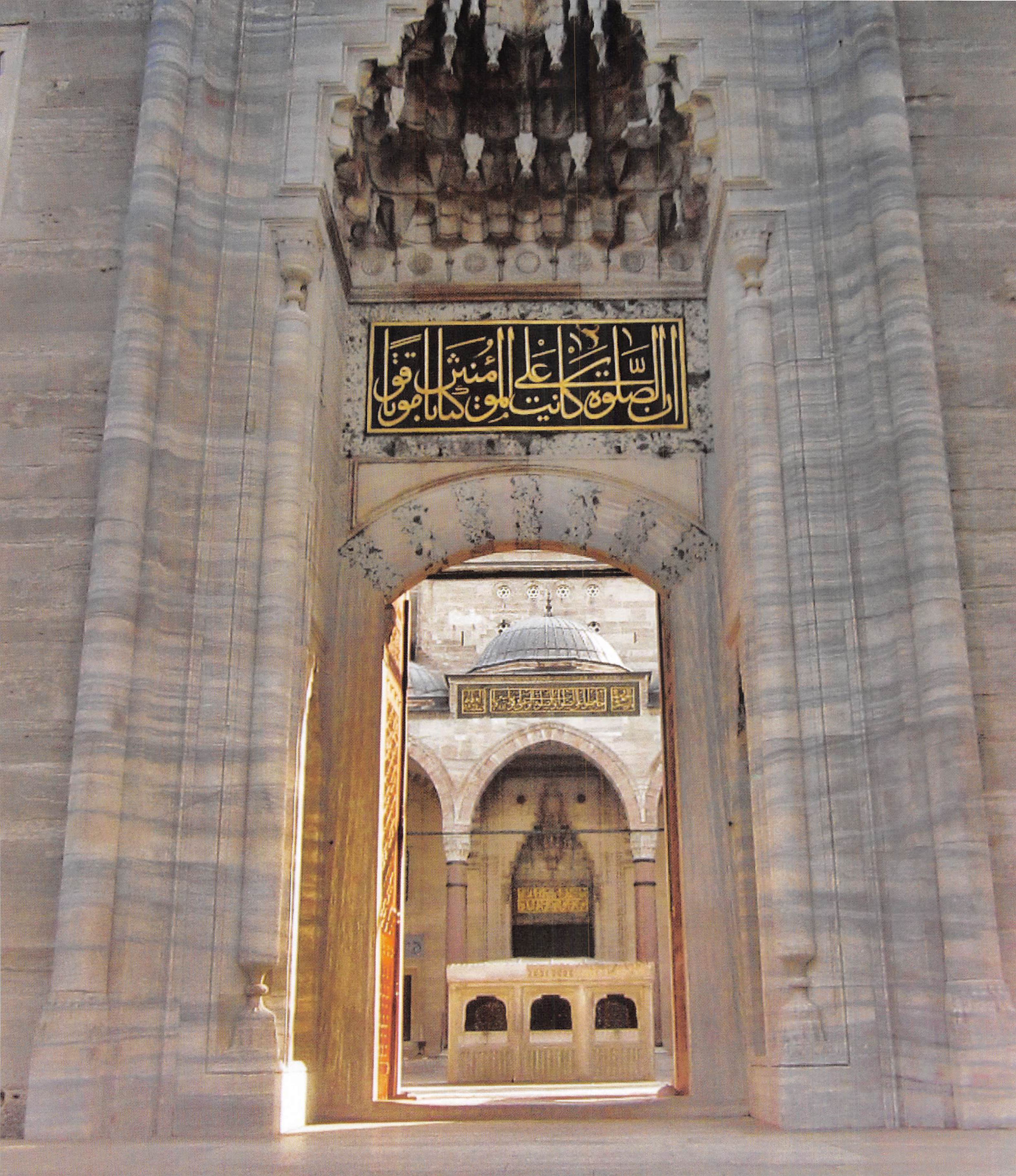
"سـيدي، وصهري عثمان؛ بارك الله فيك وفي سـيادتك وأهلك وعشيرتك، فتح الله عليك، ولتكن والد الأيتام، والمسؤول عن كل متبطل، وحامي المساكين، فلا تحد عن الحق والعدل في أعمالك كلها.

يا بني! أنت سيد فمن الآن فصاعدًا شأننا الغضب والاتهام والخطأ، وشأنك الحلم والتحمل والتسـامح، فسـتكون من الآن أكبر معين لنا في عجزنا والقوة الرشيدة لنا في ضعفنا، وستكون والدًا يطعم الجائعين ويكسو المساكين، ستكون سيدًا بمعنى الكلمة.

ولدي العزيز! اعلم أن العداوة لا تغفو ولا العدو، لا تخش ممن يمسـك بيده سـيفًا من الأعداء، بل من عدو بين جنبيك يغمد سـيفه في جسـدك، نفسـك هي عدوك الذي بيـن جنبيك فعندما تتكبر علّمها التواضع، وعندما يتملكك الغضب علمها السـكوت، وعندما تعتقد بأنها تمتلك كل شـيء ذكرها بالموت، ذكرها بأنك ليس عليك أن تكون سيد نفسك فحسب، وإنما سيد قبيلتك أيضًا.

يـا بنـي! تعلـم الصبر واعلم أن الأزهـار لا تتفتح إلا في الربيـع، ولا تنس أن حياة الدولة أيضًا مرتبطة بحياة الناس، أحيِ الناس تُحي دولتك.

أي بني! إن حملك ثقيل وشاق جدًّا؛ وأهل عشيرتك مرتبطون بك، ونجاحك مرهون بهم، أعانك الله على ما ولّاك..."


ان الصلوة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا

الفصل الثاني

أُورْخَان غازي



اسم الوالد: عثمان غازي. اسم الوالدة: "ملهون خاتون".

تاريخ ومحل الميلاد: مدينة "سُوغُوتْ"، عام (١٢٨١م).

تاريخ اعتلائه العرش: (١٣٢٤م)

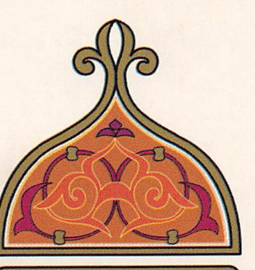
محل وتاريخ وفاته : مدينة "بورصة" عام (١٣٦٢م).

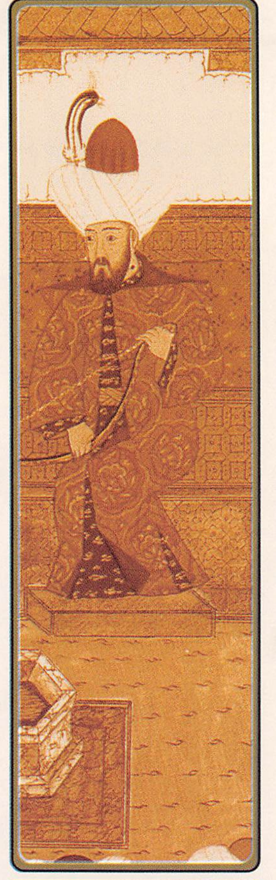
ضريحه : في مدينة "بورصة".

أسماء أبنائه: سليمان باشا، خديجة، فاطمة، خليل، "مراد الأول"، إبراهيم، وقاسم.



صورة تظهر "أُورْخَان غازي" وهو
يهدي القوس والسهم للأمير البيزنطي
"قَالُولُوانِّيس (*Kaloloannis*)"
(هُنَر نَامَه، المجلد الأول)







"أُورْخَان غازي" قائدٌ تلقّى تربيةَ الملوك...

تأسيس دولة

لقد نشأ "أُورْخَان غازي" على أنه "سلطان المستقبل"، فحظي بتعليم على أعلى مستوى من كبار عشيرته، فقد لاحظ فيه والدُه ملامح القيادة والزعامة، ولذلك فقد حاز "أُورْخَان غازي" في طفولته على نشأة السلاطين وصفات الملوك ودَرَكِ الحكماء.

وبينما كان "أُورْخَان" لا يزال في سنّ الشباب منحه والده حكمَ عدّةِ مناطق، وعلاوة على ذلك فقد كلف عثمان غازي القادة المشاهير في ذلك الوقت كأمثال "أَيْقُوتْ أَلْب" و" آقْجَه قُوجَه" و"قُونُوزْ آلبْ" لتنشئة "أُورْخَان غازي" أيضًا.

ولم يخيب "أُورْخَان غازي" أملهم في الثقة التي تم منحها والده له، وأثبت أنه جدير بتولي الوظيفة التي سيتحملها في المستقبل.

"أُورْخَان غازي" يتصدى لطمع "جَاوْدَار أوغلو (*Çavdaroğlu*)"

في الشهور التي تولى فيها "أُورْخَان غازي" العرش ظهر تمرّد كبير يقوده "جَاوْدَار أوغلو" في الأناضول.

كان "جَاوْدَار أوغلو" -الذي كان زعيمًا لعشيرة "جَاوْدَار"- يوصَف بين قبيلتِه بأنه "يهبّ كالرياح ويقطع كالسيل" لأنه قد أظهر نشاطًا كبيرًا في خطط الفرّ والكرّ، وفي الواقع فإن "جَاوْدَار أوغلو" كان من سلالةٍ تركيّةٍ إلا أنه كان سريعَ الغضب ولا يستطيع السيطرة على نفسه، وقد جاءت قبيلته إلى الأناضول مع "الإيلخانيين"، واستوطنت نواحي مدينة "كُوتَاهْيَا (*Kütahya*)"، ففي الآونة الأخيرة بدأ "جَاوْدَار أوغلو" ورجاله يُهاجمون القرى المجاورة ويجمعون الخراج من أهاليها.

فأنذر "أُورْخَان غازي" "جاودار أوغلو"، وأبلغه بالتوقُّف عن ظُلم القرويّين، ولكنّه لم يُصغِ إليه، وقد نفذ صبر "أُورْخَان غازي" عندما علِمَ بقيام "جَاوْدَار" بحملة نهبٍ وسلبٍ في سوق "قَرَاجَه

حصار"، فتعقّب جنودُ "أُورْخَان غازي" "جَاوْدَار أوغلو"، حتّى إذا تمكّنوا منه وأحكموا الطوق حوله ألقوا القبض عليه قرب إحدى القلاع المتهدمة والمهجورة والتي كان يطلق عليها اسم "أَويْنَش حصار (*Oynaşhisar*)"، وساقوه مكبّلًا إلى حضرة "أُورْخَان غازي"، وبدأ "جَاوْدَار أوغلو" يتضرّع إليه قائلًا:

- مولاي السلطان إني كنت من الظالمين وأعد لك أنني لن أهاجم ولن أظلم على أي أحد بعد اليوم!.

وقد عفا عنه "أُورْخَان غازي" شريطة ألا يظلم الناس بعد ذلك.

وصية عثمان غازي تتحقّق وتُفتح مدينة "بورصة"

لقد بذل عثمان غازي مجهودًا ضخمًا في محاولة إخضاع "بورصة" للتاج العثمانيّ إلا أنّ ذلك لم يتحقّق له في حياته، ولذلك وضع هذا الأمر أمانة في أعناق أُسُودِ جيشه وابنه "أُورْخَان".

لقد كانت مدينة "بورصة" محصّنةً تمامًا بحيث يصعب فتحُها، وقد بذل "أروخان غازي" وجنودُه أحد عشر شهرًا لفتحِها، لدرجة أنَّ بعضَ أهالي "بورصة" قد بدؤوا يتمنون أن تكون مدينتهم تحت الحكم العثماني؛ لعلمهم بأن العثمانيين يتميّزون عن غيرهم بالعدل والمساواة، بالإضافة إلى التسامح الذي ينبع من روح الإسلام.

وقد أرسلَ "أُورْخَان غازي" "كوسه ميخال بك" إلى حاكم "بورصة"، يعرضُ عليه تسليمَ المدينة دون قتال.



صورة لمدينة "بورصة" قديمًا - تركيا

وفي النهاية وافق حاكم "بورصة" على هذا العرض وسلم المدينة لشعوره بسوء الوضع فيها.

وفي السادس من إبريل/نيسان عام (١٣٢٦م) رفع "آهي حسن" -وهو من آل غازي- الراية العثمانية على أبراج قلعة "بورصة"، ليتحقق بذلك الحلم العثماني الذي استمر عدّةَ سنوات.

وقد تلقى عثمان غازي هذا الخبر السعيد في الساعات الأخيرة من حياته، ونُقل جثمانه إلى "بورصة" ودُفن في "جُومُوشْلُو كُومْبَد (*Gümüşlü Kümbet*)" المكان الذي أوصى به قبيل وفاته.

ودخل "أُورْخَان غازي" إلى "بورصة" داعيًا شاكرًا لله، وعامل الأهالي معاملةً حسنةً، واستقبل الأهالي -الذين توجد من بينهم أقليّة تركيّة- هذا الفتحَ بالفرحة والبهجة والسرور.

وبعد فتح "بورصة" عفا السلطان "أُورْخَان" عن الأمير البيزنطي وأرسله إلى "إسطنبول" عبر سفينةٍ خاصّةٍ تحرّكت من ميناء "مودانيا (*Mudanya*)"، كما أعلن "أُورْخَان غازي" لأهل "بورصة" قائلًا: "من يرغب منكم أن يبقى فليبق معنا هنا، ومن يرغب في أن يرحل فليذهب ويأخذ معه ما يستطيع حمله من أملاك"، ووافقت الغالبية العظمى من الأهالي على البقاء في "بورصة" لأنهم كانوا يعرفون أنه من الصعب جدًّا العثور على العدالة العثمانية والإدارة التركية في أي مكانٍ آخر، وتمت مساعدة من لم يرغب في البقاء في "بورصة" على السفر في أمانٍ بمصاحبة الحراس العثمانيين، وكان من بين الذين وافقوا على البقاء في المدينة مع أصحابها الجدد وزير حاكم "بورصة" السابق أيضًا.

وقد أمر "أُورْخَان غازي" كأول عمل له في المدينة ترميم المدينة بشكل كامل، كما عمل بتعزيز الإجراءات الأمنية في المدينة ونُقلت عاصمة الإمارة إلى هذه المدينة.

وبعد فترة وجيزة فتحت القوات العثمانية تحت قيادة "آقْجَه قُوجَه" قلاعَ "قَنْدِيرَا (*Kandıra*)" و"آيْدُوس (*Aydos*)" و"سَمَنْدِيرَة (*Samandıra*)" وبذلك أصبحت السواحل الجنوبية لخليج "إزْمِيت" في حوزة "أُورْخَان غازي" أيضًا.

واستمرت الفتوحات العثمانية التي بدأت في "سُوغوتْ" واتجهت إلى البحر الأسود ومضيق إسطنبول.

إسطنبول هدف "أُورْخَان غازي" الجديدُ

ظلّت الدولة العثمانية شبه تابعة لوالي الأناضول "الإيلخانيّ" إلى أن تمّ فتح مدينة "بورصة"، وبعد انضمام "بورصة" إلى العثمانيين بعام واحد -أي في عام (١٣٢٧م)- أُعدِم والي الأناضول "دمرداش باشا" في "مصر"، وعقب هذه الحادثة بدأت دولة الإيلخانيين في الضعف شيئًا فشيئًا.

وقد استغل "أُورْخَان غازي" هذا التطوّر جيدًا، وأعلن أنه غير تابع للإيلخانيين، والحقيقة أنّ استعداداته وجهوده في "بورصة" كانت تنبئ بأنه لن تتوقف فتوحاته في "بورصة"، وإنما كانت ترمي إلى فتح ما هو أبعد من ذلك.

وفي وقت قصير استطاع العثمانيون ضم مدن "جَمْلِيكْ (*Gemlik*)" و"أَنَاهُور (*Anahor*)" و"أُرْمُوطْلُو (*Armutlu*)" قُوجَه أَلِي (*Kocaeli*) الحالية" إلى الأراضي العثمانية[١٠].

إن الهدف الجديدَ هو إسطنبول، وقد بشر النبي ﷺ بفتحها، ولذلك فإنه كان لا بد من فتح "إِزْنِيكْ" و"إِزْمِيتْ" اللتين تقعان على طريق إسطنبول.

موقعة "بَالِيكَانُونْ (*Palekanon*)"

كان إمبراطور بيزنطة يتابع بقلقٍ التقدّم السريع للعثمانيين، وقد حلّ الهمُّ محلّ القلق بسبب سقوط القلاع الموجودة في شبه جزيرة "قُوجَه أَلِي" ووصول العثمانيين إلى المضيق.

وأعدّ الإمبراطور البيزنطي "أَنْدِرُونِيكُوس الثالث بَالْيُولُوج (*Andronikos III Palaiologos*)" حملة من أجل استعادة القلاع التي فقدها وتحرير "إِزْنِيكْ" التي كانت تحت الحصار.

عبر الجيش البيزنطي إلى "أُسْكُودَارْ (*Üsküdar*)" وكان يهدف إلى القيام بغارةٍ سرّيّةٍ مفاجئةٍ على "أُورْخَان غازي"، إلا أن مخبري "أُورْخَان غازي" أبلغوه بذلك.

وترك "أُورْخَان غازي" مجموعةً من الجنود قي حصار "إِزْنِيكْ"، واصطحب معه ثمانيةَ آلاف جنديّ من أفضل جنودِهِ، إضافةً إلى شقيقه الأصغر "بَازَارْلُو بك (*Pazarlu*)"، وخرج لمواجهة الإمبراطور البيزنطيّ، معتمدًا سياسة الهجوم لا الدفاع.

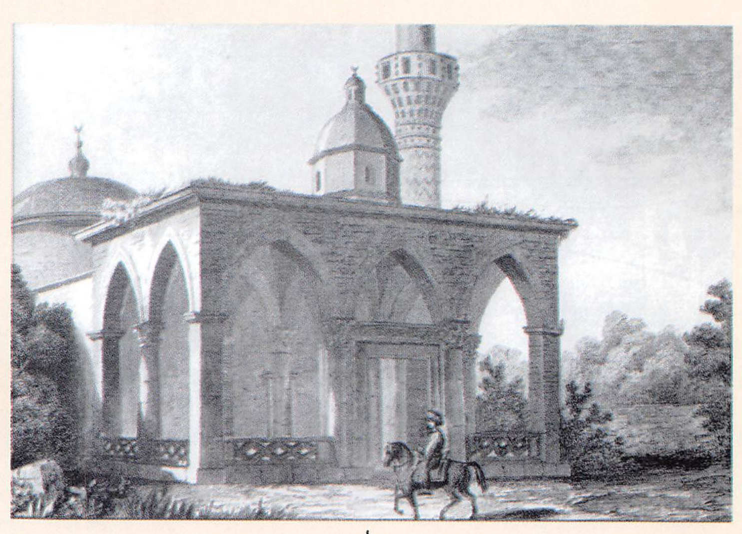
واجه "أُورْخَان غازي" و"بَازَارْلُو بك" الجيشَ البيزنطي في موقع "بَالِيكَانُونْ" الذي يقع بالقرب من مدينة "داريجه (*Darıca*)" حاليًا.

دَهِشَ الجيشُ البيزنطيّ من شجاعة العثمانيين، فبينما كان يخطّطُ للهجوم إذ به يرى نفسه محاطًا من كل جانبٍ بثمانيةِ آلافِ مقاتلٍ من السباع العثمانيّة، ولـمّا التقى الجيشان أصدر "أُورْخَان غازي" أمره بالهجوم قائلًا: "هيا! يا الله!".

مُنيَ الجيش البيزنطيّ بخيبة أملٍ إثر تعرّضه لهجومٍ مباغتٍ، فتحوّل الأمر بالنسبة إليه من مفترسٍ إلى فريسةٍ، اختلّ نظام الجيش نتيجةً للذعر الذي أصابهم، وفي النهاية فرّ الإمبرطور البيزنطي إلى إسطنبول وهو جريحٌ مهزوم.

وقد واصل الجيش العائد من معركة "بَالِيكَانُونْ" حصار "إِزْنِيكْ"، وفي عام (١٣٣١م) وعندما تأكّد قائد القلعة من عدم وصول الإمدادات العسكرية من الجيش البيزنطي، سلم "إِزْنِيكْ" للعثمانيين، وطُبقت أيضًا في "إِزْنِيكْ" نفسُ السياسة والاحترام التي تمّ إظهارُها تجاهَ السكان المدنيين بعد فتح "بورصة"، حيث ضمِن "أُورْخَان غازي" للأهالي عدم التعرّض

(١٠) أطلق اسم "قُوجَه أَلِي" على تلك الأماكن بسبب فتح هذه الناطق علي يد "آقْجَه قُوجَه".



منظر من مدينة "إزنيك" في عهد "أورْخَان غازي" (إي . جبرت)

لأملاكهم، وقال لهم: "إن من لا يرغب منهم في البقاء يمكنه أن يغادر المدينة مع أملاكه، ومن يرغب أن يعيش في المدينة سيتمتّع بحريّةٍ تامّة تحت رعاية التسامح العثمانيّ"، وواصل أهالي "إِزْنِيكْ" حياتهم في كنفِ وحماية العثمانيين.

وفي تلك السنوات كانت "إِزْنِيكْ" تحظى بأهمّيّةٍ كبيرةٍ بالنسبة للمسيحيين، فهي المدينة التي يجتمع فيها كبار المسحيين الذين سموا أنفسهم بـ"مجمع المسكوني" وذلك عام (٣٢٥م) بغرض تحديد المعتقدات الأساسية للعالم المسيحي -وقد اجتمع هؤلاء أيضًا في الكنيسة الشهيرة التي يطلق عليها "آيا صوفيا"-، واتخذ "مجمع مسكوني" في "إِزْنِيكْ" في إحدى هذه الاجتماعات قرارات سميت في التاريخ المسيحي بـ"الحاكم السابع" ومن بين هذه القرارات منح الإذن مرةً أخرى لعبادة الصور، ومدينة "إِزْنِيكْ" كانت عاصمة لبيزنطة بين الأعوام (١٢٠٤-١٢٦١م) أي في فترة احتلال إسطنبول من قِبَلِ اللاتينيّين الصليبيّين.

في ضوء كلّ هذا، فإن انتقال "إِزْنِيكْ" إلى حوزة الأتراك المسلمين بعد سلاجقة الأناضول جعل العالم المسيحي يتخبّط وييأس من المستقبل.

وقد اتخذ "أورْخَان غازي" "إِزْنِيكْ" مركزًا له بشكلٍ مؤقّتٍ وذلك لأهمّيّةِ موقعِها الإستراتيجيّ، وأمر بإقامة العديد من الإنشاءات الجديدة من أجل تجميل المدينة وتطويرها، واكتسبت المدينة في هذه الفترة العديدَ من الآثار الجديدة، وأضافت إلى حضارتها العريقة حضارةً نوعيّةً فريدةً أخرى، ولقد كان الاستيلاءُ على هذه الأراضي الجديدة بالنسبةِ للعثمانيّين اقترابًا وشيكًا من الهدف الأسمى؛ وهو إسطنبول.

فتح "إِزْمِيتْ" بعد "إِزْنِيكْ"

وقد بدأ "أورْخَان غازي" يقترب من "إِزْمِيت" بفضل إستراتيجيّاته الحكيمة ومناهجه الصحيحة، كما استطاع أن يكسب قلوب أهالي المدن التي فتحها وإرساء الحق والعدالة في شتّى بقاع مملكته مما زادت سمعته بين شعوب المنطقة.

ولقد كانت "إِزْمِيتْ" من المدن المهمة باعتبارها مركزًا اقتصاديًّا تتقاطع فيه طرق التجارة.

أقدمَ العثمانيّون على فتح " إزْمِيتْ" عامَ (١٣٣٧م)، إلّا أن سيرتهم الحسنة ورائحتهم العطرة قد سبقتهم إلى قلوب الأهالي هناك فاستقبلوهم وسلّموهم المدينة دون أيّ مقاومةٍ تُذكَر.

فتمّ تولية سليمان باشا إدارة مدينة "إزْمِيتْ"، وكان "سليمان باشا" من القادة المشهورين بالعدالة والفِطنة.

كان "أُورْخَان غازي" يعمل بكلّ وسعه لتصبح الدولة عظيمةً قويّةً واسعةً من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى يرسم نظامًا دقيقًا لإدارة الدولةِ ومؤسساتها وهيئاتها، فكان يهبّ مثل العاصفة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب دونَ كللٍ أو مللٍ.

وفي سنوات اللاحقة انضمت إلى أراضي العثمانية مدن "مِيهَالِيج (*Mihaliç*)" و"كِيرْمَاسْتِي (*Kirmasti*)" و"أُولُوبَات (*Ulubat*) وشبه الجزيرة "قَابِي دَاغْ (*Kapıdağ*)" وبحيرة "مَانْيَاس (*Manyas*)" إضافةً إلى بعض المناطق التي تُحيط بها.

وفي تلك الأثناء كانت إمارة "بني قَارَسِي (*Karesi*)" التي كانت تدعي في وقت سابق أنهم قبيلة تركيّة أكثر أصالةً من الأتراك العثمانيين، قد ضعفت تمامًا بسبب الصراعات على السلطنة، وأصبحوا ينشغلون بالصراعات الداخلية وبالتنازع والتصارع من أجل الزعامة.

وبعد وفاة " قَارَسِي بك" تنازع ابناه "دميرخان (*Demirhan*)" و"دورسون بك (*Dursun*)" على السلطة، وقد استغل "أُورْخَان غازي" هذا الوضع وسيطر على أراضي إمارة "بني قَارَسِي" من خلال الخطط البارعة؛ وهكذا دخلت المناطق السكنية مثل "باليكسير (*Balıkesir*)" و"مَانْيَاس" و"أَدِينْجِيكْ (*Edincik*)" تحت الراية العثمانية.

الفوز بحاكم عادلٍ خيرٌ من فتح الأمصار

لا تُختَزَلُ المكاسبُ بالنسبة للحروب والفتوحات في سعة الأراضي أو ضخامة القِلاع المفتوحة، بل المكاسبُ تُقاسُ بوفرةِ القادةِ من ذوي الخبرات والتجارب، فقد انضمّ إلى صفوف العثمانيين قادة إمارة "بني قَارَسِي" الذين كانوا يعرفون المنطقة بشكلٍ جيّدٍ، ويتمتّعون بخبرات عسكريّةٍ عاليةٍ وهم "حاجي إِيلْبَـيْ (*Hacı Ilbeyi*)" و"أُورَانُوسْ بك (*Evrenos*)" و"أَجَه خليل بك (*Ece*)" و"غازي فاضل" وغيرهم، ومن الآن فصاعدًا فإن هؤلاء القادة الناجحين والمشاهير سوف يعملون لصالح العثمانيين فقط، وهذا ما استدعى سعادةَ "أُورْخَان غازي" وقرّبه من ملامسة أحلامه وتطلعاته.

وقد قام "أُورْخَان غازي" بترقية القادة السابقين المنتمين لـ"بني قَارَسِي" إلى رُتَبٍ أعلى من رُتَبِهم السابقة، ولم يهمل أيضًا العناية بهم.

وفي منتصف عام (١٣٤٥م) قد زالت الموانع الموجودة على الطرق الموصلةِ إلى إسطنبول ومضيق "جناق قلعة" وذلك بعد الانتصارات المتتالية في المنطقة.

التطورات الجارية في "بيزنطة"

تـرى مـاذا كان يحـدث فـي "بيزنطة" التي هي أكبر دولة في المنطقة؟! ويا تُرى ما الـذي كان يدور في أروقة قياداتها بعد تلك الهزائم المتلاحقة التي مُنيَ بها الجيشُ البيزنطيّ أمام العثمانيّين؟

ما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع، فـ"بيزنطة" -أي روما الشرقية- تعيش قدَرَها المحتوم.

إن الـذي كان يكبـر ويقـوى ويتمـدّد أصبـحَ الآن يتقلّص ويفقد قوته، وكمـا يحدث في حياة الإنسـان، فالناس يولَدون ويكبُرون ثمّ يطعنون في السن فيضعفون، ويذهبون إلى الثرى، وعالمُنا كذلك مليءٌ بهذه الأمثال.

إن النجاح هو أن تمدّ من فترة انتصارِك وأن تترك لمن خلفك آثارًا عريقةً تشهدُ على سؤدُدِكَ وانتصاراتك.



وفـي الواقـع فإن ما حـلّ بالإمبراطورية البيزنطية لا يختلـف عمّا حلّ بغيرها من الدول في تاريخ البشـريّة، حيـث كانـت الإمبراطوريـة تعانـي مـن الاضطرابـات الداخلية، والغيرة والرياء والكُره والبغضاء، والمؤامرات والمكائد وما شابه ذلك من الأمراض القاتلة...

إثـر وفاة "أَنْدرُونِيكُوس الثالث بَالْيُولُوج" في بيزنطة؛ شبّت صراعاتٌ دمويّة على السلطة هناك.

وقد طلب "قَانْتَاكُوزِين (*Kantakuzinos*)" الإمبراطور الجديـد للعرش البيزنطي -الذي نجح في نفي منافسـه لفترةٍ طويلةٍ- المساعدةَ من "أُورْخَان غازي"؛ وقبِل "أُورْخَان غازي" هذا الطلب.

وقد اسـتولى "قَانْتَاكُوزِين" -الذي اسـتعادَ قوّته بشـكلٍ أفضل عندما انضمّ إلى صفوفه سـتة آلاف جنديٍّ عثماني- على مدينة "أدرنه (*Edirne*)" ومنطقة ساحل البحر الأسود، وهكذا قويَت شوكةُ سلطتِه في البلاد، وأراد "قَانْتَاكُوزِين" -الذي طارَ فرَحًا بهذا الدعم الكبير- أن يُعبّر عن شكرِهِ العميق عن طريق تزويج ابنتِه لـ"أُورْخَان غازي".

وقـد وافـق "أُورْخَـان غـازي" -بعـد التشـاور مـع المقرّبيـن إليـه- علـى عـرض الـزواج، وخلال بضعـةِ أشـهرٍ تزوّج "أُورْخَـان غـازي" من "تِيُـودُورَا (*Teodora*)"، وقـد حافظ "قَانْتَاكُوزِين" علـى عادات وتقاليد سـابقيه، وزوج ابنته من حاكم خارج إمبراطوريته.

ابنة ملك "بيزنطة" تُصبح عروسًا في القصر العثمانيّ

وقد أُقيمَ حفلٌ كبيرٌ من أجل الزفاف، فقد توجّه أسطولٌ مكوّن من ثلاثين قطعةٍ بحريّةٍ من "إزْمِيتْ" إلى إسطنبول لإحضار العروس، وقد رافق الأسطول حتى إسطنبول مئاتٌ من الفرسان الأتراك أيضًا.

وقد تمّ نقل العروس من القصر البيزنطي إلى مدينة "سيليوري (*Silivri*)" الساحلية لتبحر من هناك إلى الأراضي العثمانية، ولم يعترض "قَانْتَاكُوزِين" وزوجته "إيريني (*Irini*)" على طلب العثمانيين بأن تتمّ الاحتفالات وفقًا للتقاليد التركية".

وبسبب التسامح المتبادل بين "أُورْخَان غازي" ووالد العروس أصبح العرس ممتعًا وأُدخل السرور على الجميع، وشارك في موكب العرس مئات الأشخاص من أهالي الفتاة.

وكانت العروس العثمانية الأميرة "تِيُودُورَا" تجلس على عرشٍ خاصّ مطرّزٍ بالخيوط الذهبية وتبدو أكثر جاذبية داخل قماش حريريّ يبهر الأبصار، ولم تُفارق البسمةُ محيّاها وكانت الأغاني تنشَد من حولها، والخدم الزنوج يُمسكون المشاعل ويضيئون ما حولها.

يستمتع الناس وخاصّة الجانب التركي بوليمة العرس التي وُضعت فوق السجاد وفقًا للتقاليد التركية، وكان هذا بمثابة اندماج بين الشعوب والثقافات.

وبعد انتهاء مراسم العرس ودّعت الأميرة "تِيُودُورَا" أمّها وأباها وسافرت إلى أراضي زوجها لتصبح عروسًا عثمانية، وبعد أن كانت السفينة تضجّ بالضحكات خالطها بعض الحزن لأن وقت الرحيل والفراق قد حان.

ولكن عندما اقتربت السفينة من ساحل الأناضول عمت البهجة والسرور في السفينة مرة أخرى، حيث كان في استقبالهم جموع من الشعب العثماني من أجل الاحتفال بهذا الزواج الميمون.

يا لَجمال إسطنبول

وبهذا الزواج قد حقق "أُورْخَان غازي" نجاحًا إستراتيجيًّا إلا أنه أصبح بذلك شريكًا في مسائل الدولة الخاصة بالملك "قَانْتَاكُوزِين".

وقد بدأ "قَانْتَاكُوزِين" يطلب المساعدة من "أُورْخَان غازي" من حين إلى آخر لأنّه وقع في مواجهةٍ مباشرةٍ مع الخطر الصربي القادم من البلقان، فأرسل "أُورْخَان غازي" قوّةً جديدةً قوامها ستة آلاف جندي إلى "قَانْتَاكُوزِين".

وقام الإمبراطور البيزنطي -من باب ردّ الجميل- بدعوة "أُورْخَان غازي" إلى إسطنبول، ولكن السلطان العثماني منذُ طفولته يحلُم بدخول هذه المدينة كصاحبٍ لها وليس كزائرٍ، ولذلك فإنه لم يقبل هذه الدعوة، وإنّما جاء إلى "أُسْكُودَارْ" وتقابل مع حماه، وأرسل زوجته إلى إسطنبول وسمح لها بأن تقابل أهلها بعد شوقها إليهم.

وشاهد إسطنبول من بعيد وأطال النظر إليها، وبدأت إسطنبول تشغل بالَه وتحتلّ مساحةً كبيرةً من تفكيره، وكان يعتقد أن هذه المدينة العظيمة حتى إذا لم يفتحها هو فسيفتحها حتمًا حاكمٌ آخر، لأن بشرى فتحها زفّ بها النبيّ محمد سيد الأنبياء ﷺ أمّتَه قبلَ سبعة قرون، وكان يؤمن بأنه لا بد أن يبذل قصارى جهده من أجل هذا الفتح، وحتى إن لم يتيسر له فتحها فيكفيه شرف المحاولة.

وفي الوقت الذي كان يُقلّب الأفكار فيه بذهنه كانت مدينة "سَالُونِيكْ (*Salonica*)" البيزنطية على وشك أن تسقط في أيدي الصرب، فقام الإمبراطور البيزنطي بطلب المساعدة مرةً أخرى، وكان يريد هذه المرة عشرين ألف جندي من "أُورْخَان غازي"، وبالفعل وافق "أُورْخَان غازي" على طلب الإمبراطور بعد أن قيّم الوضع مع قادته، وأرسل مائةٍ وثلاثين ألف جندي نصفهم من الفرسان إلى "سَالُونِيكْ"، وعيّن أخاه ووليّ عهده "سليمان باشا" قائدًا على ذلك الجيش، ولم يكتف بذلك؛ بل خصّص باخرتين من القوات البحرية تحت إمرة الأسطول البيزنطي.

كان "أُورْخَان غازي" يرغب في أن يعيش جنوده تجربة "رُومَلِي"، وكان يرى أنه يجب على الجنود الأتراك التعرّف على المنطقة جيّدًا، وممّا لا شك فيه أن هذه التجربة والمعلومات ستكون مفيدةً جدًّا في المستقبل القريب، وفي غضون ذلك فقد اتّفق "أُورْخَان غازي" مع "بيزنطة" على إقامة قاعدة عثمانية في قلعة "جيمبه (*Çimpe*)"، وبموجب هذه الاتفاقية؛ فإن عددًا من الجنود الأتراك سيتمركزون في هذه القلعة بصفةٍ مستمرّةٍ.

صورة تجسد نوع من أنواع لباس العسكري العثماني

وقد تبين فيما بعد أهمية هذه الخطوة من الناحية الإستراتيجية، حيث إن قلعة "جيمبه" تُعتَبَرُ أولى بصمات الأتراك في أوروبا.

قد حرّر البيزنطيون "سَالُونِيكْ" من أيدي الصرب بعد أن تلقّوا الدعم العثماني القويّ، وهكذا فإن "أُورْخَان غازي" قد قام بتنفيذ وعده بالدعم الذي قدّمه لحليفه وحماه الإمبراطور البيزنطي.

ولم يقتصر الدعم على المساعدات العسكريّة فحسب، بل قام بالتدخل لحل الصراعات الداخلية في المنطقة لصالح بيزنطة، وقد كانت الوحدات العثمانية هي التي فكت الحصار المفروض على "ماتيوس قَانْتَاكُوزِين" صهر "أُورْخَان غازي"

في مدينة "أدرنه"، كما قامت أيضًا هذه الوحدات بإيقاع هزيمة نكراء بجيش التحالف الصربي البلغاري في موقعة "ديمتوقة" عام (١٣٥٢م)...

لقد كان "أُورْخَان غازي" يلتزم الوفاء بالمعاهدات والاتفاقيات مع البيزنطيين إلا أن ملك "بيزنطة" كان على النقيض؛ إذ لم يفِ بالوعود التي قطعها مع "أُورْخَان غازي"، فقد كان الملك العجوز يدبّر المؤامرات ويجهّز المخطّطات، ونسي أنه وقف على قدميه بدعمٍ من "أُورْخَان غازي" حيث طلب من البابا سرًّا إعدادَ حملاتٍ صليبيّةٍ ضدّ صهرِه.



قلعة "كِلِيتْ بَاهِر (*Kilitbahir*)" في منطقة "جَلِيبُولُو (*Gelibolu*)"

"أنقرة" تخضع للتاج العثماني

لم يكن "أُورْخَان غازي" يفكّر في "رُومَلِي" و"إسطنبول" فقط، فقد كانت الأناضول مهمّة جدًّا أيضًا بالنسبة له، ولكنه في الأناضول كان يتبع سياسةً تعتمد على المصالحة بدون إراقة دماء وبدون حربٍ بسبب وجود الإمارات التركية المسلمة هناك.

وفي ذلك الوقت كانت تتولّى الحكم في "أنقرة" إحدى إمارات "آهي" التي أُسِّست من قِبل الأتراك، وبالرغم من وجود مجموعةٍ تركيّةٍ كبيرةٍ حولها إلا أنّ الأهالي لم يكونوا راضين عن الإدارة، وكانوا يرسلون رسائل إلى العثمانيين قائلين: "نريد أن نعيش تحت رايتكم".

وبناءً على ذلك أرسل الحاكم العثماني شقيقه "علاء الدين" على رأس جيشٍ إلى هناك، وسقطت مدينة "أنقرة" دون مقاومة تذكر على يد "علاء الدين" عام (١٣٥٤م)، بعد أن تمكّن "أُورْخَان غازي" من ترسيخ دعائم حكمه في الأناضول توجّهت أنظاره واشتعلت أشواقه لفتح إسطنبول مرة أخرى.

بشرى لأهل "رُومَلِي"! العثمانيون على أعتاب أوروبا

بدأت الوحدات العثمانيّة التي يقودها "سليمان باشا" بالاقتراب من أراضي "إسطنبول" يومًا بعد يوم، إلى أن حقّق العثمانيون عام (١٣٥٤م) غايتهم المنشودة حيث استولى المقاتلون العثمانيون الشجعان -الذين يصل عددهم إلى ثمانين

شخصًا- على "جَلِيبُولُو"، وبذلك عبَر العثمانيّون على متن زوارقهم الحربية لأول مرّةٍ إلى منطقة "رُومَلِي"، كما أن هذا النصر يُعدّ أولى خطوات العثمانيين وواحدًا من أحلامهم في أوروبا.


قلعة " روملي"

وعندما وطأ الشجعان أرض "رُومَلِي" بقيادة سليمان باشا غمرتهم سعادة بالغةٌ لما حقّقوه من نصرٍ مؤزّرٍ سترفرف رايته قرونًا من الزمن وستظلّ الأجيال تتناقل بطولاتهم وتتحاكى بأنهم أوّل من وطئَ أرض "رُومَلِي" من الجيوش الإسلاميّ، كما أنها بمثابة خطوة عظيمة لتأسيس دولة عثمانية في أوروبا يسودها الأمن والسلام.

ووفقًا لما يراه المؤرخون الأتراك فضلًا عن كثيرٍ من مؤرّخي العالم فإن عبور العثمانيين إلى منطقة "رُومَلِي" يحتل من الأهمّية المرتبةَ الثانية بعد فتح إسطنبول، لأنها تعدّ أولى الخطوات التي سلكها العثمانيون للاندماج مع أوروبا وإقامة علاقات معهم.

وقد عبر العثمانيون إلى "رُومَلِي" قبل ذلك ما يقرب من عشرين مرّة، لكنّ ذلك العبور كان تحت رقابة الإمبراطور البيزنطي بهدف مساعدته، أما في هذه المرة فقد أقلعت السفينة باستقلاليّةٍ تامّةٍ إلى قارّة جديدة وإلى عوالم جديدة.

وعندما انضمّت "جَلِيبُولُو" إلى الأراضي العثمانية اقترب العثمانيون أكثر من إسطنبول، وتمّ استيطان التركمان الموجودين قرب "باليكسير" و"جَانَقْ قَلْعَه" في شبه جزيرة "جَلِيبُولُو"، وهكذا فقد اصطبغت المنطقة بالصبغة العثمانية تمامًا...

وتمدّدت الحكم العثمانيّ وتوسّعت خارطة "أُورْخَان غازي" على يد الأمير "سليمان باشا" ليشمل مدن "مَالْقَارَا (*Malkara*)" و"شَارْكُويْ (*Şarköy*)" و"كَاشَانْ (*Keşan*)" و"جُورْلُو (*Çorlu*)" و"دِيمُتُوقَة (*Dimetoka*)" و"تكيرداغ (*Tekirdağ*)".

وشعر إمبراطور بيزنطة "قَانْتَاكُوزِين" بانزعاجٍ وضيقٍ شديدٍ تجاه عبور الأتراك إلى "رُومَلِي"، وعلى الرغم من سوء وضعه المالي؛ إلا أنه طلب من "أُورْخَان غازي" أن يبيع له الأرض التي استولى عليها العثمانيون في "رُومَلِي" مقابل المال، وبالطبع فلقد رفض "أُورْخَان غازي" هذه الصفقة على الفور.

وعلى جانب آخر فإن سكان منطقة "رُومَلِي" قد أظهروا رضاهم عن الحكم العثماني الجديد، لانتشار العدالة في البلاد وتوفُّر الأمن الأفضل وارتفاع مستوى معيشة الناس ارتفاعًا ملحوظًا عن ذي قبل.

وفي تلك الأثناء أتتِ الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث سقط "سليمان باشا" من على حصانه في قمّة نشاطه ونجاحه وفي أكثر فترات العطاء، فانتقل إلى رحمة الله، ودُفن في قرية "بُولَايِر (*Bolayır*)" التي تقع في أقصى شرق شبه جزيرة "جَلِيبُولُو" (١٣٥٩م).، والضريح الذي شُيّد في "بُولَايِر" أصبح مكانًا للزيارة منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا، وكان قد تمّ ترميمه فيما بعد، ويوجد الآن ضريح الشاعر الشهير "نامق كمال"[١١] بالقرب من نفس المكان.

كان أكبر حلمٍ لوليّ العهد أي المرشح للسلطنة "سليمان غازي" هو إسطنبول، مدينة إسطنبول السعيدة والمُبشَّرُ بها... وكان يتحدّث في كثيرٍ من الأحيان عن اليوم الذي سيمضي فيه إلى إسطنبول، لكنّ القدر لم يشأ، فإرادة الله هي الأقوى دائمًا مهما خطّط البشرُ ودبّروا.

حادثة خطف نجل "أُورْخَان غازي"

إن حادثة خطف الأمير خليل نجل "أُورْخَان غازي" -الذي رُزِق به من زوجته "تِيُودُورَا"- عام (١٣٥٦م) وهو في سنٍّ صغيرة من قبل قراصنة "جنوة (*Genova*)" أثارت اهتمام الكثير من المؤرخين نظرًا لما سبّبته هذه الواقعة من قلقٍ واضطرابٍ في الدولة العثمانية ولا سيما لدى السلطان "أُورْخَان غازي".

وقد حدثت هذه الواقعة أثناء نزهة الأمير في البحر مع مجموعةٍ من الخدم حيث هاجم مجموعةٌ من القراصنة قارب الأمير وخطفوه ثم وصلوا به إلى مدينة "فُوجَا (*Foça*)".

وقد استغرقت محاولات إنقاذ خليل ثلاث سنوات، وباءت كل تلك المحاولات بالفشل نظرًا لأن القراصنة لا يخضعون لأي قوانين دولية أو أعرافٍ اجتماعية مما أمكنهم من حبس الأمير لمدّة ثلاثة أعوام، ليعيش الأمير خليل طفولته أسيرًا في "فُوجَا" بينما كان لا يزال في الثالثة أو الرابعة من عمره.

وبالطبع كان من الصعب دفع المائة ألف قطعة ذهبية التي طلبها القراصنة كفدية، لكنّ "أُورْخَان غازي" إذا أخذ هذا المبلغ من خزينة الدولة ودفعه لا يمكن لأحدٍ أن يعترضَ عليه، إلا أنه كان يؤمن بأن أموال الخزينة العامّة لا يجوز استخدامها لأغراض شخصيّة أبدًا.

وفي هذه الأثناء كان "يوانيس" إمبراطور بيزنطة القديم الذي تمّ نفيُه مسبقًا من قِبل "قَانْتَاكُوزِين" قد بدأ حركةَ تمرّدٍ ضدّ خصمه الذي كان يحظَى بكراهية الجميع، ونتيجة هذا التمرّد المنظّم والقويّ استطاع أن يُطيح بـ"قَانْتَاكُوزِين" واعتلى "يوانيس" عرشَ بيزنطة من جديد.

وقد وجّه "يوانيس" على الفور رسالةً إلى "أُورْخَان غازي" وذلك بعد أن اعتلي عرشَ بيزنطة أعرب فيها أنه يرغب بإقامة علاقاتٍ وديّة مع العثمانيين كما كانت في عهد "قَانْتَاكُوزِين"، حتى إنه وعده بتحرير الأمير خليل الأسير من يد قراصنة "جنوة".

(١١) هو أديب تركي مشهور، وصحفي، ورجل دولة، كما أنه شاعر من رواد القومية التركية (المترجم).

وبالفعل دفع "يوانيس" نصف المبلغ المطلوب وأنقذ الأمير الصغير وسلّمه لـ"أُورْخَان غازي" في مارس/آذار (١٣٥٩م)...

وقد كان هذا الحدث سببًا في وجود علاقاتٍ ودّ مع " يوانيس" إمبراطور "بيزنطة" الجديد خلف "قَانْتَاكُوزِين"، ولقد كان "يوانيس" أكثر صدقًا من الإمبراطور السابق، فلم يعارض أيضًا عبور الأتراك إلى "رُومَلِي".

وفضلًا عن ذلك فإن "يوانيس" عبّر عن رغبته في تزويج ابنته التي كانت لا تزال في العاشرة من عمرها في ذلك الوقت بالأمير خليل الذي تم انقاذه من القراصنة، فوافق "أُورْخَان غازي" على هذا العرض.

وفاة "أُورْخَان غازي"

كان هناك الكثير من الأعمال التي سوف يقوم بها "أُورْخَان غازي" الذي يناهز الخامسة والسبعين من عمره، إلا أنه طعن في السنّ، كما أثّرت عليه وفاة ابنه الأكبر المحبوب وليِّ العهد سليمان غازي الذي كان في سنّ الشباب.

وفي عام (١٣٦٢م) توفي "أُورْخَان غازي" وانتقل إلى رحمة الله بعد حياةٍ مليئةٍ بالإقدام والشجاعة والتضحية، لم يعتريها الكلل أو الملل أو الخوف، ودفن أمام ضريح والده في مدينة "بورصة"، وإنك ترى اليوم ضريحه المتواضع يعجّ بالزوار من كل حدبٍ وصوب.

إن "أُورْخَان غازي" لا يُقدّسه الأتراك بصفته رجلَ دولةٍ فحسب؛ بل هو يُذكر بين عامة الشعب بأنه عابدٌ لله تقيٌّ ووليٌّ من أولياء الله، نسأل الله أن يُنزّل على روحه سحائب الرحمة والسلوان.

كانت "بورصة" كلّها تُعتبَر مدينةً محظوظةً لأنّها تضمّ في ثناياها ذلك السلطان التقي والحاكم العادل، ولأجل ذلك كانت تتوافد عليها جماهير الشعب لزيارتها باستمرار...



ضريح "أُورْخَان غازي" في مدينة "بورصة"

سمات "أُورْخَان غازي"

المظهر الخارجي:

كان طويلَ القامة ذا عيونٍ واسعةٍ عسليّةٍ، وذا وجهٍ ورديّ فاتحٍ مقطّب، يشبه أنفه أنف الكبش، وقد عُرف بأناقته وجمال مظهره الخارجيّ، وكانت له لحيةٌ قصيرةٌ تبدو متناسقةً مع وجهه العريض، وكان ذا وقفةٍ مهيبةٍ وأصيلةٍ، وتلفُّ رأسَهُ عمامةٌ بيضاء من القماش القطنيّ الرفيع الخاصّ.

إدارته وشخصيته:

م يملأ حياته قطّ بأعمالٍ سوى أمور الدولة والأمّة، وقام بتنفيذ كلّ وصايا والدِه بدقّة واهتمام، وقام بتوسعة أراضي دولته طوال خمسةٍ وثلاثين عامًا إلى خمسة أضعافٍ ونصف.

• أسّس هيئةً استشاريّةً ذات قواعد واسعة من أجل ربط الدولة التي ورثها عن والده بالقواعد والمؤسسات القوية الأخرى، كما أولى أهميةً خاصّةً للتشاور.

• يوضح كتاب "مسالك الأبصار" التاريخي للعالم الشهير ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) تلك المعلومات الخاصة بـ"أورْخَان غازي" ومفادها:

"أن أُورْخَان غازي ورّثَ لمن خلفه على العرش العثماني (٥٠ مدينة، وأكثر من ٥٠ قلعة وجيشًا هائلًا من الجنود يتخطى عدد فرسانه أربعين ألفًا، وكان يتبنى مبدأ السلام والمسالمة مع الدول المجاورة، وكان عونًا لهم ونصيرًا في أزماتهم"[١٢].

• لم يُظهر نشاطًا في ميادين القتال فحسب، بل أنشأ العديد من المؤسّسات الاجتماعية.

• أسس جيشًا وقسّمه إلى مشاة وفرسان، وقد أُعدّت أول طغراء لدى العثمانيين في عهد "أُورْخَان غازي".

• كان يوزع الطعام بيديه من المطاعم التي أمر بإنشائها خصيصًا لإطعام الفقراء والمساكين.

• كان يتعامل بمنهجيّة العدل والمساواة التامّة مع أهالي الأماكن التي ضمها لأراضيه بغضّ النظر عن الدين والقومية، ولم يخرج عنه أيّ سلوك قطّ يلوّث دينه أو منصبَه أو أيّ فردٍ ينتمي إلى أسرته.

---

(١٢) طبعة طاشنر الفرنسية، ص٤٢، "لايبزج (*Leipzig*)" (١٩٢٩م).

• وقد حقق توازنًا في عدد السكان بين الشعوب من خلال نظام هجرةٍ متكامل.

• كانت له الريادة في الأعمال العلمية، وكان يولي اهتمامًا خاصًّا للعلماء، وأمر بإنشاء مدرسة كبيرة في مدينة "بورصة" وجعل منها مؤسَّسةً تعليميّةً عالية ذات سمات فائقة.

• وبقدر ما كان قائدًا مقتدرًا وكَمِيًّا شجاعًا؛ كان أيضًا رجلَ دولةٍ حكيمًا ذكيًّا بعيدَ النظر، فلقد ارتفعت الدولة العثمانيّة إلى مكانةٍ مرموقةٍ ضمن فترةٍ قصيرةٍ جدًّا بفضل إستراتيجيّته وبفضل السياسة التي انتهجها.

• ونظرًا لسماته المتميزة كان هناك من المؤرّخين من يقول: "لقد وضع "عثمان غازي" أسسَ الدولة، ولكن "أُورْخَان غازي" هو مَن قام بتأسيسها".

• إنه أول حاكم عثمانيّ أرسل المساعدة إلى البيزنطيّين.

• كان يعلم كيف يدبر الوقت ويستغلّه ويتوقع الحدث أو الهجوم قبل حدوثه.





أول وحدات عسكرية نظامية لدى العثمانيين

أسست أول وحدات عسكرية نظامية لدى العثمانيين في عهد "أُورْخَان غازي"، ومما لا شك فيه أنه كانت هناك وحدات عسكرية أيضًا خلال فترة عثمان غازي، ولكنها لم تكن نظامية؛ فكان الجنود حين يتلقون الأوامر من أجل القيام بحملة يتقلدون سيوفهم، ويتجمعون في المكان المحدد، ويمتطون خيولهم وينطلقون منه، وبالطبع كان هذا الانطلاق غير النظامي يؤدي في بعض الأحيان إلى حدوث حالة من التدهور في الجيش.

وقد اجتمع "أُورْخَان غازي" مع "جاندارلي قَرَه خليل" قاضي مدينة "بورصة" والوزير علاء الدين باشا، وتوصَّلوا خلال الاجتماع إلى تأسيس أول قوة عسكرية نظامية.

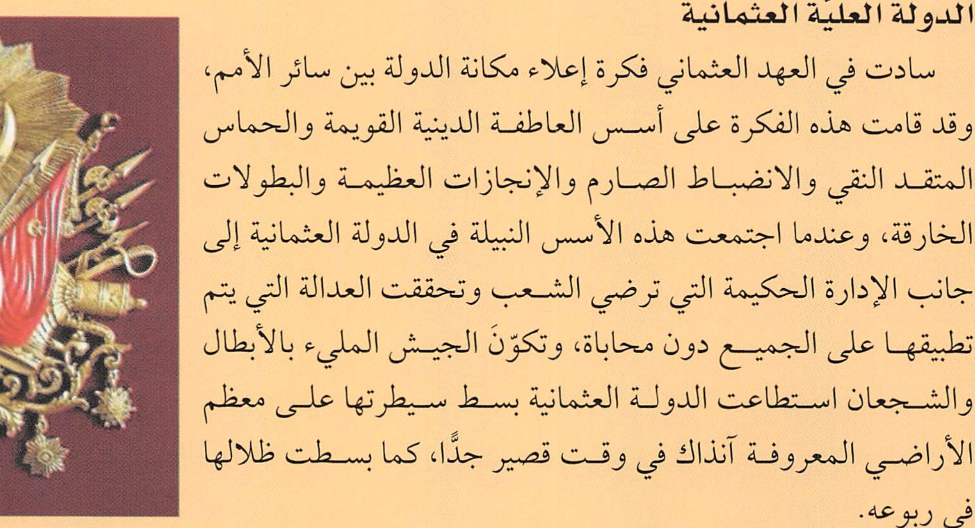
وهكذا تكونت أول نواة للوحدات العسكرية التي عَمَّت شهرتُها العالم.

وقد أسس لأول مرة جيش نظامي كبير يتكون نصفه من الفرسان في عهد "أُورْخَان غازي"، وكان يطلق على الفرسان "مُسَلَّم"، ولم يكن هؤلاء محاربين فقط بل كان يسند إليهم أيضًا إدارة بعض أراضي الدولة المعروفة بـ"التيمار" في أوقات السلم، وكانوا يعملون على توفير الأمن في المناطق التي يعيشون فيها ويشرفون كذلك على الإنتاج المحلي، وباختصار يمكن أن نطلق عليهم "مفتشين" على الإنتاج بجانب وظيفتهم القتالية.

وقد كان هؤلاء يحصلون على أجر يبلغ "أقجة" واحدة يوميًا، بالإضافة إلى إعفائهم من الضرائب.

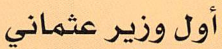


مقتطفات خاصة بالفصل الثاني



الدولة العليّة العثمانية

سادت في العهد العثماني فكرة إعلاء مكانة الدولة بين سائر الأمم، وقد قامت هذه الفكرة على أسس العاطفة الدينية القويمة والحماس المتقد النقي والانضباط الصارم والإنجازات العظيمة والبطولات الخارقة، وعندما اجتمعت هذه الأسس النبيلة في الدولة العثمانية إلى جانب الإدارة الحكيمة التي ترضي الشعب وتحققت العدالة التي يتم تطبيقها على الجميع دون محاباة، وتكوّنَ الجيش المليء بالأبطال والشجعان استطاعت الدولة العثمانية بسط سيطرتها على معظم الأراضي المعروفة آنذاك في وقت قصير جدًّا، كما بسطت ظلالها في ربوعه.



أول وزير عثماني

وفقًا للمعلومات التي تتوافر لدينا كان "علاء الدين باشا" نجلُ "حاجي كمال الدين" أولَ شخصية تولت منصب الوزير في الدولة العثمانية، ويُخطئ بعض المؤرخين حين يرى أنَّ "علاء الدين باشا" هو "علاء الدين علي بك" الأخُ الأصغر لـ"أُورْخَان غازي"، والحقيقة أنَّ علاء الدين قد عرض على أخيه "أُورْخَان غازي" أن يتولى العرش ثم تولى علاء الدين منصب أمير الأمراء معلنًا الولاء لأخيه، وبعد فترة من تولي "أُورْخَان غازي" الحكم توفي أخوه علاء الدين ودفن بجوار والده.

أول مدرسة أنشئت في الدولة العثمانية

افتتحت أول مدرسة في الدولة العثمانية عام (١٣٣٠م) في مدينة "إزنيك"، ويُعتبرُ الشيخُ المتصوفُ "داود القيسري" أول معلم دَرَّسَ في هذه المدرسة.

القوانين العثمانية توافق واقع الحياة

إنَّ من أبرز سمات الدولة العثمانية أنَّها كانت تراعي تطبيق القوانين والقواعد بكل دِقةٍ؛ إذ كانت عند إصدار القوانين تضع واقع الحياة ووضع المنطقة في عين الاعتبار؛ فكانت بعض هذه القوانين تختلف من ولاية

إلى أخرى ومن منطقة إلى أخرى، كما هو الحال في بلد كأمريكا مثلًا في وقتنا الحالي، أي إنَّ القوانين التي شُرّعَت في ولاية "وان" مثلًا تختلف عن تلك التي شُرّعت في ولايتي "إزمير" وإسطنبول بحيث لا تتعارض هذه القوانين مع ظروف الحياة في تلك الولاية.

الطرق

كانت طرق اليونان وروما أكثر اتساعًا من طرق الأتراك؛ إذ كانت حضارتهما تعتمد على العربات بشكل محوري، أما الطرق لدى الأتراك فكانت تتسع لمرور جوادين اثنين جنبًا إلى جنب لأنهم لم يتخذوا وسيلة للتنقل غير الحصان، وهذا يعني أنَّ كلَّ حضارةٍ كانت تختار ما يناسبها ويتوافق معها.

"أُورْخَان غازي" والشيخ الجليل "جَيكْلي"

كان هناك شيخ مسن يعيش في منطقة "أولوداغ" بمدينة "بورصة" يدعى الشيخ "جَيكْلِي"، ويعني هذا الاسم في اللغة التركية "أبو غزال"، وكان يتجول مع الغزلان في الجبال

وذات يوم أصدر "أُورْخَان غازي" أوامره لمن حوله قائلًا: "احضروا لي الشيخ " جَيكْلِي" في الحال!"، بيد أن الشيخ " جَيكْلِي" رفض الذهاب إلى "أُورْخَان"، علاوة على ذلك فقد وَبَّخَ الرسولَ قائلًا:

- أخبره أنني لا أرغب في الذهاب إلى حضرته ولا أريد كذلك مجيئه إليَّ هنا!.

وعلى ذلك أرسل "أُورْخَان غازي" رسولًا مرة أخرى يسأله:

- لماذا أعرضت عن المجيء؟ ولماذا لم تسمح لي بالمجيء إليك؟.

فأجابه قائلًا:

- إن الشيوخ لهم بصيرة ثاقبة، وهم يتحينون فرص استجابة الدعوة في وقتها المناسب، ولا يذهبون إلى أي مكان إلا إذا حان الوقت لذلك...

وبعد مرور وقت طويل قدم الشيخ "جَيكْلِي" إلى مدينة "بورصة" ومعه فسيلة من شجرة الحور أتى بها إلى قصر السلطان، فغرسها في أحد أركان فناء القصر، وعلى الفور قام بعض خادمي القصر ممن يعرفون هذا الشيخ بإبلاغ السلطان بما صنعه، فدعا "أُورْخَان غازي" الشيخ "جَيكْلِي" للدخول إلى القصر، وبمجرد أن رأى "جَيكْلِي" السلطانَ أخذ يحدثه قائلًا:

- نحن الشيوخ نتبارك بشجرة الحور، وكلما ترعرعت هذه الشجرة كان دعاء الشيوخ من حظك وحظ أبنائك من بعدك.

ثم رفع الشيخ يديه إلى السماء وأخذ يبتهل إلى الله بالدعاء، وبمجرد أن انتهى من دعائه اتجه نحو الباب وغادر القصر، سائرًا نحو الجبل.



وبعد فترة قصيرة نمت فسيلة الحور الصغيرة، وصارت شجرة عظيمة؛ حيث أولاها السلطان عناية فائقة.

وبعد مرور فترة من الزمان ذهب "أُورْخَان غازي" إلى منطقة "أولوداغ" لرؤية الشيخ، فلما لقيه قال له السلطان:

- أترى تلك البلدة؛ إنها مدينة " إِينَاكُولْ"؟ أترغب أن تكون واليًا عليها؟.

فأجابه "جَيكْلِي" قائلًا:

- "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ"، ونحن لا نطمع في مال ولا سلطان؛ فلسنا أهلًا لذاك.

كان "أُورْخَان غازي" يتوقع مثل هذا الرد من الشيخ المتواضع، فسأله:

- حسنًا، إذًا هلَّا أخبرتني عن أهل الملك والمال؟

فأجابه الشيخ:

- إنَّ ربي العظيمَ مَنحَ مُلكَ الدنيا وسلطانها لأصحاب الدولة مثلك، حتى ينتفع من ليسوا أهلًا لذلك بأعمالكم وخدماتكم".

فردَّ "أُورْخَان غازي":

- أنت محقٌّ أيها الشيخُ، ولكنْ ما الضررُ لو قبلت عطيتي؟".

فتفَقَّد "جَيكْلِي" المكانَ من حوله، ثم قال:

- لا أريد منك سوى أن تمهد إحدى تلك الهضاب وتقيم عليها تكية ينتفع منها الشيوخ!.

وقد نفذ السلطان "أُورْخَان" طلب الشيخ، ولما فاضت روحه إلى بارئها أمر "أُورْخَان غازي" بإنشاء تكية ذات قبة في هذا المكان.

الطغراء

لا شك أن كلمة "الطغراء" هي ممّا يتبادر إلى الذهن عند ذكر كلمة "عثماني"، ويعد "أُورْخَان غازي" أول من ابتكر فكرة "الطغراء" لدى العثمانيين، فهي بالإضافة إلى كونها رمزًا للدولة تحمل أيضًا سمة عمل فني بديع، ويقال إنَّ مصدر استلهام "أُورْخَان غازي" لهذه الفكرة هو أنه لاحظ -ذات مرة- أثر يده اليمنى على الأرض بعد أن اتكأ بها عليها.

وكانت طغراء "أُورْخَان غازي" عبارة عن نقش بسيط لكلمات "أُورْخَان بن عثمان"، أما الاهتمام بالإبداع في النقش والفن في تصميم "الطغراء" فنصادفه بعد عهد "مراد الأول".

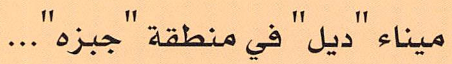


السهام التركية

كانت السهام التي يستعملها الأتراك تستطيع أن تقطع مسافة تقدر بثمانمائة وثلاثين مترًا، في حين كانت السهام الأخرى تقطع نصف هذه المسافة بصعوبة، وسبب تميز السهام التركية عن غيرها هو الاختلاف الموجود في شكل انحناء القوس المستخدم في رمي السهم.

الديوان الهمايوني

يعتبر الديوان الهمايوني هو المشرف على إدارة شؤون الدولة العثمانية، وهو بمثابة أعلى جهاز إداري والمحكمة العليا للدولة، ويشبه مجلس الوزراء والمحكمة الإدارية العليا ومجلس الدولة حاليًا، وكان يرأسه السلطان، وقد تأسس أول ديوان همايوني في عهد السلطان "أُورْخَان غازي".



ميناء "ديل" في منطقة "جبزه"...

لماذا أطلق اسم "ديل" على الميناء الواقع في "جبزه" التي انضمت إلى الأراضي العثمانية في عهد "أُورْخَان غازي"؟

تكمُنُ الإجابة على هذا السؤال في قصة تتداول بين ألسنة الناس في تركيا: ذات يوم جاء رجلًا طاعنًا في السن إلى الميناء وأراد العبور إلى الضفة الأخرى، وكانت الزوارق تحت سيطرة الجنود العثمانيين، فطلب من الجنود أن ينقلوه إلى الضفة المقابلة، غير أن الجنود كانوا مشغولين فلم يُولُوا الرجل العجوز أيَّ اهتمام؛ فجمع العجوز التراب في ثوبه وصبه في البحر، وقال:

- إنْ لم تساعدوني للعبور فسوف أعبر بنفسي.

وبدأ يمشي على البحر، وكان كلما نثر التراب على البحر صار الماء طريقًا ممهدًا يشق الخليج، وحينما شاهد الجنود ذلك دُهِشُوا، وأدركوا خطأهم، فأسرعوا يرجونه أن يتوقف عن فعل ذلك قائلين:

- معذرة يا شيخنا، لقد أخطأنا في حقك! فلا تعاقبنا على إهمالنا، نرجوك أن تتوقف وإلا تسببت في سد الخليج.

وتخلى الشيخ عن سد الخليج؛ إذ لَمْ يتحمل توسل الجنود الذين فهموا خطأهم وأدركوا أنَّ العجوز أحد الأولياء الصالحين.

وقد أطلق اسم "ديل" على هذا الميناء وهو مأخوذ من كلمة "ديل" بمعنى "قلب" في اللغة الفارسية؛ إذ توسَّل الجنود للشيخ كثيرًا حتى رق قلبه، أو مأخوذ من كلمة "ديل" بمعنى لسان في اللغة التركية لأن هذا الميناء يشبه اللسان في امتداده واستدارته.

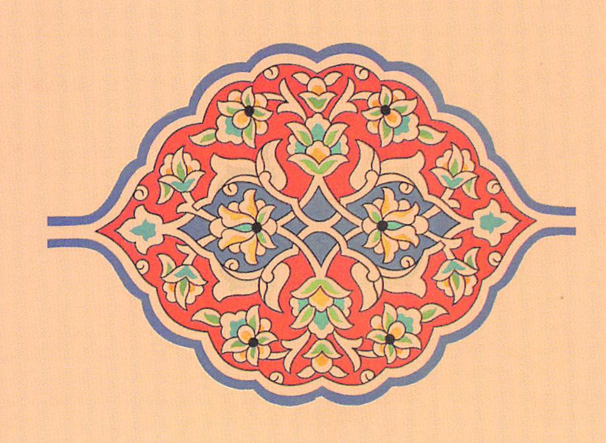
النقود



العملات التي استخدمها الناس للمرة الأولى في عهد عثمان غازي كانت مسكوكة باسم السلطان السلجوقي "غياث الدين مسعود"، ثم أُلغيَ التعامل بها بناءً على طلب علاء الدين باشا، وسُكَّت النقودُ بعد ذلك باسم "أُورْخَان غازي"، وهذه النقود المعدنية القيّمة التي كان يطلق عليها اسم "أقجة" هي أول نقود سُكَّت وضُربت لدى العثمانيين، وقد نُقشت على أحد وجهيها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، كما نُقشت على إطارها أيضًا أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، وكان الهدف من تلك النقوش التذكير بالله تعالى عند التعاملات الدنيوية.

أما على الوجه الآخر للعملة فقد نقش الرقم "٣" مع نقش اسم "أُورْخَان بن عثمان/بورصة" إشارة إلى العام الثالث الذي كان "أُورْخَان غازي" قد تولى فيه إدارة البلاد، وقد نقش عليها أيضًا تاريخ (٧٢٧هـ) إشارة إلى تاريخ سَكِّهَا الذي يوافق عام (١٣٢٧م).

وكان قطر العملة يبلغ ١,٨ سم، أما وزنها فكان يبلغ قرابة ١,٦ جرام، وفضلًا عن ذلك فقد تم العثور أيضًا على عملات أخرى مصنوعة من الفضة لم يُدوَّن عليها تاريخُ سَكِّهَا، ويحتمل أنها تعود إلى فترة "أُورْخَان غازي".



الفصل الثالث

السلطان "مراد الأول"



اسم الوالد: "أُورْخَان غازي"   اسم الوالدة: "نِيلُوفَرْ خاتون"

محل وتاريخ ميلاده : مدينة "بورصة" عام (١٣٢٦م).

تاريخ اعتلائه العرش: (١٣٦٢م)

محل وتاريخ وفاته   : مدينة "كوسوفو" - (١٣٨٩م)

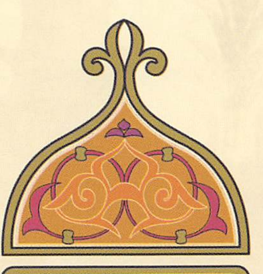
ضريحه: في مدينة "بورصة" (أعضاؤه الداخلية مدفونة في مقبرته الكائنة في "كوسوفو" حيث سقط شهيدًا)

أسماء أبنائه: "يلدريم بايزيد"، صَاوجِي، يعقوب، يَخْشِي، مَلَك، وأُوزَرْ خاتون



منمنمة تبين السلطان "مراد الأول" أثناء
استراحته تحت شجرة

السلطان "مراد الأول" الغازي الشهيد الملقب بـ"خُدَاوَنْدِكَارْ"(١٣)





تأسيس دولة كبيرة

إنه قائدٌ لم يتعرض لأيّة هزيمةٍ قطّ سواء في ميادين الحرب أو سياسة الدولة...

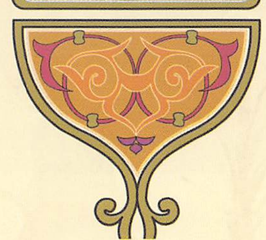
وبالرغم من ذلك فقد كان متواضعًا ومؤمنًا بالله ويخشاه، اسمه مراد، أما الاسم المذكور في كتب التاريخ فهو مراد الأول...

كان حاكمًا ذا قوة، وسلطانًا غازيًا ذا سطوة، وقائدًا عثمانيًّا يتمتّع بالصدق والفتوّة... يصدق عليه قول القائل: "هذا الشبل من ذاك الأسد"، فقد ورث صفات العزّة عن والده "أُورْخَان غازي"...

وكان حظُّه ميمونًا منذ ولادته؛ حيث انضمّت "بورصة" -التي لم يتمكّن العثمانيون من فتحها برغم حصارها لمدّة عشر سنوات- إلى الأراضي العثمانيّة في شهور ولادته.

وبينما كان لا يزال طفلًا عيّنه والدُه حاكمًا على مدينة "بورصة" ليكتسب خبرةً في الإدارة، كما كان يهدف من ذلك إعداده منذ الصغر للأمور الضخمة والمسؤوليات قبل أن يتولى السلطة فيما بعد...

وكان أهم معلم له ومرشده بعد والده "أُورْخَان غازي" هو أخوه الأكبر سليمان باشا الذي تعلم منه فنون الحرب في الحملات التي شارك معه، كما شارك مراد الأول في الحملات مع القادة المشاهير الآخرين أمثال "أُورَانُوسْ غازي" و"لالا شاهين باشا" و"حاجي إيلبيي (*Hacı Ilbeyi*)" و"غازي فاضل بك" و"إيجه يعقوب (*Ece Yakup*)" وغيرهم...



(١٣) خُدَاوَنْدِكَارْ: بمعنى الحاكم أو السلطان وهو لقب خص به السلطان مراد الأول من بين سلاطين الدولة العثمانية.

إن الحروب الضارية والظروف القاسية التي عايشها في تلك الفترة لم تدفعه نحو القسوة، بل إن قلبه رقَّ أكثر بموت أخيه الأكبر سليمان باشا وهو لا يزال في سنّ الشباب ومن بعده بثلاث سنوات وفاة أبيه السلطان "أُورْخَان غازي"، وقد مهدته هذه الأحداث المتتالية المؤسفة وأعدّت في داخله القوّة لتخطّي الصعوبات والعقبات التي تواجهه في حياته.

كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما اعتلى عرش السلطنة، لكنّه كان يتمتّع بنضج وخبرة من هو في السبعين من عمره، ووفقًا للسجلّات فإنه قد وُلد له ابنٌ في أوّل ليلةٍ من ليالي اعتلائه العرش، وأطلقوا عليه اسم "بايزيد"، ذلك الابن السعيد الذي سيسجَّل في التاريخ باعتباره واحدًا من أعظم القادة الذين شهدهم العالم وعُرف باسم "يلديريم بايزيد"... فكان هذا الميلاد المبارك يُعدّ من علامات حظّ "مراد الأول" السعيد.

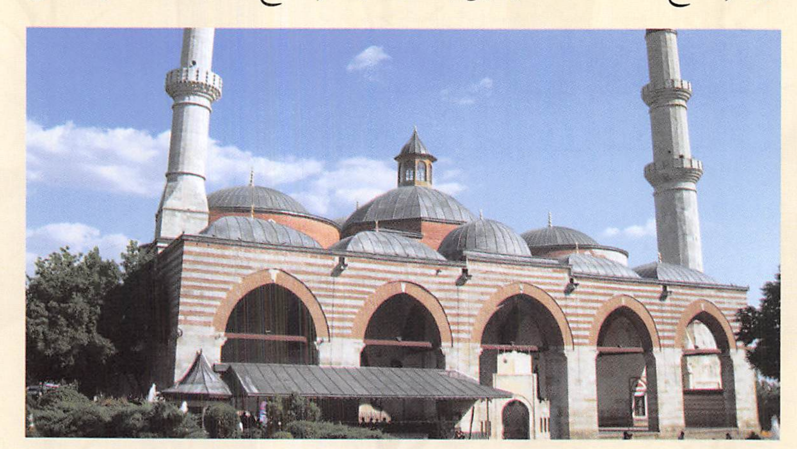
النظام الجديد في الأناضول

وقد بدأت الإمبراطورية البيزنطية -التي كانت تُعدّ دولةً قويّةً في فترةٍ سابقةٍ من التاريخ- تُصاب بالوهن، فهي الآن لم تعد تملك خارج إسطنبول سوى عددٍ قليل من المراكز في "تراقيا" و"الأناضول".

وكانت "أَرَغْلِي" من المناطق التي فقدتها الإمبراطورية البيزنطية، فقد استولى عليها السلطان "مراد الأول" في بداية حكمه وذلك لما لها من موقعٍ إستراتيجيّ مميّزٍ.

ومع أن إمارة "آهي" التي تأسّست في "أنقرة" ظلّت مرتبطةً بالعثمانيين في عهد "أُورْخَان غازي" إلا أنها كانت ترغب في الانفصال عن الدولة في عهد السلطان "مراد الأول"، وكان هناك من الدول المجاورة من يحرّضهم على ذلك.

وانطلق السلطان "مراد الأول" بعد أن أجرى مشاوراتٍ مع العلماء المحيطين به ومقابلاتٍ مع وجهاء الحكومة إلى "أنقرة"، فأحكم القبضةَ عليها وأعادَ ولاءها، وعمل على توفير الأمن والاستقرار فيها رغم كلّ ما يكتنف الدولة من اضطرابات داخليّةٍ.



جامع "أدرنه القديم"

وبعد وفاة كل من سليمان باشا وقاسم باشا الأخوين الكبيرين للسلطان "مراد الأول"، ضاق صدر السلطان من طمع أخويه خليل وابراهيم في الاستيلاء على كرسي العرش، وقد أثبت السلطان "مراد" قوّته بعد أن استعاد "أنقرة" وضمّ "أَرَغْلِي" إلى أراضيه.

وبعد أن أدرك الأخوان أن الوحدة قوّةٌ وأن الفرقةَ ضعفٌ، قرّرا أن يساندا السلطان "مراد الأول" لتخطّي العقبات التي تواجهها الدولة، وبذلك بدأت رياح السعادة تهبُّ من جديد، بعد أن استطاعوا إخماد العواصف وإيقاف الاضرابات والاضطرابات في البلاد.

التوجّه إلى أوروبا من جديد

بعد أن حقّق السلطان "مراد الأول" الاستقرار في "الأناضول" اتّجه مرّةً أخرى إلى "رُومَلِي" وأوروبا، ولم يكن هذا التصرف بهدف توسعة الأراضي والتمدّد فحسب، وإنما كان الهدف من ذلك هو القضاء على ظلم واضطهاد البيزنطيين للأهالي "مَالْقَارَا" و"كَشَانْ" و"إِيبْصَالَا (*Ipsala*)" التي استولى عليها البيزنطيون أثناء انشغال السلطان "مراد الأول" في ترسيخ قوّته في الأناضول، وكان يجب على "مراد الأول" إنقاذَ أراضيه منهم، وإراحة شعبه من ظلمهم، علاوةً على ذلك فقد كان لديه شوق واستشرافٌ لفتح "أدرنه" منذ زمنٍ بعيدٍ.

كانت "أدرنه" نقطةَ وصلٍ مهمّةٍ للعبور إلى أوروبا، ولذا قرّر على الفور أن يتحرّك على جناح السرعة مع جيشه العَرَمْرَم المتأهّب كي يخوض غمار الحرب والفتح في منطقتي "أدرنه" و"رُومَلِي" بهدف الاستيلاء عليهما.

وانضمّت " جُورْلُو" و"لُولَابُورْجَازْ (*Lüleburgaz*)" اللتان كانتا تقعان على الطريق المؤدّي إلى "أدرنه" وكذلك "دَدَه أَغَاجْ (*Dedeağaç*)" و"دِيذِيمُوتِيخُو (*Didymoteicho*)"[١٤] اللتان تقعان على ضفاف نهر "إفروس" إلى الإدارة العثمانية مرّة أخرى، بالإضافة إلى موافقة أهالي "قِرِقْلَرْ أَلِي (*Kırklareli*)" على الخضوع للحكم العثماني.

لم تكن القوّة العسكريّة هي العامل الوحيد في فتح هذه البلاد أمام العثمانيين، بل كان العامل الأساس في ذلك: سمعتهم التي تسبقهم إلى مسامع الناس وما عُرِفَ عنهم من عدلٍ ومساواةٍ واحترام الآخر بغضِّ النظر عن دينه وجنسيّته.

وكانت تلك المساعي تصبو إلى إيصال العدالة بمفهومها الصحيح ونشر كلمة الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

فتح مدينة "أدرنه"

بعد أن وجه السلطان "مراد الأول" أوامرَه بعقد اجتماعٍ طارئٍ اتّجه جميع قاداته إلى حجرة الاجتماعات في غضون دقائق معدودة.

وكان موضوع الاجتماع يدور حول فتح مدينة "أدرنه"، وفي نهاية الاجتماع توصّلوا إلى تحرّك "لالا شاهين باشا" على رأس جيشه إلى "أدرنه" وسيقوم باقي القادة بتوفير غطاء أمني له من خلال فتح مدينتي "بَابَا أَسْكِي (*Babaeski*)" و"بِينَارْ حِصَار (*Pınarhisar*)" اللتين تقعان على طريق "أدرنه".

(١٤) بلدة يونانية تقع في أقصى شمال شرق اليونان وهي تتبع مقاطعة "إفروس" التابعة إدارياً لإقليم "مقدونيا" الشرقية و"تراقيا" الإداري.

وقد التقى جيش التحالف -المكوّن من الجيش اليوناني والجيش البلغاري- مع الجيش العثمانيّ في منطقةٍ تسمّى "سزليدره (*Sazlıdere*)" وسرعان ما حميَ الوطيس بينهم، فدارَت بين الطرفين معركةٌ شرسة هُزم فيها جيش التحالف هزيمةً نكراء، وهكذا أصبحت "أدرنه" ولايةً تركيّة منذ الثالث والعشرين من يوليو/تموز (١٣٦٣م)...



مشاهد من أدرنة

وفي الواقع فإن أهالي "أدرنه" -الذين كانوا مشمئزّين من الحكم البيزنطي- فرحوا بخبر هزيمة جيش التحالف فرحًا شديدًا، حيث إنهم قد تمردوا من قبل على الحكم البيزنطي مما أدى إلى نزيف الكثير من الدماء أثناء هذا التمرد.



وإذا أردنا أن نعبر عن مدى تأثير العثمانيين على أهل مدينة "أدرنه" بكلمةٍ واحدةٍ فإننا لا نجد سوى كلمة "الانبهار" حيث إن أهالي المدينة انبهروا بالقوانين التي انتهجها العثمانيون في إدارة شؤون البلاد وعدم تعرضهم لممتلكات الناس وعاداتهم وتقاليدهم وبالإضافة إلى ذلك ساد في المدينة الأمن والاستقرار خلافًا لما كان عليه الوضع في العهد السابق.

وقد استقبل أهالي المدينة العثمانيين بصدورٍ رحبةٍ وقلوبٍ فرِحةٍ ووجوهٍ باسمة.



نموذج من بيوت "أدرنة" القديمة.

وعيّن السلطان "مراد الأول" "لالا شاهين باشا" حاكمًا للمدينة، ثم اتّجه إلى "دِيذِيمُوتِيخُو"، وقد اعتبر السلطان "مراد الأول" مدينة "أدرنه" مركزًا مهمًّا لدولته وعمل على الرقيّ بها حيث أمر بتشييد فيها العديد من المباني على الطراز الحديث، ولم يهمل "مراد الأول" "أدرنه" قطّ، حيث كان يزورها من وقتٍ لآخر حتى إنه نقل عاصمة الدولة إلى

تلك المدينة وعمل على تزيينها بالمباني العسكرية والمدنيّة المبهِرة، ثمّ قضى على مشاكل البنية التحتيّة، وحلَّ مشكلةَ المياه، فاستطاع -خلال بضع سنواتٍ- أن يُضيفَ إلى إستراتيجيّة المدينة زهوًا وجمالًا خاصًا.

وقد تنوّعت إقامة السلاطين العثمانيين ما بين "أدرنه" و"بورصة" إلى أن تمّ فتح إسطنبول.

أوّل معاهدة "بيزنطية عثمانيّة"

لم يركن العثمانيون وتهدأ ثورتهم بعد فتح مدينة "أدرنه" وإنما مضوا قدمًا نحو متابعة فتوحاتهم، فقام "لالا شاهين باشا" بضمّ كل من مدينتي "سِتَارَا زَاغُورَا (*Stara Zagora*)" و"فِلِبَة (*Plovdiv*)" إلى الأراضي العثمانية في فترة وجيزة.

وأما "أُورَانُوسْ باشا" الذي كان مكلّفًا بغزو منطقة "تراقيا الغربية"؛ فقد استطاع أن يفتحها ويضيف إليها فتحًا جديدًا وهو "كُومُوتِينِي (*Komotini*)".

وفي الوقت الذي كانت هذه الفتوحات المتلاحقة تنهال على العثمانيّين؛ كان الإمبراطور البيزنطي يركض لاهثًا للتحالف مع "البندقيّة"، إلا أن شتّى محاولات التحالف البيزنطيّ مع البندقيّة باءت بالفشل، فوجد البيزنطيّون أنفسهم بين المِطرقة والسِّنْدان، وهذا ما أرغمهم على عقد اتفاقٍ إسعافيّ سريع مع السلطان "مراد الأول"، يدخلون بموجبه تحت الراية العثمانية، وبموجب هذا الاتفاق تُصبحُ بيزنطة جزءًا من الدولة العثمانية، وحتى الجنود البيزنطيون سيساعدون الجيش العثماني في الحروب التي يخوضها العثمانيون.

كان المسؤلون البيزنطيون يتحسّرون على ما ألمّ بهم جرّاء هذه المعاهدة، أما الشعب البيزنطيّ فعلى العكس تمامًا، لقد كان الشعبُ هناك في قمة الفرح والسرور من هذه المعاهدة حتى إنه لو أُجريَ استفتاءٌ شعبيٌّ على سؤال "هل تريد الرجوع إلى الحكم البيزنطي مرّةً أخرى؟" فإنك لا تجد من يجيب بالقبول، وذلك لأن السلطان "مراد الأول" يولي مسألةَ حماية الشعوب أمنيًا ومسألة توفير مستوى معيشيّ راقٍ لهم اهتمامًا خاصًا وبالغًا.

مرحلة "العقول الذهبية" بدلًا من "الدوشيرمه"

وقد نجح السلطان "مراد الأول" في تحسين وضع الجيش العثماني في عهده إلا أن وضع الجيش لم يكن يلبي احتياجات ذلك العصر ومن هذا المنطلق قام السلطان "مراد الأول" طرح فكرة جديدة وهي تشكيل فرقة عسكرية جديدة تسمى الإنكشارية.

وقد أطلق العثمانيون على مؤسسة الإنكشارية اسم "أسرة الإنكشارية" وذلك لأن الأطفال الذكور كانوا يُؤخَذون من الأسر المسيحية التي ترغب في انضمام أبنائهم إلى صفوف الجيش العثماني بمحض إرادتهم ليودعوا في تلك الأماكن التي يتمّ تدريبهم فيها منذ حداثة سنّهم ليتولّوا بعد ذلك المناصب في الجيش العثماني.

وكان هؤلاء الأطفال الذين يُطلق عليهم اسم "دوشيرمه" يربون في كنف عائلات عثمانية لِينشؤوا على القيم الأخلاقية والمبادئ السامية، ومن يصل فيهم لدرجة التميز كان يلحق بأسرة الإنكشارية ليأخذ مكانه في الجيش، وقد استمر هذا الوضع لعدّة قرون على هذه الشاكلة.

لقد كانت تلك الأنشطة العثمانيّة -التي تُدعَى "دوشيرمه"- بمثابةِ حركةٍ لجمع العقول الذهبية، لأن أولئك الأطفال لم يكن يتمّ جمعهم من أجل تجنيدهم في الجيش فحسب، بل كان الغرض الأساسي الذي يكمن خلف تلك الأنشطة هو إظهار المواهب التي يتمتّع بها هؤلاء الأطفال ومن ثَمّ استغلالها استغلالًا مناسبًا، ومحاولة توظيف الرجل المناسب في المكان المناسب، فمنهم من صار جنديًّا، ومنهم مَن أصبح مهندسًا معماريًّا ومنهم من وصل إلى منصب الوالي أو الصدر الأعظم -الذي يُعادل منصب رئيس وزراء في وقتنا الحالي- والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ العثماني العريق.

الاتحاد المسيحي وموقعة "صِرْبْ صِنْدِيغي"

اضطر الأوروبيون إلى اتّخاذ التدابير اللازمة حيال تقدّم العثمانيّين في أراضيهم، حيث اتّخذ المسيحيون المتدينون قرارهم فأعدُّوا عدَّتَهم لمواجهة العثمانيين هذه المرة، وسادت فكرة إعداد الجيش الصليبيّ بين رجال الدين المسيحيّ والملوك الأوروبيّة على حدٍّ سواء، وقد نجح البابا في جمع رؤساء دول "المجر" و"البوسنة" و"أفلاق" و"صربيا" عام (١٣٦٤م)، وأقسم الملوك والقادة في الاجتماع الذي ترأّسه البابا على أنهم سيقومون بعمل ما يلزم من أجل الحملة الصليبيّة.

واجه العالم المسيحيّ حينئذٍ مشكلةً كبيرةً حيث إن الشعوب المسيحيّة التي تعيش تحت الحكم العثمانيّ -خاصّةً شعوب "البلقان" التي تتمتّع بالأمن والاستقرار- لا يتعاطفون مع الحروب الصليبية، وممّا زاد الطين بلّة أن قيادة الجيوش الصليبية قد اختُزلَت في أيدي مسيحيّي المجر المنتمين للمذهب الكاثوليكي، مع العِلم أن شعوب البلقان تعتنق المذهب الأرثوذكسي، وعلاوة على ذلك فإن المجتمعات المحلّيّة في منطقة البلقان لا يتعاطفون مع المجر الكاثوليك قطُّ منذ وقتٍ طويلٍ، فكان من الصعوبة بمكانٍ على الصليبيّين؛ تجنيدُ المواطنين المسيحيّين الذين يعيشون تحت الحكم العثماني، وعلى الرغم من هذه العوائق؛ إلّا أنّ الجيش الصليبي تقدّم بسرعةٍ نحو منطقة البلقان والأناضول.

هذا وقد زحف الجنود الأوروبيون الذين تم جمعهم من أطراف أوروبا حتى وصلوا إلى مشارف "أدرنه".

وكانت الروح المعنوية للجيش الصليبيّ -الذي بدأ ينتظر في منطقة "صِرْبْ صِنْدِيغِي"- مرتفعة جدًّا، وكانوا على يقين من هزيمتهم للأتراك، حيث كان الجيش الصليبي مدعومًا من قِبَل مسيحيّي أوروبا، بالإضافة إلى الجنود المتطوّعين لنصرة العالم المسيحي، وقد بدأ الجنود يتساءلون فيما بينهم "إذا لم ننتصر اليومَ ونحن في أوجِ قوّتنا فمتى ننتصر؟!"



لوحة تصف معركة "صِرْبْ صِنْدِيغِي"

كما أنّ القيادة الصليبيّة قد علمت تمامًا قلّة عدد الجنود الأتراك المتواجدين هناك، وأن القائد العثمانيّ "حاجي إيلبي" لا يتجاوز تعدادُ جيشِه عشرة آلاف جنديّ فقط، وأما قوات "لالا شاهين باشا" أمير أمراء "رُومَلِي" فلا تتكافأُ مع القوّات الصليبيّة ولا تكفي لدحرها نظرًا لقلّة العدد والعتاد، علاوة على ذلك أن قدوم السلطان "مراد الأول" إلى ميدان المعركة في غاية الصعوبة بحكم إقامته الحاليّة في "بورصة"، فلو همّ بالمجيء على الفور؛ لن يستطيع تغييرَ مجرى الأحداث لأنّ بُعدَ المسافة وإهدار الوقت في الطريق -ربما- سيُتيحُ الفرصةَ أمام الصليبيّين في الاستيلاء على "أدرنه" فضلًا عن منطقة "جَلِيبُولُو".

وكان القائد الصليبي يصف قلّة عدد الجنود الأتراك قائلًا:

"إن الجنود العثمانيين كانوا مثل النقط السوداء على فيلٍ أبيض...".

وكان الوضع متأزمًا بالنسبة للعثمانيين، فلقد بلغت القلوب الحناجر نظرًا لأنه من الصعب التغلّب على الجيش الصليبي بعشرة آلاف جنديّ فقط، ولكن ليس أمام العثمانيين طريق آخر سوى مواجهة الجيش الصليبي بالصبر والثبات والتوكل على الله والقتال في سبيله.

اتخذَ "حاجي إيلبي" قراره الحاسم والأخير، فشنَّ على جناح السرعة هجومًا مباغتًا داهم من خلاله معسكرَ الصليبيين وصعقهم في معسكراتهم كالبرق الخاطف، ليفتتح جولةً تاريخيّة من جولات الاشتباك العنيف بين الجيشين.

لم يكن القادة الصليبيون يتوقعون مثل هذه الغارة إطلاقًا، حيث إنهم كانوا على يقينٍ من عدم قدرة العثمانيين على الهجوم، لذا بالغوا في شرب الخمور في العشاء حتى سكروا وأما الجنود الذين لم يسكروا قد غطوا في ثبات عميق.

ودارت هناك معركة طاحنة بين الجيشين خطبت فيها السيوف على منابر الرقاب، وتجندل فيها الأبطال والكماة إلى أن تمخّضت تلك المواجهة الشرسة عن هزيمةٍ نكراء ألحقها العثمانيّون بالجيش الصليبي الذي تشرذم يمنةً ويسرةً ما بين قتيلٍ أو جريح، وأمّا مَن استطاع الهرب فلم يجد أمامه سوى طريقٍ واحدٍ لا ثانيَ له ألا وهو طريق العبور من خلال نهر "إفروس"، ذلك النهرُ الذي التهمهم بمياهه الباردة في ظلمة الليل البهيم المدلهمّ، فغرق معظمهم في مياه ذلك النهر ولم ينجُ منهم إلا القليل.



كانت "فيدن" -التابعة لـ"بلغاريا" حاليًا- تابعة للحكم العثماني.(صور أرشيف أمان نامه)

وقد أصيب القادة الصليبيون بالدهشة والذهول حتى إنهم ظنّوا أن السلطان "مراد" استطاع أن يطوي الأرض التي تفصله عنهم وأنه هو مَن غشيهم بخيله ورَجِله، لكنّهم عندما أدركوا الحقيقة المرّة المؤلمةَ قد تفتّت جيشهم ما بين قتيلٍ وجريحٍ ومهزوم، وكان ملك المجر وقائد جيشه "ليوش" من بين الصليبيّين القلائل الذين تمكنوا من النفود بجلودهم والفرار من الموت.

وهكذا استطاع الأبطال العثمانيّون قَلبَ السحر على الساحر، فاستطاعوا أن يصدوا الحملة الصليبيّة الأولى عليهم، بل لقد حوّلوها إلى هزيمةٍ نكراء مدوّية، وهذه المعركة الكبيرة التي تتصدّرُ التاريخ العثماني أيضًا باسم نصر "صِرْبْ صِنْدِيغِي" تُعتبَرُ واحدةً من نقاط التحول المهمة في التاريخ العثماني.

ومن ناحية أخرى أعدّ السلطان "مراد" الاحتياطات اللازمة تحسُّبًا لأيّ هجومٍ محتَملٍ من قِبل الصليبيين على "بورصة"، لأنه كان يظنّ أن بإمكان الجيش الصليبي الاستيلاء على "أدرنه" ومن ثم -ربما- قد يصل إلى "بورصة" دون مقاومة.

وقد أمر السلطان أن يشارك جنود البحرية والسفن من "جَلِيبُولُو" و"أَدِينْجِيكْ (*Edincik*)" إلى الجيش، فتمّ الاستيلاء على قلعة "كَرَابِيجَهْ (*Karabiga*)"، ولكن الأخبار التي جاءت من "صِرْبْ صِنْدِيغِي" مع وقت الظهر قد أراحت الأعصاب وطمأنَتِ القلوب فبدت على وجه السلطان ابتسامةٌ لطيفةٌ توجّه بعدها بالشكر إلى الله.

يأمر ملك "المجر" بإنشاء كنيسة تيمّنًا بنجاته

كان "ليوش" ملك المجر قد شارك في معركة "صِرْبْ صِنْدِيغِي" وحول عنقه قلادة بها نقش لـ"مريم العذراء"، واعتقد أن نجاته حيًّا من ساحة المعركة وخروجه من تلك الظروف الصعبة للغاية يرجع إلى هذه القلادة المباركة على حد زعمه.

وعندما عاد إلى المجر أمر بإنشاء كنيسة كبيرةٍ باسم العذراء مريم تيمّنًا بنجاته، وتعبيرًا عن مدى شكره لها وامتنانه منها.

وأمر السلطان "مراد الأول" أيضًا بإنشاء جامع في "بورصة" و"بِلَجِيكْ" ومطبخ الحساء للفقراء في "يَنِي شَهِيرْ" بالقرب من مدينة "بورصة" وتكية ومدرسة وحمام وخان تعبيرًا عن شكره لله بعد النصر الذي حققه جيشُه في "صِرْبْ صِنْدِيغِي".

سواحل البحر "الأدرياتيكي" وأراضي "مقدونيا"

لقد كانت معركة " صِرْبْ صِنْدِيغِي" تحمل معاني كثيرةً بالنسبة للطرفين، فبالنسبة للعثمانيين تعني النصرَ المؤزّر والأمل والتطلّع إلى أوروبا فأخذوا يتغنّونَ بها في الأغاني الشعبية.

وفي نفس الوقت كانت تعني بالنسبة للصليبيين الهزيمةَ النكراء التي لن ينسوها أبدًا واستلهموا منها الدرس والعبرة، أما بالنسبة لـ"غازي أُورَانُوسْ باشا" فكانت تعني نقطةَ بدايةٍ وانطلاقٍ نحو تحقيق انتصاراتٍ جديدةٍ حيث استولى على "سرز" في وقت قصير، وهذا النصر يُعتبَر خطوةً مهمّةً على طريق فتح "مقدونيا" وما يليها مِن وصولِ العثمانيّين إلى البحر "الأدرياتيكي"،

حتى إننا ونحن في القرن الواحد والعشرين نجد الحكام الأتراك يفخرون بهذا النصر في خطاباتهم فيذكرون عبارة "من البحر الأدرياتيكي إلى سور الصين العظيم"، ويقصدون بذلك المجد الذي حققه أجدادهم العثمانيون في شتّى بقاع الأرض، هذا وقد وصل "غازي أُورَانُوسْ باشا" في فترةٍ قصيرةٍ حتى سواحل "دالماسيا" الشهيرة مع كلابه اللطيفة المرقشة.

"دوبروفنيك *(Dubrovnik)*" قبل سبعة قرون

كانت هناك دولة صغيرة ولكنها فعّالة جدًا في سواحل " دالماسيا" الجنوبية للبحر "الأدرياتيكي"، اسمها جمهورية "دوبروفنيك" أو جمهورية "راغوزا" البحرية، وهذه الجمهوريّة الصغيرة كانت تُعتبر أهمَّ ميناءٍ تجاريٍّ في أوروبا، فكانت في ذلك الوقت بمثابةِ "هونج كونج" الآن، وكانت تُعتَبَر نقطةَ التقاء السلع والبضائع ورمزًا من رموز البيع والشراء بين الشرق والغرب.



مدينة دوبروفنيك قديمًا - كرواتيا

وكانت السفن المحملة بعشرات من السلع التجارية تغدو وتروح كل يوم ومن كل حدبٍ وصوبٍ إلى هذا الميناء، وكان من الملفت للنظر أن سفن هذه البلاد لا يتمّ التعرّض لها حتى في أوقات الحروب، لأن هذه الدولة الصغيرة تتمتّع بموقع إستراتيجيّ متميز يحتاج له الجميع، حيث كانت بمثابة أهم جسرٍ بين الشرق والغرب، وكان الدول المجاورة فضلًا عن الدول البعيدة في حاجة للأحمال والبضائع التجارية الموجودة فيها.

وبعد أن استولى عليها العثمانيون عن طريق إبرام معاهدة الصلح عام (١٣٦٥م) أصبحت تلك الدولة الصغيرة تابعةً للدولة العلية، فلم تمُسّ الحصانة الدولية التي تتمتّع بها "دوبروفنيك" قطّ، بل وُضعت لها قوانين أخرى تقوّي هذه الحصانة، وقد ظهرت أهمّية كبرى لاحقًا لـ"دوبروفنيك" عام (١٩٩٥م)، فبينما كانت المجازر تُرتَكبُ من قِبَلِ الصرب ضدّ المجتمعات المسلمة في المنطقة هناك إذ وقعت إحدى القنابل التي أطلقها جنود "صربيا" ضمن حدود "دوبروفنيك"، وحينئذ تدخّلت الدول العظمى حول العالم لوقف المجازر الدموية التي يقوم بها الجنود الصربيون وأرغموا الجميع على إيقاف الحروب الأهلية في المنطقة معلنةً "أنّ علينا أن نحافظ على "دوبروفنيك" التي تُعدّ تراثًا عالميًا قيّمًا".

بعد أن استولت القوات العثمانية على البحر الأدرياتيكي أصبح النفوذ العثمانيّ ممتدًا إلى بحار أربعة، وهي بحر مرمرة والبحر الأسود وبحر "إيجه"-بحر الجزر- والبحر الأدرياتيكي.

ترى ما هو الهدف التالي لفارس أخضعَ أربعةَ بحار لسيطرته؟ بالتأكيد إنه البحر الأبيض المتوسط.

لقد قرر السلطان "مراد الأول" أن يستوطن في "أدرنه" عام (١٣٦٥م) وذلك بعد أن انضمّت دولة "دوبروفنيك" للأراضي العثمانية، وقام بعمل إصلاحات جذرية في البنية التحتية لمدينة "أدرنه" وإعادة إعمارها وتشييدها من جديد.

وقد شُيّد في المدينة العديد من القصور والمدارس الدينية، ومطبخ الحساء، والمساجد، والينابيع، وتمّ فتحُ طرقٍ جديدةٍ، وتمّ غرس عشرات الآلاف من الأشجار، كما تمّ إصلاح المجاري المائيّة.

نظامٌ جديدٌ في "تراقيا"

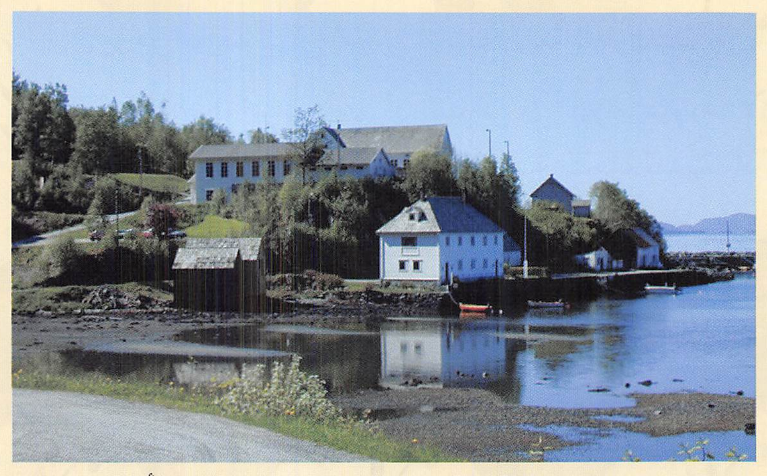
واصل العثمانيون تقدّمهم في "تراقيا"، حيث استولت القوات العثمانية على بعض المدن التي كانت تابعةً لـ"بلغاريا"، وكانت سياسة الدولة العليّة في المناطق الجديدة هي سياسة المساواة والعدالة الاجتماعية فلا تجبر أحدًا من قاطني تلك المناطق على الهجرة ومغادرة البلاد.

إنه نظامٌ جديدٌ تمامًا بالنسبة لـ"تراقيا" لم تَعهده من قبل، ووفقًا لهذا النظام فإن البلغار واليونانيين والأتراك سيعيشون جنبًا إلى جنبٍ في حرّيّةٍ تامّةٍ دون المساس بالأراضي الزراعية للسكان المحلّيّين، فلن يُظلَمَ أحدٌ، ولن يُهانَ أحدٌ أو يُزدرى، وسيسود العدل والقانون وسيحلّ الأمن والاستقرار.

وأصبحتِ الضرائبُ تُجبى بشكلٍ عادلٍ، ضمن قوائم مسجّلة ومنشورةٍ من قِبَلِ الدولة، مما يُتيحُ لكلّ شخصٍ أن يعرف مقدار الضريبة والرسوم المفروضة على أيّ أمر قبل أن يُقدِم عليه، وكان السكّان المسيحيون راضين تمامًا عن هذا النظام الذي يتبنّى مبدأ العدل والمساواة، حتى أسلمَ بعضُ المسيحيّين طواعيةً عقب اطمئنانهم بل عشقهم لتعاليم الإسلام الحنيف، أضف إلى ذلك فلقد حلّ هذا النظام الجديد الكثيرَ من المشاكل التي عانى منها الشعب في العهود السابقة، مع عدم خلقِ أيّ مشاكل جديدة.


مشهد من "تراقيا" القديمة - تركيا

بالسلام تحلو الحياة



مشهد من مدينة "نيش" إحدى المدن التي فتحها "مراد الأول"

وبينما كان السلطان "مراد الأول" وقادته يعملون على ترسيخ دعائم الأمن والنفوذ في المناطق التي يسيطرون عليها كان رؤساء الدولة وكبار رجال الدولة السابقين في المنطقة يكيدون المكائد للدولة العثمانية.

لم يكن الحكام السابقون ينوون مغادرة بلادهم والاستسلام للعثمانيّين، فلقد حكموا هذه الأراضي سنواتٍ طوالًا، وكان من الصعب عليهم مغادرتها، وقد كان "إيفان شيشمان" ملك البلغار واحدًا من هؤلاء الحكام.

وعلى الرغم من اعتراف "إيفان" رسميًا بسيادةِ الأتراك العثمانيّين إلا أنه كان منزعجًا جدًّا من تواجد العثمانيين في بلاده، فكان يترقّب ويتحيّنُ أيّ فرصةٍ للخلاص منهم، وكان من جملة الحلول الغريبة التي توصّل إليها أنه همّ بتزويجِ أخته الأميرة "ماريا" للسلطان "مراد الأول"، وفعلًا فقد تزوج السلطان مراد بالأميرة ماريا في حفل كبير، ولكن هذا الزواج لم يُثْنِ السلطان مراد عن غايته ومراده وما يخطّط له.

ولما لم يُجْدِ هذا الزواجُ نفعًا في إثناء السلطان "مراد الأول" عن غاياته وغزوه عمل الملك "إيفان شيشمان" -الذي زوّج شقيقته للسلطان "مراد الأول"- على تحريض الشعوب والحكام ضدّ الدولة العثمانية، حيث تحالف مع ملك الصرب، وقام الملكان بتوحيد جيوشِهما وخرجا في حملة تجاه الأراضي العثمانية، ولكنهم لم يزحفوا كثيرًا حتى عاجلتهم قوات "لالا شاهين باشا" بالقرب من "ساموقف (*Samokov*)" مسجّلةً ملحمةً من ملاحم التاريخ التي لا تُنسى، وفي نهاية المعركة انهزمت قوات التحالف وتشتّتت قواهم وتبعثرت.

وبعد أن ألحق الجيش العثمانيّ هزيمةً نكراء بجيش التحالف، واصلَ العثمانيّون تقدُّمهم وتوغلهم داخل الأراضي الصربيّة.

الحملة الصليبيّة الثانية

مرت سبع سنوات على الحملة الصليبية الأولى، لكنّ نار الحقد لم تنطفئ في قلوب الصليبيّين فأعادوا الكرّة من جديد متناسين الصفعة العثمانيّة التاريخيّة التي ألحقها العثمانيّون بهم قبل سبع سنوات، فقام بعض الملوك بتحريضٍ من رجال الدين المسيحي بتحريك رحا الحرب من جديد والإعداد لحملةٍ صليبيّةٍ ثانيةٍ على الدولة العثمانيّة والعالم الاسلامي،

فقامـوا هذه المرّة بتجهيز جيشٍ أعتى قوّة وأكثر عدّةً وعتادًا من سابقه، وكانت قيادة الجيش هذه المرة في أيدي جيوش الصـرب المتّحدة بدلًا من المجر الذيـن حملوا راية القيادة في الحملة الصليبيّة الأولى.

وفي نهاية المعركة هزم الصليبيّون مرّةً أخرى، وقُتل ملك الصرب وولي عهده في ساحة المعركة، وقد خُطّ في صفحة التاريـخ انتصارٌ جديدٌ أُضيف إلـى انتصارات العثمانيّين وهزيمـةٌ نكراء جديدةٌ أُضيفت إلى تاريخ هزائم الصليبيّين، وأُطلـق على ذلك النصر "معركة ماريتزا (*Maritsa*)" بتاريخ السادس والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٣٧١م).



رسم تعبيري عن الحروب الصليبية

وبعـد هـذه الهزيمـة التي تعرض لها ملوك تلـك المناطق زادت قوة ونفوذ وهيبةُ العثمانيين في منطقة البلقان وسـواحل البحـر الأدرياتيكـي فلم يتجـرّأ أحدٌ أن يحول دون تقدُّم وزحف العثمانيّين مدّةً طويلـةً، وأما أهالي تلك المناطق فقد كانوا راضين تمامًا عن هذا الوضـع، لأنهم يتمتّعون بحقوق وحرّيةٍ وأمنٍ وأمانٍ تحت حكم العثمانيّين أكثر من أيّ حاكم آخر.

وقد اضطر ملوك الصرب والبيزنطيون إلى الجلوس على طاولة المفاوضات مع العثمانيين وإبرام اتفاقية السـلام معهم بعد أن أدركوا أن رعاياهم يعيشون بسعادةٍ تامّةٍ تحت الحكم العثماني.

ووفقًـا للمعاهـدة التـي أُبرمت بين الطرفين فسـيدفعون الضريبة للدولـة العثمانية بانتظامٍ، وفي مقابل ذلك سـوف تؤمن الدولة العلية لهم ولرعاياهم حياةً كريمةً وسيتمتّعون بحرّيةٍ تامّةٍ وعادلة في أراضيهم.

شكل جديد من أشكال الحياة في البلقان

كان الحكّام الذين تعيّنهم الإدارة العثمانية في مناطق نفوذها يتمّ تغييرهم بمرور الزمن، فيأتي حاكمٌ ويذهب ويأتي مكانه حاكـمٌ آخر، والحال نفسـه نـراه في الجنود حيث تُجدَّد القوّات التي تؤمِّن المدن والقـرى بمرور الزمن، وقوات الدرك من جِهتِهم يحاربون من أجل الاستيلاء على المناطق الجديدة.

والسؤال المطروح هنا: كيف تؤثر الأحداث الجارية على الأهالي في تلك المناطق؟ وهل هذه الأحداث تؤثّر في حياتهم سلبًا أم إيجابًا؟

إنّ أشكال الحياة في البلقان تتغيّر شيئًا فشيئًا والأهالي في هذه المنطقة يُغيّرون نمط حياتهم، وكان الناس راضين تمامًا عن تداول السلطة، وإذا كان الأمر خلافًا لذلك فكيف تُفتَح بعض المدن الكبرى دون مقاومةٍ تُذكَر؟ وهل يمكن أن يقول شخص وُلد على المسيحيّة وتربّى عليها "إنني أفضل العيش في ظلّ حاكم مسلمٍ يرتدي عمامة على العيش في ظلّ حاكمٍ مسيحيٍ مستبدّ"!

ئكان أهالي البلقان يشعرون بدفء الحياة وطمأنينة القلب وبلهنية العيش في ظل الحكم العثمانيّ، خلافَ عهدهم القديم حيثُ كان جنود الملك يأتون ويأخذون معظمَ ما لديهم من محاصيل بعد أن حصدوها ببالغ المشقّة والتعب، كلّ ذلك بدعوى الضريبة للدولة، أما الدولة العثمانيّة فلم يتجاوز مقدار الضريبة في ظلّ حكمها العشرةَ بالمائة، حتى إن البضاعة القادمة للسوق لم يكن يتم تحصيل ضريبة عنها قط إذا لم تُبع، ولا يُسمح لأحدٍ أن يضع أيّ قانونٍ يُخالف الشريعة الإسلامية الغراء.

نعم، فلقد كانت شجرة الحياة في منطقة "البلقان" تُزهر من جديدٍ وتُورق بماء العدالة والتسامح والحبّ، بفضل ذوي الإحساس والتسامح وأرباب الخشية من الله ﷻ...

أوروبا مهمّة ولكن الأناضولَ لها مكانةٌ خاصّةٌ

كان السلطان "مراد الأول" الذى عاش وتربى في "الأناضول" يولي اهتمامًا بالغًا بـ"رُومَلِي" وفي نفس الوقت كان يُتابع عن كثب الأحداثَ الجاريةَ في الأناضول.

وفي الواقع فإن أهمّ دول الجيران للعثمانيّين هي دول الأناضول، وهذه الدول هي: "بنوا صاروخان" و"بنو جاندار" و"بنو قرمان" و"بنو آرتين" و"بنو جَرْمِيانْ".

كان السلطان "مراد الأول" يولي اهتمامًا خاصًا بإمارتين تركيّتين وهما "بني حميد" و"بني جَرْمِيانْ" حيث كان يريد ضمّهما إلى الدولة العثمانيّة ولكنه يرغب في ذلك دون أن تُراقَ قطرةُ دمٍ واحدةٌ.

وكخطوة أولى قام السلطان "مراد الأول" بتزويج الأمير "بايزيد" لـ"دولت خاتون" ابنة "سليمان شاه" حاكم "بني جَرْمِيانْ"، وأقيم لهذا القِران حفلُ زفافٍ رائعٌ، وقام "سليمان شاه" بمنح "كُوتَاهْيَا" و"طَاوْشَانْلِى (*Tavşanlı*)" و"سِيمَاوْ (*Simav*)" و"أَمَتْ (*Emet*)" إلى الأمير "بايزيد" ومن ثمّ إلى الدولة العثمانية كجهازٍ لابنته.

فتوحات ناتجةٌ عن سماحة العثمانيّين

وقد حدثت مفاجآتٌ أُخرى إضافةً إلى ما ذكرناه آنفًا في حفل الزفاف، حيث شارك في حفل الزفاف الذى قرَّب بين حاكمين تركيّين عديدٌ من الممثّلين والسفراء من الإمارات التركيّة المجاورة، وفي أثناء حفل الزفاف اجتمع السلطان



قصر "أدرنه" في القرن الخامس عشر الميلادي

"مراد الأول" مع سفير إمارة "بنو حامد" وقال له إنه يعتزم شراء بعض المدن التابعة لهم، والمدن التي همّ السلطان "مراد الأول" بشرائها من "بنو حامد" هي: "إسبرطة (*Isparta*)" و"سيدي شهير (*Seydişehir*)" و"بَيْ شَهِيرْ (*Beyşehir*)" و"آق شهير (*Akşehir*)" و"قَارَا آغَاجْ (*Karaağaç*)" و"يالواج (*Yalvaç*)".

وعندما سُئل السلطان "مراد الأول" عن سبب رغبته في شراء تلك المدن قال:

"نحن نعلم جميعًا أنّ أراضي إخواننا "بني حامد" متاخمةٌ لحدود "بني قرمان"، وحاكم "بني قرمان" صديقُنا أيضًا، إلا أنّه لا يعلمُ الغيبَ إلا الله، فلربما تستجد في المستقبل أمور ويتبدل موقف والي "بني قرمان"، فإذا ما اشترينا هذه المدن فإننا نكفيكم شره حينئذ".

لقد كان هذا الطلب خطوةً غير معتادةٍ وأمرًا غريبًا للغاية، ولكنه في نفس الوقت كان طلبًا حكيمًا، فهو يوفر لهم الأمن والاستقرار في ظلّ الدولة العثمانيّة.

تأخر الحامديّون في ردّهم على هذا الطلب، إلا أن السلطان "مراد الأول" لم يُطقْ صبرًا على هذا التأخّر، فكان يرغب في الحسم الفوري، فجهّزَ جيشَه على أتمّ شكلٍ وأكمل هيئةٍ وأمره بالتحرّك صوبَ إمارة "بنو حامد"، وعندما بلغ إلى حاكم إمارة "حامد" أن السلطان تحرّك بجيشه الجرّار نحوهم أرسل إلى السلطان على الفور خطابًا أخبره بأنه مستعدٌّ للتفاوض معه بشأن بيع تلك المدن.

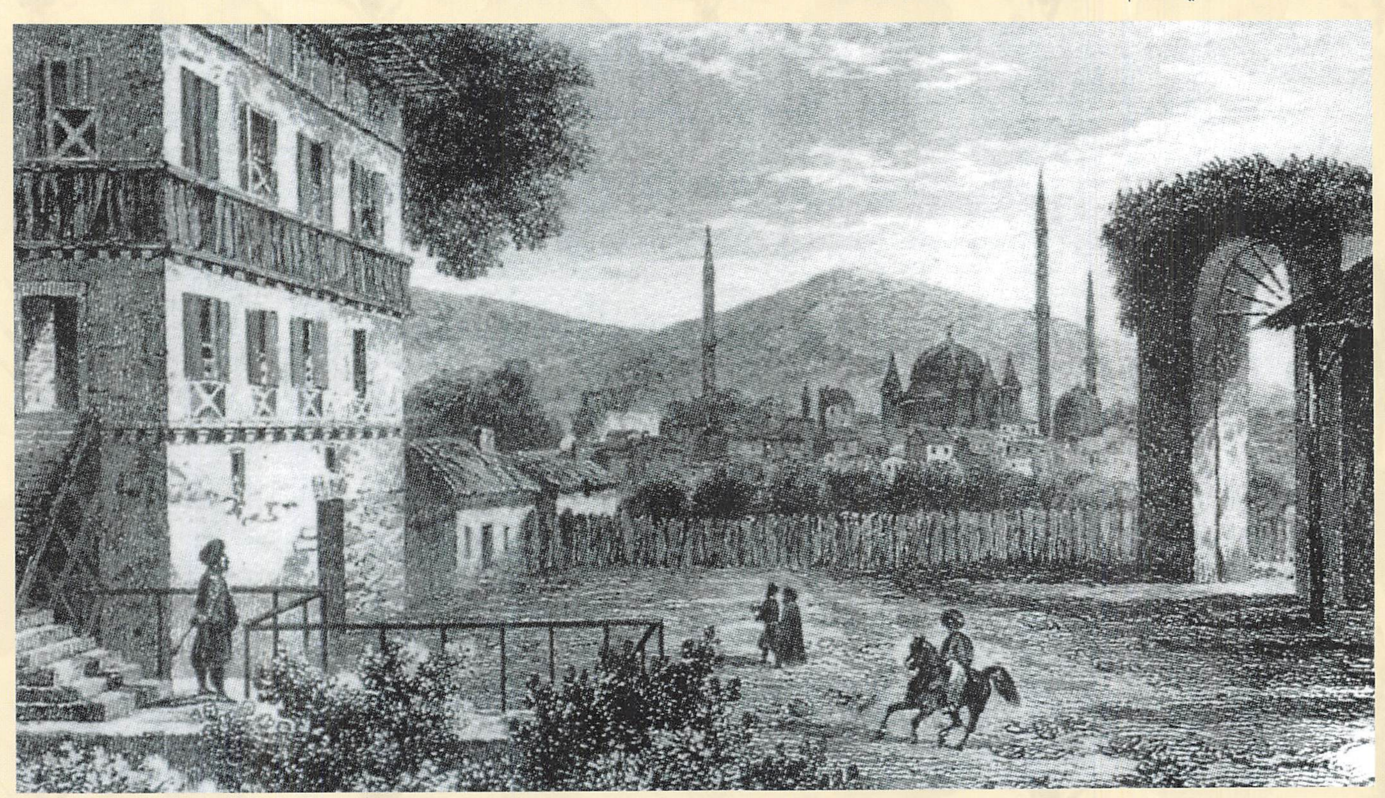
وجلس الحاكمان على طاولة المفاوضات وتفاوضا على ثمن تلك المدن الستّ إلى أن وصلَا إلى اتّفاقٍ ينصّ على بيع تلك المدن الذكورة مقابل ثمانين قطعةً ذهبيّة، وهكذا انضمّت المدن الست وما يُحيطُ بها من أراضٍ شاسعةٍ إلى العثمانيين، دون أن تراق قطرة دمٍ واحدةٌ.

ومن مظاهر سِلمِ وسماحةِ السلطان "مراد الأول" وحبّه للتعايشِ السلميّ بين الأمم ونبذِه العنفَ: أنّه عندما توتّرت العلاقات واضطربت بينه وبين "بني قرمان" لجأ السلطان إلى واحدٍ من الحلول التقليدية التي اتُّبعت في العهود الماضية حيث زوّج ابنتَه السلطانة "نفيسة ملاك" من "علاء الدين علي" أمير "بني قرمان"، وهكذا تمّ حلّ المشكلة التي نشبت بين الدولتين بشكلٍ سلميٍّ دون إراقةٍ للدماء.

وهكذا استطاع السلطان "مراد الأول" أن يُقبِلَ بوجههِ مرّةً أخرى إلى "رُومَلِي" وإلى داخل منطقة البلقان وأوروبا.

فتح مدينة "قِرقْلَرْ أَلِي"

كان هناك مركَزٌ زراعيّ وعمرانيّ كبير وجميلٌ يطلق عليه اسم "هِيرَاقْلِيَا (*Heraklea*)" ويُعرف باسمٍ آخر هو "سارانتا (*Saranta*)" بالقرب من "قِرقْلَرْ أَلِي" الحالية، وكان هذا المركز يشتهر ببساتينه الشاسعة وكرومه والكرز والكمّثرى الخاصّ به، وأجبانه المتميّزة التي يصنعها أهاليه، وكان يتمّ نقل منتجاته إلى قصور بيزنطةَ وإلى إسطنبول، وكان السلطان "مراد الأول" يرغب في ضمّ هذا المركز الجميل إلى إدارة الدولة العثمانية.



منمنمة تُمَثِّل مدينة "قيرقلر ألي" التركية في القرن الخامس عشر الميلادي

وقد كلّف السلطان "مراد الأول" "دمرداش باشا" بمهمّة فتح "سارانتا"، فانطلق الباشا مع الجيش ووصل إلى مشارف قلعة "سارانتا"، لكن الاستيلاء على هذه القلعة لم يكن سهلًا ألبتّةَ، إذ كان المدافعون عنها يواجهون الجنود العثمانيّين بكل عزمٍ وقوّة.

واستدعى "دمرداش باشا" إلى جانبه أربعين رجلًا من النخبة، وأمرهم بتسلّق أبراج القلعة في منتصف الليل بواسطة الجبال والسلالم، وقام الجنود الأتراك بالاستيلاء على أبراج القلعة مستفيدين من الظلام الدامس، وعندما أدرك قائد القلعة أن العثمانيّين على وشك الاستيلاء على القلعة؛ نزلَ إلى المخزن، وأشعلَ براميل البارود، ممّا نجمَ عنه حدوث انفجارٍ ضخمٍ ومرعبٍ في عدّة أماكن من القلعة، ونتيجةً لهذا الانفجار انهارت أبراج القلعة واستشهد أربعون جنديًّا من الجنود العثمانيّين.

اندهش "دمرداش باشا" الذي كان يتابع الموقفَ عن كثبٍ وحزن كثيرًا للاستشهاد جنوده، ولكن الجنود العثمانيّين تمكّنوا من دخول المدينة بفضلِ الثغرات التي أحدثتها الانفجارات.

وكانت هذه المنطقة تُعرف سابقًا باسم "قيريقلار بابا" وبعد ذلك أُطلق عليها اسم "قيريق كمسنه" والتي تعني "أربعين شخصًا أو أربعين شهيدًا"، ولكن المُلْفِت للنظر أن هذه التسمية تغيّرت بمرورِ الوقت إلى "قيرق كنيسة" وهي تعني الكنائس الأربعين.

أما في عام (١٩٢٤م) فقد أصدر مجلس النواب التركي قرارًا بتغيير اسمِ هذه المنطقة إلى "قِرِقْلَرْ أَلِي" وبموجب هذا القرار تمّ تحويل هذه البلدة إلى مدينة، وفي عام (١٩٦٠م) تمّ تشييد مقبرةِ الأربعين شهيدًا، وأُقيم لهم هناك نصبٌ تذكاريّ.

نماذج من الإدارة الحكيمة

لقد كان العثمانيون حريصين على توفير الأمن والاستقرار في أي منطقة أو مدينة قاموا بفتحها، ولم يكن لدى قادة الجيش العثمانيّ أيّ وقتٍ فارغٍ أو زائدٍ لكي يُضيّعوه في سفاسف الأمور، بل كانوا يسعون دائمًا إلى تحقيق أهدافهم وغاياتهم السامية، وبينما استطاع العثمانيّون ضمّ "بِيتُولَا (*Bitola*)" و"أُوخْرِيدْ (*Ohrid*)" و"شَقُودْرَة (*Shkoder*)" و"آقجه حصار (*Kruje*)" التي هي من المدن المهمّة في منطقة البلقان في تلك الفترة إلى المقاطعات العثمانيّة وهكذا قد وضعوا أولى خطواتهم على مشارف "البوسنة".

وقد واصل المغيرون العثمانيّون تقدُّمهم في أراضي "الألبان" في تلك الفترة، إلّا أنّ السلطان "مراد الأول" قد أدهشَ كبارَ المسؤولين في الدولة بكلمته التي ألقاها في المجلس الاستشاريّ الأعلى حيث قال: "إنـي أرى أن تقدُّمَ جنودِنا في السواحل الألبانية لن يفيدَنا بشيءٍ والأراضي التي تم الاستيلاء عليها مؤخّرًا لو لم تُفتَح لكان أولى".

وعندما سمع الحاضرون قولَ السلطان أنه يجب علينا إعادة "شقودرة" والقلاع المحيطة بها التي فتحناها مؤخرًا من دولة البندقية إلى البنادقة لم يُصدِّقوا آذانهم.

يا له من أمرٍ عجيب! هل يُعقل إعادة مدينة أو قلعةٍ بعدَ فتحها وإحكام السيطرة عليها؟!

رفعَ السلطان من نبرةِ صوته وهو يتحدّثُ مع الحاضرين، فأصغى إليه الجميع وهو يتحدّثُ بنبرةٍ خشنةٍ قائلًا:

"أيها السادة، رفقاء الدرب والطريق، والسادة العلماء، والقوّاد الأكارم؛ تعلمون جميعًا أن الأراضي التي فتحناها مؤخّرًا كانت تابعةً للبنادقة، ولكن هل تعلمون أنّ أسلحتَهم أكثرُ تطوُّرًا من أسلحتنا؟ وهل تعلمون أنّهم يمتلكون من السفن ما نفتقرُ نحنُ إليه؟ علينا أن نتعقّل ونأخذ الأمر على محمل الجدّ، فهناك حقيقةٌ لا سبيل إلى إنكارها؛ نحن رغم كلِّ ما لدينا من قوّات إلا أنّنا -في الوقت الراهن- لا نستطيع الدخول في صراعٍ مباشرٍ مع قوّات التحالف، علينا أن نتنبّه ولا نستجدي عداوةَ الجميع، وفضلًا عن ذلك فإن جيوشنا قد ابتعدت عن العاصمة وتوسّعت حدود دولتنا كثيرًا، لقد جلستُ الليلة الماضيةَ وفكّرتُ مليًا في هذه المسائل، ومن ناحية أخرى علينا أن نُدركَ أنّ السفن التي تمتلكها "البندقيّة" لا نمتلكها الآن، وأن نُدرِكَ أنّهم إذا طلبوا المساعدة فسوف تهبُّ لنجدتهم الدول المجاورة، وفي النهاية فإنني أرى أنه من الأفضل أن نتعايشَ بسلامٍ مع "البنادقةِ" في وقت الراهن وأن نُعيد إليهم " شقودرة" وما حولها من قلاع، فما رأيكم؟"

ساد المجلسَ صمتٌ وسكونٌ في البداية، ثم عبّر بعضُ أعضاء المجلس -الذين تكلّموا واحدًا تلو الآخر- عن أن السلطان مُحقٌّ فيما قاله، وأعلن الآخرون فيما بعد أنهم يتّفقون معهم في الرأي.

وفي اليوم التالي بعث السلطان "مراد الأول" رسولَه إلى جمهورية "البندقية" لكي يُبلِغَهم بهذا القرار، وبالفعلِ فقد تمّت إعادة " شقودرة" إلى البنادقة.

ولم يكتف السلطان "مراد الأول" بذلك، بل أرسل خمسةَ آلافٍ من الرماة المَهَرَةِ من جيشه لمساندة "البندقية" في حربها مع المجر، وبذلك يكون السلطان "مراد الأول" قد جنّبَ بلاده -بحنكته وحكمته- كلّ خطرٍ محتَمَلٍ من تلك الجبهة...

مواجهةٌ بين الأب وابنه

لا يصفو للإنسان في حياته كلَّ ما يريد ويتمنّى، فقد شاءت الأقدار أن يدخلَ الحزنُ والغضب إلى قلب الأسرة الحاكمة، وأن يواجه السلطان مراد خطرًا من نوع جديد لم يكن يتوقّعه أو يعهده من قبل، حيث أعلن الأمير "صاوجي بك (*Savcı*)" نجل السلطان العصيان ضدّ أبيه ورفع رايةَ المواجهة المباشرة، ومن المعلوم أن ذلك قد يحدثُ في أيّ دولةٍ أو إمبراطوريّةٍ أو مملكةٍ أخرى إلّا أن السلطان تعجّب من حدوث ذلك في دولته إلى أن اعتصر الحزنُ فؤاده.

وقد يروى أنه في أحد الأيام وبينما كان يمسحُ لحيتَه تمتمَ قائلًا:

"هذا يعني أنه قُدِّرَ لي مواجهة ابني، يا له من ابتلاء عظيم".

وقد تحرّى السلطان الأمر إلى أن اتّضح له تورّط بعض دول الجوار بذلك وخصوصًا الدولة البيزنطيّة، فهي التي حرّضت ودعمت التمرّد، ومع ذلك لم يتمكّن السلطان "مراد الأول" من إيقاف هذه المؤامرة أو إخمادها بل قد بدأ الصراع المسلّح بين الطرفين، وكان الأمير "صاوجي بك" يُعرف عنه أنه شابٌ عديم الخبرة وأنه يتأثّر بكلام الأخرين ولا يُنصِت إلى مبدإ العقل والمنطق.

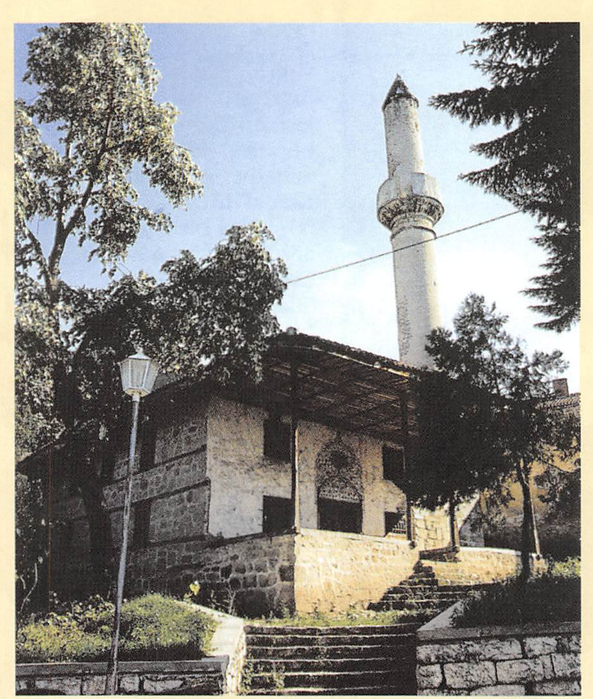
وفي النهاية حدثَ ما كان يخشاه السلطان، حيث رفع الابن السلاحَ في وجه أبيه فأُريقت الدماء، وقُتل الكثير من أنصار "صاوجي".

وقد هُزِمَ الأمير الشاب في صراعِهِ مع أبيه وقُضيَ على أوّل محاولة انقلابٍ وتمرّدٍ في تاريخ الدولة العثمانيّة وخسر المعركة "صاوجي" فوُوريَ الثرى بعد أن أحدثَ ثلمةً في قلب أبيه لن تُشفى ونارَ حزنٍ لن تنطفئ.

وما هي إلّا حقبةٌ وجيزةٌ تخطّتها الدولة وتعافت من تبعاتها وتطلّعت مرّةً أخرى إلى فتوحاتٍ وانتصارات جديدةٍ في بلاد "البلقان" و"رُومَلِي" والأناضول.

وبعد أن استولت الجيوش العثمانية على "بلفن (*Pleven*)" و"لوفتش (*Lovech*)" و"دلي اورمان (*Ludogorie*) ودوبروجه" اتّجهوا بعد ذلك إلى المجر، فمن الواضح أنه لا مفرّ من مواجهةٍ حتميّةٍ مع المجر، لأن المجر الكاثوليك كانوا يكرهون الأتراك، وكانوا يعتقدون أن الأتراك يحرّضون عليهم أهلَ البلقان الذين كانت غالبيتهم من المسيحيين الأرثوذكس.

وقد نالت الدولة العثمانية تقدير وإعجاب شعوب البلقان بما اتبعته حيالهم من حرية العيش والاعتقاد والعدل والمساواة واحترام الغير وعدم التفرقة والتمييز.



صورة مسجد مهجور اليوم في مدينة "فيدن" إحدى المدن التي فتحها السلطان "مراد الأول"

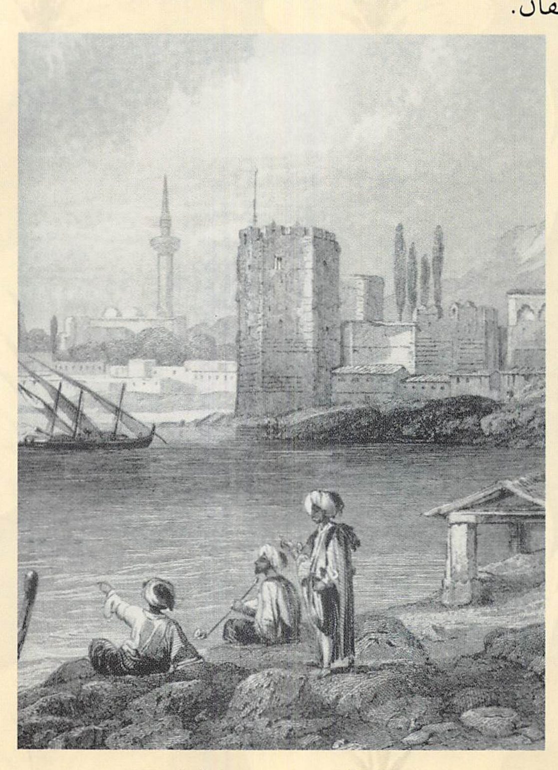
"مراد الأول" يقوم بتعيين الإمبراطور البيزنطي

قام البنادقة باحتجاز "يوحنا الخامس باليولوج (*V. Yoannis Paleologos*)" الإمبراطور البيزنطي السابق، وبعد مدة لاذ الإمبراطور بالعثمانيين، وطلبَ من السلطان "مراد الأول" أن يساعده في اعتلاء العرش مرة أخرى، وفي مقابل ذلك وعد أنه سيرسل له كلّ عامٍ ثلاثين ألف دوقة ذهبيّة[١٥]، كما وعده بأنه سيرسل قوّةً عسكريّة قوامها اثنا عشر ألف جندي لاستخدامها في أيّ وقتٍ يطلبه السلطان.

وقد ساعد السلطان "مراد الأول" "يوحنا"، فأعاده وأجلسه على عرش بيزنطة مرّةً ثانيةً، ومن هذا الموقف يتّضح لنا أنّ العثمانيّين أصبحوا آنذاك عنصرًا من عناصر التوازن والنفوذ في المنطقة التي يعيشون فيها.

نحو البحر الأسود

كان السلطان "مراد الأول" كلّما خرج إلى "البلقان" لمتابعة الفتوحات أجبره الوضع المتوتر في الأناضول على تكرار العودة إليها مرّةً بعد أخرى فكان دائمَ الحل والترحال بين الأناضول والبلقان.



منمنمة لمدينة "سينوب (*Sinop*)" التركية قديمًا

وعندما عاد السلطان إلى الأناضول استطاع أن يُحكم القبضة على "بنو جاندار" و "بنو جَرْمِيانْ" و"بنو حامد" دون إراقة دماء، وذلك عن طريق إقامة مصاهرة مع حكّام هذه الولات، وبينما تزوج "سليمان باشا الجانداري" بابنة "سليمان باشا العثماني" -أحد أفضل قادة حملة "رُومَلِي"- وهي نفسها ابنة "سلطان خاتون" شقيقة السلطان مراد الأول؛ تزوجت الأخت الكبرى لـ"سلطان خاتون" بوالد "سليمان الجانداري"، وسلسلة الزواج هذه قد ساهمت في تقارب وتحسين العلاقات الثنائية بين الجنداريين والدولة العثمانية.

كانت أراضي "بنو جاندار" تقع على الحدود الشمالية الشرقية للدولة العثمانية، وهذه الأراضي التي كانت تضم بداخلها مدن مثل: "سِينُوبْ (*Sinop*)" وقسطمونو (*Kastamonu*)" وأفلاني (*Eflani*)" كانت تطلّ على البحر الأسود، وهكذا ازداد النفوذ العثماني ليصل إلى سواحل البحر الأسود بفضل المصاهرة للجانداريين وتقارب العلاقات بينهما.

(١٥) هي عملة تجارية كانت تستعمل في الأوساط الأوروبية قبيل الحرب العالمية الأولى، تزن هذه العملة ٣,٤٩٠٩ غرام.

مشكلة "بنو قرمان"

بعض الأمور كانت تسير في طريقها الصحيح، والبعض الآخر على نقيض ذلك؛ فقد كان السلطان "مراد الأول" يُثير المشاكل مع "بني قرمان" في الوقت الذي يُقيم فيه علاقاتٍ ممتازةٍ مع إمارات الأناضول الأخرى.

وقد كان علاء الدين علي بك صهرًا للسلطان "مراد الأول"، ولكن صلةَ القرابة هذه لم تكن كافيةً لتقارُبِ الدولتين، فالانتصارات التي حقّقَتْها الدولة العثمانية في منطقة البلقان وأوروبا وإخضاعهم الإمارات التركية، قد خوّفت "بني قرمان" وأثارت حفيظتهم وغيرتهم.

لقد كان "بنو قرمان" يشعرون بتوتُّرٍ لا داعيَ له في علاقتهم بالدولة العثمانيّة، لأنّهم كانوا يهابون الدولة المملوكية في مصر ويهابون معها الدولة العثمانيّة في نفس الوقت، ويتخوّفون من جودة وطيب العلاقات بين العثمانيّين والمماليك آنذاك، ويرون أنفسهم دويلةً صغيرةً مهدّدةً بالسحق من قِبَلِ جارتين كبيرتين، لذلك كانوا يدعمون أيّ حركةٍ مناهضةٍ ضدّ العثمانيّين بما في ذلك مناصرتهم الحملات الصليبية.

وهجوم "بنو قرمان" على مدينة "بَيْ شَهِيرْ" التابعة للعثمانيين كانت الشرارة التي أشعلت الحرب بين الطرفين، فقد تحرك السلطان "مراد الأول" في الحال صوب أراضي "بني قرمان" بجيش قوامه سبعون ألف جندي، وابتدرهم بمعركةٍ عنيفةٍ قرب مدينة "قونية (*Konya*)"، تعرّض جيشُ "بني قرمان" على إثرها إلى هزيمةٍ نكراء أمام أسود بني عثمان، فلجأ "علاء الدين علي بك" -صهر السلطان مراد الأول- إلى قلعة "قونية"، وأنقذ نفسه من جحيم المعركة.



منمنمة لمدينة "قرمان" التركية في القرن الخامس عشر الميلادي

وقد طلبت "نفيسة ملك خاتون" ابنة السلطان "مراد الأول" من أبيها الصفحَ عن زوجها "علاء الدين علي" حيث توسّلت إلى أبيها قائلةً:

"يا أبي العزيز لا تُقابل السيئة بالسيئة، بل قابلها بالحسنة واصفح عنه".

وفي الواقع فإن "علاء الدين علي بك" كان مثل طفل شقيّ مشاكسٍ حيثُ يتدخّل المسؤول عنه لحمايته من عواقب وتبعاتِ أفعاله الغبيّة، ولم يخيب السلطان "مراد الأول" -الذي كان رقيق القلب- ظن ابنته ورجاءها، فعفا عن صهره، لأنه كان قد تعلّم من أساتذته أن العفوَ هو زكاة النصر.

وقام "علاء الدين علي بك" بتقبيل يد حماه مقابل عفوه هذا، واعتذر مرّةً أخرى، لتُظهِرَ الدولة العثمانية بهذه المعركةِ قوَّتَها وسيطرتَها في شتى أنحاء الأناضول وأوروبا.

لقد تلألأ العثمانيّون كالشمس الزاهية فأضاؤوا ما حولهم ببريقهم الجذاب، واستطاعوا أن يُؤسّسوا دولةً ذات سيادةٍ ونفوذٍ، لكنَّ أخبارًا من أوروبا جاءت آنذاك تُفيد بأن هناك حملةً صليبيّةً جديدةً تُعدُّ وتُجهّزُ ضدّ الدولة العثمانية.

إن انشغال العثمانيّين بـ"بني قرمان" قد لَعِبَ دورًا مهمًّا في صالح الملك الصربي "لازار هربجانوفيك (*Lazar Hrebeljanovic*)"، فقد نجح في هزيمة الجيش العثماني في "بلوسنيك (*Plocnik*)" بالقرب من مدينة "نيش (*Nis*)" الصربية وذلك بواسطة الوحدات التي تُناهزُ الثمانين ألف جنديّ والتي تشكّلت بالاتّحاد مع "تفيرتكو (*Tvrtko*)" ملك "البوسنة".

لقد مُنيَ الجيش العثماني بقيادة "كوله شاهين باشا (*Kula Şahin*)" بهزيمةٍ نكراء، واستشهد ما يزيد عن نصف جنوده.

وهكذا فإن النصر الذي أحرزه ملك الصرب ضدّ العثمانيين قد شجّع أوروبا على إعداد حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ على الأراضي العثمانية، وبدأ يزداد عدد القائلين: "إن هذا الوقت هو الوقت الملائم تمامًا لحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ"، وقد تجمّعت جيوش "الكروات" و"الصرب" في وقتٍ قصيرٍ، كما أعلن كل من "بولندا" و"المجر" و"ألبانيا" والبلغار ومجموعات من الجنود من "دبروجة (*Dobruja*)[١٦]" و"أوله (*Vlachs*)" و"أفلاق" انضمامها إلى الحملة، ووعدت إيطاليا بأنها سوف تقدّم المساعدة عند الحاجة.

ومن ناحية أخرى طلب السلطان "مراد الأول" المساعدة والدعم من شتى إمارات الأناضول ضدّ هذا التحالف الصليبيّ، ولم تترك الإمارات الأناضوليّة العثمانيين وحدَهم يواجهون الصليبيّين، فأرسلت "بنو جاندار" و"بنو جَرْمِيانْ" و"بنو صاروخان" و"بنو مَنْتَشَه" و"بنو آيدين" و"بنو حامد" قوّات مساعدة سريعة، ونحّت جميعُ الإمارات خلافاتِها جانبًا، واتّحدت لمواجهة الصليبيّين.

(١٦) إقليم تاريخي مهم يقع اليوم جنوب شرق "رومانيا".

وقد تجاوز عددُ جيشِ الصليبيّين مائةَ ألفٍ وذلك لأوّل مرّةٍ في تاريخ الحملات الصليبية، في حين أن الجيش العثماني كان قوامه ستين ألف جنديّ، لكنّ السلطان "مراد الأول" لم يقف مكتوف الأيدي بل عمِل جاهدًا على تفكيك صفوف العدوّ عن طريق رجالِ استخباراتهِ المتيقّظين، إلى أن انفصل ملك بلغاريا "شيشمان" عن قوّات التحالف الصليبيّ، وعلى إثر ذلك قام السلطان "مراد الأول" بتنصيبه واليًا تابعًا للدولة العثمانيّة، وهكذا تمّ توجيه أوّل ضربةٍ إلى الجيش الصليبيّ، إلا أن بعض المتطوّعين "البلغار" تمكّنوا من الانضمام إلى الوحدات الصليبيّة بطرقٍ ملتويةٍ.

نصر "كوسوفو" الأول

وقد التقى الجيشان العثماني والصليبي في سهل "كوسوفو" في يوم العشرين من يونيو/حزيران عام (١٣٨٩م).

وقد كان السلطان "مراد الأول" يبتهل إلى الله بالدعاء أن يسكن الله الريح العاتية التي هبت تجاه الجيش العثماني، التي قد تتسبب في إيقاع الهزيمة بهم، لأنّ النصر لا يأتي إلا من عند الله.



معركة كوسوفو الأولى

وبحلول الصباح أنزل الله المطر سكينةً للريح، وتثبيتًا للأرض من تحت أقدامهم، وسجد السلطان "مراد الأول" شكرًا لله مرّةً أخرى، ودارت هناك رحى معركةٍ شرسةٍ ضروسٍ بين الطرفين لم يتوان المطر عن المشاركة بها من البداية حتى النهاية.

فلقد سجل الجيشُ العثمانيّ بقيادة السلطان "مراد الأول" أروع الأمثلة في البطولة والتضحيات في معركة "كوسوفو".

كان السلطان "مراد الأول" يتولّى القيادة من قلب الجيش، وعلى الميمنة ابنه الأمير "بايزيد"، وأما الميسرة فكانت تحت قيادة "يعقوب بك".

في البداية هاجم الفرسان الصرب المدرّعون الناحيةَ اليسرى من الجيش العثمانيّ والتي لاحظوا أنها ضعيفةً إلى حدٍّ ما، ولم يستطع هذا الجناحُ أن يتحمّل الهجمات العنيفة والمتلاحقة من قِبَلِ الصليبيّين، وبدأ الصليبيّون يُحرزون التفوّق تدريجيًا إلى أن أصبحوا على مقربةٍ خطيرةٍ للغاية من مركز الجيش الذي يقوده السلطان "مراد الأول".

وعندما لاحظ الأمير "بايزيد" -قائد قوّات الميمنة- انهيارَ الميسرةِ من الجيش؛ تحرّك كالبرق الخاطِف ليُنقذ الموقف ويُعيدَ التوازن، ونتيجة لسرعته هذه فقد أُطلق عليه لقب "يلدريم" ومعناه الصاعقة، فلازمه هذا اللقب منذ ذلك الحين،

وكان هجومه على الأعداء بسلاحه الدبوس[١٧] يُشعل حماس العثمانيّين ويشدّ من أزرهم ويشحذُ من هممهم بل كان ذلك المشهد الفدائي والصولجانـيّ المهيبُ يُلهِب الحماس في جذر قلوب الجنود العثمانيّين، وفي تلك الأثناء استطاع "يعقوب بك" -قائد قوات الميسرة- أن يستجمع قواه ويُعيد الكرّة في الهجوم على الأعداء بمساندة الأمير "بايزيد" في توجيه ركلةٍ عثمانيّةٍ إلى الأعداء.

وقد فرّ "فوك برانقوفيك (*Vuk Brankovic*)" -صهر "لازار" كبير قادة الصليبيّين- هاربًا من ميدان المعركة بجيش قوامه اثنا عشر ألف جنديٍ، فلم يمض وقتٌ طويل حتى أعقبه ملك البوسنة "تيفيرتكو".

وبعد كلٍ من هذين الفرارين انتهت المعركة بالنصر الحاسم للعثمانيّين، وقد وقع في الأسر عددٌ كبيرٌ من قادة الصليبيّين وعلى رأسهم "لازار" كبير قادة الصليبيين.

وقد استمرّت هذه المعركة الكبيرة -التي جمعت مائةً وستين ألف جنديٍ وأكثرَ من عشر دول- ثمانيَ ساعاتٍ فقط.

وذُكر انتصار "كوسوفو الأوّل" في التاريخ على أنه أكبر انتصار أحرزه العثمانيون في أوروبا حتى ذلك الوقت بعد "صِرْبْ صِنْدِيغِي".

استشهاد السلطان "مراد الأول"

لم يُحْرِزِ العثمانيّون نصرًا كبيرًا فحسب؛ بل إنهم وضعوا الأساس المتين والقواعد الصلبة للسيادة العثمانية التي استمرّت أكثر من خمسمائة سنةٍ في منطقة "البلقان".

إن لكل نصرٍ عظيمٍ ثمنًا باهظًا، والثمن في هذه المرّة هو قائد هذا النصر، فقد اغتيل السلطان مراد الأول" غدرًا -القائد المظفّر الذي لم يبخل بنفسه عن أيّ معركةٍ يخوضُها جيشه- أثناء تفقُّدِه ميدان المعركة بعد أن وضعت الحربُ أوزارَها وذلك على يد أحد جنود الصرب.

وقبل أن تهدأ الحرب أراد أحدُ الصليبيّين ويدعى "ميلوش قوبيلوفيك" الذي قيلَ إنه من نبلاء الصرب- أن يدخل خيمة السلطان قائلًا: "لقد اعتنقتُ الإسلام، وأريد رؤية السلطان مراد الأول، وسأقبّل يدَه".

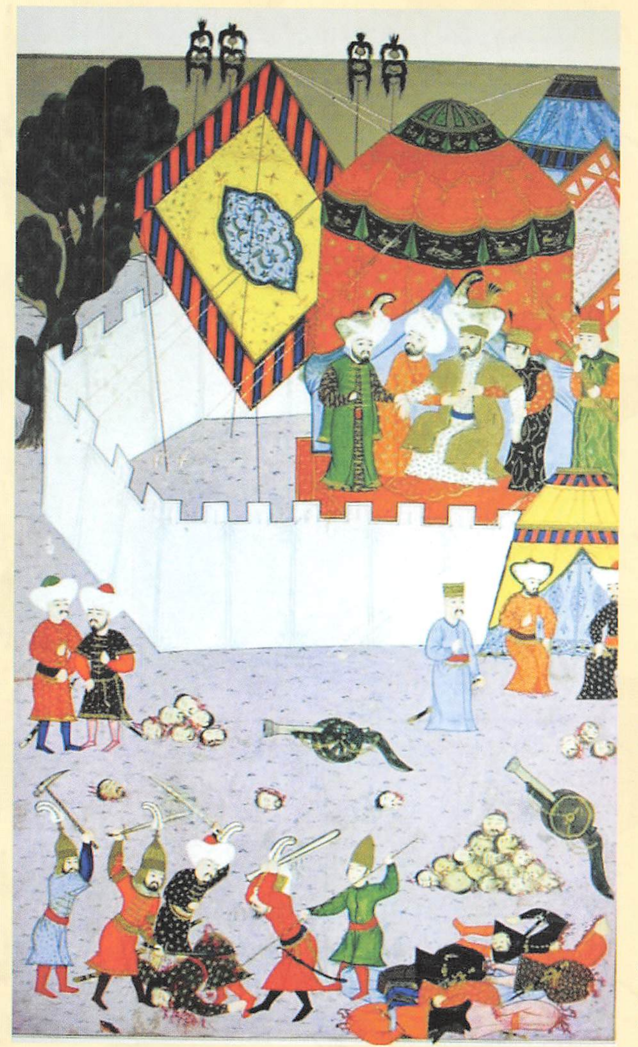
مرسوم خاص بالأوقاف بتاريخ ١٤ مارس (١٣٦٦م) بختم "مراد الأول" (من أرشيف قصر طوبقابي)

(١٧) هي عصا قصيرة من الحديد، لها رأس حديد مربع أو مستدير، وهي في العادة للفرسان يحملونها في سروجهم ويقاتلون بها عند الاقتراب. (المترجم)

وخاطب السلطان مراد الأول -الذي سمع الحديث من خيمته- حرّاسه قائلًا: "دعوه يدخل!".

وبمجرّد أن دخل "ميلوش" الخيمةَ مالَ على الأرض مظهِرًا احترامه وتقديسه للسلطان ثمَّ قام في الحال بإخراج الخِنجر الذي أخفاه في حذائه، وطعن السلطانَ مرادًا في صدره.

وطبقًا لروايةٍ أخرى: فإن السلطان "مراد الأول" كان قد طُعِنَ من قِبل "ميلوش" الجندي الصربيّ الذي كان يرقدُ على الأرض في تلك الأثناء متظاهرًا بالموت متحيّنًا اقتراب السلطان منه وهو يتفقّد القتلى في أرض المعركة، وفعلًا ما إن اقترب السلطان منه حتى انتفض من موته المزعومِ طاعنًا بخنجره وحِقدِه صدرَ السلطان الوليّ.


منمنمة تظهر استشهاد السلطان "مرادالأول".

ولم يسلّم السلطان مراد الروحَ بسرعةٍ بعد أن طُعن بالخِنجَر، بل عاشَ فترةً قصيرةً وهو متّكِئٌ على أذرع أبنائِه "يلديريم بايزيد" و"يعقوب بك"، وفي هذه الأثناء كان يتابعُ نُطقَ الشهادتين باستمرارٍ، ويطلب من القادة المقرّبين له ورفقاء السلاح أن يسامحوه.

وكان السلطان "مراد الأول" في الثالثة والستّين من عمرِه عند وفاته، انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد مدّةِ حكمٍ استمرّت سبعةً وعشرين عامًا، وفي الواقع فإن رفاق السلاح المقربين إليه قد سمعوا أنه قد اتّجه إلى الله بعد الصلاة التي أداها قبل أن تبدأ الحرب وسأل الله تعالى بعد الصلاة الشهادة، وها قد قُبِل دُعاء السلطان "مراد الأول" ونال شرف الشهادة.

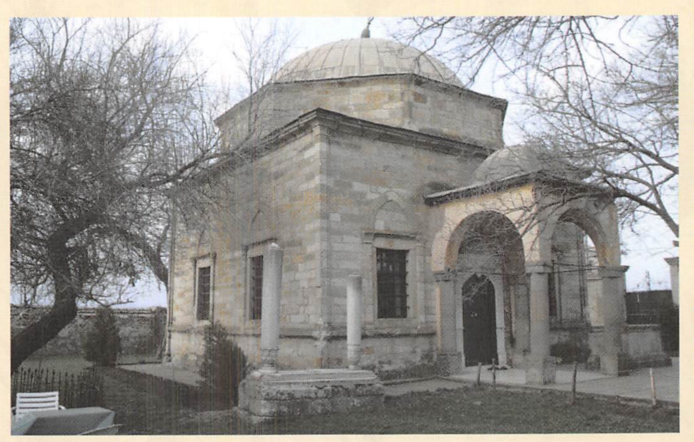
ومن المثير للاهتمام أنه قد توفّي نجمان كبيران شهيران من نجوم الأمّة الإسلاميّة في نفس اليوم والتاريخ الذي استشهد فيه السلطان "مراد الأول" الذي كان يولي اهتمامًا بالغًا بالعلماء وأصحاب الفنون، أوّلهما القطب الصوفيّ "بهاء الدين السمرقندي" النقشبندي مؤسّس الطريقة النقشبنديّة والذي يتربّع في قلوب ملايين المريدين، والآخر هو "حافظ الإيراني" أكبر شعراء الشرق في ذلك الوقت.

السلطان مراد الأول صاحب الضريحين

بعد أن أفاق القادة العثمانيّون من صدمة استشهاد السلطان، أُخرِجت أحشاء السلطان "مراد الأول"، ودُفنت في سهل "كوسوفو"[(١٨)]، وفيما بعد شُيِّد ضريحٌ في هذا المكان، وأُطلق على هذا الضريح اسم "مشهد خُدَاوَنْدِكَارْ"، وأصبحت لهذا الضريح مكانةٌ خاصّةٌ لدى مسلمي البلقان منذ ذلك اليوم، ويتمّ تخليدُ ذكرى السلطان العظيم اليوم بالدعاء وقراءة الفاتحة وسورة يس، لأن ذلك هو السلطان الأول والوحيد الذي استشهد في ساحة المعركة خلال التاريخ العثماني كلّه، بعدَ أن أمضى أكثر من ربع قَرنٍ من الزمان على سُدّة الحكم العثماني تميّزت الرخاء والأمن والاستقرار والتضحية، وتمّ نقلُ جُثمان السلطان الشهيد إلى مدينة "بورصة"، ودُفن في الضريح الذي شُيِّد له في حي "جكيرجه (Çekirge)".



ضريح السلطان "مراد الأول" الموجود بمدينة "بورصة"



ضريح السلطان "مراد الأول" الواقع في مدينة "كوسوفو"

(١٨) وذلك بناءً على التقاليد العثمانيّة، حيثُ تُستَخرَجُ أحشاء الشهيد السلطان وتُدفن في مكان استشهاده، ثمّ يُنقَلُ باقي الجثمان إلى العاصمة. (المترجم)

سمات السلطان "مراد الأول"

المظهر الخارجي:

- كان السلطان "مراد الأول" متوسّط القامة، مستديرَ الوجه ذا نظرةٍ حادّةٍ، وكان أنفُه يُشبه أنفَ الكبش مثل أنف والده.
- عنقه طويلٌ وأصابعه سميكة.
- ملابسه بسيطةٌ للغاية، وكان يحبّ الأقمشةَ ذات الأرضيّة الخضراء والحمراء مع وجود اللون الأبيض في مقدّمتها.

شخصيته وسلطنته:

- دارت سبع وثلاثون معركة مهمّة في مدّة سلطنته التي استمرّت سبعةً وعشرين عامًا، ولم يتعرّض لأيّ هزيمةٍ في أي واحدةٍ من هذه الحروب، وكان يُنهي كلّ حربٍ يدخلها بالانتصار.
- اشتهر بتدينه وحبه للخير، وكان ورعًا تقيًا، حتى إن المؤرخ "نِيكُولَا لُورْجَا (*Nicolae Iorga*)" الروماني الأصل الذي عُرف بكراهيته الشديدة للعثمانيّين يصف السلطان مراد بـ"الكريم النبيل الذي لم يهزم المسيحيين فحسب، بل عرف كيف يكسب قلوبَهم، فهو الفطن والمتسامح والسيّد"[١٩].
- فيما قال "هَالْكُونْدِيل (*Halkondil*)" اليوناني والمؤرخ الرومي ما يلي عن السلطان مراد: "كان لا يتكلّم إلا قليلًا، لكنّه كان ينطِقُ بالحكمة الصواب، وكان حاكمًا صالحًا، وصيّادًا فالِحًا، وفارسًا لطيفًا ناصحًا، لا يكلّ ولا يملّ...".
- ويهتمّ بكلّ مَن هو على أرض دولته بغضّ النظر عن دينه وقوميّته، وكان يتصرّف بالعدل.
- كان حذِرًا يولي أهمّيّةً كبيرةً للتخطيط في كل أعماله.
- ويتصرّف برباطة جأشٍ حتّى في أحلَكِ الأوقات وأصعب الظروف.
- ويسيطر على كلّ أموره بشكل صارم، ويُذلّل الصِّعاب بهمّته العالية وإقدامه القويّ.

---

(١٩) فرانسيس، ص ٨١.



طغرة السلطان مراد الأول

- كان مجتهدًا فائقًا يتمتّع ببنيةٍ جسديّةٍ وروحيّةٍ حيويّةٍ ونشيطة.
- ويتصرف بلينٍ وعفوٍ ورحمةٍ تجاه أعدائه الذين يستسلمون.
- لم يكن يتوانَى عن المعاقبة والمكافأة أيضًا إذا لزم الأمر.
- من يعمل في خدمته أو يكون بالقرب منه ظلّ مرتبطًا به حتى وفاته.
- يفي بوعده مهما كلّفه ذلك.
- كان جوادًا كريمًا سخيًّا ولا يردّ من يقصد بابه.
- كان قليل الكلام مع قوّةٍ في الخطابة، وله خُطَبٌ مؤثّرةٌ.
- وأمّا خُطَبُه الحربيّة فهي مثيرةٌ بليغةٌ تشحذُ همّةَ الجنود وتُلهِبُ حماسَهم، حيثُ كانَ يختار كلماتِه بعنايةٍ فائقة، فيُقنع المستمعين له ويأسر عقولهم بحِكَمِه.

واجهة مدرسة "مراد خداوندكار" بمدينة "بورصة"

- وكان يولي أهمّيّةً كبرى للتشاور، فأسّس مجلسًا استشاريًّا موسّعًا، ولم يكن يقوم بأمرٍ دون استشارة.
- كان يتصرّف بكلّ اتّزانٍ ورباطة جأشٍ حتى في الملمّات والنوازل العصيبة.
- ويُنصِت لآراء من يخالفه في الفكر والرأي، ولم يكن يخجَل من اعتماد بعضِ أفكار معارضيه إذا رأى أنها أكثر صوابًا من أفكاره.
- كان ينظر بتسامحٍ إلى منتقديه، ويعدل عن أفكاره إذا لزم الأمر.
- وقد أوجد العديد من الأنظمة الجديدة كلّيًّا، عسكريًّا وإداريًّا واقتصاديًّا، لأنه حاكمٌ يهتمّ بتنظيم عمله.
- وفي عهده أصبحت الدولة العثمانية امبراطوريةً تُنافِس جيرانها بقوّةٍ في شتّى المجالات بما فيها البحريّة.



مشهد من داخل جامع "مراد خداوندكار" بمدينة "بورصة"



المصارعة في "قِرقبينار"

لم يكن السلطان "مراد الأول" شغوفًا بالفن والعلم فحسب، بل كان مُهتمًا بالرياضة أيضًا، والدليل على ذلك أنَّه ساهم في إنشاء "اتحاد للمصارعين" بمدينة "أدرنه" حين أعلنها عاصمة للدولة العثمانية.

وقد لقي هذا الاتحاد ترحابًا كبيرًا من قبل المصارعين؛ حيث إنهم كانوا يستمتعون بالمصارعة فيه لأكبر وقت ممكن، ولم يكن المطر ولا وحل الشتاء يحولُ دون الاستمتاع بهذه الرياضة، ويتوفر في "قِرقبينار" ساحات صيفية وشتوية لممارسة تلك الرياضة، كما عمل المصارعون المهرة كمدربين في هذا الاتحاد.

وبعد فترة تحولت "قِرقبينار" إلى مركزٍ رياضيٍ تُقامُ فيها مسابقات المصارعة الكبرى، وقد برزت أسماء مصارعين أسطوريين أمثال "كَل أليجو (*Kel Aliço*)" و"قوجه يوسف (*Koca Yusuf*)" و"هَرجَلَجي إبراهيم (*Hergeleci Ibrahim*) و"جولاق مؤمن (*Çolak Mümin*) ومحمد كُورْت درَلي (*Kurt-dereli Mehmet*) خُلِّدت أسماؤهم حتى اليوم.

أما بعد إعلان الجمهورية فقد استمرت عروض هذه المصارعة التقليدية تحمل نفس الاسم في موقع "سراي إيجي" بمدينة "أدرنه" على مقربة من "قِرقبينار".

ويرى معظم المؤرخين أنَّ عام (١٩٠٠م) هو بداية انطلاق دورات الألعاب الأوليمبية الحديثة، وعلى هذا تُعد مباريات المصارعة التي أقيمت في "قِرقبينار" في عهد مراد بمثابة أقدم دورات رياضية نُظمت قبل دورة الألعاب الأوليمبية.

والسؤال المطروح هنا، إلى أين تمتد جذور أسطورة "قِرقبينار"؟

تَرُوجُ قصتان مختلفتان بشأن هذا الموضوع: الأولى منهما تحكي أنَّه قد استُشهِد أربعون فارسًا في هذه المنطقة أثناء عبور الجيش العثماني إلى "روملي".

وبعد ذلك -ووفقًا للقصة المتداولة ذاتها- انبجست أربعون عينًا فجأة حيث استشهد هؤلاء الفرسان، وبمرور الوقت أصبح اسم هذا المكان "قِرقبينار" (أي: أربعون ينبوعًا).

أما القصة الثانية فتحكي أنَّ جنودَ السلطان "مراد الأول" نزلوا في تلك المنطقة للاسترخاء بينما كانوا يزحفون نحو "روملي"، وفي تلك الأثناء تصارع أربعون فارسًا، وظل اثنان من هؤلاء الفرسان يتصارعان رغم انتهاء المصارعة، إلا أنهم لم يتغلب أي منهما على الآخر، وما كانا يَنويان ترك المصارعة، وقام الباقون بتشجيعهما، ومرت الساعات، وغربت شمس اليوم وأشرقت شمس يوم جديد، وبعد أن تملكهما التعب احتضن كلٌّ منهما الآخر في ميدان المصارعة وأسلما روحيهما إلى بارئهما.

ومرت عدة سنوات على ذلك، وسلك الفرسان -الذين تصارعوا من قبلُ في ذلك المكان- نفس الطريق مرة أخرى، وهموا بزيارة قبري صديقيهم، فلما وصلوا إلى المنطقة التي تصارعا فيها تفاجؤوا برؤية عين تنبجس هادرة في المكان الذي يرقد فيه صديقاهما، فأطلقوا على هذا المكان اسم "قِرقبينار" أي الأربعون عينًا.

وأضحى هؤلاء الفرسان يزورون هذا المكان كل عام، ويمارسون رياضة المصارعة تخليدًا لذكرى صديقيهم، وبمرور الوقت تحول هذا التقليد إلى تنظيمات رياضية على نطاق واسع وصلت بنفس الإثارة إلى يومنا هذا.

وقد ذكر المؤرخون في كتبهم أنَّ السلطان عبد العزيز الذي اشتهر بمهارته في المصارعة يعد أكثر السلاطين اهتمامًا بمراسم المصارعة في قِرقبينار.

الفرقة الموسيقية العسكرية "مهتر"

كانت وظيفة هذه الفرقة الموسيقية العسكرية تتلخص في تحفيز الأهالي في السلم ورفع همم الجنود في الحرب، كما أنها تُعدُّ مصدرَ إلهام أيضًا للملحنين الغربيين الكبار من أمثال "موتسارت (*Mozart*)".

وتمتد جذور هذه الفرقة الموسيقية العسكرية في الدولة العثمانية حتى إمبراطورية "الهون"، وقد ذهب العديدُ من المؤرخين إلى أنَّ هذه الفرقة تعتبر "أقدم فرقة موسيقية في العالم".

كانت هذه الفرقة الموسيقية مجرد فريق موسيقي عسكري بسيط في عهد عثمان غازي، ثم تحولت بمرور الوقت إلى فرقة كبيرة تضم العديد من الآلات الموسيقية.

وكان يطلق تعبير" إطلاق نوبة" على عزف العديد من القطع الموسيقية المتتالية من نفس المقام، وكانت هذه الفرقة تبدأ العزف -بصفة عامة- بكلمات "هيا يا زعيم الفرقة إنه وقت السرور والصفاء!"

ويطلق على أعضاء هذه الفرقة الموسيقية "مهترخانه"، حيث كانوا في غير أوقات الحرب يتحلّقون فيما بينهم فيُجرون عُروضًا موسيقية من أجل تسلية المشاهدين؛ بحيث يعزفون الموسيقى وهم يخطون خطوات متأنية شامخي الرأس، وما زال هذا العرض يحظى باهتمام وإعجاب الكثيرين إلى يومنا هذا.

وفي حين كان عزف آلات هذه الفرقة الموسيقية وأصواتها تبعث السرور والطمأنينة في قلوب الأهالي والموالين لشعبنا كان في الوقت نفسه يبعث الخوف في قلوب الأعداء.

وكانت هذه الفرقة وأعضاؤها جزءًا من قوات الإنكشارية، وقد أُوقِفَت هذه الفرقة عن العمل عام (١٨٢٦م) إثر قرار السلطان محمود الثاني بإلغاء فرقة الإنكشارية من الجيش العثماني، ثم أُعيدت مرة أخرى عام (١٩١٤م)، لكنها أُلغيت ثانية عام (١٩٣٥م).



وقد تشكلت هذه الفرقة من جديد عام (١٩٥٢م) قبيل الإعداد لتنظيم احتفالات مرور الذكرى السنوية الخامسة بعد المائة على فتح إسطنبول، وكان هذا بفضل الأستاذ "إبراهيم حقي القونيوي" الباحث في التاريخ التركي، وانضمت هذه الفرقة إلى المتحف العسكري بإسطنبول، ولا تزال تواصل عروضها منذ ذلك اليوم حتى الآن خمسة أيام في الأسبوع.

وبالطبع فإن ثمة فرقًا موسيقية من هذا النوع شكَّلتها بعض المؤسسات الخاصة خلقت نوعًا من الفرحة والبهجة في الأعياد والمناسبات القومية.

إنَّ الفرقة الموسيقية "مهتر" يتوافر لديها كثير من الأدوات الموسيقية كالطبلة الكبيرة والطبلة الجانبية والصنجات والأبواق المتنوعة بجانب مجموعة من العازفين يصل عددهم أحيانًا إلى أربعين شخصًا.

وقد استعارت الفرق الموسيقية الغربية بعض آلات هذه الفرقة العسكرية نظرًا لإعجابها الشديد بجمال عزفها، كما استلهمت مقطوعات موسيقية من ألحانها وعزفها.



القلعة التي تهدمت بالدعاء

كانت هناك قلعة يطلق عليها "بُولُونْيَا (*Pulunya*)" تقع في نواحي منطقة "جطلجه (*Çatalca*)"، وكان جنودها يقومون بقطع الطرق من وقت لآخر، ويسرقون المسافرين، ويسلبون ممتلكاتهم، وفضلًا عن ذلك فقد كان السلطان "مراد الأول" يرغب في الاستيلاء على هذه القلعة لما تتمتع به من موقع استراتيجي؛ إذ إنَّها كانت تقع على طريق "رُومَلِي"، ولهذا فقد تحرك بنفسه على رأس جيش للاستيلاء على القلعة، وعلى الرغم من الجهود المبذولة إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها؛ نظرًا لاستماتة الجنود في الدفاع عنها، وقد حاول "مراد الأول" فتحها عدة مرات إلا أنَّه لم يُوفَّقْ لذلك.

وقد أثار هذا الأمرُ غضبَ السلطان "مراد الأول" المعروف بحلمه فدعا الله والحزن يتملَّكُه:

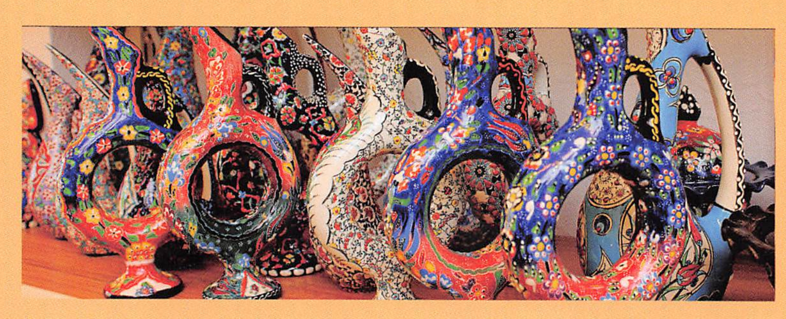
"اللهم امْحُ هذه القلعة من على وجه الأرض!"

ثم أمر السلطان "مراد الأول" جنوده بفك الحصار عن القلعة والرحيل عنها، وفي طريقهم للعودة نزلوا إلى مكان مليء بالأشجار كي يستريحوا، وحينها قدم رسول يبدو عليه الاضطراب، فدخل إلى السلطان "مراد الأول" وقال له:

"مولاي السلطان، إن قلعة "بُولُونْيَا" التي لم نستطع الاستيلاء عليها قد خُسفت بها الأرض، وتهدمت من تلقاء نفسها، وانهارت، وقد أبلغني ذلك مَنْ شاهدوها بأعينهم".

فقال السلطان "مراد الأول": "الحمد لله! هذا من فضل ربي..."

ثم التفت إلى الجنود فجأة، وقال بنبرة صوت أشد:



"لا يصح أن تقولوا: "تهدمت من تلقاء نفسها، وانهارت" فيستحيل أن يكون هناك شيء يحدث من تلقاء نفسه، هذه هي عطية الله ومنَّته لنا، أليس كذلك؟"

فقال كل الحاضرين:

- بالتأكيد هذا صحيح.

ثم أرسل السلطان "مراد الأول" "لالا شاهين باشا" إلى القلعة، وأمره بتولي زمام الأمور هناك.

السلطان "مراد الأول" في نظر المؤرخ "إدوارد جيبُّون (Gibbon)"

يصف المؤرخ الإنجليزي الشهير "جيبُّون" (١٧٣٧-١٧٩٤م) -الذي يعد رائد المؤرخين- السلاطينَ العثمانيين الأوائل عامة والسلطان "مراد خاصة بقوله:

"لقد جمع السلطان "أُورْخَان غازي" عدة قبائل، وأقام بهم دولة، وأما السلطان "مراد الأول" فقد أسس إمبراطورية"[١]

شعر عن مدينة "أدرنه"

حين يُذكَرُ جامع "سليمية" تتبادر إلى الذهن مدينة "أدرنه"،
ويبعث هذا الذكرُ في القلوب الطمأنينة
كما تتبادر إلى الذهن مجموعة من الأحزمة وسُبُلِ المياه والمآذن...
إنها مجموعة من أسماء الآثار العتيقة القيّمة...
ومدخل جامع ذي ثلاث مآذن
يقع عند نهاية طريق ممهد بالأحجار،
وإذا استدرت إلى ذلك الجانب
ترى صحن الجامع القديم،
وحين تتقدم ثلاث خطوات أخرى
تظهر أمامك قبة متوارية عن الأنظار.
وتظهر أجمل المآذن في العالم وأعظم القباب.[٢]

ماذا فعل السلطان "مراد الأول" بالهدايا التي قُدِّمت إليه أثناء حفل زفاف ابنه؟

أرسل حاكم "بني جَرْمِيانْ" رسولًا إلى السلطان "مراد الأول"، وحَمَّلهُ بمجموعة من الهدايا عبارة عن خيولٍ جيدةٍ ومنسوجاتٍ شهيرةٍ من منسوجات مدينة "دنيزلي"، وأرسل معه خطابًا قال فيه:

"أريد أن أُزَوِّج إحدى بناتي لابنكم "بايزيد بك"، فَتَقْوَى أخوتنا ووحدتنا".

(١) (جيبون، ترجمة راغب خلوصي، ص ١٥٧).
(٢) شعر: "عارف نهاد آسيا"

وقد استحسن "مراد الأول" هذا العرضَ، وبعد أن تشاور مع ابنه "بايزيد" أرسل خطابًا إلى حاكم "بني جَرْمِيانْ" قال فيه: "ليبارك الله لهما".

وعندما حان موعد الزفاف أقيم حفل رائع استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بمشاركة ملوك وأمراء الدول المجاورة وحكام السناجق والقادة المشاهير أيضًا، وقد قدم المشاركون عديدًا من الهدايا؛ كان من بينها الجمال والخيول والقماش والحلي والزبد الخالص والجبن المحفوظ في القِرَبِ... إلخ، أضف إلى ذلك أن هدايا "أُورَانُوسْ غازي" القيّمة كانت تستحق المشاهدة بالفعل؛ فقد كانت كثيرة لدرجة أنه حملها مائة رجل ومائة جارية؛ إذ كان في يد عشرة رجال منهم عشرُ صوانٍ ذهبية مملوءة بالمجوهرات، وفي يد عشرة رجال آخرين عشرُ صوانٍ فضيّة مملوءة بالنقود، بينما لم تكن أيادي الثمانين الآخرين خالية الوفاض بل كانت مملوءة بالأباريق القيمة والأقداح الفضية الكبيرة.

لم يكن هذا القدر من الهدايا القيمة يمثل شيئًا بالنسبة إلى باشا مثل "أُورَانُوسْ" الذي لعب دورًا كبيرًا في الغزوات للاستيلاء على الأراضي وضمها للدولة العثمانية، ونقل الكثير من الكنوز والغنائم إلى خزينة الدولة العثمانية.

في رأيكم ماذا فعل السلطان "مراد الأول" بهذا الكم من الهدايا التي تبهر الأنظار؟

قسَّم السلطان "مراد الأول" معظم الهدايا التي جاءته؛ فأعطى جزءًا منها إلى المبعوثين المسيحيين، أما الخيول الجيدة التي أحضرها هؤلاء المبعوثون فقد أرسلها إلى "أُورَانُوسْ باشا"، وبينما أعاد جزءًا من الأموال التي أحضرها "أُورَانُوسْ باشا" وزع الباقي على العلماء والفنانين والمساكين، ولم يترك شيئًا لنفسه، بل قبل فقط الهدايا المنزلية التقليدية والأطقم المتواضعة التي جاءت إلى ابنه.

المغيرون الذين يعملون أكثر مما يتحدثون

اشتهر الأتراك منذ العهود القديمة بأنهم يكرهون الضوضاء وكثرة الكلام، فمبدؤهم هو التكلم قليلًا والعمل كثيرًا.

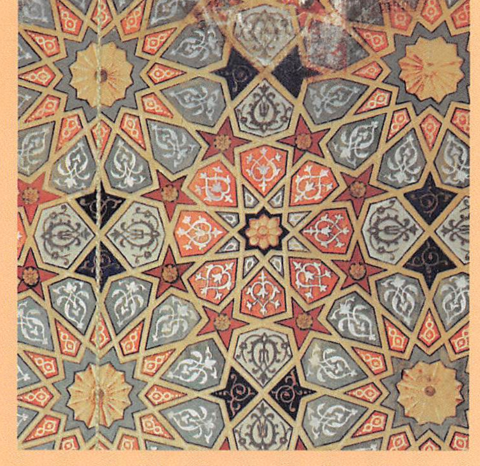
وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك قانون ينصُّ على معاقبة مَنْ يتكلم كثيرًا مِن الجنود؛ إلا أنه كانت كلمات الجندي التي تتجاوز أكثر من عشر كلمات في ساعة واحدة بدون داعٍ تُعدُّ ثرثرةً وخطأً، فكان يُعاقبُ مَنْ يتحدث أكثر إحدى عشرة كلمة، ويحكي المؤرخ الشهير "شِيكَارِي (Şikarî)" إحدى الحوادث في كتابه "تاريخ بني قرمان " على النحو الآتي:

"هَزم السلطانُ "مراد الأول" السلطانَ علاءَ الدين -صهرَه وحاكمَ "بني قرمان"- فاستولى على مدينة "آق حِصَارْ"، بعد ذلك أقام أهل المدينة الموائد العامرة للقائد والجنود المنتصرين.

وقد قام السلطان "مراد الأول" بدعوة علاء الدين حاكم "بني قرمان" -الذي كان اضطر إلى قتاله سابقًا- إلى هذا الحفل، ولوحظ في هذه الأثناء أن الجنود كانوا يتناولون الطعام دون أن يرفعوا رؤوسهم، وأنهم لم يتكلموا سوى بضع كلمات فقط خلال ساعة من الزمن، مما يدلُّ على أنهم تلقوا الأوامر الصارمة بعدم رفع رؤوسهم أو التحدث أثناء الأكل".

حِلْمُ السلطان "مراد الأول"

في نهاية إحدى الفتوحات جُمعت كُلُّ الغنائم أمام السلطان "مراد الأول"، وبينما كان السلطان يلقى نظرة على حصته التي تبلغ نحو خمس الغنائم جذب اهتمامه وعاء ذهبي رائع الجمال، غير أن "إيتش أوغلان" -أحد موظفي القصر الذي كان لا يزال في مطلع شبابه- أخذ الوعاء الذهبي بخفة يد ووضعه داخل قلنسوته.



وقد لاحظ السلطان "مراد الأول" ما قام به ذلك الشاب اليافع، غير أنَّه لكياسته وحلمه لم يستحسن أن يصرح للشاب -الذي في مطلع عمره- بخطئه في وجهه، فالتفت إلى موظف الخزينة وسأله قائلًا: "كان هناك وعاء ذهبي بين تلك الغنائم، فأين هو؟".

فلما بدأ أمين الخزينة الذي سيطر عليه الاضطراب والقلق يركض يمينًا ويسارًا خاطبه السلطان من خلفه قائلًا: "رأيته الآن، لقد لَبِسَهُ هذا الصبي رغبةً منه في أن يداعبك، فاذهب وخذه منه".

أقصر وأطول مدة قُضيت في منصب الصدارة العظمى

كان "علي باشا الجنداري" صاحب الرقم القياسي لبقاء أطول مدة في منصب "الوزير الأعظم" -الذي تغير اسمه فيما بعد إلى "الصدر الأعظم" أي رئيس الوزراء العثماني- وقد ظل علي "الجنداري" في منصبه لمدة تسعة عشر عامًا تشمل فترة حكم "مراد الأول" و"يلدريم بايزيد" وفترة خلو السلطنة أيضًا.

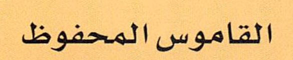
أما صاحبُ الرقم القياسي في قضاء أقصر مدة في نفس المنصب فهو "زُرنازَن مصطفى باشا"؛ حيث شغل هذا المنصب مدة لم تتجاوز أربع ساعات فقط.

سوق التحف والأشياء الثمينة المغطى

إن المساجد الكبرى وأسواق التحف والمقتنيات الثمينة المغطاة أحد رموز العمران العثماني التي لم تتغير عبر العصور، فقد اهتم السلاطين العثمانيين بدءًا من "أُورْخَان غازي" بإنشاء مسجد كبير في كل مدينة فتحوها، علاوة على أسواق للتحف والمقتنيات الثمينة مغطاة يأمن فيها التاجرُ على بضاعته، ويُشبِهُها في وقتنا الحالي مجمعات ومراكز التسوق الكبرى، وتعد الجوامع الكبرى والأسواق المغطاة الموجودة حاليًا في الشام وإسطنبول نماذج معمارية رائعة لا تزال موجودة حتى وقتنا هذا.



السوق المغطى القديم - اسطنبول



القاموس المحفوظ

استطاع المعلم "جمال الدين البُورْصَوِي" -الذي عمل مدرسًا للغة العربية في عهد السلطان مراد- أن يحفظ واحدًا من أهم قواميس اللغة العربية كاملًا عن ظهر قلب.

كابوس الملك "شارل السادس"

يروي المؤرخون الفرنسيون في كتبهم أن القصر الفرنسي كان يتابع عن كثب الإنجازات التي حققها السلطان "مراد الأول".

فالحجاج المسيحيون من النبلاء الفرنسيين العائدين من القدس قد حكوا للملك "شارل السادس" -الذي كان لا يزال في سن الطفولة- ما حصلوا عليه من معلومات بشأن السلطان "مراد الأول" قائلين:

"إنه قائد محنك ذكي جدًّا وحذر، يخشى الله، ويحسن معاملة الجميع حتى الأسرى، وكان لا يفرض الضرائب الجائرة على الشعب، وشعبُه مخلص له للغاية، فضلًا عن أنَّ لديه جواسيس في كل مكان".

أما آخر ما قاله الحجاج المسيحيون فهو مثير للاهتمام إذ قالوا: "وفقًا لما يردده الجميع فإنَّ السلطان العثماني سوف يتجه إلى فرنسا عندما ينتهي من مهمته في النمسا".

وكان الملك "شارل السادس" قد تأثر من تلك الكلمات لدرجة أن الخوف كان يطارده صباح مساء، بل لازمه حتى بعد وفاة السلطان "مراد الأول" مما جعله يوقع معاهدة للسلام مع إنجلترا التي يختلف معها في كثير

من الرؤى والأفكار، كما أنه اقترح عليها إعداد حملة صليبية جديدة على الدولة العثمانية، إلا أنَّ صلاحياته نُزِعَت منه عام (١٣٩٢م) نظرًا لاختلال في قواه العقلية.

الأرشيف العثماني

كان العثمانيون يهتمون بحفظ الأوراق والمستندات اهتمامًا بالغًا، ولم يسمحوا بإتلافها، فكانت جميع المكاتبات الخاصة بالدولة العثمانية من فرمانات وبراءات ودفاتر...إلخ تُحفظُ بعناية، ولهذا يُعدُّ الأرشيف العثماني أكبرَ أرشيف على مستوى العالم، وفيه ملايين من الوثائق لم يتم الاطلاع عليها حتى الآن.

النُزُل

إن ما يُعرف باسم "النُزُل" التي انتشرت في عهد "القرخانيين" تهدف إلى استراحة المسافرين خلال رحلاتهم وتلبية احتياجاتهم الخاصة من مأكل ومشرب، فضلًا عن العناية بخيلهم، وقد استمرت في عهد العثمانيين أيضًا؛ فقاموا ببناء مئات من النزل يحصل فيها المسافرون على خدمات مجانية كالعناية بخيلهم لمدة ثلاثة أيام مجانًا، وتوفير المرافق من خيلٍ وملابسَ جديدةٍ إذا لزم الأمر، وتوفير المياه الساخنة أيضًا في الصنابير شتاءً، وعلى الرغم من تطور الإمكانيات في وقتنا الحالي إلا أنه لا توجد دولة في العالم استطاعت أن تؤسس نظامًا كهذا.

أول أمير يتمرد على والده

ظهر العديد من النزاعات على السلطنة بين الأخوة من الأمراء العثمانيين، غير أنَّ التمرد الذي قام به "صاوجي بك" ضد السلطان "مراد الأول" يُعَدُّ أول تمرد في التاريخ العثماني يقوم به أمير ضد والده طمعًا في السلطنة.

الجهاز القضائي لدى الدولة العثمانية

كان القضاء العثماني يعمل بشكل منظم جدًّا بحيث يستطيع إصدار الأحكام في مدة قصيرة للغاية، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا كيف يستطيع الجهاز القضائي في دولة تصل مساحتها عشرة أضعاف مساحة تركيا الحالية أنْ يُصدرَ الأحكامَ بهذه السرعة؟

والإجابة عن هذا السؤال تتلخص في النقاط التالية:

أولًا: لم تكن المناطق السكنية لديهم مزدحمة كما هي الآن.

ثانيـًا: لـم يكـن الأهالي يذهبون إلى القاضي ما لم تقتـضِ الضرورة ذلك، فغالبًا ما كانوا يحلون مشـاكلهم فيما بينهم، كما أنهم كانوا يعتبرون الذهاب إلى القاضي في كل مشكلة عيبًا.

ثالثًا: كانت الخلافاتُ البسـيطةُ يَحُلُّها وجهاءُ وعلماءُ وكبارُ رجال المدينة الذين يطلق عليهم "الأشـراف"، وكان الجميـع يلتزمـون بمـا يصدره الأشـراف مـن قـرارات؛ إذ كان هؤلاء يدركون جيـدًا ما يتحملونه علـى عاتقهم من مسؤولية اجتماعية.

وحدات عثمانية تؤجر لأمراء "البلقان"

كان السـلاطين العثمانيـون الذيـن وضعوا دائمًا واقـع الحيـاة الاجتماعية في عين الاعتبـار يهتمون بنمو اقتصاد بلادهم اهتمامًا بالغًا؛ فكانوا يرون وجود طبقة فقيرة وتعيسة بين الشعب دليلًا على فشل إدارة الدولة.

وقـد كان أحد أسـباب خـروج العثمانيين للغزوات والحـروب هو تحقيق النمو الاقتصـادي، ونلاحظ أن حكام العثمانييـن قامـوا فـي بعض الفتـرات بتأجير بعض الوحدات العسـكرية فـي الجيش لحكام البلقان مـن أجل توفير الأموال لخزينة الدولة، وكان السـلطان "مراد الأول" هو أولَ من طبّق هذا النظام الذي عُرف فيما بعد -وفي القرن العشرين تحديدًا بالجنود المرتزقة[٣].

هواية الصيد لدى السلطان "مراد الأول"

يذكـر المؤرخ العثماني "محمد نشـري" أنَّ السـلطان "مـراد الأول" كان يهتمُّ بأعمال الخيـر مثل جده، وقد أفنى عمـره كلـه مجاهدًا في سـبيل الله؛ فما قام به السـلطان "مـراد الأول" مِنْ غزوات لم يقم به أيُّ سـلطان قط من أبناء عثمان، كما كان شغوفًا بالصيد محبًا له، وكان يمتلك عددًا كبيرًا من كلاب الصيد وصقوره".

منصب أمير الأمراء

شـغل منصب "أمير أمراء" في فترة تأسـيس الدولة العثمانية شخص واحد، وكان أمير الأمراء يشرف على شؤون الجيش، وقد شـغل سـليمان باشـا ابن السـلطان "أُورْخَان غازي" هـذا المنصب وتولى قيادة الجيـش في عهد أبيه،

(٣) (التاريخ العثماني، الأستاذ الدكتور إسماعيل حقي أوزُن جَرشيلي (*Hakkı Uzunçarşılı*)، المجلد الأول، ص ١٧٧)

وخلفه بعد وفاته "لالا شاهين" باشا، وقد تبيّن عقب الفتوحات التي تمت في "روملي" صعوبةُ إدارة الأناضول و"روملي" من قبل أمير أمراء واحد، وبناءً عليه انقسم منصب أمير الأمراء بين اثنين على أن يشرف أحدهما على منطقة "روملي" والآخرُ على الأناضول، وقد أُسس منصبُ أمير أمراء "روملي" في عهد مراد الأول، أما منصب أمير أمراء الأناضول فقد أسس في عهد السلطان "يلدريم بايزيد".

وكان أمير أمراء "رُومَلِي" يتقدم على أمير أمراء الأناضول في مراسم الدولة، وكان مَقَرُّه في "مناستر"، بينما كان مقر أمير أمراء الأناضول في ولاية "كوتاهية"، وقد ازداد عدد أمير الأمراء في السنوات التي تلت ذلك، غير أنَّ صلاحياتهم حُددت؛ فكان أمير الأمراء في هذه الفترة يعمل كوالي للمدينة، وكان مكلفًا بحل المشاكل العسكرية وتوفير الأمن والاستقرار في المدينة التي يترأسها، وكان ينضم في وقت الحرب إلى الجيش مع وحدات الخيالة.

دعاء السلطان "مراد الأول" المستجاب

كان الطقس حارًّا عاصفًا عندما وصل الجيش العثماني مشارف "كوسوفا"، وبمجرد أن خيَّمَ الظلام حطَّ الضباب على المنطقة وانعدمت الرؤية تمامًا، حتى إنَّ الخيول أصيبت بنوع من الارتباك والتشتت، وزادت الرياح من سرعة هبوبها؛ فأخذ مراد الأول يصلي ويتضرع إلى الله بالدعاء حتى وقت متأخر من الليل، وفي اليوم التالي طلب من قادة جيشه أن يذهبوا إلى خيامهم ويَدَعُوهُ بمفرده، فلما تركوه قام وجدد وضوءه وصلّى صلاة الحاجة، وبدأ يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء دون أن يرفع عينيه عن السجادة قائلًا:

"اللهم إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأنت تعلم سبب مجيئنا إلى هنا، اللهم إنك تعلم أنَّا خرجنا من بلادنا لإعلاء كلمتك طالبين رضاك، ولا نسعى وراء سلطنة أو جاه، فلا تجعل الأعداء والحوادث الطبيعية والخوف سبب هزيمتنا، واجعل اللهم المطر عونًا لنا؛ فلا يغطينا الغبار والتراب، اللهم تقبل دعائي هذا كما تقبلت كل أدعيتي من قبل.

اللهم إني أفدي الإسلام والمسلمين بروحي، وأُضحي بها نصرة للدين! اللهم ارزقنا النصر واكتبني عندك من الشهداء... اللهم آمين..."

ومع الضوء الأول لنهار اليوم التالي ظهرت علامات تبشر بقبول دعاء السلطان "مراد الأول"؛ حيث سكنت الرياح أولًا، ثم انقشع الضباب، وهطلت الأمطار، وبدأت المعركة واستمرت طوال النهار، وانتهت عند المساء بسقوط السلطان مراد شهيدًا بعد أن أحرز انتصارًا مبينًا على الأعداء.



مشهد من الجامع الكبير الذي بناه
السلطان يلديريم عام (١٣٩٦-
١٤٠٠م) - "بورصة"

الفصل الرابع

السلطان "يلديريم بايزيد"



اسم الوالد: "مراد الأول"

اسم الوالدة: "جُلْشِيشَك خاتون (*Gülçiçek Hatun*)"

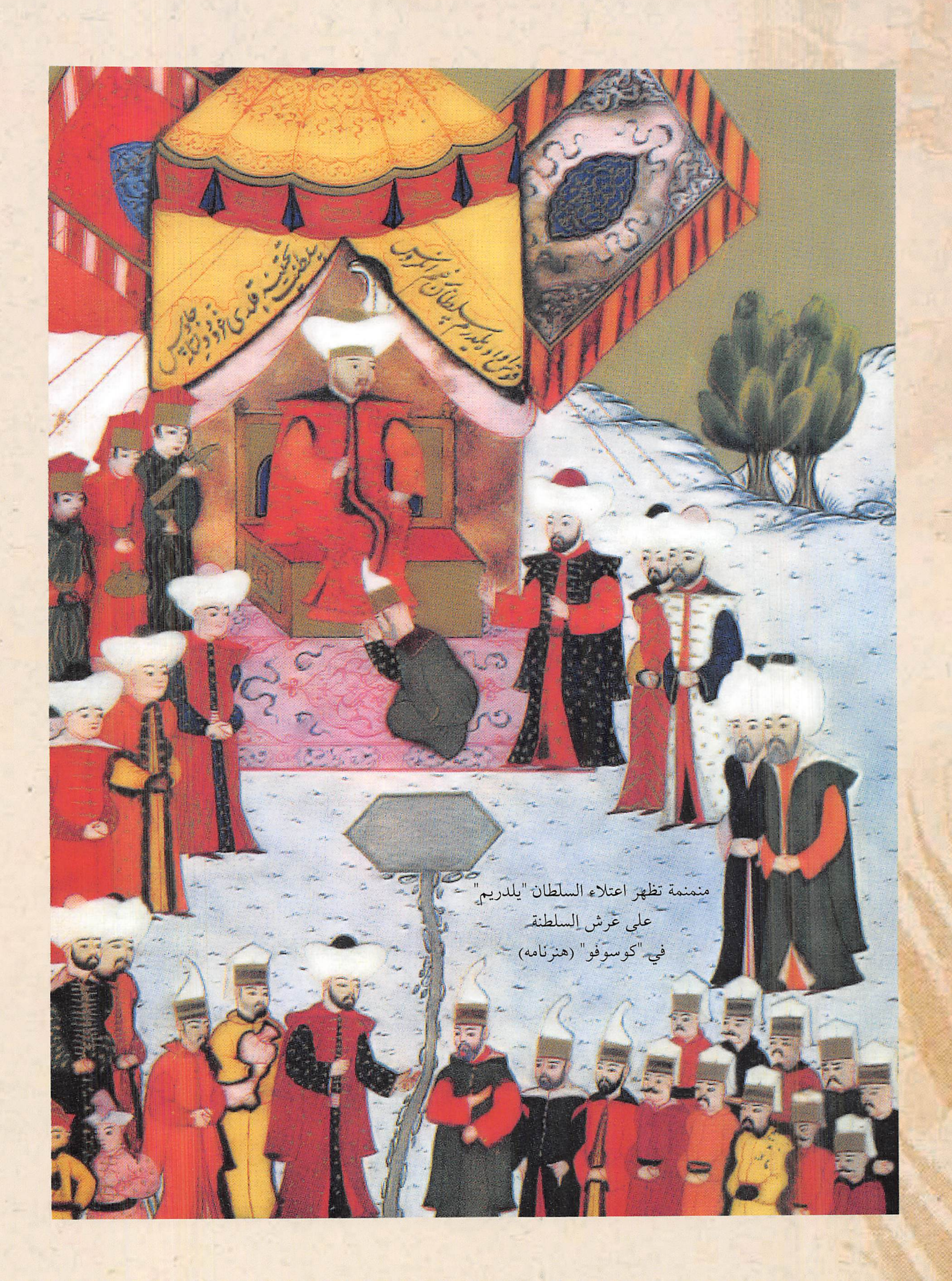
محل وتاريخ ميلاده: مدينة "بورصة"، (١٣٦٠م)

تاريخ اعتلائه العرش: (١٣٨٩م)

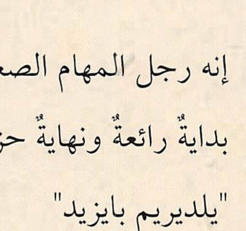
محل وتاريخ وفاته: "آق شهير"، ٨ مارس (١٤٠٣م)

ضريحه: يقع في مدينة "بورصة"

أبناؤه: سليمان، أرطغرل، عيسى، مصطفى، محمد (محمد الأول)، هُونْدِي، إبراهيم، قاسم، يوسف، أوروز خاتون، موسى (توفي في حياة والده).



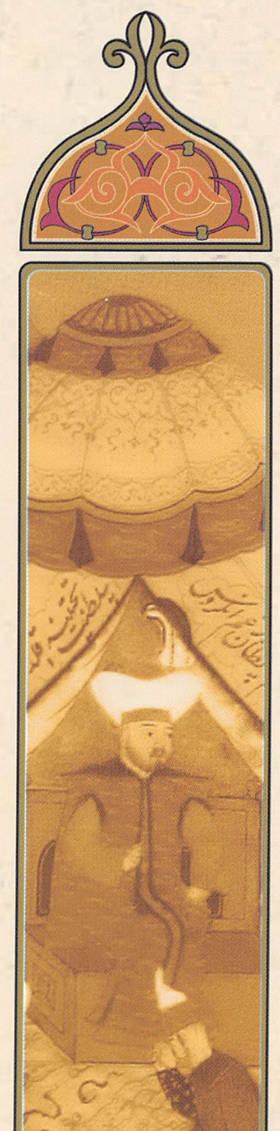
منمنمة تظهر اعتلاء السلطان "يلدريم"
على عرش السلطنة
في "كوسوفو" (هنرنامه)



إنه رجل المهام الصعبة

بدايةٌ رائعةٌ ونهايةٌ حزينةٌ

"يلديريم بايزيد"



رئيس الدولة الذي تطلّع إليه قادةُ العالم

إن "يلديريم بايزيد" هو الابن الأكبر للسلطان "مراد الأول" الذي كان والدًا لأربعة أولادٍ وفتاتين، وكان رجلًا ذكيًا ونشيطًا، وقد اعتلى العرش العثماني بعد أن قضى سنوات إمارته في ميادين الحرب وقصور مدينة "بورصة".

كما تلقّى "بايزيد" تعليمًا راقيًا من أفضل العلماء والأساتذة المعروفين في عصره، وقد أثبت الأمير "بايزيد" أنه جدير بأن يخلف والده السلطان "مراد الأول" وذلك بالنجاحات التي حققها في الحملات العسكرية التي شاركها خلال سنوات إمارته، وبعد أن تولى عرش السلطنة عرفه العالم واعترف العديدُ من رؤساء الدول وكثيرٌ من القادة الذين قلّدوه بأنه الزعيم النموذج...

زواج إستراتيجي

قام السلطان مراد -الذي اشترى جزءًا من الأراضي الخاصّة بإمارة "بنو حامد" مقابل مبلغًا من الذهب- بأخذ جزءٍ من أرض إمارة "بني جَرْمِيانْ" أيضًا كجهاز لـ"دولت خاتون" ابنة حاكم "بني جَرْمِيانْ" التي تزوّجت من ابنه الأمير "بايزيد"، وذلك بعد المشاورات التي أجريت بين الطرفين تمّ التوصّل إلى صيغة اتفاقٍ تنصّ على أن تنتقل مدن "كُوتَاهْيَا" و"طَاوْشَانْلِى" و"سِيمَاوْ" و"أَمَت" من حوزة حاكم "بني جَرْمِيانْ" إلى العثمانيين كمهرٍ للعروس.



وقد شاركت مجموعةٌ من الجنود في الوفد العثماني لاصطحاب العروس، وتسلم الأراضي المقدّمة من قِبل عائلة العروس كجهاز العرس، وكان العثمانيون وحاكم "بني جَرْمِيانْ" في غاية السعادة بهذا الزواج الذي حقق كثيرًا من الأهداف الإستراتيجية، وقد أقيمَ حفلُ زفافٍ رائعٌ بين "دولت خاتون" و"يلديرم بايزيد " الذي كان في العشرين من عمره آنذاك.

وقد انتقل إلى "بايزيد" حكم الأراضي كجهازٍ لعرسه من قِبل إمارة "بني جَرْمِيانْ"، فتمّ تعيينُه من قِبل والده واليًا على "كُوتَاهْيَا"، وهكذا فإن الأمير الشاب قد حصل على أول وظيفةٍ في الدولة.

وبعد عامٍ من هذا الزواج أُطلق عليه لقب "يلديريم" أي الصاعقة.

وكان "بايزيد" قائدًا لميسرة الجيش في المعركة التي دارت مع حاكم "بني قرمان" الذي تمرّد ضد السلطان "مراد الأول" بتحريضٍ من "بيزنطة"، وكانت مناورات "يلديريم بايزيد" السريعة وتحرّكه كالبرق الخاطف في ميدان المعركة صاحبة الفضل الأكبر في حسم الحرب لصالح العثمانيين، ومنذ ذلك اليوم أُطلق عليه لقب "يلديريم" إلى أن اقترن بعد ذلك لقبُه باسمه فصار يُعرف بـ"يلديريم بايزيد".

صاعقة في "كوسوفو"

تعدّ معركة "كوسوفو" الشهيرة واحدةً من أهمّ نقاط التحوّل في حياة "يلديرم بايزيد"، حيث شارك "بايزيد" في هذه الحملة وهو يتمتّع بثلاث صفاتٍ: بصفته أميرًا، وصفتِهِ واليًا لمدينة "كُوتَاهْيَا"، وصفتِهِ حاكمَ سنجقٍ[٢٠]، وشارك معه أيضًا في هذه المعركة شقيقه "يعقوب بك"، وكان "بايزيد" آنذاك في التاسعة والعشرين من عمره.

ووفقًا لخطّة التمركز في ميدان المعركة، كان السلطان مراد يأخذ موقعه في مركز وقلب الجيش و"بايزيد" في الجناح الأيمن، وفي أثناء المعركة قاد "يلديريم بايزيد" جناحَه بشكلٍ ممتازٍ في هذه المعركة الصعبة، كما سارع كالصاعقة لنجدة الجناح الأيسر أيضًا في اللحظة التي كان فيها في موقفٍ حرِجٍ، وحال دون وقوع هزيمةٍ محتمَلةٍ.

ولقد سجّل التاريخُ بطولتَه في ذلك اليوم حتى إنها نالت إعجاب كلّ الجنود سواءً كانوا من العثمانيّين أو حتى من الأعداء الموجودين في ميدان المعركة، وهكذا أثبت "بايزيد" مجدّدًا أنه فعلًا يستحقّ لقبَ "يلديريم" أو الصاعقة.

---

(٢٠) السنجق: هو اللواء الخاص بالدولة، ثم خصّ بهذه الكلمة اللواء الذي يمنحه السلطان للوالي أو الأمير تعبيرًا عن ثقته بأنه أهلٌ للحكم، ثمّ تطوّرت الكلمة فأصبحت تعني قسمًا إداريًّا من أقسام الدولة، وحلّت محلّها مؤخّرًا الكلمة العربيّة لواء للمعنى نفسه، أي قسم إداري من أقسام الدولة. (سهيل صابان)، المعجم الموسوعي، ١٣٦.

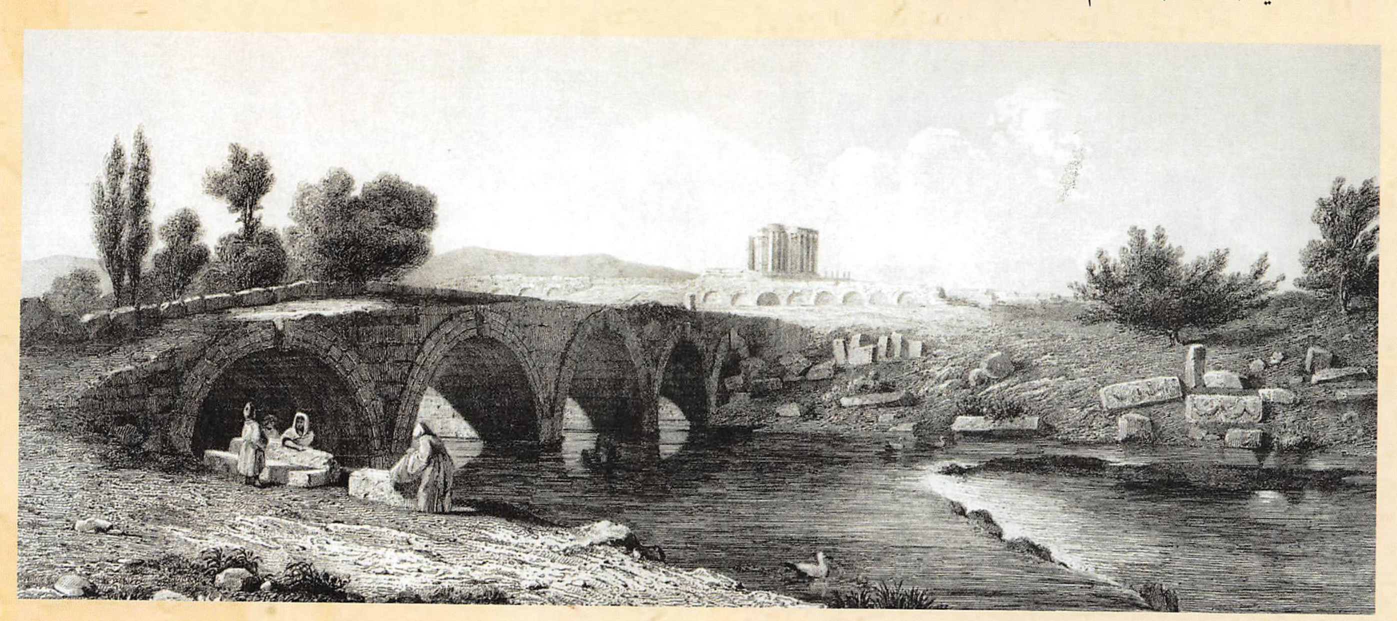
"يلدريم" يعتلي العرشَ العثمانيّ

عندما اعتلى "يلدريم بايزيد" العرشَ العثماني وهو في التاسـع والعشـرين من عمره خلفًا لأبيه الذي استشهد في معركة "كوسوفو" بصفته السلطان العثماني الرابع، عمل على إحكام السيطرة على زمام الأمور في الدولة، فقام أوّلًا بإعادة ترتيب الأوراق في منطقة "رُومَلِي" وإعادة الاستقرار إليها بعد اضطراباتٍ حدثت هناك.

وفـي تلـك الأثنـاء بدأت الأوضـاع الأمنية والداخلية فـي منطقة الصرب بالتفـكّك والتدهورِ نتيجـة مقتل ملك الصرب "لازار" في معركة "كوسـوفو"، فلم يرغب "يلدريم بايزيد" في اسـتغلال هشاشـة الوضـع هناك والزحفِ لسحق الصرب، بل عاملهم بالحِكمة والحُنكة، فقام بدعوة أبناء الملك المتوفّى إلى عاصمته، فخاطبهم قائلًا:

"الحرب تكون في ساحات القتال، ولقد تحاربنا وتناحرنا بما يكفي، وقد خسِرنا جميعًا، وحان الوقت الآن من أجل عقدِ معاهدةٍ للسلام والتعاون".

وقد أُعجب ولاة عهد الصرب بموقف "بايزيد"، ووافقوا على إبرام اتّفاقيّة سـلامٍ مـع السـلطان العثماني الجديد، ووفقًا لهذه الاتّفاقية فقد منح "بايزيدُ" "ستيفانَ" -نجل لازار- معظمَ أراضي الصرب التي كانت تحت إدارة الدولة العثمانية وأعلنه ملكًا على "صربيا"، ووفقا لهذه الاتّفاقية فقد بدأ الصرب بدفـع الجزية للعثمانيين، كما تنص الاتّفاقيّة إرسال الصرب عشرين ألف جنديّ إذا طلب منهم السلطان "بايزيد".



لوحة تظهر إحدى الجسور في مدينة "كُوتَاهْيَا" - تركيا

هذا وقد شكّلت محادثات السلام التي أجراها "يلدريم بايزيد" ضماناً حقيقيًّا للعمل بأريحيّةٍ وطمأنينةٍ تامّةٍ في الأناضول بعد القضاء على أيّ تهديدٍ محتمَلٍ من جهة "رُومَلِي".

المغيرون في أراضي "البوسنة"

بعد النصر الذي أحرزه العثمانيّون في "كوسوفو" قام السلطان "بايزيد" بتوقيع اتفاق سلام مع جيرانه الصرب، مما أتاحَ الفرصةَ المناسبة أمام السلطان كي يمضي قدمًا نحو تحقيق أهدافه وآماله.

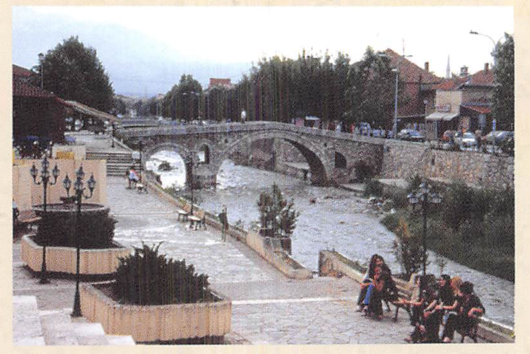
وقد وصل فرعٌ آخر من الغزاة العثمانيّين إلى أراضي "الأفلاق" بعد أن اجتازوا شمال "بلغاريا" ومنطقة "فيدين" وعبروا نهر "الدانوب".

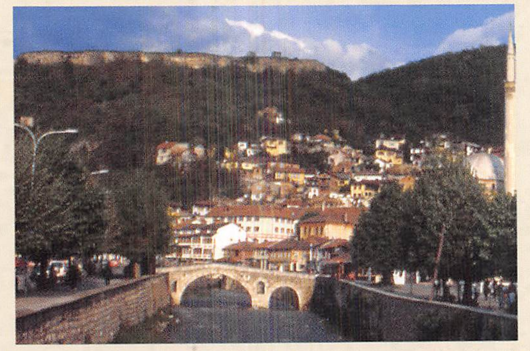
واتخذ "يغيت باشا" طريقَه صوب "البوسنة" والمنطقة الجنوبية من "المجر"، وفي فترات التالية قام العثمانيون بإسكان بعض الأسر التركية التي هاجرت من الأناضول في هذه المناطق، وبهذه الطريقة فإن أهل الأناضول قد وجدوا فرصةً مناسبةً للتعارف على سكّان " البوسنة" الأصليّين كما انصهروا فيما بينهم وأقيمت صداقاتٌ حميميّةٌ بينهم استمرّت طوال قرون.

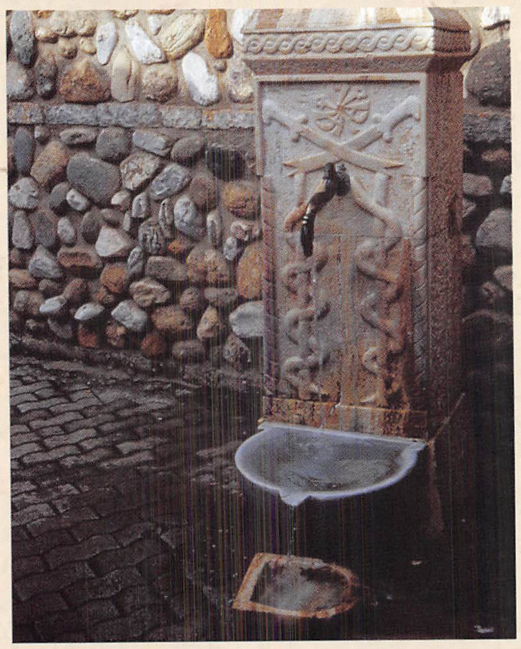
التوجّه إلى الأناضول مرّةً أخرى

كانت الوحدة في الأناضول هي الغاية السامية التي يسعى إليها جميع السلاطين العثمانيّين إلا أن هذه الوحدة لم تصل إلى المستوى المطلوب بعد، والسبب في ذلك يرجع إلى أن بعض الحكّام الأتراك الآخرين في الأناضول ما زالوا يعتبرون أنفسَهم ورثةً للأتراك السلاجقة، ولهذا يشعرون بالغيرة تجاه العثمانيّين بسبب اتساع رقعة أراضيهم وتواصلِ زحفهم ودقّة تنظيمهم.

فكانت هذه الغيرة هي الدودة التي تنخر في هيكل وحدة الأناضول، وذلك نظرًا للأفكار الخبيثة التي تُسيطر عليهم كالأنانية وحبّ الذات وعدم الثقة في الآخرين، ممّا جعلهم يرضون بالقليل ويزهدون بالكثير.







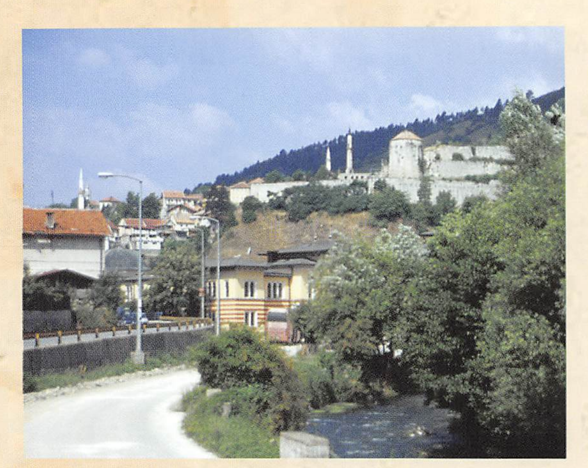
مشهد من مدينة "بريزْرَن *(Prizreni)*" إحدى مدن "كوسوفا" (الصورة: أرشيف أمانّامه)

والـمُلفـتُ للنظـر في ذلك أن هؤلاء الحكّام لجـؤوا إلى أممٍ أجنبيّةٍ أخرى لا تربطهم معهم أيّ روابط دينيّة أو قوميةٍ واستعانوا بهم في حلّ مشكلاتهم ونوازلهم ولم يستعينوا بالعثمانيّين الذين هم أبناء جلدتهم، مع أنّ ملوك أوروبا والبلقان كانوا كلما مرّت بهم ضائقةٌ ماليّة يلجؤون إلى العثمانيّين من أجل حلّها.

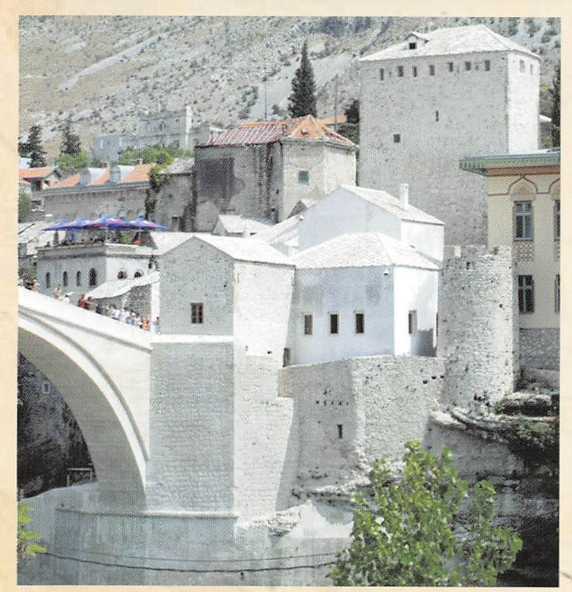
وقـد تطـوّر هذا الأمر تدريجيًّـا إلى أن أصبح أكثـر تعقيدًا، حتى إن المصاهرة بين سلاطين الإمارات لم تعُد تُجدِي نفعًا حقيقيًّا في معالجة تلك القضايا وحلّ تلك المشكلات، وأصبحت الأناضول بمثابةِ إماراتٍ يُحاربُ بعضُها بعضًا.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة مشكلةُ "القاضي برهان الدين" -أحد حـكام الأناضول- حيث كان يقوم بأعمـال عدائيّة متواصلةٍ ضدّ الدولة العثمانية، ولقد استدعت تلك الاعتداءات غضبَ "يلدريم بايزيد"، فهبّ السلطان "بايزيد" على رأس جيشه المَهيب عازمًا على اجتثاث المشكلة مـن جذورهـا، واستئصال المرض مـن منابتـه الأصلية، فمـا أن طرقَ مسامعَ حكّام الأناضول نبأُ مقدِم السلطان الصاعقة "بايزيد" حتى أُسقِطَ في أيديهم وبادروا على جناح السـرعة بإعلان الطاعة والولاء للسلطان "بايزيد" وأعربوا عن وقوفهم إلى جانبه وتضامنهم الكامل معه..

ونظّمت الجيوش العثمانية حملات عسكريّة على بني "آيدين" وبني "منتشـه" وبني "جَرْمِيـانْ"، وبمجرّدِ وصول الأخبار إلى مسـامـع حاكم "صاروخـان" أُصيـبَ بالذعر والرعب ففرَّ هاربًا إلى مدينة " سِينُوبْ" طالبًـا اللجوء لحاكم بني "جاندار"، ولقد اسـتفاد السـلطان "بايزيد" من هـذا الموقف فضمَّ كل مـن مدن "إِزْمِيـرْ (*İzmir*)" و"دنيزلي (*Denizli*)" و"مانيسـه (*Manisa*)" و آيدِيـن (*Aydın*) ومُوغْـلَا (*Muğla*) وأوشـاق (*Uşak*)" إلى الأراضي العثمانية دون قتالٍ أو إراقةٍ للدماء.







مشاهد مختلفة من "البوسنة والهرسك" حاليا

وهكذا فقد سنحت الفرصة -لأوّل مرةٍ- أمام العثمانيّين أن يطؤوا بحوافر خيولهم ضفاف البحر الأبيض المتوسّط، إلا أن السلطان "بايزيد" كان قلِقًا بشأن توتُّر الأوضاع في الأناضول لأن الأحداث الجارية هناك لا تبشّر بخير رغم كل هذه التطورات الجارية لصالح العثمانيين.

الاتّحاد مرّةً أخرى

كان لاتساع رقعة الدولة العثمانية وتقدمهم الأثر البالغ في نفوس حكام الجوار؛ فانضمّوا بجيوشهم إلى صفوف الجيش العثمانيّ وانصاعوا بأساطيلهم البحريّة إلى التاج العثماني ليُضيفوا حلقةً جديدةً إلى حلقات العقد العثمانيّ الفريد.

وفي غضون وقتٍ قصيرٍ تضاعفت أعداد القوّات البحريّة العثمانية، فقامت الدولة العثمانيّة بتشييدِ ميناءٍ بحريٍّ عسكريٍّ في منطقة" جَلِيبُولُو".

والمثير للاهتمام في هذا الصدد أن العثمانيّين حقّقوا هذه الانتصارات دون أيّ إراقة للدماء.

وقد انضمّت مدن " إسبرطة" وبوردور (*Burdur*) وأنطاليا (*Antalya*)" إلى الأراضي العثمانيّة دون قتالٍ أيضًا.

وقد اضطرّ حكّام الأناضول أن يقدّموا ولاءهم مرّةً أخرى للعثمانيّين بعد أن أدركوا أنهم غير قادرين على مواجهة قوّات العثمانيّين التي ترأّسها "يلديريم بايزيد".



نقش عثماني في مدينة "بورصة"

وفي غضون ذلك، انضمت مدينة " قونية" التي تتمتّع بموقعٍ جغرافيٍّ مهمّ في الأناضول إلى الأراضي العثمانية أيضًا، وكان أهل مدينة "قونية" يُعرفون بعجبهم بنرجسيتهم مقارنة بباقي الشعوب الأخرى في المنطقة لأن مدينتَهم ظلّت عاصمةً لفترة طويلة، وكان بايزيد -الذي أخذ ذلك بعين الاعتبار- قد أصدر تعليماته إلى "صاري تيمورطاش باشا" الذي كلمه بإدارة المدينة قائلًا: "كن حذرًا في تعاملك مع أهالي "قونية!"، ومع أن "بني جاندار" وبني قرمان" و"القاضي برهان" كانوا في وقتٍ من الأوقات يشكّلون حجرَ عثرةٍ إلا أنّهم في نهاية المطاف امتثلوا لنداء العثمانيّين الذي يدعو إلى التحاد بدلًا من العراكِ.

وفي الواقع، فإن حكّام تلك الإمارات الذين يتمتّعون بدهاءٍ وذكاءٍ عاليَينِ يؤيّدون فكرة الاتحاد والتعاون مع العثمانيّين، فلم يكن أحدٌ منهم -وكذلك السلطان "بايزيد"- يرغب في إسالة الدماء، ولكنّهم أحيانًا ما يرضخون لبعض الضغوطات الخارجيّة أو يتبعون أنانيّتهم المهلِكة.

السفن البحريّة ذات الأشرعة

في الوقت الذي كانت الدولة العثمانيّة تُعاني فيه من نوازل كثيرةٍ على رأسِها مشاكل الأناضول وحروب البلقان والحملات الصليبيّة والتمردات المختلفة، كان السلطان "بايزيد" يزدادُ يقينًا بأن الدولة العثمانية بأمسِّ الحاجة إلى تشكيل أسطولٍ بحريّ وإنشاء موانئَ عديدةٍ، خاصّة وأن الدولة تحيط بها البحار من ثلاث جهات.

وفي هذا السياق أمر السلطان بإنشاء ميناءٍ وترسانةٍ بحريّةٍ في "جَلِيبُولُو"، وفي غضون وقتٍ قصيرٍ تحوّلت "جَلِيبُولُو" إلى مركز كبيرٍ للاستثمارات البحرية.

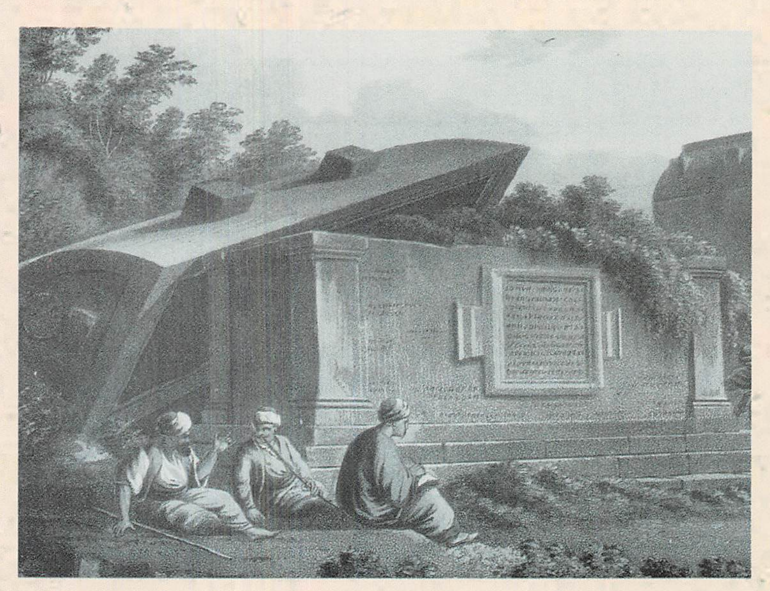
وبعد انضمام الأمراء البحارة إلى العثمانيّين أصبحت القوّات البحرية العثمانيّة تتمتّع بقوّةٍ مهمّة في البحار.

وقد صُنعت السفن الحربيّة في فترةٍ قصيرةٍ من الزمن، وأوليَ التدريب البحريُّ اهتمامًا كبيرًا، وبدأ يخوض الشجعان العثمانيّون غمار الحرب بالسفن الشراعيّة، فامتلأت الأشرعة بالرياح التي تهبّ من شتّى الجهات وأبحرت السفن في كلّ اتّجاهٍ.

وفي غضون وقت قصير بدأ الأسطول العثماني المكوّن من ستين سفينةٍ بحريّةٍ بمناوشة جُزُرِ بحر "إيجه" واحدةً تلوَ الأخرى كما بدأ جنودُ البحريّة العثمانيّة يُكثِّفون من هجماتهم على جزيرة "صاقيز" التابعة لأهل "جنوة" وجزيرة "وابية (*Euboea*)"[٢١] التابعة للبندقية.

(٢١) "وابية" هي ثاني أكبر جزيرة في اليونان.

وكانت هذه باكورة أعمال الأسطولِ العثمانيّ العظيم ومؤشّرات إلى ما سيتم فعله في المستقبل القريب، وبدأ العثمانيّون بالتحكّم في مضيق "الدردنيل" والمنطقة المحيطة بها، وفي الفترة القادمة سيخضع كلٌّ من البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود للهيمنة العثمانيّة.



نقش يبين أنطاليا ومقابرها "(لويجي ماير *(Luigy Mayer*"

إن هذه التطوّرات التي نراها في تلك الحقبة الزمنيّة لا تنحصر في المجال العسكري أو الحربي بل تشمل كذلك المجالَ الاقتصادي والتجاري حيث بدأت السفن التجاريّة العثمانيّة بتكثيف رحلاتها في البحار، ووُضِعت الخطط الجديدة من قِبَل الإدارة العثمانيّة في شتّى المجالات البحريّة والملاحيّة.

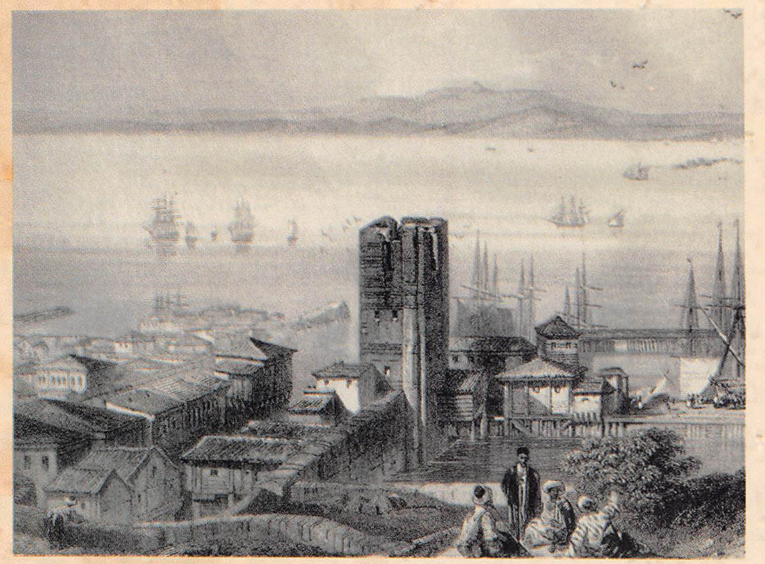
وكل هذا يؤكّد لنا مدى حرص السلطان "بايزيد" على المضيّ قدمًا في سبيل الوصول إلى آفاق جديدة ونهضةٍ حديثة.

التطورات في "بيزنطة"

نَسِيَ "يوحنا الخامس باليولوج" الإمبراطور البيزنطي العجوز -الذي استغلّ فرصة انشغال "يلدريم" بالحكام في الأناضول- أنه جلَس على كرسيّ عرشِهِ بفضل "يلديريم بايزيد"، فبدأ بالقيام باستعدادات عسكريّةٍ أقلقتِ العثمانيّين حيث قام في ترميم أسوار قلعته وتقويتِها، ولهذا السبب نفسه لم يتوان عن توفير الحجارة اللازمة لترميم الأسوار من جدران الكنائس القديمة.

وكان الملك العجوز يتحاشى "بايزيد"، ولذا أمر بتزيين الأسوار حتى لا يُعرف أنه قام بترميمها، ولكن السلطان "بايزيد" سرعان ما علِم بما قام به الملك العجوز بفضل استخباراته المنتشرة في شتى الأسقاع هناك، فقام السلطان "يلدريم بايزيد" -الذي كان يحتجز "مانويل الثاني" نجل الملك العجوز- على جناح السرعة بإرسال خطابٍ تحذيريّ إلى الإمبراطور "باليولوج" العجوز جاء فيه: "اهدم فورًا الأسوار التي قمت بترميمها، وإلا فإنني سوف آتي وأهدمها فوق رأسك"، فخاف الملك وأمر بهدم الأسوار التي قام بترميمها في الحال، وتوفي في غضون بضعة أشهر.

من المهم تلبية مطالب الشعب



نقش قديم لمضيق الدردنيل "رُوَارْجُو (Rouargue)"

لقد كان للامبراطور البيزنطي "يوحنا" ابنان مرشّحان للعرش، وهما "أندرونيكوس" و"مانويل الثاني"، ولقد قام كلٌّ منهما بزيارة "يلدريم بايزيد" وطلبا منه المساعدة بشأن الجلوس على عرش بيزنطة.

كان السلطان "بايزيد" -الذي يقبض بيده على موازين القوى في المنطقة منذ مدّة- يمتلك صلاحياتٍ كثيرة تمكّنه من الاختيار بين " أندرونيكوس" و"مانويل"، ولكنه لم يرغب في استخدام هذه الصلاحيّات وفقًا لأهوائه ورغباته الشخصيّة، فأرسل على الفور فريقًا سرّيًّا إلى إسطنبول وأمرهم باستطلاع رأي الشعب لمعرفة من له الرصيد الأكبر لدى الناس.

وبعد أن أنهى ذلك الفريقُ عمَلَه عاد إلى عاصمة الدولة وأخبرَ السلطان أن الشعب البيزنطي يُرشّح لعرش بيزنطة "مانويل"، وكثيرًا من الأهالي هناك يتحدّثون عنه بأنه تلقّى تعليمًا جيّدًا، وهو مسيحيّ متديّن، وهو كذلك محبوبٌ لديهم على العموم.

وكان "بايزيد" بطبيعة الحال ميّالًا إلى تفضيل "مانويل"، فقرّر أن يُعاوِنَه حتّى يُتَوّجَ ملكًا، ولكن "مانويل" -الذي كان ابنًا للملك وشريكًا في السلطنة - غادر إسطنبول دون أن يُخبِرَ "بايزيد" وذهب إلى بيزنطة، واعتلى عرشَها منصّبًا نفسَه ملكًا وإمبراطورًا بيزنطيًا جديدًا خلَفًا لأبيه.

وعندما علم "بايزيد" باعتلاء "مانويل" عرشَ بيزنطة دون إخباره غضبَ غضبًا شديدًا وأرسل إليه خطابًا يقول فيه:

"إذا أردت أن تهنأ بالعيش داخل إسطنبول، فعليك أن تُحكِمَ غَلْقَ أبواب مدينتك تمامًا وتلهو وتستمتع كما تشاء، وإياك أن تطمعَ بحبّةِ رملٍ واحدةٍ خارج أسوارِ المدينة، وإذا ما تطلّعتَ إلى خارجِ مدينتك سأسحقك عن مملكتك سَحقًا".

ولم يكتفِ "يلدريم" بذلك، بل أضاف طلباتٍ أخرى قائلًا:

"أريد منك أن تؤسس حيًّا تركيًّا داخل إسطنبول، تأمرهم بإنشاء جامعٍ فيه، وبالإضافة إلى ذلك قم بتأسيس محكمةٍ تركيةٍ نحنُ مَن سيُرسِلُ لك القاضي الذي سيحكم فيها، واعلم أنّني عازمٌ على زيادة نسبة الجزية المفروضةِ عليكم سابقًا".

نقش يشير إلى إسطنبول يُعتقدُ أنّه يرجعُ إلى عام (١٤٢٢م) "آي. تيني (I. Tinney)"

وعندما قُرِئت الرسالةُ على "مانويل الثاني" الذي يُعرف بذكائِه بين قومه فزعَ منها وخاف إلا ضربَ بها عرضَ الحائط ولم يستجب لتعليمات السلطان "بايزيد" مستنِدًا ومعتمِدًا ومتّكِئًا في ذلك على دعم ملوك أوروبا له.

ونتيجةً لذلك فقد تحرّك "يلديريم بايزيد" بجيشه إلى إسطنبول دون أن يُضيّع الوقت، وحاصر إسطنبول عام (١٣٩١م)...

ولقد حوصِرَت إسطنبول من قبلُ مرّاتٍ عديدةً، فهذه المدينة الجميلة والساحرة كانت مطمعًا لكثيرين من قبل مثل "الهون"[٢٢] و"الجوك ترك"[٢٣] و"البشناك"[٢٤] و"الخزر"[٢٥]، وسلاجقة الأناضول والسلاجقة العظام و"الأوز"[٢٦] كلّ أولئك قد تحرّكوا من أجل الاستيلاء على إسطنبول، كما أن قبيلة الأوار وهي من قبائل التركية القديمة قد حاصروا إسطنبول مرّتين في وقت سابق، وهذا يعني أن "بايزيد" لم يكن أوّل سلطانٍ تركيٍّ يحاصر إسطنبول، وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب المسلمين قد حاصروا إسطنبول أيضًا مرّاتٍ عديدة.



رسم تاريخي يشير إلى مضيق إسطنبول قبل سيطرة الأتراك عليه

إسطنبول تحت الحصار

لقد تسبّب الحصار الذي فرضه الجيش العثماني على إسطنبول في حدوثِ مشاكل عديدةٍ سواء لـ"مانويل الثاني" خصوصًا أو لأهالي إسطنبول عمومًا، ولم يكن "يلديريم بايزيد" يمتلك

(٢٢) **الهون**: مجموعة من الرعاة الرحل، الذين ظهروا من وراء نهر "الفولجا" في روسيا حاليًا وهاجروا إلى أوروبا الشرقية حوالي (٣٧٠م)، وقاموا ببناء إمبراطورية في أوروبا، والهون كانوا يستخدمون الرماة على ظهور الخيل كالسلاح الرئيس لديهم، و"أتيلا الهوني" -حاكم الهون- قام بتوحيد الهون مكوِّنًا إمبراطورية كبرى حتى وفاته في (٤٥٣م)، وقد انهارت إمبراطوريته بعد وفاته بعام وكانت نهاية لشعب الهون وانقراض لهم. (المترجم)

(٢٣) **الجوك ترك**: فصيل من الأتراك القدامى كانوا يسكنون في آسيا الوسطى و"منغوليا" عاشوا في الحقبة التاريخية بين القرن السادس والثامن الميلادي.

(٢٤) **البشناك**: فصيل من الأتراك كانوا يسكنون في "تركستان" والجنوب الشرقي لقارة أوروبا و"البلقان" بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي.

(٢٥) **الخزر**: هم من الشعوب التركية القديمة التي ظهرت بين سواحل "اتيل" وشبه جزيرة "القرم" في شمال "القوقاز" واستقرت في منطقة "الفولجا السفلى". (المترجم)

(٢٦) **الأوز**: إمارة تركية أسست في القرن الحادي عشر الميلادي في المناطق القريبة من بحر "قزوين"، وبعد فترة وجيزة من تأسيس هذه الإمارة قررت حكامها الهجرة إلى الأراضي الأوروبية وعاشوا فترة من الزمان في أوروبا الشرقية ثم اعتنقوا المسيحية هناك. (المترجم)

مدافعَ الحصار التي يمكن أن تهدم أسـوار إسـطنبول ولذلك قام بتضيق الخناق عليها من خلال منع الدخول أو الخروج من وإلى المدينة، ممّا تسبّب في انتشار الجوع والخوف والضيق بين أهالي المدينة.

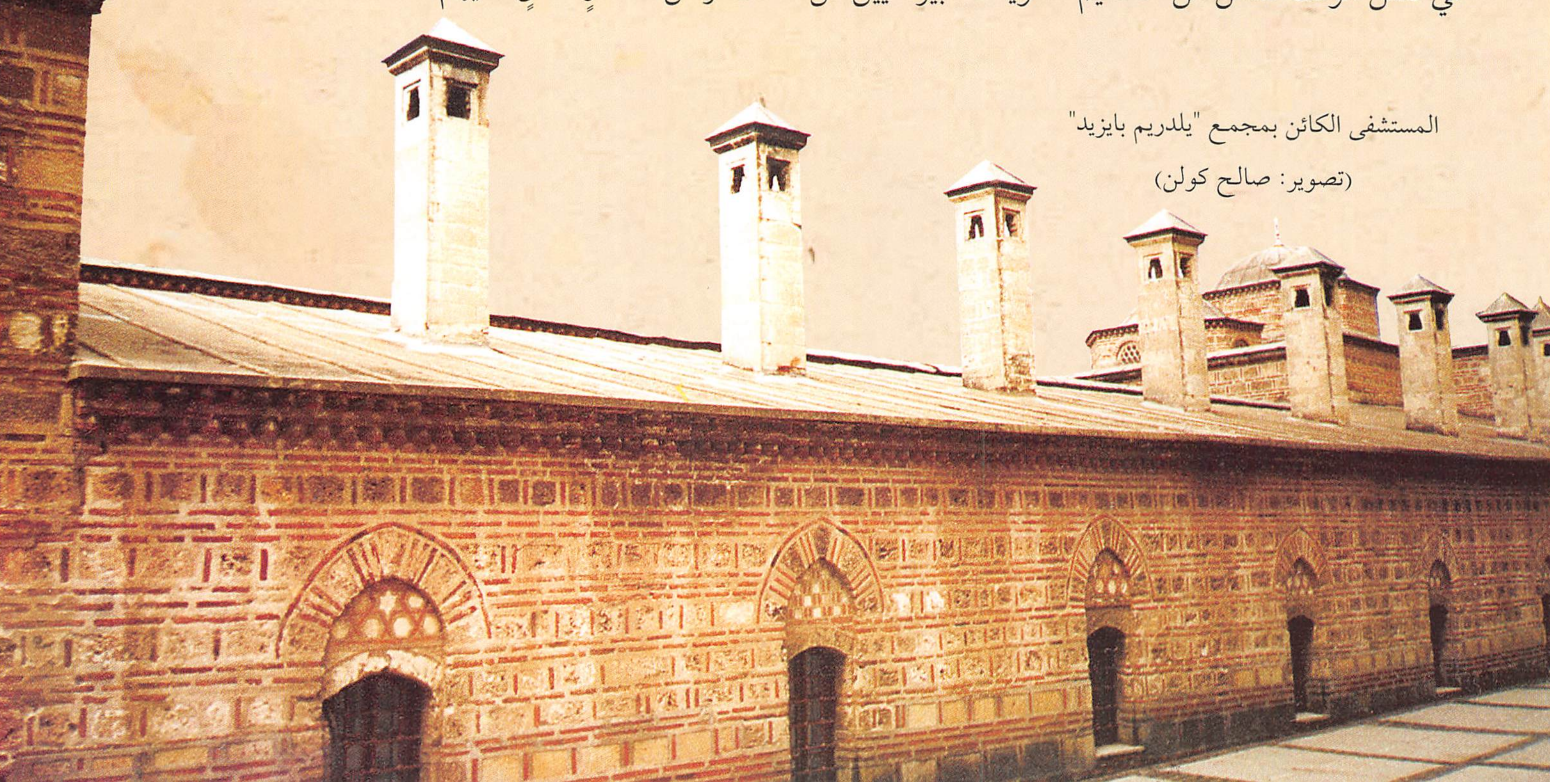
وقد واجه الأهالي صعوباتٍ جمّةٍ منها صعوبة العثور على حطبٍ لطهي الطعام أو الخبز، فكان هناك مَن قام بهدم بعض المنازل الخشبية القديمة لاستخدامها كحطب.

وأما المساعدات التي كان يثق بها ويُعوّل عليها "مانويل" فقد تأخرت كثيرًا، بل إنها لم تصل أساسًا؛ لأن "سيجسموند" ملك المجر قد انشغل آنذاك بالخروج على رأس جيشه في حَمْلَةٍ على "بلغاريا" من أجل توسيع أراضيه.

وفـي النهايـة وبعـد أن عجزَ عن المقاومة أعلن الإمبراطور "مانويل الثاني" موافقتَه على جميع شـروط "بايزيد"، وهكذا تمّ رفع الحصار المفروض على إسطنبول، لكن "يلديريم بايزيد" كلّف فريقًا خاصًا في الضفة الأخرى من المضيق بمهمّة مراقبة حركة التنقل من وإلى إسطنبول.

استمرّ الحصار سبعةَ أشهر ولكن...

كان حصار إسطنبول الأول الذي فرضه العثمانيون بقيادة السلطان "بايزيد" قد استمرّ سبعةَ أشهر، أما الحصار الذي بدأ بقبول "مانويل" الشروطَ الثقيلةَ المذكورةَ أعلاه؛ فقد استمرّ سنوات، وكانت فكرة الحصار -بنوعِه الجديد- إبداعًا ذكيًّا مـن بنات أفكار "يلدريم بايزيد" وفريقه، وبهذا التخطيط تمكّن "بايزيد" من حماية جيشـه وتأمينِه من المهالك في نفس الوقت تمكن من تحطيم معنويّات البيزنطيّين من خلال فرض حصارٍ خانقٍ عليهم.



المستشفى الكائن بمجمع "يلدريم بايزيد"

(تصوير: صالح كولن)

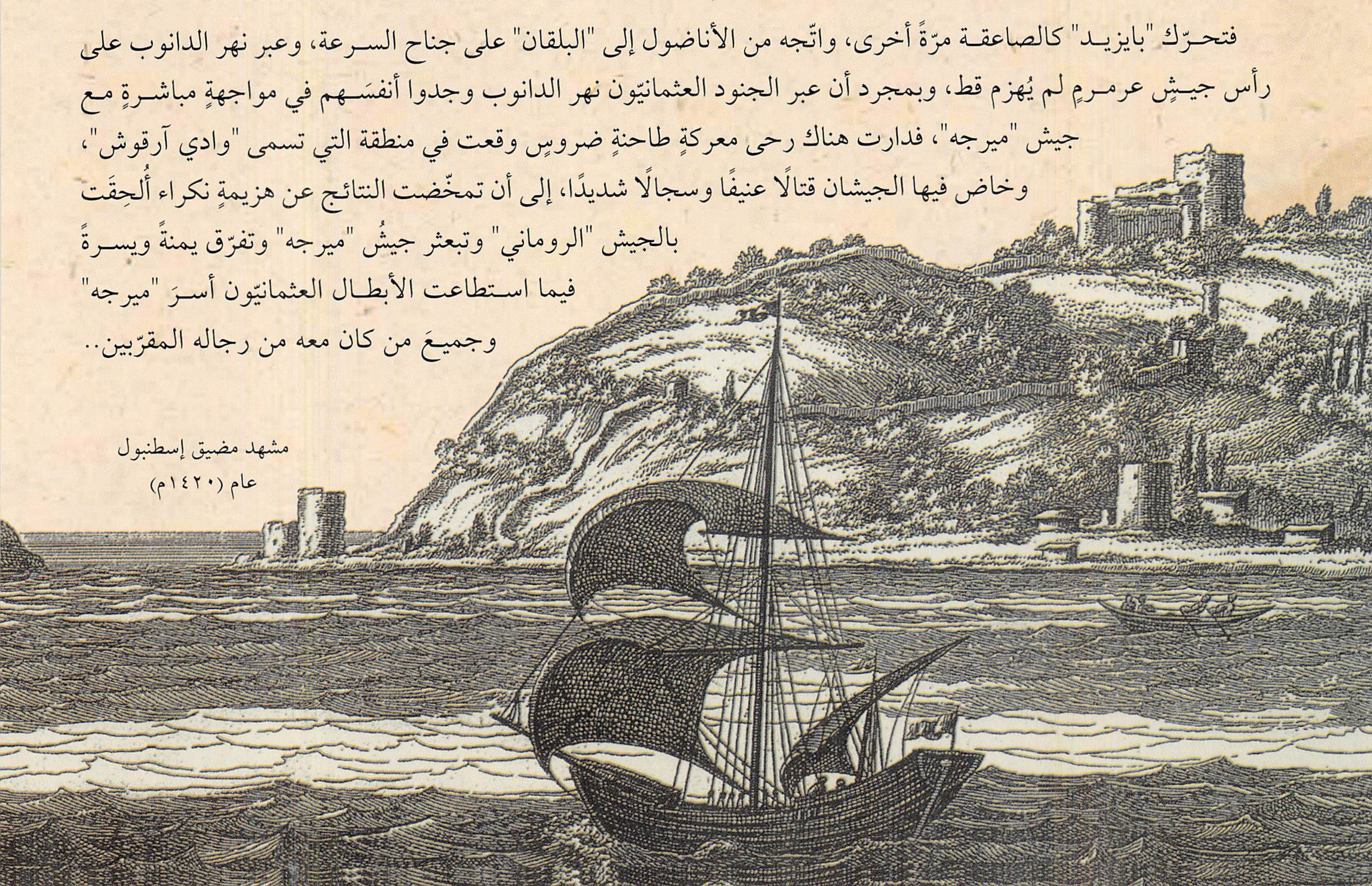
وفي أعقاب الحصار على إسطنبول استولى العثمانيون دون قتالٍ عام (١٣٩٩م) على "شِلَة (*Şile*)" التي تُعتَبَر من المناطق الحيوية لكونِها معبرًا مهمًّا إلى البحر الأسود.

وقد أثبت "يلدريم بايزيد" جدارته في تعامله مع ملفّ مدينة "سيليوري"، حيث أنه بعد أن تحقق له الاستيلاء على "سيليوري" في عام (١٣٩٢م)، رأى أنه من المناسب ألا يبقى ذلك المكان في حوزته، فولى عليها "إيوانيس السابع" ابن الملك "اندريقوس الرابع" ابن أخ "مانويل الثاني" ملك "بيزنطة" وأكبرِ منافسٍ له، وهكذا استطاع السلطان "بايزيد" أن يوقع العداوة والبغضاء بين اثنين من أكثر المنافسين على العرش البيزنطي.

"يلدريم" في "رومانيا"

في هذه الأثناء حدث تطوُّرٌ غير متوقَّعٍ في منطقة "البلقان"، حيث هاجم الأمير "ميرجه" حاكم "رومانيا" الجنوبية التي يطلق عليها الأتراك اسمَ "أفلاق"، مدينة "سِلِيسْتْرَا (*Silistra*)" التابعة للعثمانيّين في فصل الشتاء مستغلًّا تواجد السلطان "يلدريم بايزيد" في الأناضول، ولم يكتف بذلك بل واصل هجماته حتى وصل إلى سهل "كَرْنُبات (*Karnobat*)" وقتل عدد من المسلمين الذين يقيمون في المنطقة، وسلب أملاكهم.

فتحرَّك "بايزيد" كالصاعقة مرّةً أخرى، واتّجه من الأناضول إلى "البلقان" على جناح السرعة، وعبر نهر الدانوب على رأس جيشٍ عرمرمٍ لم يُهزم قط، وبمجرد أن عبر الجنود العثمانيّون نهر الدانوب وجدوا أنفسَهم في مواجهةٍ مباشرةٍ مع جيش "ميرجه"، فدارت هناك رحى معركةٍ طاحنةٍ ضروسٍ وقعت في منطقة التي تسمى "وادي آرقوش"، وخاض فيها الجيشان قتالًا عنيفًا وسجالًا شديدًا، إلى أن تمخّضت النتائج عن هزيمةٍ نكراء أُلحِقَت بالجيش "الروماني" وتبعثر جيشُ "ميرجه" وتفرّق يمنةً ويسرةً فيما استطاعت الأبطال العثمانيّون أسرَ "ميرجه" وجميعَ من كان معه من رجاله المقرّبين..



مشهد مضيق إسطنبول
عام (١٤٢٠م)

وبهذا النصر الساحق أعلن العثمانيّون سيطرَتَهم على "رومانيا الجنوبية" بأكملها، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها جُلب الأمير الروماني "ميرجه" إلى مدينة "بورصة" وتمّت استضافته هناك لفترة من الوقت ثم بعد ذلك عُيِّن من قِبَلِ الإدارة العثمانيّة حاكمًا على "رومانيا الجنوبية" مع رجلٍ يُدعى "فلاد".

ولم يلتزم "ميرجه" بالوعد الذي قطعه على نفسه مع العثمانيين، ولم يفِ بوعده- رغمَ أنهم تفضّلوا عليه وحرّروه من الموت بل وأعادوا إليه عرشَه- حيث تحالف مع "المجر"، وهاجم العثمانيّين، وشارك أيضًا في التحالف الصليبيّ في موقعة "نِغْبُولُو".

يا لها من أيام الدانوب

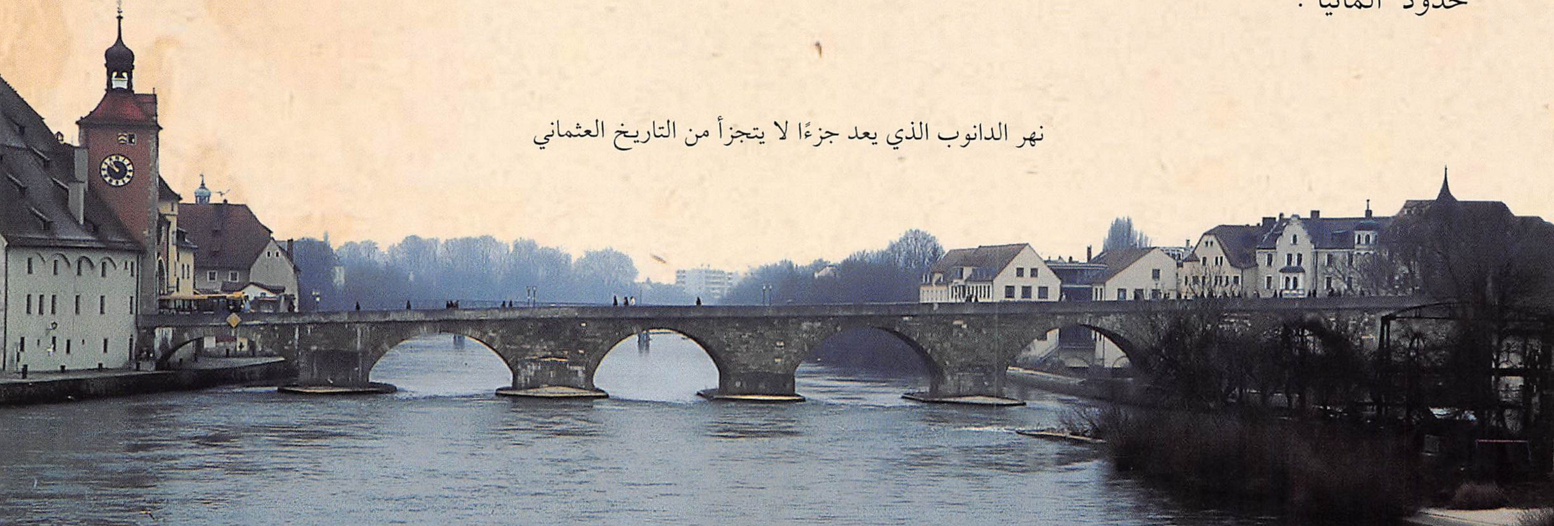
ولقد بدأ الحكم العثماني في أراضي "الأفلاق" في فترة حكم السلطان "بايزيد" واستمرّ لمدّة خمسة قرون متتابعة، ويُعتبرُ السلطان "بايزيد" أوّلَ حاكمٍ يعبر نهر الدانوب في العهد العثمانيّ وهو بذلك فتح لمن يأتي بعده آفاقًا جديدةً.

لقد استمرّت الهيمنة العثمانيّة في منطقة "رُومَلِي" طوالَ أربعمائة وسبعة وثمانين عامًا حتى عام (١٨٧٨م)، وعندما انطفأت شمعة العثمانيّين وانكسرت شوكتهم في تلك المناطق لم يختفِ تأثيرُهم على النفوس إذ ظلّت شعوب المنطقة تذكرهم بالخير وتكنّ لهم الاحترام حتى الآن.

وفي تلك الأثناء بدأ الهلال العثماني يسطع ويُرفرف في قلب أوروبا حيث وصل الجنود العثمانيون للمرة الأولى إلى قلب أوروبا بخطواتٍ راسخةٍ بعد قرونٍ من وصول "أتيلّا الهوني".

وقد أصدر "بايزيد" أوامرَه إلى قادته بمواصلة السير في أوروبّا وخاطبهم قائلًا: "سيروا على بركة الله ولا تتوقّفوا...".

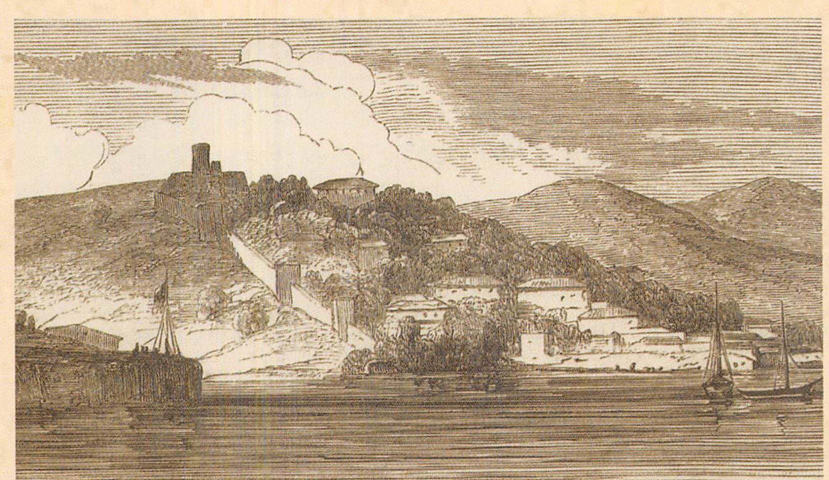
بعد أن تلقّى المغيرون العثمانيون الأوامر من سلطانهم تحرّكوا كالصاعقة مثله إلى أن وطِئوا بحوافر خيلهم أراضي "المجر" ثم واصلوا تقدمهم إلى أن وصلوا تخوم "البوسنة" وها هم الآن يقتربون من أراضي "النمسا" وهم في طريقهم إلى حدود "ألمانيا".



نهر الدانوب الذي يعد جزءًا لا يتجزأ من التاريخ العثماني

وهـا هـو هلال الرايـة العثمانيّة يرفرف خفّاقًا عاليًا علـى أراضي البلاد التي يفتحونها، والآن يتجه بشـموخه نحو "فيينا" علـى أكتـاف أبطـال مُلئت قلوبهم بالإيمان، ولكن حال الدولة العثمانيّة الذي يبدو أنه لن يتغيّر؛ كان دائمًا هو التعب سـواء في داخل البلاد أو خارجها، بالإضافة إلى الركض والعمل على قدمٍ وساقٍ.

ولهـذا السـبب كان يقـع علـى عاتق الجنود العثمانيين مسـؤولية القضاء على العقبات الموجـودة بداخل الأناضول مع المحافظة على أمنها واستقرارها دون أي فتورٍ أو قصورٍ على طريق الجبهة الأوروبيّة.



مدينة "زونجولدَك (*Zonguldak*) قديما "جِين بابْتِيسْتَ هِنرِي دورَند-بَرَجير "(*Jean Baptiste Henri Durand-Brager*)

وفي أراضي الأناضول فقد اسـتولى الجيش العثمانيّ علـى مـدن "زونغولداق (*Zonguldak*)" "قَاسْـطَمُونُو" و"جانقيـري (*Çankırı*)" بالإضافة إلـى ذلـك فقـد تمكّـن العثمانيـون كذلـك من ضـمّ جزءٍ مـن أراضي "جـوروم (*Çorum*)" إلى الأراضي العثمانية.

وبطبيعـة حـالِ الدنيـا الفانيـة التـي لا تدوم لأحـدٍ؛ فـإن الأمـور لا تسـير دائمًـا كمـا يريـد "يلدريـم بايزيد"، حيث تعرّض الجيش العثماني الـذي يقـوده "أرطغرول" -الابن الأكبر للسـلطان بايزيـد- لهزيمةٍ أليمةٍ أمام قـوّات "القاضي برهان الدين" في منطقة "قيرق ديليم (*Kırkdilim*)" بالقرب من مدينة " قَاسْطَمُونُو" حتّى إنّ "أرطغرول بك" خرّ شهيدًا مجيدًا ولقيَ حتفه في ساحة المعركة.

لقد أثّرت هذه النتيجة المؤسِـفة على العلاقة بين دولتين تركيّتين بشـكلٍ سـلبيّ، وبالاضافة إلى ذلك فقد زعزعت من سيادة الدولة العثمانيّة، علاوةً على كونها أحدَثَتْ شرخًا واضحًا في وحدة جسم الأناضول.

التوجه نحو "البلقان" مرّة أخرى

لـم يكـن السـلطان "يلدريم بايزيد" مـن الحكّام الذين يُثنَونَ عن أهدافهم أو يغيّرون مسـارَهم مـع هزيمة الجيش، بل إن ذلك ألهب فيه روح الجسارةِ والشجاعةِ أكثر، ولذا واصل صراعه مـع "سيجسموند " ملك المجر.

قد اتّجه الملك "سيجسموند" صوب "بلغاريا" بعد استيلائه على "نِغْبُولُو" مصطحبًا معه الأمير الروماني "ميرجه" -الذي عيّنه بايزيد واليًا على "أفلاق"- إلا أن الأتراك العثمانيّين أوقعوا به وبصاحبه هزيمةً نكراء، ولّوا عقِبَها على أدبارهم فارين إلى بلادهم.

وقد تيقّن الأوربّيّون مرّةً أخرى أنه من المستحيل التغلّب على العثمانيّين إلا عن طريق الاتحاد وتشكيلِ حملةٍ صليبيّةٍ تشارك فيها الدول الأوروبيّة جمعاء.

وكان الأوروبيّون -وخاصة ملك "بلغاريا"- يعرفون أن الحملات الصليبية كذلك لا تُجدي نفعًا مع الزحف العثمانيّ، إلا أنهم يعتقدون أنه السبيل الوحيد الذي يمتلكونه من أجل التصدّي لحملات العثمانيين في أوروبّا.

وكلما وجد "شيشمان" -الذي تم أسره بعد الحرب التي خاضها ضدّ العثمانيّين وتمّ العفو عنه بعد ذلك من قِبَلِ "بايزيد" وأُعيد مرّة أخرى إلى أراضيه مع لقب" الحاكم العثمانيّ لبلغاريا"- الفرصةَ لم يكن يتوانَى عن دعم أيّ حملةٍ صليبيّةٍ أو أيّ أنشطة سرّيّة ضدّ الأتراك.

وقد كلّف السلطان "بايزيد" ابنه الأمير "سليمان شلبي" بفتح "بلغاريا" بعد أن نمَتْ إلى مسامعه أنباءٌ تُفيد بأن ملِك "المجر" يدّعي أن أراضي "المجر" -التي يعتبرُها العثمانيّون أنها من ضمن أراضي دولتهم- ملكًا له، وبعد حملةٍ عسكريّةٍ استغرقت ثلاثةَ أشهرٍ انضمّت جميع المدن المجريّة إلى جسم الدولة العثمانية تمامًا، وبهذا النصر تمّ القضاء على مملكة "المجر" كلّيًا.

فتح العثمانيّين على "سَالُونِيكْ" و"سكوبيه (*Skopje*)"

بعد أن حلّ "يلدريم بايزيد" مشكلةَ "بلغاريا"، تحرّك بجيشه نحو أراضي "البلقان"، وفي ربيع عام (١٣٩٤م) تمكّن الجيش العثماني من الاستيلاء على "سَالُونيكْ" و"ثيساليا (*Thessaly*)" و"يَنِي شَهِيرْ".

ولقد زحفَ لواءٌ آخر من ألوية الجيش العثمانيّ تجاه أراضي "ألبانيا"، فاستولى على مراكز "آقجه حصار" و"فلوره (*Flore*)" و"بَرَاتْ (*Berat*)" و"قستورية (*Kastoria*)".

ولقد انهزمت القوات الألبانيّة -بقيادة مَلِكِ الألبان- شرّ هزيمةٍ، وتمّ احتجاز ملِكِهم بعد أن رفضَ معاهدةَ السلام التي عرضَها العثمانيّون عليه وفضل الخوض في الحرب ضدّ القوات العثمانية.



مدخل مكتب البريد الذي أنشأه العثمانيين في مدينة "سكوبيه"

وعندما عرضَ البنادقة النقود مقابل الحصول على "شقودرة" وافقَ العثمانيّون على هذا العرض، وهكذا فقد تمكّنت القوّات العثمانيّة من إقامة طوق سيطرةٍ في الشريط الممتدّ من "ألبانيا" و"الجبل الأسود" و"البحر الأدرياتيكي" و"البحر الأيوني" حتى سواحل مضيق "أطرانط (*Otranto*)".

وبعد فترةٍ من الوقت انضمّت مدينة "سكوبيه" و"واردار (*Vardar*)" أيضًا إلى أراضي الدولة العثمانية وهما من المدن المهمّة في "مقدونيا"، وانضمّ معهما جزءٌ من ألبانيا كذلك إلى الأراضي العثمانية في هذه الفترة، وبدأت تهبّ رياح "سكوبيه التركية"، التي سوف يستمر عبقُ نسيمها سنواتٍ عديدة.



حمام داود باشا في مدينة "سكوبيه"

وبالإضافة إلى ذلك فقد حقّقت القوّات العثمانيّة انتصاراتٍ في منطقة "ألبانيا" امتدّت حدودُهم إلى تخوم مملكة "نابولي (*Napoli*)"، وكانت "نابولي" مضطرّةً إلى إبرام معاهدة سلامٍ مع العثمانيين لخوفها الشديد من اعتداء جارتها البندقية عليها، وفي الواقع فإن "يلدريم" أيضًا كان يفضّل التعايش السلميّ مع مملكة "نابولي".

بعد كلّ تلك الفتوحات ما تزال الدولة العثمانية لا تملك جزيرةً واحدةً من ناحية بحر "إيجه"، ولا ساحل اليونان، ولا حتى سواحل الأناضول.

"إسطنبول" من ناحية و"تيمور" من الناحية الأخرى

إن المفاجآت التاريخية التي لا تنتهي والتقلبات الزمنية التي تحرّك مصير البشرية؛ لا تزال تستمرّ على ساحة الحياة دون انقطاعٍ أو فتور، إذ إن طالع السلاطين العثمانيين لم يتغيّر طوال العهود الماضية حيث إنهم كلّما اتّجهوا صوب أوروبا اضطرّوا للعودة إلى الأناضول لإخماد المشكلات والنوازل والتمرّدات التي تحدث هناك، لكن الخَطْبَ هذه المرة يختلف عن غيره من الخطوب والنوازل السابقة، لأن المشكلة في هذه المرة نشبت من آسيا الوسطى أي من قلب وطن الأتراك الأصلي.

كان "تيمور" يمثل ذلك الخطرَ إثر خروجه على رأس جيشه وتقدُّمه صوب الأراضي العثمانية.

وفي نهاية القرن الرابع عشر كانت هناك دولتان تركيّتان كبيرتان في العالم، إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب، كانت الدولة الموجودة في الغرب هي الإمبراطورية العثمانية، وكان يُطلَق على الدولة التي تتولّى الحكم في الشرق السلطنةَ التركية الشرقية، وكان الحاكم في الغرب هو "يلدريم بايزيد"، وفي الشرق هو "تيمور".

كان "تيمور" يطيحُ بالإمبراطوريّات ويَسحقُ الدولَ من حوله، وإلى جانبِ كونه قائدًا جشِعًا إلا أنه اشتهر بين الناس بمحبّته للعلم والفنّ، فهو كان من هذه الناحية يشبه السلطان "بايزيد" كثيرًا، وما الغريب في ذلك؟ فكلاهما من نسبٍ واحد.

وكان "يلدريم بايزيد" يضيق ذرعًا كلّما تلقّى معلوماتٍ عن "تيمور"، لأنه كان منشَغِلًا في صراعٍ مستمرٍ مع حكام الأناضول شرقًا، ومع ملوك أوروبا غربًا، وكان الأمر يزداد تعقيدًا كلّما ظهرت وتفاقمت المشاكل الداخلية.


منمنة قديمة تشير إلى "تيمور" في إحدى حملاته

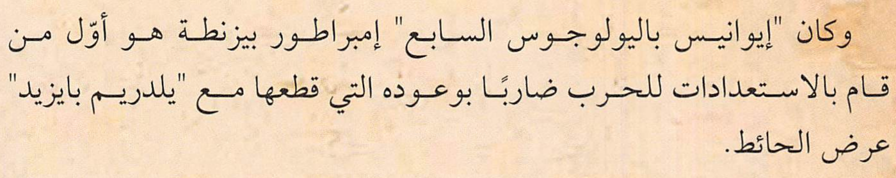
وخلاصة القول أنه على الرغم من قيامه بمناورات كبيرة وحملات ضخمة هنا وهناك إلا أنه لم يكن يمتلك صداقةَ دولةٍ أو مملكةٍ يلجأُ إليها عند الخطر.

وكان يسأل "يلدريم بيازيد" نفسَه لماذا يُفضّل رجالُ الدولة الحربَ على السلام لحلّ مشاكلهم؟ مع أنّ حلّ الخلافات والمشاكل عن طريق معاهدات السلام أقلّ تكلفةً بكثيرٍ من تكاليف الحروب؟!

وقد استدعى "يلدريم بايزيد" الملوك والحكام والأمراء من "رُومَلي" و"البلقان" وأوروبا لعقد اجتماعٍ للبحث عن حلّ جذريّ للمشكلات التي بينه وبين تلك الدولِ عن طريق السلام دون اللجوء للحرب.

وقد تمّ عقد الاجتماع في مدينة "سيرس (*Serres*)" غير أن هذا الاجتماع لم يحقّق الثمرةَ المرجوّة منه ولم يُنجز الأهداف التي ينشُدها "بايزيد".

فقد دخل الأمراء في نقاشاتٍ حادّة فيما بينهم، إلى أن ضاق "يلدريم" بهذه المشادّات الكلاميّة التي لا تتناسب مع بروتوكولات وقواعد الدبلوماسيّة العثمانيّة المتّبَعة في حضور جلالة السلطان لدرجة أنه همَّ بإصدار أمرٍ بإعدامهم جميعًا، وعندئذ تدخل الوزير "جندارلي علي باشا" الذي أدرك أنّ همّ السلطان هذا نابعٌ من غضبه الشديد وعمل على تهدئته وإثنائه عن هذا الفعل، ولـمّا علم الأمراء فيما بعدُ بما فكّر فيه السلطان في حقّهم؛ أقسموا بالله أن ينتقموا منه.



وكان "إيوانيس باليولوجوس السابع" إمبراطور بيزنطة هو أوّل من قام بالاستعدادات للحرب ضاربًا بوعوده التي قطعها مع "يلدريم بايزيد" عرض الحائط.



تيمور أحد أعظم الحكام في التاريخ

وفي مقابل ذلك قام "بايزيد" بردٍ فوريٍ استباقيٍ دون أن يضيع وقتًا فأمر بمحاصرة إسطنبول مجدّدًا، ولكن جنود الإنكشارية لم يستطيعوا تجاوزَ أسوار إسطنبول، ومع أنهم كرّروا ذلك عدّة مرّات إلا أن النتيجة لم تتغيّر أيضًا، فانسحب الجنود العثمانيّون بعد حلول فصل الشتاء الذي جعلهم مكتوفي الأيادي حيال تلك الأسوار المنيعة.

وظلّت إسطنبول مرّة أخرى في قفصها الذهبي في أيدي البيزنطيين...

حملة صليبية جديدة وانتصار "نِغْبُولُو"

بعد القضاء على مملكة "بلغاريا" تمامًا وإلحاقِ الهزيمة الثقيلة بـ"سيجيسموند" ملك "المجر" بدأت أصوات الأعلام في أوروبا ترتفع مرّةً أخرى قائلةً:

"يجب ألا نواجه الأتراك وحدنا، وعلينا أن نتّحد للقضاء عليهم، وعلينا أن نُعدّ حملةً صليبيّةً كبرى، ولسوف ننتصر هذه المرة!"

وعُرض الأمر على بابا الفاتيكان فوافق عليه ووعد بأنه سيساند من أجل تجهيز الحملة، واختار الصليبيّون "سيجيسموند" قائدًا للحملة الصليبيّة الجديدة.

ولكن الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة سارت على عكس ما يتوقعون حيث سجّل عددٌ قليلٌ جدًّا من الناس أنفسَهم كمتطوّعين للمشاركة في الحرب، وعلى ذلك أرسل البابا -الذي ضاق ذرعًا بهذه الندرة في المقاتلين- إلى فرنسا، طلبَ منها تقديم الدعم لهذه الحملة، وعلاوة على ذلك أمر البابا بإلقاء الوعظ والخطب التحريضية في كنائس النمسا والبندقية من أجل تشجيع الناس على المشاركة في الحملة الصليبية، بالإضافة إلى ذلك أصدرت باباويّة الفتيكان تعليماتٍ إلى كنائس "النمسا" و"البندقية" أمرت فيها بإلقاء الخطب والمواعظ التي تحضّ الناس على المشاركة في الحملة الصليبيّة الجديدة.

وكان السبب وراء فتور الناس عن المشاركة في الحملة الصليبية هذه المرّة؛ هو ورودُ خبرٍ إلى مسامعِ أوروبا يفيد بأن "يلدريم بايزيد" قد حاصر إسطنبول مجدّدًا للمرة الثانيّة، وهذا الخبر قد أثار الخوف والذعرَ في قلوب الجنود الجدد.

وقد ألهبت الخطب التحفيزية الباباويّة الكَنَسيّةُ حماسًا شديدًا إلى أن استطاعت استنهاضَ هِمَمِ الشعوب المسيحية حيث أعلن كل من "المجر" و"الإمبراطورية الألمانية" و"انجلترا" و"مملكة فرنسا" و"بولندا" وإمارة "أفلاق" وفرسان "رودس" وفرسان "تيوتون"(٢٧) و"قشتالة (*Castilla*)"(٢٨) و"أراغون"(٢٩) والبابوية بمشاركتها في الحملة الصليبية الجديدة وبالإضافة إلى ذلك كان قد وعد كل من "إيطاليا" وممالك "النرويج" و"اسكتلندا" بوحداتهم المختارة بالاشتراك في هذه الحملة أيضًا، أما بيزنطة فكانت بالفعل في حالة حربٍ مع العثمانيين.

وقد شاركت البندقية في الحملة الصليبيّة ضدّ الأتراك على مضضٍ، فعلى الرغم من مصالحها التجاريّة مع العثمانيّين إلا أنها لا تستطيع مخالفة أوامر البابا.

وقد تمكن المتديّنون المسيحيّون الأوروبيّون من جمع كميّةٍ كبيرةٍ من المال من أجل الحملة الصليبيّة، وحتى "فرنسا" كانت قد حصلت على قروضٍ من دول أخرى من أجل إمكانية المساهمة في هذا الصندوق، وقد استغرق الإعداد للجيش الصليبي الأوروبي الموحّد عامين كاملين.

وقد اجتمع مجلس الحرب الكبير للمسيحيين برئاسة "سيجيسموند الأول" في "بودا" -بودابست الحالية- وتمّت مناقشة الخطوط العريضة للحرب وإستراتيجيّاتها.

وكان كلّ يومٍ يمرّ على عمر البشريّة آنذاك؛ يُنذِر باقتراب موعد الملحمة الكبرى بين أكبر قوّتين عسكريّتين على وجه الأرض آنذاك، بين الدولة العثمانيّة وبين التحالف الصليبيّ الأوروبّي.

وقد اتّحدت كتيبةٌ أخرى مكوّنةٌ من الجنود "الألمان" والفرنسيّين مع قوات والي "أفلاق" أيضًا، واتحد فيما بعد مع القوات التي كانت تحت قيادة ملك "المجر"، واتّحدوا كقوّةٍ ضاربةٍ واحدةٍ إلى أن وصلوا أمام قلعة "نِغْبُولُو".

وقد تعامل الجيش الصليبيّ مع أهالي المسيحيين في المناطق التي يجتازها بشكلٍ سيّءٍ واغتصب كلّ ما في أيدي الناس عنوةً.

وفي تلك الأثناء بينما كان "سيجيسموند" ملك المجر في طريقه إلى "نِغْبُولُو" مرّ على "فيدن (*Vidin*)" و"راكو (*Raco*)" و"أورشوفا (*Orsova*) " وقام بعزل المسلمين عن غيرهم ثم أمر بقتلهم.

وهذه الحرب التي اشتهرت في التاريخ باسم معركة "نِغْبُولُو" قد أودت بحياة عشرات الآلاف من الناس وسحَقَت ودمّرَت آلافَ الأُسَرِ.

(٢٧) **تيوتون**: إنها طائفة عسكرية دينية ألمانية، تأسست عام (١١٩٠م) كمنظمة تمريضية لكنها تحولت إلى نمط فرسان المعبد فيما بعد. (المترجم)

(٢٨) **قشتالة**: هي مملكة سابقة تاريخية اندمجت تدريجيًا مع جيرانها لتصبح "تاج قشتالة" ثم مملكة إسبانيا لاحقًا، في إسبانيا الحالية. (المترجم)

(٢٩) **أراغون**: منطقة تقع في شمال شرق إسبانيا. (المترجم)

أما بالنسبة للدولة العثمانية فإن هذه المعركة كانت أيضًا معركةً مصيريّة بامتياز.

وكانت "نِغْبُولُو" التي تعدّ بلدةً زراعيةً داخل حدود "بلغاريا" الآن ولها ساحل على البحر مستوطنةً صغيرةً في ذلك الوقت.

وكان الجنود الأوروبيّون يعتقدون هذه المرة أن النصر سيكون حليفَهم وكما يعتقدون أنهم سيهزمون العثمانيين ويواصلون سيرهم حتى القدس والأراضي الفلسطينيّة، وقد نقشَت بعضُ الوحداتِ العسكريّة صورة العذراء مريم على راياتهم من أجل إصباغِ الروح الصليبيّة على الحرب، حتى إن الفرنسيين قد خططوا من أجل القيامِ بعَرْضٍ عسكريٍّ لافتٍ في مدينتي "بورصة" و"القدس" بوحداتهم التي نظّموها وجهّزوها من أجل هذا الغرَض.

وكان الجنود الصليبيون يعتقدون أن "بايزيد" لن يتجرّأ أن يواجههم، حتى شاع بين الجنود أن السلطان "بايزيد" عندما سمع بمقدِم الجيوش الصليبية شعر بخوفٍ شديدٍ ولجأ إلى السلطان المملوكيّ، ومن المثير للاهتمام أنه يروى أن المشير الفرنسي "بوسيوقالت (*Boucicault*)" أمر بقطع أُذُنِ جنوده الذين أشاعوا بأن "بايزيد" وصل إلى ميدان المعركة.

نعم، إن "يلديريم بايزيد" لمّا يصلْ بعدُ إلى "نِغْبُولُو" مع جيشه حتى الآن، ولكنه قد خرج من "أدرنه" واقترب من ميدان المعركة.

وبينما كان "دوغان بك" قائد قلعة "نِغْبُولُو" ينتظر "بايزيد" وجيشه من جهة، كان قد دخل في معركة كبيرة من أجل الدفاع عن قلعة "نِغْبُولُو" من جهةٍ أخرى، وقد كان "دوغان بك" يتصدّى بكل بسالةٍ وشجاعةٍ للهجمات المتتالية للقوات الصليبية التي تفوقه عدّةً وعددًا.



مدينة "أفلاق" قديمًا - رومانيا

وفي ذلك الوقت ظهر خلافٌ بين صفوف القوّات الصليبيّة، حيث كان "جان" القائد العام الفرنسيّ الأصيل الشجاع لا يرغب في أن يسبقه "المجر" إلى شرف الهجوم العسكريّ الأول في الحرب الميدانية، ويَظهَرُ من ذلك أنه لن يُطيع أوامر "سيجسموند".

وكان تأخير السلطان "بايزيد" في المجيءِ إلى "نِغْبُولُو" قد جعل القادة والجنود الصليبيّين يسترخون ويستهترون تمامًا بالمعركة التي تنتظرهم، حتى إن منهم من ادّعى أن "يلدريم" قد خاف وأنه لن يأتي أبدًا إلى ميدان المعركة، ولذلك انكبّوا على اللهو والشراب، ودخلوا في سباق ولائم فيما بينهم.

وفي الحقيقة فإن "يلدريم بايزيد" قد وصل سرًّا إلى "نِغْبُولُو"، وكان يتباحث مع قائد القلعة "دوغان بك" ممتطيًا حصانَه الأبيضَ العظيمَ شامخًا إلى جانب الأسوار.

أول هجومٍ من الفرنسيّين

بدأت معركة "نِغْبُولُو" بضجيج كبير، وكان الجنود الفرنسيون هم أوّل من بدأ بالهجوم على صفوف العثمانيين ثمّ أعقبهم "المجر" وغيرهم.

وقد بدأت المعركة بين الجيش الصليبي وقوامه مائة وثلاثون ألف جندي والجيش العثماني وقوامه سبعون ألف جندي، وقبل أن يصل "بايزيد" إلى ميدان المعركة خلف وراءه عشرين ألفًا من جنوده المدرّبين كقوّةٍ احتياطيّة في ممرّ "شبقة" مهمّتُها تأمينُ الجبهة الخلفية وإحكامُ القبضة على الأعداء إذا ما تمّ استدراجها إلى تلك المنطقة.

وفي صبيحة يوم الخامس والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٣٩٦م) كان يُسمع في الميدان صدى صيحات الجنود وأناشيد الفرق الموسيقية.

كانت تحرّكات الجيش العثمانيّ في الميدان على النحو التالي: يتصدّر جنود المشاةِ مقدّمةَ الجيش بقيادة "سروجه باشا"، ويليهم من الجانب الأيسر جنود "رُومَلِي" بقيادة "سليمان شلبي"، ومن الجانب الأيمن جنود الأناضول بقيادة أمير أمراء الأناضول "قَرَه دمرداش باشا"، وفي الوسط قوات الإنكشارية كالمعتاد، بالإضافة إلى قوات الخيالة في أقصى الجانبين الأيمن والأيسر، وفي المؤخرة وحدات الجنود الاحتياطيين من الإنكشارية وبعض الفرسان.

وبدأ الفرسان الفرنسيون -الذين كانوا يرغبون في أن يكون شرف تدمير الجيوش العثمانية خاصًّا بهم- بالهجوم، فهاجموا قوّات المشاة الذين يتمركزون في قلب الجيش العثماني والذين يُطلق عليهم اسم "أعزاب"، فأدّى ذلك إلى استشهاد العديد منهم، واستشهد أيضًا الكثير من جنود الإنكشاريّة، ممّا أجبر القوّات العثمانية على التراجع والتقهقر للخلف قليلًا.

وتشـجّع الفرنسـيّون أكثر فأكثر عندما رأوا انسحاب القوّات العثمانية وبدؤوا يكثّفون هجماتهم على الجنود العثمانيين، فانقسم الجيش العثمانيّ إلى جانبين، وبينما كان الفرنسيّون يتقدّمون معتقدين أنهم حقّقوا نصرًا مبكّرًا للغاية.

كان "سيجيسـموند" ملـك المجـر يبذل جهـدًا ملحوظًا من أجل إيقافهـم، وفي الوقت الذي ظنّ فيه الجنود الفرنسـيون أنّهـم يختتمـون المعركـة لصالحهـم وأنّ انتصارَهم باتَ محقّقًـا على الجيش العثماني؛ إذ بهم يقعـون في الفخّ الذي نصبه لهم السـلطان "بايزيد"، حيث إن الجنود الفرنسـيّين وجدوا أنفسَـهم محاصرين من جميـع النواحي بعد أن تدخّلت القوات العثمانيّة الاحتياطيّة في وقتها المناسب وأحكمت القبضة عليهم تمامًا.

ودارت هناك رحى معركةٍ دمويّة قاسـية سـجّلها التاريخ ضمن ملاحمه التي لا تُنسـى، ولقد بدأ "سيجيسموند" يُدرك أن جنود الفرنسيين أوشكوا على الهلاك، ولكن من أين له أن يُنقِذهم وقد أحكمتِ الكماشةُ القبضَةَ عليهم؟! لقد فات الأوان...

وبعـد أن سـحقت القـوات العثمانية معظمَ الجنود الفرنسـيين واصلـت هجومها على باقي الجيـش الصليبي، وواصلت زحفهـا صائلـةً جائلـةً في أرض المعركة، إلى أن تسـلّل الخوف والذعر إلى قلوب الصليبيّين وسـاد الاضطراب صفوفهم، فبدأت عمليّات الفرار تتلاحقُ وتتعاقب.

كان "يلدريم" يُديرُ المعركة مع أبنائه بكلّ دهاءٍ وذكاء، بالإضافة إلى أنه كان يحارب بنفسِهِ في مقدّمة الجيش.

وقد استطاع "سيجيسموند" أن ينجو بنفسه من الموت بصعوبةٍ بالغةٍ، إلا أن معظمَ جنوده لقوا حتفَهم في ميدان المعركة، وغـرِقَ بعضهـم الآخـر فـي نهر "الدانـوب"، وأما مصير القـوت الصليبية الأخرى فهـو لا يختلف حالًا عمّا حـاق بالجنود الفرسيّين من نطلٍ وجحيم؛ حيث تعرّض الجيش الصليبي لهزيمةٍ نكراء أمام القوّات العثمانية، وفي تلك اللحظات قد ازداد صدى معزوفات الفرق الموسيقيّة العثمانيّة التي تحتفل بالنصر المؤزّر.

وقد اسـتطاع بعض نبلاء وعظماء أوروبّا أن يفروا من ميدان المعركة وينجوا بجلودهم، بينما وقـع بعضهم الآخر أسـيرًا في أيدي العثمانيّين، ومن بين هؤلاء الفارين "هنري الرابـع" المرشّح لعرش "انجلترا" والذي كان يقود القوّات الإنجليزية.

أما العثمانيون فكانوا قد أحرزوا واحدًا من أعظم انتصاراتهم في التاريخ، وقد استولت القوّات العثمانية على المعدّات الحربية والمؤن التي كانت تحملها سبعون سفينة كبيرة تابعة للصليبيّين قد عبرت نهر "الدانوب"، بالإضافة إلى ذلك جُلِبَ بعضُ الأسرى إلى مدينة "بورصة" وتمّ إهداء البعض الآخر إلى أمراء الأناضول.

أُصيبَ الجيـش الصليبيّ بحالةٍ من التشـتّت والذهول والوهن والدهشـة بعد أن فقد زُهاءَ نصف جنوده أي سـتين ألف جندي في أرض المعركة.

وبعد نصر "نِغْبُولُو" منح الخليفة العبّاسيُّ "يلدريم بايزيد" رسميًّا لقبَ "سلطان إقليم الروم" -أي سلطان الأناضول-.

وضع أساس قلعة الأناضول

بدأ "يلدريم بايزيد" الذي سَعِدَ بعد انتصار "نِغْبُولُو" يفكّر مليًّا وبشكلٍ جدّيّ في إسطنبول مرّةً أخرى، لقد كان يرغب في إيجادِ وسيلةٍ ناجحةٍ من أجل فتح إسطنبول، لينالَ بشرى النبي ﷺ.

ولقد أثبتت معركة "نِغْبُولُو" مرّةً أخرى أن العالم المسيحيّ يمكن أن يتّحد عندما تدعوه الضرورة إلى ذلك، ويمكنه كذلك أن يتّجه لهدفٍ موحّدٍ، وإذا احتاج أيٌّ منهم المساعدة التفَّ حوله الآخرون سريعًا، وبناءً على ذلك بدأ "بايزيد" بإعداد خططٍ خاصّةٍ بإسطنبول طبقًا لاحتمالية وصول مساعدات إلى ملوك "بيزنطة" في إسطنبول من أطراف متعدّدةٍ من الخارج، ولذلك شرع في بناء القلعة في أضيق جزءٍ من مضيق إسطنبول، وكان يطلِق عليها اسم "قلعة الأناضول" وهي ما تزال قائمةً شامخةً حتى الآن وقد أنشأها "يلدريم" على صخرةٍ ارتفاعُها ثلاثة أمتار، وبلغ عرضُ القلعة وارتفاعُها عشرين مترًا، وسمك جدرانها يبلغ مترًا ونصف المتر... كما اشتملت هذه القلعة على سبعة أبراج.

إن استعادة "شِلَة" -التي كانت قد خرجت من حوزته في إحدى الفترات- مرّةً أخرى وإتمام قلعة الأناضول بسرعة قد رفع من الروح المعنوية لسلطان "بايزيد" وزاد من عزمه وعزيمته على فتح إسطنبول.



بطاقة بريدية قديمة تُظهِرُ حصن الأناضول

إن صورة إسطنبول في خيالِ العالم منذُ القِدَمِ أنها مدينةٌ ذات جمالٍ يبهر العيون ويسلُبُ القلوب، وقد اكتسبت معنًى مختلفًا وبُعدًا جديدًا بعد تشييد قلعة الأناضول.

وعلى الرغم من استكمال جميعِ الاستعدادات للحرب إلا أن "بايزيد" كان يرغب أن يُبرِمَ معاهدةَ سلامٍ مع البيزنطيّين من أجل حَقْنِ الدماء وحِفظِ الأرواح، ولهذا السبب أرسل "بايزيد" خطابًا إلى الإمبرطور البيزنطيّ في إسطنبول أخبره فيه أنه لا يرغب في إسالة الدماء وأنه مستعدٌّ أن يشاركه في حكم إسطنبول إذا فتح أبوابَ البلاد أمام جنوده دون اشتباكٍ.

ورفض "مانويل" العرضَ لأنه قد حصل على سفنٍ مؤخّرًا من أوروبّا وروسيا إضافةً إلى أنه تلقى من دول أوروبا مساعداتٍ مادّيّةً أيضًا، وكان يضع في حسبانه ويثق كلّ الثقة بالوعود الكبرى للعالم المسيحيّ.

حصار إسطنبول

إن الحصار الذي فرضه العثمانيون على إسطنبول لم يُؤْتِ أكله بسبب ضعف القوّة البحريّة في الأسطول العثماني، ممّا أدّى إلى عدم تحقّق حصار كاملٍ من ناحية البحر، فضلًا عن عدم توفّر مدافع قويّة تستطيع هدم أسوار إسطنبول المنيعة.

أما بعض المناطق السكنية القريبة من إسطنبول فكانت لا تزال تحت إدارة بيزنطة، وكان يجب الاستيلاء عليها أيضًا.

واستغرق "يلدريم بايزيد" يُفكّر مليًّا بكل ما سردناه آنفًا، فكان محتارًا في اتّخاذ القرار، متردّدًا بين مواصلة الحصار وبين تركه والعودة إلى عاصمته، وفضلًا عن ذلك فإن "مانويل"، كان يُرسِلُ إلى "بايزيد" خطاباتٍ يُعرِب فيها عن رغبته الجادّة في إبرام معاهدة سلامٍ مع العثمانيين.

وعلى سبيل المثال فإن "مانويل" كان يُعرب عن موافقته -في أحد الخطابات التي أرسلها إلى بايزيد- على تعيين الأباطرة البيزنطيين من قِبَلِ العثمانيّين، وهذا يعتبر مكسبًا كبيرًا بالنسبة للعثمانيّين في ذلك الوقت، كما وافق "مانويل" على زيادة الجزية المقدّمة إلى العثمانيّين كلّ عام، وعلى تعيينِ قاضٍ مسلمٍ من أجل النظر في الدعاوى والخصومات بين المسلمين القاطنين في إسطنبول، وبالإضافة إلى ذلك أعلن موافقته كذلك تعيين إمامٍ مسلمٍ في المدينة من قبل الإدارة العثمانية، بالإضافة إلى ذلك يتنازل للعثمانيّين تمامًا عن المناطق الواقعة على طول الطريق حتى مدينة "سيليوري" وبناءً على ذلك كله، وبعد تحقيق تلك المكاسب؛ قرّر السلطان "بايزيد" رفع الحصار عن إسطنبول.



مشهد من مدينة "روما"

وفي الحقيقةِ فإن السلطان "بايزيد" حصل من خلال هذا الاتّفاق على حقّ إدارة إسطنبول ولو كانت بصورة رمزية، وتولّى -إلى حدٍّ ما- زمام الأمور في المدينة، وتحوّل "مانويل" إلى إمبراطورٍ رمزيّ لا أكثر.

المغيرون العثمانيّون في طرق "روما"

وكان السلطان "يلدريم بايزيد" يولي اهتمامًا بالغًا بجزيرة "مورة" التي يحكمها الإيطاليون كما يهتمّ أيضًا بـ"اليونان" وخاصة مدينة "أثينا".

لقد كانت مدينتي "روما" و"أثينا" من أهمّ مدن العالم التي كان جميع الحكام في الشرق والغرب آنذاك يتمنّون السيطرة عليها وربما حلم بذلك "بايزيد" أيضًا.

وفي تلك الفترة كانت الأوضاع في اليونان مضطربةً بسبب مشاكلها الداخلية، وكان المواطنون اليونانيون غير راضين عن تصرّفات حكامهم، حتى إنَّ عددًا كبيرًا من الشعب يُفضّلون الحكم العثماني على الحكومة الحالية هناك.

فلقد كان كلّ شيءٍ في "أثينا" لصالح العثمانيّين وبالفعل فبعد مدّةٍ انضمّت هذه المدينة إلى الأراضي العثمانية.

وبعد أن فتح العثمانيون "أثينا" اتجهوا نحو "إيطاليا".

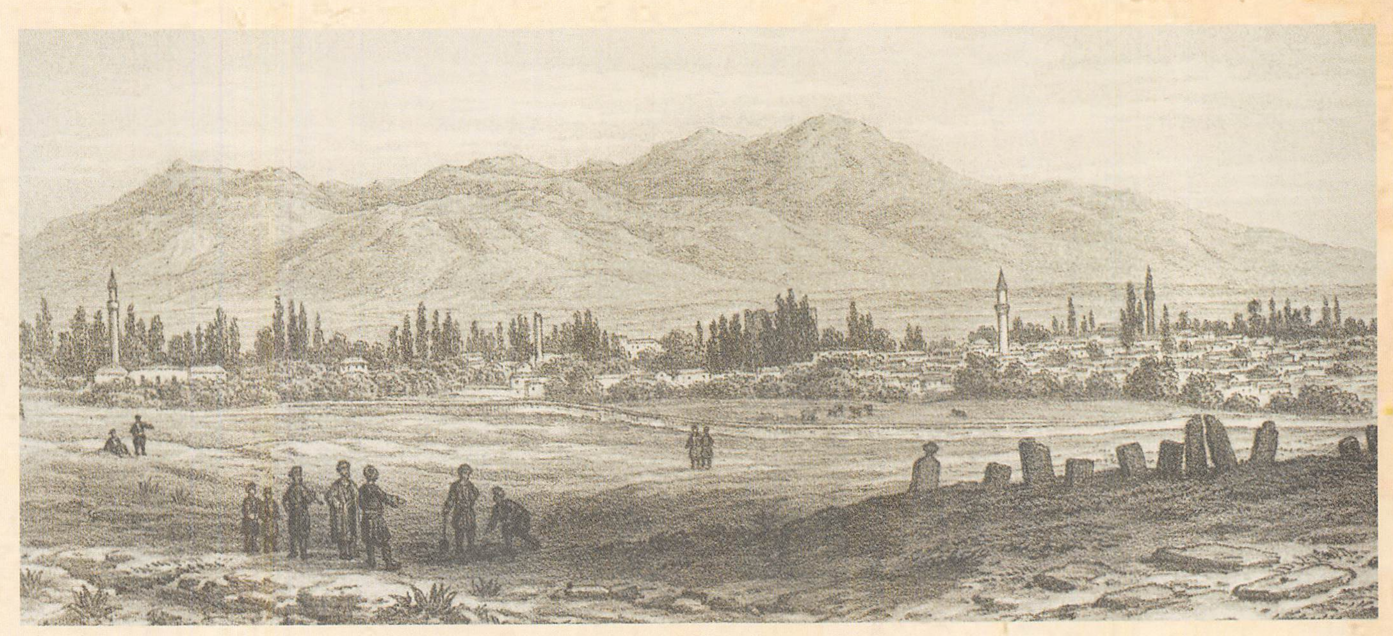
وقد تحرك الجيشُ العثماني الذي كان قوامُه خمسين ألف جندي إلى "المورة" تحت القيادة المشتركة لـ"يعقوب بك" و"أُورَانُوسْ غازي".

ولم يقاوم "أسقفُ المورة" الجيشَ العثماني، ووافقوا على دفع الجزية السنوية، وبعد الاستيلاء على قلعة "أرجوس" قام الجنود العثمانيّون بضمّ كلّ المناطق حتى جنوب "المورة" إلى الأراضي العثمانية.

وكان "يلدرم بايزيد" يخوض معارك شرسةً في أنحاء متفرقة من أراضي أوروبا مع القادة المشاهير أمثال "فيروز بك" و"أُورَانُوسْ بك" و"يغيت باشا"، وقد حقّق انتصاراتٍ كبيرةً في كلّ المعارك التي خاضها، وفي تلك الأثناء قام "علاء الدين علي بك" بتحرّكاتٍ مناهضةٍ في الأناضول ضدّ الدولة العثمانيّة مستغلًّا انشغال العثمانيّين في جبهات أوروبا حيث قام بالاستيلاء على مدينة "أنقرة"، ظنًّا منه أن العثمانيّين لن يتمكّنوا من التغلّب على الأوروبّيين الذين اتّحدوا فيما بينهم وأنّ الجيش الصليبي سيقضي على الجنود العثمانيين في "نِغْبُولُو" ولذا من الصعب إعادة هيمنة العثمانيين على الأناضول.

ولمّا علِمَ "بايزيد" غضِبَ غضَبًا شديدًا وعزم على أن يلقّن "علاء الدين علي بك" -الذي يثير الفتن ضد الدولة العثمانية- درسًا لن ينساه أبدًا، فطارَ بجيشه مسرِعًا صوب "أنقرة" والتقى الجيشان في وادي "قونية"، ودارت هناك معركةٌ شرسةٌ بين الطرفين راحَ ضحيّتها الكثير، وعندما أدرك "علاء الدين" أنه سيُهزَم لجأَ إلى قلعة "قونية"، ولكن "يلدريم" لن يتركه يذهب دون عقابٍ فلم يكفّ عن ملاحقته، وفي الواقع فإن أهالي "قونية" كانوا يريدون حكم العثمانيين ويتطلّعون إليه منذ مدّة، ولذلك أخذوا يناصرون العثمانيّين، واستسلمت قلعة "قونية" بعد حصار دام أحدَ عشر يومًا، وفي هذه المرة لم يصفح السلطان عن "علاء الدين علي بك" بل قتله وجعله عبرةً لمن يعتبر.

وفي عام (١٣٩٧م) تمّ الاستيلاء على مدينة "قرمان *(Karaman)*" عاصمة إمارة "بني قرمان" و "نيده *(Niğde)*" و"آقسراي *(Aksaray)*"، وكان أهالي هذه البلدان التي استولى عليها العثمانيّون يُظهرون شتّى أصناف الفرح والترحاب بحكّامهم الجدد، ولكن "يلدريم" لم يكن مرتاحَ البال، لأن القاضي "برهان الدين" كان ما يزال يثير المتاعب والفتن ضد الدولة العثمانية.



مدينة "قَرَمان" قديمًا - تركيا

القاضي "برهان الدين" عاصفة البحر الأسود وصوت المزمار

وقد توجّه "بايزيد" هذه المرّة نحو البحر الأسود فاستولى على مدن "سامسون (*Samsun*) و"كلتيك (*Keltik*)" و"تيره بولو (*Tirebolu*)" و"جارشمبه (*Çarşamba*)" في وقتٍ قصيرٍ، وفي غضون ذلك أعلن الأمراء "بنو قوباد" و"بنو تاج الدين" و"بنو طاشان " عن خضوعهم للدولة العثمانية.

وقد اتّجه العثمانيّون فيما بعد صوبَ إمبراطورية "طرابزون" الرومية، وبينما كانت الأحداث تجري في منطقة البحر الأسود إذ قام "آق قيونلو بك" بقتل القاضي "برهان الدين" في الأناضول.

وبالقضاء على القاضي "برهان الدين" فقد انتهت العقبة التي تهدّد وحدةَ وهدوء الأناضول.

وكان أبناء القاضي "برهان الدين" أكثر عقلانيّةً واعتدالًا من أبيهم، فقاموا بتسليم المدن التي يحكمونها إلى "يلدريم"، وهكذا انضمت مدن "قَيْصَرِي (*Kayseri*)" و"تُوقاطْ (*Tokat*)" وقيرشهير (*Kırşehir*) و"سيوس (*Sivas*)" -التي عانت من ظلم تحت حكم القاضي "برهان الدين"- إلى الدولة العثمانيّة.

وبعد هذه الانتصارات شعر السلطان "يلدريم بايزيد" بالطمأنينة إلى حدٍّ ما، إلا أنه كان يتذكّر نجلَه "أرطغرل" الذي لقي حتفه خلال المعركة التي دارت بينه وبين القاضي "برهان الدين"، وسرعانَ ما غادر السلطان بايزيد مدينةَ "سيواس" متَّجِهًا نحو "مراعي" وهو يساورُه حزنٌ عميقٌ.

وبينما كان يتجوّل وحيدًا سمعَ صوتَ نايٍ حزينٍ، كان أحد الرعاة ينفخ فيه بشكلٍ مؤثّرٍ، فتأثّر، وأرهف سمعه، فجلس القرفصاءَ خلف شجرةٍ، وبدأ يستمعُ إلى الناي بثباتٍ وهدوء، إلى أن مرّ وقتٌ طويلٌ، وذكريات الأيام السابقة تتواترُ وتتابع على ذهنه وذاكرته، ودموع عينيه تنهمل مدرارةً سخيّة... وبعد أن مسح الدموع التي تجمعت في عينه قام من مكانه وسار صوب الراعي، وقال له بصوتٍ حزين:

- اعزف أيها الراعي، اعزف، فليس لديك ابنٌ توفّي مثل "أرطغرل" وليس لديك مدينة قد تهدمت مثل "سيواس".

الحدود العثمانية تمتدّ حتى نهر "الفرات"

وعندما أراد السلطان "بايزيد" الاستيلاء على مدينة "ملطية (*Malatya*)" التي كانت تخضع لإدارة القاضي "برهان الدين" في وقت سابق، أعلنت الدولة المملوكيّة في مصرَ معارضتها الشديدة لهذا الأمر، حيث إن السلطان المملوكي كان يعتبر هذه المدينة داخل حدود مملكته ويرفض فكرة كونها ميراثًا للقاضي "برهان الدين"، وفي غضون ذلك أمر "بايزيد" بمحاصرة مدينة "ملطية"، وأحاطها بالخنادق، ثمّ تمّ الاستيلاء عليها دون أيّ مقاومةٍ تُذكَر.

وانضمّت أيضًا "ألبستان (*Elbistan*)" عاصمة إمارة "بنو ذولقادر" إلى العثمانيّين، كما انفصلت إمارة "بنو ذولقادر" عن المماليك التي كانت تابعةً لهم، وانضمّت إلى الدولة العثمانية، وفي هذه الأثناء تمّ الاستيلاء أيضًا على مدن "كاهتا (*Kâhta*)" و"باسني (*Besni*)" و"دارنده (*Darende*)" و"ديوريغي (*Divriği*)"، وتمّ إلزام مدينة "مرعش" بدفع الجزية، وهكذا امتدّت حدود الدولة العثمانية حتى نهر "الفرات".

إن هذا النصر المؤزّر الذي حقّقه العثمانيّون يؤمّن الوحدة السياسيّة في الأناضول كما أنه يوفّر لأهل المنطقة الاستقرار التامّ والكامل، واتّجه "بايزيد" إلى إسطنبول مجدّدًا ساعيًا وراء أمله الذي ما انقطعَ أبدًا وطموحه الذي ما زال متجدّدًا، وحوصرت القسطنطينية للمرة الرابعة، ولكن الحصار هذه المرة لم يكن يشبه المرات السابقة، فقد اهتم "يلدريم" بالأمر واستوفى تأمين المستلزمات والجاهزيّة العسكرية الكفيلة بتحقيق ذلك، وكان سقوط المدينة مسألةَ وقتٍ لا أكثر.

ولكن... مع الأسف ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه، فقد كان هناك نذيرُ شؤمٍ جديدٌ يُطلُّ على الأراضي العثمانية، وكان "بايزيد" يشعر به بل ينتظره ويستعدّ له من قبل.

وعندما تلقّى السلطان "بايزيد" خبرَ زحفِ "تيمور" على رأس جيشه العظيم من "آسيا الوسطى" إلى الأناضول ساوره قلقٌ بالغ.

لم يكن هناك سبيل آخر في هذه الحالة سوى رفع الحصار المفروض على إسطنبول، لأن الأناضول على وشك أن يحلّ بها فاجعةٌ كبيرة، وهذا كان يُعدُّ آخر حصارٍ لإسطنبول من قبل السلطان "بايزيد".

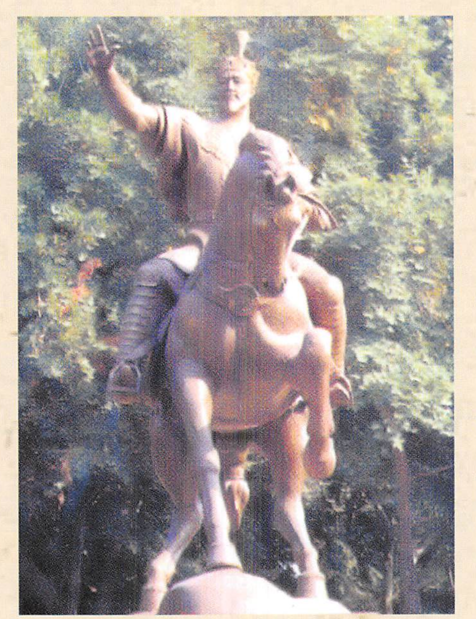
"يلدريم" والدولة العثمانية في مواجهة "تيمور" وجيشه الجرار

أصبحت الدولة العثمانية بقيادة السلطان "يلدريم" وبفضل الأراضي التي حصلت عليها الدولة قوّةً عملاقةً وملاذًا آمنًا للأتراك وأهالي المنطقة.

وكان ملوك البلقان الذين اغتُصب منهم عروشهم وأمراء الأناضول الذين خارت قواهم والولاة الذين فقدوا مدائنهم والشعوب الذين يعانون من ظلم حكامهم يعرضون مشاكلهم على الدولة العثمانية ويطلبون العون من السلطان "بايزيد"، وكانت الدولة العثمانيّة كما سلف أن ذكرنا ملاذًا آمنًا وقوّةً عظيمةً.

وأما "تيمور" فكان حاكمًا على آسيا الوسطى ويتمتّع بنفس القوّة والهيمنة التي تتمتع بها الدولة العثمانية.

وكان "بايزيد" و"تيمور" يُدير كلّ منهما دولتَه بنجاحٍ رغم اتّساع مساحة حدود دولتيهما، بيد أن هناك من لم يرضهِ هذا الاستقرار فسلكَ كلَّ الطرُقِ من أجل ضرب هذين السلطانَين الكبيرين أحدهما بالآخر، وفي النهاية اندلعت معركةٌ لا مفرّ منها بين القوّتين العظيمتين.



تمثال لـ"تيمور" في "طشقند" عاصمة "أوزبكستان"

وقد شملت نيران مرجلِ الفتنةِ الأناضولَ، وبينما كان "تيمور" في طريقه إلى الأناضول فقد هاجم العديد من المدن واستولى عليها وأحرقها.

وقد دخل "تيمور" أو "تيمور الأعرج"[30] إلى أراضي الأناضول قبل اندلاع معركة "أنقرة"، وفي البداية احتل مدينة "ملطية" في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٤٠٠م)، ولكنه فضّل العودة إلى بلاده آنذاك بعد أن لاحظ أن العثمانيين يدافعون باستماتةٍ عن أراضيهم بقوة لا تزيد عن أربعةِ آلاف جنديٍّ فقط، وقرر تأجيل غزو الأناضول لمدة عامين حتى يتسنّى له إعداد جيشٍ يضمّ جنودًا أقوياء من "تركستان".

وبعد عامين نزل "تيمور" في "الشام" قبل دخوله إلى أراضي الأناضول، وتقابل هناك مع العالم الإسلامي الشهير "ابن خلدون" وأُعجب بدهائه وذكائه وقدم له الهدايا القيّمة، ثم بعد ذلك توجّه "تيمور" إلى "بغداد" ومن هناك إلى مدينة "مردين (*Mardin*)" ثمّ إلى "تبريز"، وبعد قضاء الشتاء في "قَرَه باغ (*Karabağ*)" دخل الأناضول.

(٣٠) **تيمور الأعرج**: هو الاسم الذي أطلقه عليه الأتراك بسبب إصابته في ساقه. (المترجم)

"قَرَه يوسف" ذريعة للحرب

كان هناك شخص تركستانيٌّ يُطلق عليه "قَرَه يوسف"، وكان قد هرب من "تيمور" لاجئًا إلى الأناضول، وأرسل "تيمور" إلى "يلدريم" خطابًا يطلبُ فيه تسليمَ "قَرَه يوسف" له حيًّا أو ميتًا، وأرسل "يلدريم بايزيد" الجواب التالي:

"لقد جاء "قَرَه يوسف" أولًا إلى الأراضي الخاصّة بي ثمّ غادرَها بعد ذلك، وهو ليسَ موجودًا الآن في مملكتي، ولكنه إذا جاء مرّة أخرى فإن عادتَنا وكرمَ ضيافتِنا يأمران بعدم تسليمه لآخرين، وهو سيكون تحت حمايتنا، ولكن أريد أن أُخبِركم أنّنا لن نقدّم له أيّ مساعدةٍ أخرى غير ذلك".

ولم يقتنع "تيمور" من ردّ "بايزيد" وأصدر تعليماته إلى قوّاته القويّة المتمركِزة في "آسيا الوسطى" بالتحرك نحو أراضي الأناضول.

في البداية كانت العلاقات بين الدولتين وديّة

وفقًا لما ورد إلينا من رواياتٍ فإن "تيمور" كان يتراسل هو والسلطان "يلدريم بايزيد" بشكلٍ منتظمٍ، ولم يكن يفكّر قطّ في المجيء إلى الأناضول والصدام فيها خصوصًا مع العثمانيّين، وفي الواقع لقد كان يدور بخلد "تيمور" الاستيلاء على إمبراطورية الصين، وبذلك يُحقّقُ أهدافًا يرتضيها له الأجداد.

كان أبناء "تيمور" وقادته يرون أنه من غير المناسب القيام بحملة عسكريّة في بلاد الأناضول، وخاصّة أن إنجازاتِ العثمانيّين في الأراضي الأوروبّيّة قد ذاع صيتُها وانتشرت في المدن الآسيوية، وكان ذلك يُحكى ويُروى كأسطورة بين شعوب تلك المناطق، وكان المحيطون بـ"تيمور" وأهله يشعرون بالفخر لتفوّق العثمانيين -لمواجهتهم الجيوش الصليبية في الحملات الغربية- وبالتأكيد فإن هذا الشعور نابعٌ عن عاطفة الأخوّة في الدين والعقيدة.

وما يلفت النظر في هذا الصدد: أن عددًا كبيرًا من قادة "تيمور" يُعارضون فكرةَ الضلوع في الحرب مع العثمانيين ولكن الله قدّر هذا الأمر فلا مفرّ منه ألبتة.

وقد عرض "تيمور" على "بايزيد" عقدَ معاهدة سلامٍ، ذكر من بين بنودها أن يكون "بايزيدُ" تابعًا له وذلك من أجل إرضاء ضميره وضمائر المقرّبين منه، وكان يعلم علم اليقين بأن السلطان "بايزيد" لن يقبل مثل هذا العرض، وكان ينوي من وراء ذلك أن يحمل مسؤولية الحرب على عاتق "بايزيد".

وبالطبع فإن "بايزيد" قد جنَّ جنونه عندما قرأ بنود الاتفاق، ورفض الطلب بخطابٍ شديد اللهجة، قائلًا للوزير الأعظم "علي باشا" -الذي أوصى بالحذر إزاء كلّ تصرف يضر بمصالح الدولة-:

"لدينا قوّة وشرفٌ سوف نواجهه بهما، ولا يمكن أن نكون تابعين لأحدٍ، ولن نعيش دون استقلال أبدًا".

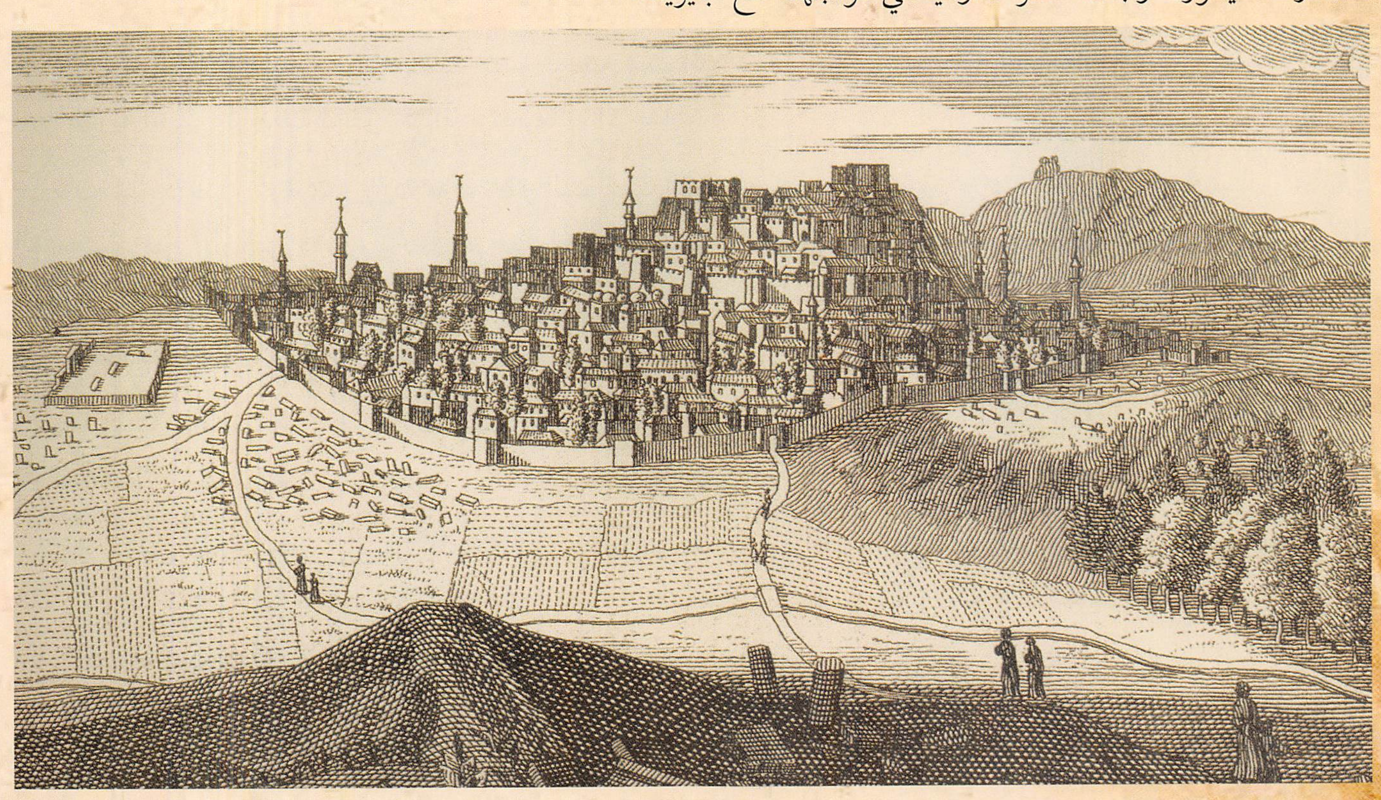
معركة "أنقرة" معركة الفخر

لقد حدث ما كان في الحسبان، ففي الثامن والعشرين من يوليو/تموز عام (١٤٠٢م) تقابل الجيشان التركيّان الكبيران في وادي "جوبوق" في أنقرة ودارت بينهما معركة شرسةٌ لم يشهد لها التاريخُ مثيلًا، وكان كلا الجيشين يضمّ مقاتلين شرسين متميّزين، وكان من الملفت للنظر أيضًا أن كلا الطرفين مسلمٌ ومن أصلٍ تركيّ.

وكان من الواضح أن جيش "تيمور" أكثر عددًا وعتادًا، ولكن بالإضافة إلى تفوّقه العدديّ فقد أثبت "تيمور" مقدرةً عاليةً في إدارة الجند وحبك الخطط...

وكان "يلدريم" لا يقل عنه شجاعةً ومهارة أيضًا، وعلاوةً على ذلك فإن الجيش الذي جلبه معه إلى وادي "جوبوق" كان أقوى وأكبر قوّة عسكريّة شهدتها بلاد الأناضول حتى ذلك الوقت.

ونظرًا لوجهة النظر المشتركة للمتخصّصين في التاريخ والحرب فإن الخطابات التي كتبها "يلدريم" بلغةٍ قاسيةٍ للغاية قد أثارت "تيمور"، وجعلته أكثر عدوانيّةً في مواجهته مع "بايزيد".



رسم لمدينة أنقرة "پي. دي تورْنفورت (*P.de Tournefort*)"

وكانت المعركة التي دارت بين "تيمور" و"بايزيد" في "أنقرة" تُعتبر من أكبر الحروب التي شهدتها بلاد الأناضول.

فقد كان يوجد في وادي "جوبوق" نحو مائتين وخمسين ألف جندي، وكان مائة وستون ألف جنديّ منهم يتبع "تيمور"، وضمّت وحدات "تيمور" اثنان وثلاثين فيلًا أيضًا بالإضافة إلى الجنود السابق ذكرهم في حين أن الجيش العثمانيّ كان قوامه حوالي ثمانين ألف جندي، ولم يتوقع العثمانيّون أن جيش "تيمور" سيضمّ هذا العدد الضخمَ من الجنود.

وحسب ما ذُكر في كتاب "ظفر نامه" لـ"نظام الدين السامي (ت: ٨١٤ هـ)" فإن "تيمور" لم ينمْ تلك الليلة حتى الصباح، وقد تضرّع إلى الله بالدعاء والعبادة وسأل الله ﷻ أن يكتب له النصرَ على جيش "بايزيد".

وقد بدأ أقوى وأكبر جيشين في العالم يتقاتلان، وطبقًا لما جاء في كتب المؤرخين فإنه في تلك الفترة كانت إمبراطورية "تيمور" تُعدُّ أقوى إمبرطوريةٍ في العالم، أما الدولة العثمانية فهي تحتلّ المكانة الثانية بعد إمبراطورية "تيمور"، وكان "تيمور خان" و"يلدريم بايزيد" يعتبران اثنين من أكبر رجال الدولة مرورًا على ذاكرة التاريخ، وكذلك من أكبر القادة المشاهير.

كان كِلا الطرفين يحارب الآخر على مضضٍ، لأنّ ما بين الجيشين رابطين وقاسمين مشترَكَين، ألا وهما الدين والعرق.

في اليوم الأول للحرب أظهر "يلدريم" براعةً كبيرةً في ميدان الحرب، حيث كان يتحرّك بشكلٍ سريع، واستطاع جنودُه أن يتسلّلوا خلف صفوف "تيمور"، لكنه لم يتمكّن من إصدار ضربةٍ قاضيةٍ وحاسمةٍ إلى جيش "تيمور".

بدأ القلق يتسلّل إلى قلب "تيمور"، حتى إنه بدأ يخاف شيئًا فشيئًا، ولكن الأمور تغيّرت فجأةً فيما بعد وانقلبت الموازين، حيث إن "تيمور" قد تمكّن من خداع جزءٍ من قوّات التتار البرّيّة، وأغراهم فأقنعهم بترك تحالفهم مع الجيش العثماني والدخول تحت لوائه ورايته، وفعلًا بعد أن كانت قوات المشاة التتاريّة هي حامية العثمانيّين من الخلف تحوّلت إلى عدوٍّ غادر، وبدؤوا يرشقون العثمانيّين بالنبال الغادرة من الخلف، مما جعل الجيشَ العثمانيّ في موقفٍ صعبٍ لا يُحسَدُ عليه فالتيموريّين من أمامه والتتاريّون من خلفه، ونتيجة لهذه الخيانة اضطرّ جنود الجانب الأيسر من الجيش العثماني إلى التراجع والتقهقر للوراء.

وأظهرت الإنكشارية مقاومةً عنيدةً وفريدةً جدًّا أمام الهجمات التي تركّزت على مركز الجيش العثماني، وأما الفرع الأيمن للجيش العثماني فقد أحرز نجاحًا واضحًا في البداية، إلى أن أجبر جيشَ "تيمور" على التقهقر، وقد قامت قوّات "تيمور" -التي تلقّت دعمًا- بالهجوم كرّة أخرى، ولكنها فشلت أيضًا، وفي ذلك الوقت تمامًا، وفي تلك اللحظة الحرجة من تاريخ المعركة بدأت سلسة الخيانات من جنود الولايات الأناضولية الأخرى، إذ غيّر الجنودُ القادمون من الأناضول الصفَّ والراية، فاستبدلوا انتماءهم وولاءهم للجيش العثمانيّ بالولاء للتيموريّين، وانضموا إلى صفوف جيش "تيمور"، مما تسبّب في تغير مسار المعركة وانسحاب الفرع الأيمن من القوات العثمانية.

وبناءً على هزيمة فرعَي الجيش طلب رجال الدولة من "بايزيد" الانسحاب، فرفض السلطان هذا الطلب، وبينما كان جيشه ينسحب استمرَّ في القتال ببطولةٍ وبسالةٍ سجّلها له التاريخُ في سجلّ خلوده، حتى عندما تبيّنت له هزيمة جيشه استمرّ في القتال ببسالةٍ بواسطة القوّة القليلة التي كانت معه.

ولم يدر بخلد "يلدريم" الفرار بتاتًا، بل إنّه كان يُفضّل القتال والاستشهاد في الميدان على أيّ أمرٍ آخر، ولكن تفكيره هذا لا يُغيّر شيئًا ممّا قدّره الله.

واستمر "يلدريم بايزيد" في القتال حتى النهاية ومعه ثلّة قلية من الجنود، بينما بدأ الأمراء ورجال الدولة المهمين والموجودين معه في الفرار واحدًا تلو الآخر، وفرّت أيضًا قوّات مطران الصرب، وكان السلطان واقفًا في مكانه كالجبلِ الأشمّ الذي لا تُزعزعه الأعاصير ولا تحني شموخه الرياح، وقال ردًا على كلمات "مِنّت بك" وهو من الأمراء:

"من الأفضل لنا أن نغادر ساحة القتال يا مولاي، إنني أفضّل الموت بشرفٍ على الفرار من ميدان المعركة".

ولكنه سقط في ميدان المعركة بشرفٍ من على متنِ حصانه بضربةٍ تلقّاها من عمودٍ ضخم، إلى أن تمكّنوا من القبض عليه، فقال:

"أنا السلطان العثماني "بايزيد"، خذوني إلى حاكمكم!".

وهكذا أُسِر "يلدريم بايزيد" الذي قضى معظم عمره في ميادين الحرب منذ طفولته وقاد الجيوش من أوروبا حتى الأناضول واستولى على المدن، وكان من بين الأسرى مع "بايزيد" أبناؤه الأمير مصطفى والأمير موسى و"صاري دميرداش" و"فيروز" باشا أيضًا.

أيام أسر "يلدريم بايزيد"

وقد أحضرَ الجنودُ السلطانَ العثمانيَّ بين يدي "تيمور" في وقت ما بين المغرب والعشاء، وتمّ استقبال "يلدريم بايزيد" من قِبَلِ "تيمور" بشكلٍ أفضل ممّا كان يأمله، وأجلسه بجانبه، وسأله عن رغباته، وفي الواقع فإن "تيمور" لم يتعقّب الجيش العثماني بشكلٍ يقضي عليه تمامًا بعد الحصول على الانتصار النهائي في ميدان المعركة، مما أثبت نبلَ أخلاق "تيمور" واحترامه الذي عُرِف به.

وقد تبادَل "يلدريم" و"تيمور" أطراف الحديث فيما بينهما لمدة قصيرة، ولما أحسّ "تيمور" بقلق "بايزيد" بشأن مصير أبنائه أصدر الأمر بالبحث عن الأميرين مصطفى وموسى وإحضارهما إلى جانب "يلدريم".

لم يسخط "يلدريم" من هذا الحال، إيمانًا منه أن كلّ هذا ما هو إلا قدر الله تعالى الذي لا مفرّ منه، وعندما تقابل مع "تيمور" قال له:


رسم تعبيري عن أسر السلطان "يلدريم بايزيد"

"عنـد انسـحابك من الأناضـول لا تتركنّ جنودك هنا، وهذا رجاءٌ مني، فأنت تعلم أن أهالي الأناضول هم سـدٌّ منيعٌ أمام قوّات الجيوش الصليبيّة، فلا تُفتر من عزيمتهم، ولا تُضعف من هممهم".

فكـر "تيمـور" مليًّـا ورأى أن "يلدريـم" محـقٌّ في هذا الأمـر فقبل رجـاءه، وفي تلك الأثناء نفّذ "محمد شـلبي" أحـد أبناء "يلدريـم" خطةً ذكيّةً من أجل إنقـاذ أبيه من يد "تيمور"، فقد نجح في الدخول إلى معسـكر "تيمور" مع عدد قليل من الجنود، حيث حفر نفقًا بين الخيام حتى وصل إلى الخيمة التي يُقيمُ فيها "يلدريم"، ولكنه لم يستطع الوصول إلى هدفه حيث انكشف أمره في اللحظة الأخيرة.

وكان "تيمـور" عندمـا يذهـب إلـى أيـّةِ مدينـةٍ يصطحبُ معه "بايزيد"، ذلـك البطل الذي لـم يهزم في حياته قـطّ اللهم إلا أمـام "تيمـور"، وكان لا يعامله كأسـيرِ حربٍ، بل كأنّما يتّخـذه "تيمورُ" حقيبةً في يده يصطحبهـا أينما ذهب، فكان هذا الحال يؤثّر على "بايزيد" سلبًا إلى حدٍّ كبير وبدأ يفكّر أن الموت أفضلُ من هذا الحال، لأنه كان في السابق شخصًا يتمتّع بعـزّة نفس الملوك وشـرف السـلاطين منذ نعومة أظافره، ممـا جعله ينهار أمام هذا الحال المريـر وتملّكته الأحزان إلى أن أُصِيب بالمرض...

وقد اهتم "تيمور" بعِلاجه لكن قضاء الله كان أسبق ففاضت روحه إلى بارئها في الثالث من مارس/آذار عام (١٤٠٣م)، عن عمرٍ يُناهز الثالثة والأربعين، وقد دُفِنَ جثمان "يلدريم بايزيد" في "آق شهير" أوّلًا، وبعد فترةٍ نقل إلى مدينة "بورصة" من قبل ابنه "موسى شلبي"، وقام "تيمور" بلفتةٍ كريمة منه، إذ أعاد "بورصة" ونواحيها مع جثمان "يلدريم" إلى "موسى شلبي".

وقـد دُفـن جثمـان "يلدريـم" الذي نُقل إلى "بورصة" وسـط مراسـم حزنٍ كبيـرة تنهمر خلالها الدموع وتذرف كالسـيل الغاضب، وفيما بعد أقام "سليمان شاه" ضريحًا لـ"يلدريم".

ولا يـزال ضريـح بايزيد -الواقع في مدينة "بورصة" والذي يُعـدُّ بناءً تذكاريًّا- مصدرَ حبٍّ وإعجابٍ وتوقيرٍ وتقديرٍ من قِبَلِ الأوفياء من الناس هناك، فهم يتعاهدون زيارته ويدعون له بالرحمة والفوز بالجنان.

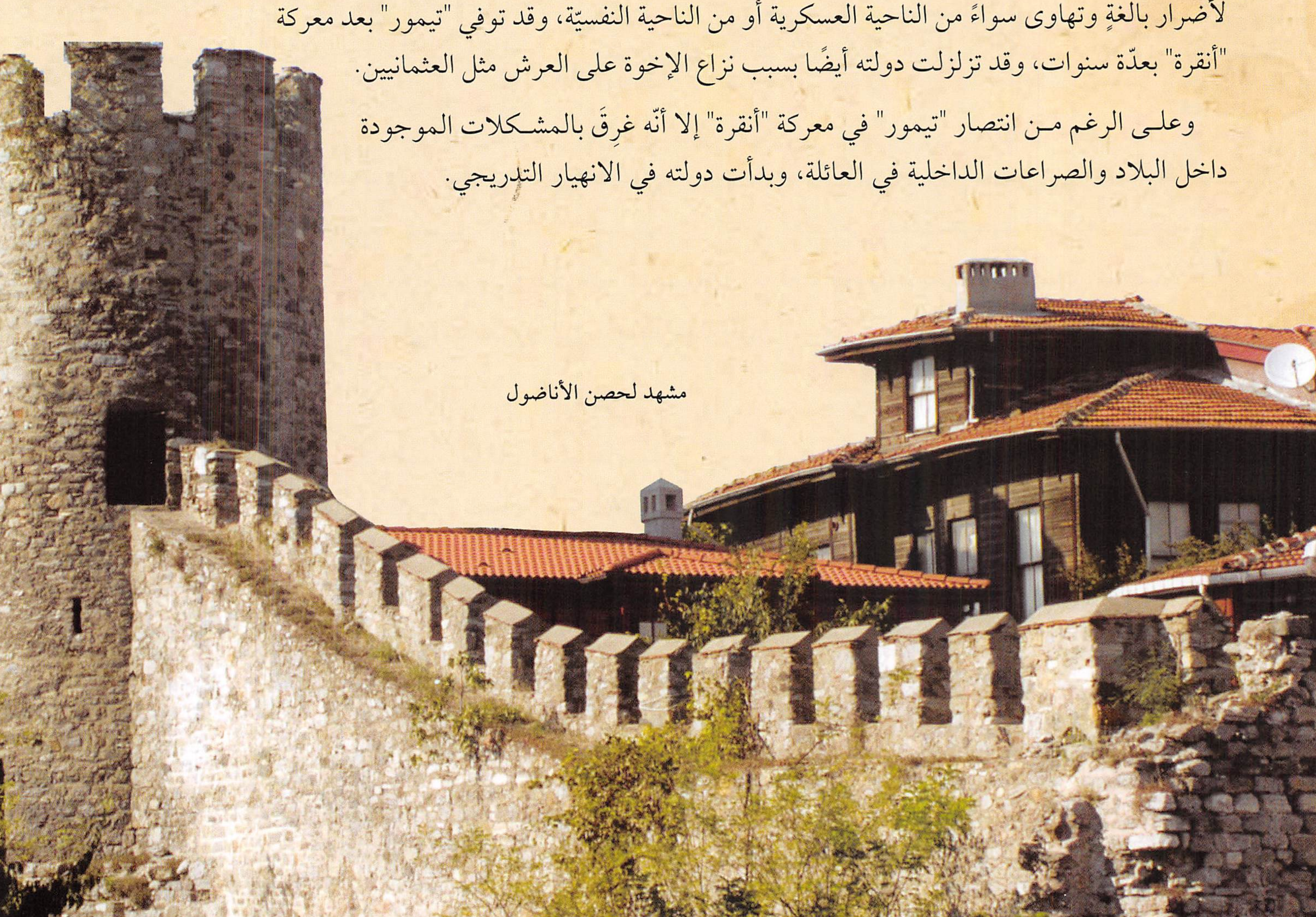
نتائج معركة "أنقرة"

تعدّ معركة "أنقرة" التي تقابل فيها مائة وخمسون ألف جنديّ وجهًا لوجهٍ في عام (١٤٠٢م) أكبر وأسوأ معركةٍ حدثت بين دولتين مسلِمَتَين حتى يومنا هذا، ولكن سؤالًا ما يزال يطرح نفسه منذ ستّة قرون من الزمن إلى الآن، "من انتصر في معركة "أنقرة" وماذا نال وماذا فقد؟".

مما لا شك فيه أن العالم الإسلامي قد تكبّد خسارةً فادحةً نتيجةً لهذه الحرب الشعواء، حيث لم يتمكّن المسلمون من إيصال دعوة الإسلام السمحة إلى البلاد الأخرى لمدّةٍ تتجاوز نصفَ قرنٍ من عمر التاريخ.

ويمكننا أن نقول أيضًا: أن هذه الحرب التي زلزلت وحدة الأناضول ومزّقت كيان الدولة العثمانيّة لم تُفِدْ "تيمور" بشيءٍ على الإطلاق، حيث فَقَدَ "تيمور" بهذه الحرب الاحترام الكبير بين الدول الإسلامية، وبالإضافة إلى ذلك فقد تعرّض جيشُه لأضرار بالغةٍ وتهاوى سواءً من الناحية العسكرية أو من الناحية النفسيّة، وقد توفي "تيمور" بعد معركة "أنقرة" بعدّة سنوات، وقد تزلزلت دولته أيضًا بسبب نزاع الإخوة على العرش مثل العثمانيين.

وعلى الرغم من انتصار "تيمور" في معركة "أنقرة" إلا أنّه غرِقَ بالمشكلات الموجودة داخل البلاد والصراعات الداخلية في العائلة، وبدأت دولته في الانهيار التدريجي.



مشهد لحصن الأناضول



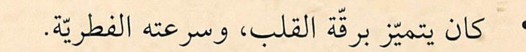
سمات "يلدريم بايزيد"

المظهر الخارجي:

- كان السلطان "يلدريم بايزيد" رجلًا ذا وجهٍ أبيضَ مشرق، وحاجبٍ رقيقٍ، أنيق المظهر.
- وكان طويلَ القامة وأطولَ من المتوسّط قليلًا.
- وكان ضخمَ البنية كثَّ اللحية رفيعَ الشارب.

شخصية "يلدريم" وزعامته

- ذكر في التاريخ كواحد من أعظم رجال الدولة والقادة الذين شهدهم العالم.
- وكان سلطانًا مجتهدًا بشكل فائقٍ، ويتميز بكثرة تحرّكاته بين الشرق والغرب.
- وقد استطاع أن يحرز تقدُّمًا ملموسًا في مسألة الحوار مع أوروبا والوحدة في الأناضول.
- وكان لديه إرادة صلبة وشخصية شجاعة ويتميّز كذلك بثقة النفس.
- وقد استطاع أن يؤسّس نظامًا متكاملًا في الأراضي العثمانية.
- وكان يولي أهمّيّة كبيرة لمفهومَي استقلال القضاء والعدالة.
- وكان يحترم العلماء في جميع البلدان بغض النظر عن جنسياتهم.
- كان يثير دائمًا فيمن حوله مشاعر الحبّ والمهابة معًا على حدّ سواء.
- كان يتميّز برقّة القلب، وسرعته الفطريّة.





طغرة السلطان "يلدريم بايزيد"



ضريح "يلدريم بايزيد"

كيف بدأ نظام "الدوشيرمه"؟

هي الممارسة الذي بموجبها كانت الإمبراطورية العثمانية تجنّد أولادًا من عائلات مسيحية، يتم تحويلهم بعد ذلك إلى الإسلام ويدربون كجنود إنكشارية، حيث كان يتم اختيارهم من بين الأولاد الذكور لأبناء العائلات المسيحية الذين تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والعشرين عامًا، ولم يكن يضم هذا النظام أحدًا من أبناء المسلمين، إلا أنه سُمح في عهد السلطان محمد الفاتح لعدد من أبناء مسلمي "البوسنة" بأن يلتحقوا بخدمة القصر عبر هذا النظام لشدة رغبتهم وإلحاحهم على القيام بذلك.

كان يفضل اختيار أبناء الألبان واليونان والبلغار والصرب والكروات لهذا النظام، ولم يكن يتم اختيار "الدوشيرمه" من أبناء الترك والعجم (الإيرانيين) والروس والجورجيين واليهود والمجر، والأرمن (ولكن ذهب بعض المؤرخين إلى أنه تم اختيار عدد قليل جدًا في "الدوشيرمه" من أبناء "الأرمن" في فترات معينة من العهد العثماني)، وكانت عملية الاختيار تتم من قبل مجموعة من الجباه المهرة الأكفاء، وكان لا يُختارُ لنظام "الدوشيرمه" المرضى والمعاقون والأيتام ووحيد عائلته وأبناء الرعاة والحمالين ومديرو شئون القصر، كما لم يُختر في "الدوشيرمه" الأولاد الصُلع والمُرْد والمتزوجون والمنشغلون بحرف معينة، وأصحاب المهن الخاصة والولد الطويل القامة جدًا أو القصير جدًا.

وقد استفاد العثمانيون كثيرًا من نظام "الدوشيرمه" الذي بدأ عقب معركة "أنقرة" واستمر لسنوات عديدة، وكانت العائلات المسيحية -التي ترغب في أن يعيش أبناؤها في ظل الدولة العثمانية- تتوق إلى أن يتم اختيار أبنائهم فيها، لأن أبناء القرويين في أوروبا لا يتمتعون بما يتمتع به أبناء "الدوشيرمه" في القصر العثماني على الإطلاق، حيث إن أبناء "الدوشيرمه" الذين التحقوا بالقصر العثماني كان يمكنهم الترقي إلى جميع المناصب في الدولة ما عدا منصب السلطنة.

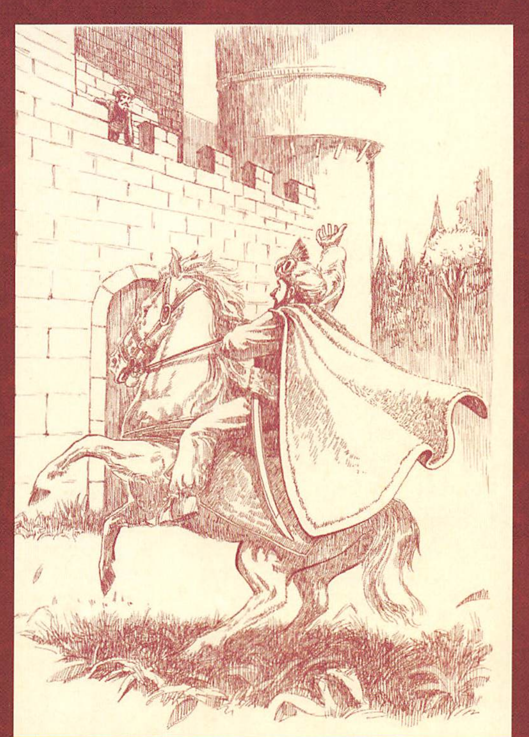
وقد تم تنشئة هؤلاء "الدوشيرمه" ليحتل جزء كبير منهم مناصب في الجيش العثماني، وشغل جزء آخر منهم مناصب مختلفة في الدولة فضلًا عن عديد من المجالات الفنية والحرفية.

جدير بالذكر أن كلًّا من الصدر الأعظم "صُقوللو" باشا والمعماري "معمار سنان" اللذين ذاع صيتهما في العالم أجمع تمت تنشئتهما من خلال هذا النظام.

يا دوغان، يا دوغان! ...

ثمّة فارسٌ لا تُعرَف هويته عند النظر إلى ملابسه، يقود حصانه الأبيض حيث يسود ظلام دامس كلّ مكانٍ بحيث لا تُرى أبراج قلعة "نِغْبُولُو".

وبدأ صوت قوي في سكون الليل يحدث صدى شديدًا في الجدران الخلفية للقلعة: "يا دوغان! يا دوغان!"



أدرك دوغان بك قائد القلعة -الذي لم ينم منذ وقت طويل- أنَّ هذا النداء موجه إليه، فأسرع في المشي نحو الأبراج في الحال، ونظر تجاه الصوت باهتمام بأقصى ما يستطيع، لم يصدق عينيه حين رأى أنَّ ذلك الرجل الذي يناديه هو "يلدريم بايزيد" ممتطيًا جوادًا أبيض؟ ولكن الباشا أخذته الحيرة والدهشة عندما فكر في كيفية وصول السلطان بمفرده إلى القلعة التي تحول ما حولها إلى جحيم بسبب القتل والدمار مما قد يتسبب في إصابة السلطان بطلقة نارية في أية لحظة.

رد قائد القلعة دوغان:

- مولاي السلطان.

فسأله السلطان:

- ماذا تفعل يا دوغان، وكيف الأوضاع هنا؟.

فبدأ دوغان بك يصف الوضع محاولًا تخفيف ما ألمَّ به من اضطراب، وكان السلطان قد وصل مع جيشه إلى مشارف "نِغْبُولُو"، وقد أراد السلطان الاطلاع على أوضاع الصليبيين ومدى قدرة الجنود العثمانيين المدافعين عن القلعة بقيادة "دوغان" على الدفاع عن القلعة وذلك قبل أن ينطلق على رأس جيشه إلى القلعة.

وكان بايزيد قد أرسل في وقت سابق دورية لاستطلاع الأوضاع في القلعة وما حولها، ولكنه لم يستطع أن يصبر حتى عودتها؛ فقرر أن يطمئن على الأوضاع بنفسه.

كان بايزيد قد جاء إلى المكان الذي يتواجد فيه "دوغان" بك ليتفقد أوضاع الجبهة متحديًا كل الأخطار، وقد اشتهر بايزيد بالشجاعة مما جعله يخترق صفوف العدو بمفرده ليصل في النهاية إلى القلعة

ثـم يعـود إلـى حيث يتواجد جيشـه، كما أنه لم يخبر القادة الآخرين عما يفكر فيه وهـو الذهاب بمفرده إلى القلعة، حتى لا يثنوه عن نيته.

ها هو "يلدريم بايزيد" يستمع لما يقوله "دوغان" بك عن الوضع في المنطقة.

قال دوغان بك:

- إن وضع القلعة ومؤونتها في حالة جيدة، ولكن حصار القوات الصليبية الموجودة في الخارج يضيق علينا الخناق في كل يوم يمر، فالجنود الذين يحاربون تحت قيادتي لديهم يقين بأن الجيش العثماني سـوف يأتي بالمدد في أيَّة لحظة، وأما قادة الوحدات الأوروبية الصليبية فكانوا يقولون: "لقد خاف "يلدريم" ولا يجرأ على المجيء".

فقال بايزيد لـ"دوغان":

- لا أريد منك سوى أن تدافع عن القلعة يومًا آخر، أعانك الله، وإياك يا دوغان أن تسلم القلعة لأعدائنا!.

- لا تقلق يا مولاي السلطان بشأن القلعة! لن يستطيع الأعداء الاستيلاء عليها لا اليوم ولا حتى بعد شهر بإذن الله تعالى!

اطمأن قلب السلطان بعد أن سمع تلك الكلمات، وامتطى جواده الأبيض في هدوء، واختلط بالظلام بسرعة.

وكانت الدوريات الصليبية قد لاحظت في آخر لحظة أن شخصًا ما يتحدث إلى أحد المتواجدين بالقلعة، فركضوا خلف حصان الأبيض في الحال، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به، لأن السلطان بايزيد جدير بأن يلقب بالبرق لشجاعته وسرعته.



العالم يندهش أمام نظام التسجيل والأرشفة العثمانيّ

يرى المؤرخون أنه ليست هناك دولة في العالم قد حققت نجاحًا في مجال التسجيل والأرشفة وحفظ المستندات مثل العثمانيين؛ فقد سجلوا كل شيء حتى الملح والبصل والحبر والأحجار والقرميد الذي يدخل كل يوم إلى قصر السلطان وحتى الأخشاب التي يتم توزيعها على الفقراء بشكل مفصَّلٍ، وفضلًا عن ذلك فقد حُفِظت هذه المعلومات في السجلات لعدة قرون.

وقد اكتشف في السنوات الأخيرة نموذج مثير للاهتمام من هذه النماذج أنه في عام (١٩٩٣م) أثناء الحرب الأهلية في "البوسنة والهرسك" قصف الكروات ودمّروا جسر "موستار (*Mostar*)" الشهير الذي أنشئ في البوسنة والهرسك من قبل المعماري خير الدين أحد طلاب المعمار سنان والذي اعتبرته منظمة اليونسكو واحدًا من أروع الآثار المعمارية التي أبدعتها الإنسانية.

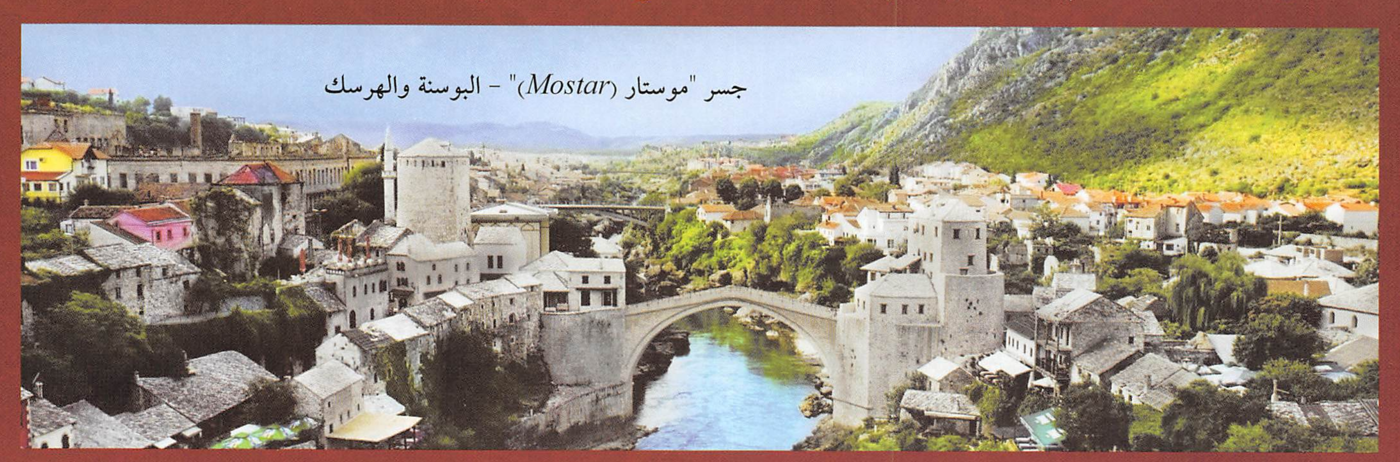
وعندما تم الشروع في بناء الجسر مرة أخرى بواسطة حملة تقودها تركيا ظهرت مشكلة أعاقت أعمال إعادة البناء هذه، وهي من أين يمكن في الألفية الثانية من الميلاد العثورُ على تلك الحجارة الضخمة والصلبة التي اُستُخدِمَت قبل أربعمائة سنة؟ لقد استُخرِجت الأحجارُ السليمةُ التي سقطت في النهر جراء انفجار الجسر، ولكنها لم تكن كافية للبناء.

وفي تلك الأثناء طرح أحد المؤرخين هذه الفكرة: "إن العثمانيين كانوا يقيدون كل شيء، ومن المؤكد أنهم دوّنوا في الأرشيفات مكان استخراج الحجارة المستخدمة في هذا الجسر".

لم يكن الكثير يصدق ذلك، لأنه مرَّ على ذلك أربعة قرون، وقد تشتت الإمبراطورية العثمانية، كما تم بيع جزء من الأرشيفات كورق خردة، إلَّا أنَّهم شرعوا في البحث في الأرشيفات لأنه لم تكن هناك طريقة أخرى يمكن تجربتها.

ويا للدهشة! تم العثور على وثائق الأرشيف المتعلقة بالجسر، وحُدِّدَ موقع استخراج الحجارة، فنقّبوا واستخرجوا الأحجار المماثلة لما استُخدم قبلَ أربعة قرونٍ مضت، ونقلت إلى موقع إنشاء الجسر.

وعلى ذلك انحنى العالم كله -الذي علم بذلك- احترامًا لنجاح العثمانيين في مسألة الحفظ والتسجيل.


جسر "موستار (*Mostar*)" - البوسنة والهرسك

من هو الشيخ "أمير سلطان"؟

قَدِم أمير سلطان -الذي كان اسمه الحقيقي محمد شمس الدين ابن علي- من مدينة "بخارى" إلى مدينة "بورصة" بعد أن طاف وجال مكة والمدينة، واستقر فيها عام (١٣٩٨م) حيث كان يرافقه بضعة شيوخ من أتباعه.

وكانوا يتكسبون عيشهم من دون أن يحتاجوا إلى أي شخص عن طريق بيع الأواني الخزفية التي يصنعونها، وكانوا على درجة كبيرة من الإخلاص في تأدية عباداتهم لدرجة أنهم بعد مرور فترة من الوقت حازوا حب كل أهالي "بورصة" واحترامهم، وعلى رأسهم السلطان "يلدريم بايزيد"، وأطلق الناس على محمد شمس الدين لقب "أمير سلطان" لاحقًا.

وسرعان ما ذاعت شهرة هذا الولي التقي الذي يناهز من العمر الواحدة والعشرين، حيث كان قد ذهب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وهناك رأى منامًا جعله يقرر الاستقرار في مدينة "بورصة"، وقد شاع بين الناس أنه ينحدر من نسل النبي ﷺ وأنه من أولياء الصالحين، وكان يطلق عليه أيضًا "سلطان الكرامات"، وله كرامة متعلقة بالسلطان بايزيد يعرفها ويرددها الجميع وهي:

أن السلطان بايزيد لم يستطع الاستيلاء على قلعة "نِغْبُولُو" في أراضي البلقان على الرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها؛ إذ كانت أبواب تلك القلعة كالجدار الفولاذي وليست بابًا عاديًا، وفي صباح أحد الأيام رأى بايزيد أنَّ البابَ قد فُتِح فجأة على مصراعيه، ولم يلاحظ بايزيد وجه الشخص الذي فتح الباب إلا في اللحظة الأخيرة، وبعد نجاح العثمانيين في الاستيلاء على القلعة أخذ بايزيد يبحث بين الجميع عن هذا الجندي الذي فتح باب القلعة أمامهم، إلَّا أنَّه لم يستطع العثور عليه بأي شكل من الأشكال.

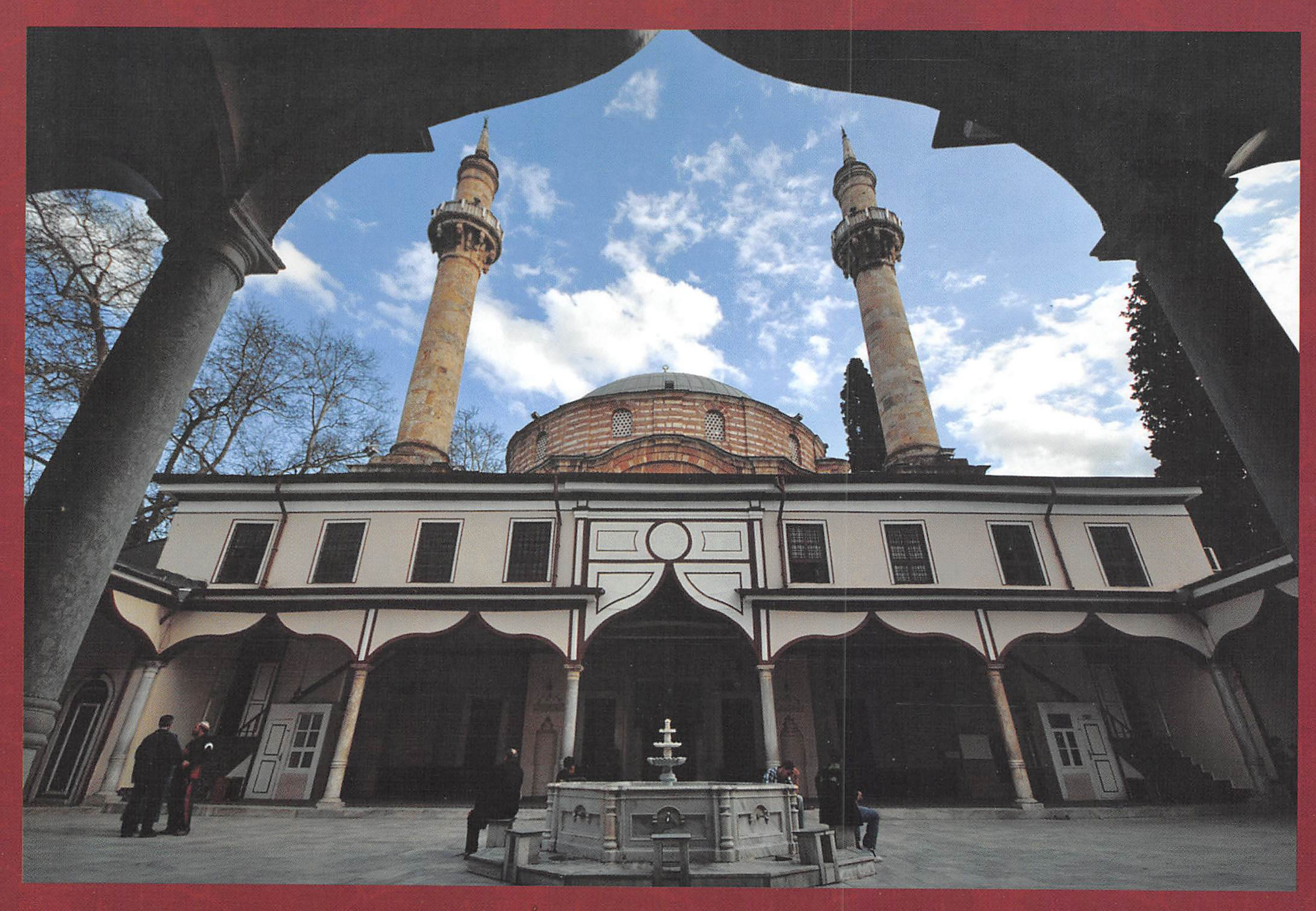
وعندما عاد بايزيد من حملته التي استغرقت مدة طويلة على البلقان وجد "أمير سلطان" بين مستقبليه، فلما رآه السلطان أخذته الدهشة والحيرة، إنه الجندي الذي فتح باب القلعة في البلقان، فتضاعف احترام السلطان وحبُّه إيَّاه، وزوَّجه بابنته "هوندي خاتون"، وأصبح "أمير سلطان" معلمًا للقصر كما كان يحظى بالاحترام والتبجيل بين أهالي مدينة "بورصة".

وقد حاول "أمير سلطان" منع بايزيد من خوض معركة أنقرة، إلَّا أنَّ محاولاته باءت بالفشل حتى إنه ذهب إلى أنقرة لإثناء حماه عن خوضه هذه الحرب التي لا نفع من ورائها، إلا أنَّ بايزيد كان مُصِرًّا على ذلك وقال له: - بارك الله فيك، لقد أرهقت نفسك للمجيء إلى هنا يا معلمي، فَعُدْ إلى "بورصة".

كان من كرامات "أمير سلطان" أنه علم أنَّ الحرب ستسفر عن هزيمة العثمانيين وستؤدي إلى كارثة في الأناضول، وكان من الواضح تمامًا أنَّ القدر سينفذ حكمه أيضًا، وفي النهاية حدث ما توقعه هذا الولي الجليل، حيث انتصر تيمور في معركة أنقرة ووصل بجيشه حتى مشارف "بورصة".

وقد توفي هذا الولي التَّقِيُّ إثر إصابته بمرض الطاعون الذي اجتاح مدينة "بورصة"، وراح ضحيته الكثير من الأرواح هناك، وقد أمّ الناس في صلاة الجنازة عليه "حاجي بايرام والي" الذي كان مقيمًا في "بورصة" وقتذاك.

ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من فراق هذا الولي المبارك، لا تَزال القلوب المؤمنة ترتبط به برابطة الحب والوفاء والاحترام، وتُعَدُّ رؤية هذا الولي في المنام نذير خير بالنصر والبركة والأمان.



مسجد أمير سلطان - بورصة - تركيا

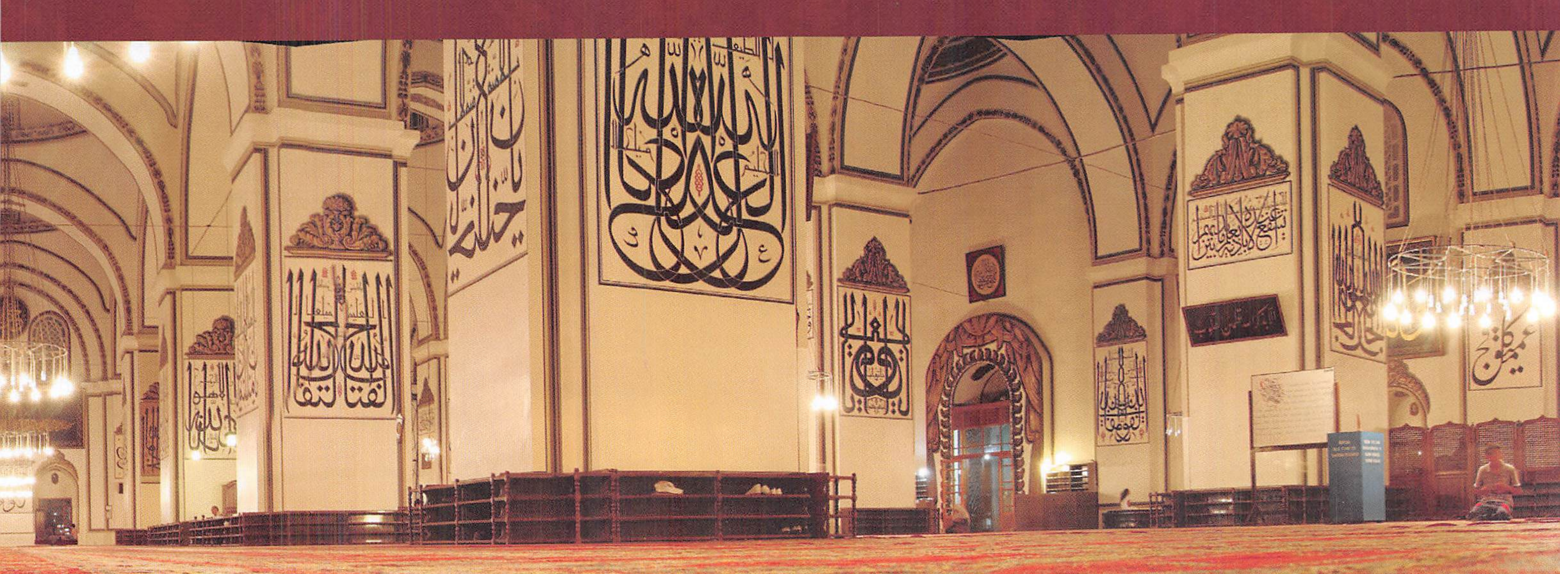
وليٌّ من أولياء الله يفتتح الجامع الكبير في "بورصة"

عندما حان وقت افتتاح الجامع الكبير بمدينة "بورصة" اجتمع أهالي المدينة في صحنه للمشاركة في مراسم افتتاحه، وهنا التفت "يلدريم بايزيد" إلى صهره "أمير سلطان" وطلب منه أن يفتح هو باب الجامع ويؤم الناس في أول صلاة فيه، ولكن أمير سلطان رفض هذا العرض قائلًا: هناك أشخاص أعلى مِنّي قدرًا في بورصة"، كالشيخ "أبو حامد الدين آق سرايي" فهو أعلى مرتبة وأجدرُ بهذا الشرف، فسأله "بايزيد" مندهشًا: من هو هذا الشخص؟"

فأجابه: من المؤكد أنك قد سمعت عنه، إنه وليٌّ يدعى "الشيخ صومونجو" يصنع الخبز في السوق الواقع بالقرب من جبل "أولوداغ"، وعلى إثر ذلك أمر بايزيد باستدعاء الشيخ "صومونجو"، فتعجب هذا الوليُّ والتفت إلى أمير سلطان قائلًا: ماذا فعلتَ بي يا أميري؟".

كما تعجب المحتشدون أيضًا، وبعد الصلاة اصطف الحاضرين كلُّهم لتقبيل يد الشيخ "صومونجو"، ويُروى أن الناس رأو "صومنجو" في ذلك اليوم وهو يدخل الجامع من ثلاثة أبواب في آن واحد، وبعد هذه الواقعة ترك "صومونجو" -الذي أبدى استياءه من هذه الواقعة- مهنة الخباز، وانزوى إلى تكية، ثم غادر بورصة مع "حاجي بيرام ولي"، وقد رُوِيَ أنه توجه بعد فترة إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج وفي أثناء عودته استقر في بلدة "دارنده"؛ حيث توفي هناك عام (١٤١٣م)، ويستطيع سائحو مدينة "بورصة" زيارة تكية "صومونجو" والفرن الصغير الذي كان يقوم بتوفير الخبز للعاملين في إنشاء الجامع الكبير وكذلك منزله المتواضع الذي يضم ما استخدمه من ألواح في صناعة الخبز.

صورة بانوراما للجامع الكبير الذي بناه السلطان "يلدريم بايزيد" - بورصة





الجامع الكبير في "بورصة" ذو العشرين قبة

فكر السلطان "يلدريم بايزيد" في إنشاء عشرين جامعًا بعد انتصاره في موقعة "نِغْبُولُو" الشهيرة، فأشار عليه صهره "أمير سلطان" بأنه لا داعي لذلك، وأبلغه أنَّه يرى من الأنسب أن يُنشئ بدلًا من ذلك جامعًا كبيرًا بعشرين قبة في "بورصة"، فلم يعترض السلطان على تلك الفكرة، وفي اليوم التالي قص "أمير سلطان" على "بايزيد" رؤيًا رآها في منامه، وهي أن شخصًا أَرَاه مكانَ الجامعِ الكبير ذا العشرين قبة الذي سيتم إنشاؤه.



وعلى الفور أمر السلطان بالذهاب إلى هذا المكان، فلما وصل إليه مع صهره الذي يطلق عليه اسم "كله ألتي (*Kalealtı*)" تعجب بايزيد كثيرًا؛ حيث إنَّ هذا المكان الذي كان جافًّا جدًّا من قبل صار مملوءًا بالحشائش الخضراء هذا الصباح.

وعلى ذلك أمر السلطان بتشييد الجامع الكبير ذي العشرين قبة، وانتهت أعمال التشييد والبناء في مدة لم تتجاوز أربع سنوات، ويعد الجامع الكبير من أجمل نماذج العمارة العثمانية في القرن الرابع عشر، وهو مربع الشكل يستقر على اثني عشر عمودًا، ومنبره مصنوع من خشب الأبنوس باستخدام فن الترصيع دون استخدام المسامير والصمغ، تعلوه زخارف منقوشة على شكل غصن منحنٍ، ويعد هذا المنبر مثالًا فريدًا من نوعه، أما مكان المؤذن الموجود قبالة المنبر فقد صمم بشكل رائع أيضًا، إلا أن الجامع الكبير في مدينة "بورصة" -الذي تم بناؤه عام (١٣٩٩م) ويتجاوز عمره ستمائة عام وهو أكثر جوامع تركيا شعبية- لم يستطع أن يصمد أمام الحروب والزلازل، فقد تم ترميمه عدة مرات، وانهارت سبع عشرة قبة من قبابه في الزلزال الذي ضرب مدينة "بورصة" عام (١٨٥٥م)، وأُعيد بناءُ هذه القباب مرة أخرى من قبل السلطان عبد المجيد، كما أمر السلطان بتزيينها بأجمل النماذج فن الخط، ولا سيما حرف "الواو" الذي يبلغ طوله مترًا واحدًا والذي يستحق المشاهدة...



ومن سمات الجامع الكبير أنَّه أول جامع كبير أنشئ في العهد العثماني،كما يعد أول جامع به فسقية ماء، وبها ثلاثة وثلاثون صنبورًا تشبه كلٌّ منها حبات المسبحة، ويُشبه من الداخل متحفًا لفنون الخط، حيث توجد به مائة واثنتان وتسعون لوحة قيّمة جِدًا نُقش البعض منها على الجدران، وقد كُتِبت بثلاثة عشر خطًّا مختلفًا من قبل واحد وأربعين خطاطًا، (ولكن عدد اللوحات التي وصلت إلينا الآن مائة واثنتان وثلاثون فقط).

أول أسلحة نارية في الجيش العثماني

استخدم الجيش العثماني الأسلحة النارية بعد خمسين سنة من استخدام أوروبا لها، لأنها لم تكن عمَلِيَّة؛ إذ كانت كبيرة الحجم وثقيلة جدًّا مقارنة بالقوس، بحيث كان رامي السهام الماهر يستطيع أن يطلق عشرين سهمًا في الوقت الذي يستغرقُه إعداد البندقية وإطلاق طلقة واحدة منها.

ولقد قام المهندسون العثمانيون بفحص البنادق الأولى التي صنعت في إنجلترا وألمانيا، ونجحوا بعد فحصها وتدقيقها في تصغير حجمها، وجرَّبُوها في "معركة أنقرة".

وتفيد بعض الروايات أن العثمانيين استخدموا المدافع قبل البندقية بسنين، كما تقدم العثمانيون في صناعة الأسلحة النارية والمدافع لدرجة أنهم تمكنوا من تصنيع المدفع في الورش المتنقلة التي تنشأ في ميدان المعركة.

وعلى سبيل المثال أنَّ العثمانيين نجحوا في الاستيلاء على جزء من ألبانيا بفضل المدافع التي صنعوها فوق سفوح الجبال هناك.

"يلدريم بايزيد" يتجول بين أبناء بلاده

اتخذ السلطان "يلدريم بايزيد" -السلطان الرابع للإمبراطورية العثمانية- العدل أساسًا في تعامله مع الجميع، وبطبيعة الحال ساد مع هذا الوضع حالة من السكينة والطمأنينة بين أبناء الوطن، فالكل يثق في عدل السلطان ونصرته للضعفاء.

وننقل المعلومات الآتية التي حصلنا عليها من الطبيب المصري الشهير ابن شاكر أفندي حيث يقول:

"كان السلطان "بايزيد" يخرج بين الناس في أيام إقامته بالقصر، ويصعد أحيانًا إلى مكان عالٍ، ويظهر نفسه للأهالي، ويستمع لمشاكلهم وآلامهم بغض النظر عن دينهم أو عرقهم؛ إذ كان تطبيقُ العدالة بين عامة شعبه هو شغله الشاغل، وكان يتدخل في الحال إذا ما تلقى شكاوى تتعلق بالظلم والجور".

السلطان الذي اشترى غنائمه

عندما استولى السلطان "يلدريم بايزيد" على مدينة "قونية" كان قد حان موسم الحصاد فيها، فكان أهالي المدينة يشعرون بقلق بشأن محاصيلهم التي لم يحصدوها بعد، حيث إنهم لم يكونوا على علم بالاهتمام الذي يوليه السلطان "يلدريم بايزيد" بالعدل والمساواة.

وكان "بايزيد" قد أصدر مرسومًا ينص على: "قطع رأس من يأخذ ولو حتى حبة قمح واحدة دون إذن صاحبها ودفع ثمنها"، وفي الواقع كان "بايزيد" يتبع هذه السياسة دائمًا في كل بلد فتحه بغض النظر عن جنسية الأهالي أو عرقهم.

وجدير بالذكر أنَّ الفرسان والخيل والدواب في جيش "بايزيد" كانوا وقتها في حاجة ماسة إلى القمح والشعير؛ فبعث "يلدريم بايزيد" إلى الأهالي يخبرهم: "من أراد أن يبيع ما أعطته أرضه من محاصيل فليأتِنا به، وسوف ندفع له ثمن ما نشتريه منه".

لماذا لم يقبل القاضي شهادة السلطان؟

ذات يوم ذهب "يلدريم بايزيد" إلى المحكمة تلبية لطلبه من أجل الإدلاء بشهادته، بيد أن قاضي "بورصة" الشيخ "ملا فناري" قال له عندما رآه: "مولاي السلطان لا يمكن أن تدلي بشهادتك!".

فَدُهِشَ السلطان لرفض سماع شهادته، ولكن القاضي "ملا فناري" عندما أوضح سبب رفضه سماع شهادة السلطان تقبل "يلدريم" الوضعَ وغادرَ المحكمة، وكان بإمكانه أن يعزله من وظيفته فورًا ولكنه لم يفعل ذلك.

والسؤال المطروح هنا لماذا لم يقبل القاضي شهادة بايزيد؟ وفقًا للقاضي فإن سبب رفضه شهادة السلطان زعمَه أنَّ "يلدريم بايزيد" كان يترك صلاة الجماعة ويصلي فردًا في القصر أحيانًا، وهذا ما لا يليق بمكانة السلطان وعظمته ويعني نوعًا من الخفة، ولذلك -وحسب رأي القاضي نفسه- فربما يصدر منه الكذب في حق أحد طرفي القضية، وقد صارح القاضي السلطان بهذا.

وأقر السلطان بخطئه معترفًا بتقصيره بشأن الصلاة وأمر بإنشاء جامع بالقرب من القصر، وبدأ يقيم الصلوات اليومية في جماعة دون تقصير.

أول عرض لـ"حاجيوات وقَرَه كوز"

إنَّ "حاجيوات وقَرَه كوز" هما يعتبران أكثر شخصيتين شهرة وأهمية في عروض خيال الظل في تركيا، وحسب الرواية التي وردت إلينا فإنَّ هذين الشخصين كانا يعملان معًا في بناء مسجد "الجامع الكبير" في عهد السلطان "يلدريم بايزيد"، وهناك نصب تذكاري جميل أنشئ في مدينة "بورصة" حاليًا تخليدًا لذكرى هاتين الشخصيتين الخالدتين بالنسبة لفن المزاح وخيال الظل، ويزعم اليونانيون أن عروض "حاجيوات وقَرَه كوز" ترجع إلى ثقافتهم.

خطة مثيرة للاهتمام

في أول يوم بدأ فيه الجنود العثمانيون يقاتلون القوات التابعة لـ"ميرجه" حاكم أفلاق -والذي كان مكث إلى جانب "يلدريم" سنوات عديدة-، تكبد الجيش العثماني خسائر فادحة إذ كان جنود أفلاق أقوى من العثمانيين عددًا وعتادًا، واستمر القتال إلى أن خيَّم الظلام على ساحة القتال، وحل المساء، وانتهى اليوم الأول للحرب، فلما أدرك "جاندارلي علي باشا" -أحد قادة جيش "يلدريم بايزيد" العظماء- أنَّ الوضع قد ساء بالنسبة لهم خطرت بباله هذه الخطة: أن يذهب إلى ساحة القتال في ظلام الليل رافعين المشاعل في أيديهم كما فعل سيدنا محمد ﷺ عندما كان متجهًا لفتح مكة قبل عدة قرون، فتحولت ساحة المعركة إلى وضح النهار، كما أمر بجمع جثث الشهداء العثمانيين الذين سقطوا في ساحة المعركة، ولم يترك جثة واحدة هناك، ثم أمر بمغادرة المكان في وقت مبكر.

وفي صباح اليوم التالي أرسل "ميرجه" أحد جنوده ليتفقد عدد جثث العثمانيين، معتقدًا أن الساحة كلها مليئة بجثث العثمانيين، إلا أن ميرجه لم يصدق ما قاله له الجندي الذي أرسله، فذهب إلى ساحة القتال للاطلاع على الأوضاع بنفسه فلما وصلها ساورته الدهشة والاضطراب حيث إنَّه لم يجد هناك سوى جثث جنوده فقط.

وقد قرر "ميرجه" مغادرة ساحة المعركة معتقدًا أن قوات الدعم العثماني قد وصلت إليها ليلة أمس مما كان سببًا لإشعال النيران في الساحة الليلة الماضية.

واضطر بعد ذلك إلى الموافقة على اقتراح "يلدريم بايزيد" بعقد الصلح مقابل دفع الجزية للعثمانيين.

أَرُدُّ عليكم قَسَمَكُم

كانت الجيوش الصليبية تثق في نفسها بشكل كبير لدرجة أنها عندما كانت قادمة إلى "جَلِيبُولُو" كانت تردد: "إننا بإمكاننا أن نمسك السماء برماحنا لو انهارت أثناء مواجهتنا العثمانيين"، وكانت تقول: "سوف نعبر الأناضول بسهولة ويسر ونستريح في بساتين سوريا الجميلة ثم نمضي إلى القدس".

وعندما هزم الصليبيون في نهاية المعركة امتلأ وادي "نِغْبُولُو" بعشرات الآلاف من الأسرى بما في ذلك القادة الذين كانوا يرأسونهم والنبلاء والأمراء، وتم نقل ثلاثمائة أمير وفارس منهم إلى مدينة "بورصة".

وقد حددت الدولة العثمانية مبلغًا من المال لإطلاق سراح هؤلاء الأسرى؛ فقد كان هؤلاء النبلاء الذين يُعَدُّونَ من كبار رجال القوم يُعاملون في بلدانهم بشكل جيد للغاية، وعلى ذلك كان هؤلاء النبلاء يتوسلون إلى المسؤولين العثمانيين قائلين:

"وإذا أطلقتم سراحنا نعدكم أننا لن نشهر سيوفنا في وجوهكم أبدًا".

وبعد فترة من الوقت جاء وفدٌ نيابة عن ملك فرنسا محملًا بالمال والهدايا، ونجح في إطلاق سراح الأسرى وعلى رأسهم "جون الشجاع" بعد مشاورات أجراها مع المسؤولين العثمانيين.

وعندما استعد الأسرى للتوجه إلى بلادهم أمر بايزيد بجمعهم وخاطبهم عبر مترجمه قائلًا:

"إنني على علم بأنَّ كل واحد منكم يحتل مكانة مرموقة في بلادكم، ولذلك عاملناكم كضيوف من المستوى العالي، وأنتم تعودون الآن، فأتمنى لكم السلامة، ولكن هناك أمر مهم جدًا أريد أن أؤكده لكم قبل مغادرتكم، أرجوا أن تستمعوا إليّ بفائق الصبر".

شعر الأمراء والفرسان بشغف وفتحوا عيونهم وآذانهم منتبهين لما سيلقيه السلطان من كلام، بينما واصل السلطان كلامه قائلًا:

"لقد نما إلى مسامعي أن الكثير منكم قد أقسم على ألّا يحاربنا مرة أخرى، وقطع الوعد بذلك، وأنا أرد عليكم قسمكم ووعدكم، تستطيعون محاربتنا عندما ترغبون في ذلك، ويمكنكم طلب المساعدة من أعوانكم أيضًا، ونحن مستعدون لمواجهتكم في أي وقت أو مكان ترغبون".

بلدة "نِغْبُولُو" عام (٢٠٠٥م)...

إن بلدة "نِغْبُولُو" تقع حاليًا ضمن حدود "بلغاريا"، وهي بلدة هادئة ومفعمة بالذكريات...

عندما نتجول داخل تلك القلعة الشهيرة في بلدة "نِغْبُولُو" التي شهدت بطولات للعثمانيين نجدها الآن خالية تمامًا عن الآثار الخالدة، حيث أعلنت هذه البلدة والمناطق المجاورة لها عن استقلالها عقب الحرب العثمانية الروسية التي وقعت بين عامي (١٨٧٧-١٨٧٨م).

وقد نجحت بلدة "نِغْبُولُو" في الحفاظ على الهوية التركية العثمانية حتى عام (٢٠٠٤م)، ولا يزال معظم أسماء الأماكن في "نِغْبُولُو" -التي يقترب عدد سكانها من ستة آلاف نسمة- أسماء تركية.

في الواقع يتشكَّلُ سبعون في المائة من سكان البلدة من عائلات أصولها عثمانية، ووفقًا لما كتبه الرحالة التركي "أولياء شلبي" فإن هناك ثلاثة مساجد فقط مفتوحة الآن للعبادة في "نِغْبُولُو" التي كان بها قديمًا ثلاثة وثلاثون جامعًا.

ومـا يدعـو للتفكيـر في الأمر هو قلة عـدد زوار هذه المنطقة التـي كانت تعد "أرضًا عثمانية" فـي فترة معينة من التاريخ، ترى ألا يشـعر أي شـخص بالشغف قائلًا: "يا تُرى! ما هو وضـع مدينة "نِغْبُولُو" وقلعة القائد البطل دوغان في وقتنا الحالي؟".

نصيحة السلطان لـ"جون الشجاع"

تعرضـت الجيـوش الصليبيـة لهزيمة نكراء في "نِغْبُولُو"، وكان قد سـقط في الأسـر عدد كبير جدًّا من الفرسـان والنبلاء الذين يشغلون مكانًا مرموقًا في الجيش الصليبي، وكان من بين الأسرى أيضًا قائد الجيش الفرنسي "كُونْت دِي نِيفِير" الملقب بـ"جون الشـجاع"، الذي لا يزال في الثانية والعشـرين من عمره، فقام بايزيد باستدعاء "جون" إلى حضرته وقال له قبل أن يخلي سبيله:

"أعلـم أنـك صاحب شـخصية مرموقـة في بلدك، وأنت لا تزال شـابًّا يافعًا، وسـوف تأتي في المسـتقبل لمحاربتي لمحو وصمة عار الهزيمة، ولو أنني كنت أخاف من ذلك لجعلتك تقسـم لنا على ألا تنظم حملة على بلادي، ولكنني أُعْلِمُك أنَّك ستجدُني وجنودي في مواجهتكم في أي وقت تأتي فيه".

مدينة "أماسيا" التي استعصت بعلمائها على "تيمور"

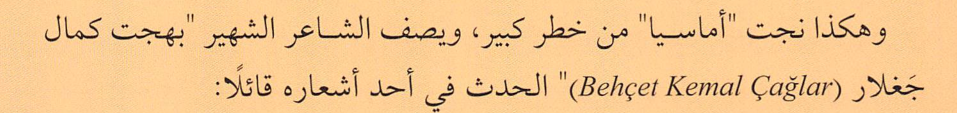
عندما وصلت قوات تيمور إلى مشارف أماسيا أرسلت خطابًا إلى أهالي المدينة جاء فيه:

"إما أن تسلموا المدينة أو ندمرها ونحرق الأخضر واليابس"..

ولكن أهالي "أماسيا" رفضوا تسليم المدينة، فغضب تيمور من ذلك وقال: "ما الذي يجعلكم تثقون في أنفسكم إلى هذا الحد؟"، ولمَّا لم يرده جواب على سؤاله هذا طرح الاقتراح التالي:

"بلغنـي أن مدينتكـم كانـت محط الأمراء، و فيهـا تربى العديد من العلماء الأجلاء، فسـوف يقوم علمائي باختبار علمائكم فإن ينجح علماؤكم في الامتحان أتخلَّ عن الاستيلاء على المدينة، أما إذا خسروا الامتحان فساءت عاقبة أمركم! ".

وسأل علماء "تيمور" علماءَ "أماسيا" عشرة أسئلة، وكان في "أماسيا" معلم للقصر يدعى "إلياس شلبي"، قد أجاب على جميع الأسئلة بمفرده بشكل صحيح.



وهكذا نجت "أماسيا" من خطر كبير، ويصف الشاعر الشهير "بهجت كمال جَغلار (*Behçet Kemal Çağlar*)" الحدث في أحد أشعاره قائلًا:

يا "أماسيا" التي استعصت على "تيمور" الذي خرب البلاد والعِباد

ويا "أماسيا" التي أنارت مدارسها العقول ونشأ فيها العلماء والعُبّاد"

"أحمدي" مؤسس الشعر الديواني

عندما كان "بايزيد" واليًا على مدينة " كُوتَاهْيَا" اتخذ عالمًا يدعى أحمدي صديقًا له، ويأتي أحمدي على رأس شعراء زمنه، فقد تلقى تعليمًا جيدًا في مصر، وكانت لديه معلومات عميقة في العلوم الدينية بجانب تفوقه في علوم الهندسة والطب، حتى إنه أنتج أعمالًا فنية في الرسم وفن الخط.

وعندما دخل "تيمور" الأناضول نجح في إقناع أحمدي -الذي علم بشهرته ومكانته- بالبقاء إلى جانبه، إلا أنَّ هذا الشاعر الكبير لم يكن يرغب في مجاورة تيمور، كما أنه رفض الذهاب معه إلى آسيا الوسطى في حين وافق على اقتراح جاءه من القصر العثماني بالمجيء إلى "أدرنه"، واستقر هناك، وانكب على تحصيل العلم والأدب وتأليف العديد من الكتب.

ويُعتبر أحمدي واحدًا من مؤسسي الشعر الديواني، وهو أيضًا مؤلف أول كتاب في التاريخ العثماني كتب باللغة التركية، كما يعد أولَّ أديب يجمع الملاحم والحكايات التركية القديمة.

و"هذا الرجل الموسوعي" الذي قدم خدمات جليلة إلى الثقافة التركية قد انتقل إلى رحمة الله عام (١٤١٣م) وهو يناهز الخامسة والسبعين من عمره.

ما هو "الفتح"؟

الفتح كلمة عربية الأصل، و"الفاتح" اسم فاعل تعني من يقوم بالفتح، وعند النظر إلى الأمر من هذه الزاوية فإن الأراضي التي فتحت لا تُعَدُّ من قبيل الاحتلال وإنما بمعنى الأراضي التي فتحت للحضارة والابتكار والأمن؛ حيث إنَّ القوانين التي اتبعتها الدولة العثمانية طيلة فترة حكمها تؤكد ما سبق.

مُرتَّب القاضي

كان القضــاة فــي الدولــة العثمانيــة ينظرون في الدعوات المرفوعــة إليهم، ولم يكن القاضي عالم دين فحسـب، بل كان يشغل كذلك منصب الحاكم، فكانوا إلى جانب عملهم بمنصب القضاء يديرون المراكز التي يتواجدون فيها أيضًــا، ويعاملــون المدعــي والمدعى عليه بنفس المعاملة على حد ســواء بغض النظر عن جنسـيته أو دينه أو عرقه، ولا شك أنَّ هذه المساواة والعدالة شكَّلت سببًا في بقاء الدولة العثمانية شامخة لفترة طويلة.

وفي العصور الأولى لتأسيس الدولة العثمانية لم يكن القضاة يحصلون على أية رواتب من الدولة، إلا أن بايزيد قد خصص لهم راتبًا شهريًّا مقابل عملهم في منصب القضاة.



شعر المدينة المفقودة

إن مدينة "سكوبيه" ديار "يلدريم بايزيد" خان.

وهي تذكار لأبناء الفاتحين.

وقد كانت تلك هي مدينتنا بقبابها الفيروزية؛

وهي ملك لنا بكل ما فيها من جمال ومنظر.

كانت "سكوبيه" امتداد لبورصة في جبل "شار".

سالت الدماء الزكية في حديقة زهور الزنبق.

ثم فقدنا المدينة ولكن خيالها ظل في قلوبنا!

والهجران الذي تركه الفراق في الأعماق.

وإذا دام الفراق طويلًا ومرت سنوات عدة على ذلك،

نتمنى ألا تنسانا ولا ننساك في خواطرنا.

"يحيى كمال بياتلي" الشاعر التركي الشهير



مشهد من داخل الجامع الكبير الذي بني في عهد
السلطان يلديريم بايزيد- بورصة

الفصل الخامس

السلطان محمد الأول



اسم الوالد: "يلدريم بايزيد"   اسم الوالدة: "دولت خاتون"

محل وتاريخ الميلاد: مدينة "بورصة"، عام (١٣٧٩م)

تاريخ اعتلائه العرش: عام (١٤١٣م)

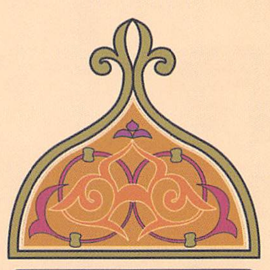
محل وتاريخ وفاته : "أدرنه"، عام (١٤٢١م)

ضريحه : يقع في مدينة "بورصة"

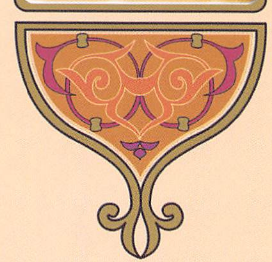
أبناؤه: مراد (مراد الثاني)، وقاسم، محمود، يوسف، أحمد، فاطمة، سلجوق خاتون، خديجة، حفصة، سلطان خاتون ومصطفى.



السلطان محمد الأول يبذل العطايا على جنوده لِمَا حقَّقوه
من انتصار في أول حرب له بعد توليه العرش







محمد الأول (شلبي)

السلطان الذي أنقذ العثمانيين من حافّة الهاوية "أبو الفقراء"

وقد استمرّ "عهد الفترة" أو"خلوّ السلطنة" فترةً قصيرةً جدًّا بفضل حسن إدارته.

إنه سلطان عثمانيٌّ تحلّى بالصبر ورقّة القلب بخلاف أبيه الذي تميّز بطِبَاع حادّة، وفضلًا عن ذلك كان ذكيّا للغاية...

وقد استطاع السلطان "محمد الأول" أن يُنقِذ الدولة العثمانية من الانهيار إثرَ معركة "أنقرة" وذلك بدهائه وحنكته في الإدارة وقد قام السلطان "محمد الأول" في أوّل عملٍ له بإصلاحات جزرية في الدولة التي كادت أن تنهار.

وكان يطلق لقب "شلبي" على أولياء العهد الآخرين في نفس الفترة، ولكنه أطلق عليه هذا اللقب "محمد شلبي" لأمرٍ آخر وهو حنكتُه ولباقتُه في الأسلوب.

ولد السلطان "محمد الأول" في مدينة "بورصة" كالسلاطين الأوائل من قبله، وقد تلقّى "محمد الأوّل" تعليمَه في هذه المدينة، وقد اهتمّ به والده ليكون رجل دولةٍ على الطراز الأول، وبالإضافة إلى كونه رجل دولةٍ فقد بدت فيه سمات القيادة الفائقة والشخصيّة الفذة المرموقة منذ نعومة أظافره.

أوّل نجاح حقّقه في مهمّته الأولى

عندماً تطلّع "القاضي برهان الدين" -الذي أسّس دولة جديدةً بعد قضائه على "بني أرتين (*Eretnids*)" التي تسيطر على مدينتي "سيوس" و"قيصري" والمناطق القريبة منهما، والذي كان يُثير المشاكل والمتاعب للدولة العثمانيّة- إلى الاستيلاء على مدينة "أماسيا (*Amasya*)" التابعة للدولة العثمانيّة؛ وعلى إثر ذلك كلّف السلطان "يلدريم بايزيد" ابنه "محمد شلبي" بفتح "أماسيا" كأوّل مهمّة له على رأس قوّة عسكريّة قوامها ثلاثون ألف جنديّ.

وقد دخل الأمير "محمد شلبي" إلى مدينة "أماسيا" على رأس قوّة كبيرة، حتى إن "القاضي برهان الدين" لم يجرؤ على مواجهته.

وقد سعد والدُه "بايزيد" بهذا النجاح وكافأه عليه بمنحه إمارة "أماسيا"، أي عيّنه حاكمًا عليها.

"محمد شلبي" أثناء معركة "أنقرة"



وكان الأمير محمد قد تولى قيادة القوّات الاحتياط للجيش العثمانيّ أثناء معركة "أنقرة"، وعندما أدرك أنهم سوف يخسرون المعركة انسحب مع جنوده الذين بلغ عددهم ألف جندي، ولكن الأعداء قد قطعوا الطريق أمام جنود "محمد شلبي"، وعندئذٍ تقاتل معهم وهزمهم، ثم اضطر إلى النزوح صوب مدينة "بولو (*Bolu*)" وذلك بعد أن تيقّن بأن جميع الطرق المؤدّية إلى العاصمة محفوفةٌ بالمخاطر.

وعندما تلقّى في "بولو" خبرَ هزيمة الجيش العثماني غمره حزنٌ شديدٌ، وعاد مع من معه من جنوده إلى مدينة "بورصة"، وتشاور مع المسؤولين العثمانيّين هناك من أجل اتّخاذ تدابير لازمة من أجل التصدّي لهجمات "تيمور" المحتملة على المدينة، ولكنه تراجع عن فكرته هذه بعد أن استمع إلى المسؤولين الإداريين المقرّبين إليه وهم يعربون عن رفضهم لهذا الأمر.

وفي تلك الأثناء قدم إلى مدينة "بورصة" وفدٌ من "أماسيا" لدعوة "محمد شلبي" إلى المدينة بيد أن "تيمور" قد استولى على "أماسيا" وعيّن قائده "قَرَه دولة شاه" واليًا عليها ولكن كان الجنود الذين تحت إمرته يقومون بأعمال النهب والسلب في المدينة ممّا أثار الذعر بين أهالي المدينة.

فجاء نبلاء "أماسيا" إلى الأمير محمد، وقالوا له:

"مولاي نحن نحتمي بك، فلا أحد يستطيع ردعَ قوّات "تيمور "غيرك، إن أهالي "أماسيا" كلهم عونٌ لك، فالكلّ يتضرّر من أعمال السلب والنهب التي يقوم بها جنود تيمور".

وبناءً على ذلك تحرّك الأمير محمّد مع قوّاته صوب "أماسيا".

وقد دخل "محمد شلبي" مدينة "أماسيا" عام (١٤٠٣م) بعد معركةٍ دارت بينه وبين والي "تيمور" هناك حيث هُزِمت قوّات الوالي ولقيَ الوالي حتفه في تلك المعركة.

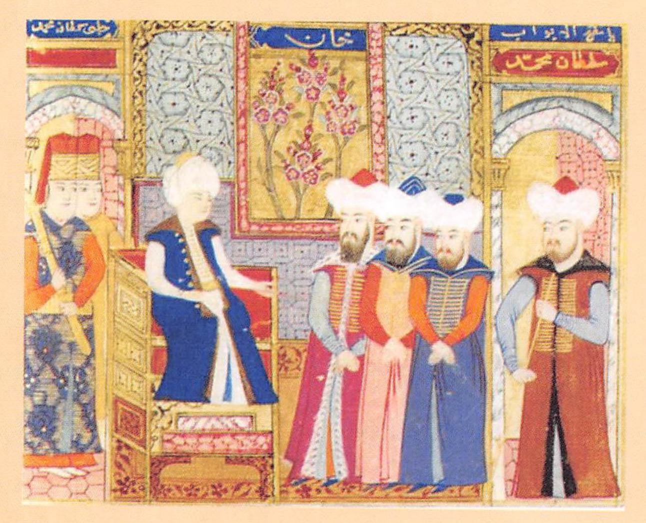
ومن ناحية أخرى فإن هزيمة الدولة العثمانية في معركة "أنقرة" قد أسعدت وأفرحت وأطربت حكّام الأناضول الذين كانوا على علاقةٍ سيّئة بالدولة العثمانيّة.

إن هؤلاء الأمراء لم يقفوا عند هذا الحدّ بل قاموا بمهاجمة بعض المدن الخاضعة للدولة العثمانية واستولوا عليها.

وأصبحت مهمّةُ إعادة هذه المدن مرّةً أخرى إلى الدولة العثمانية واقعةً على عواتق وأكتاف الأمراء، وقد نجحوا في إعادة مدن "أماسيا" و"توقات" و"سيوس" إلى الإدارة العثمانية.

وبعد هذه الإنجازات التي حققها الأمير محمد قام هو وشقيقه الأمير "موسى شلبي" بالتفكير في خطّة جديدةٍ قد تقلب موازين الأمور...

الجواسيس أوّلا



كان الأمير "محمد شلبي" يخطّط للقيام بعمليّةٍ سرّيّةٍ لإنقاذ والده من يد "تيمور"، ففي البداية قام بإرسال جواسيسه إلى مدينة "كُوتَاهْيَا" التي يُحتجز فيها السلطان "بايزيد" أسيرًا، وقام هؤلاء الجواسيس الشجعان والمهَرَةُ بالاستعدادات اللازمة وفقًا للمعلومات التي حصلوا عليها.

وبعد ذلك حددوا الخيمة التي يقيم فيها "بايزيد"، وبدؤوا حفرَ نفقٍ تجاه ذلك المكان بشكلٍ سريعٍ، وكان الأمير "محمد" يُدير العملية بنفسه، حتّى إنّه شارك في عملية الحفر بيديه، ولكنه خرجَ من النفق قبل اكتماله، وقدّم بذلك مثالًا على الحيطة وحنكة الإدارة.

وعندما اقترب الجنود الذين يتسلّلون عبر النفق من خيمة السلطان انتبه جنود "تيمور" لهذه الخطة، فسادت حالةٌ من الاضطراب داخل المعسكر وهكذا باءت هذه الخطة بالفشل.

عندما علم "تيمور" أنّ "محمد شلبي" حفرَ نفقًا من أجل إنقاذ أبيه لم يغضب بقدر غضبه عندما علم بانتظار السلطان "بايزيد" ووزيره "فيروز باشا" وتجهيز استعداداتهما للرحيل، وقد استشاط "تيمور" غضبًا وقال معاتبًا للمقربين له:

"هذا يعني أن السلطان "يلدريم بايزيد" كان على علمٍ بكلّ شيءٍ، وربّما هو الذي أعدّ العملية بنفسه، لماذا لم يكن لدينا علم بذلك؟ هل نمنا؟".

وقد تعامل "تيمور" مع هذه المحاولة بشكل قاسٍ حيث أمر بقتل "فيروز باشا" من أجل ترويع "بايزيد" والمقربين منه، وبعد هذه الواقعة قرّر "تيمور" إعادة حساباتِهِ بشأن مصير الأناضول والعثمانيّين.

"تيمور" يستدعي ابن "يلدريم"

وفي نهاية المطاف قرّر "تيمور" مقابلة "محمد شلبي" فأمر باستدعائه، وطلب من السلطان بايزيد أن يكتب إليه رسالةً بخطّ يده، ولم يكتف بذلك، بل أرسل مبعوثًا خاصًّا ليقدّم له ضمانًا من أجل سلامته.

وانطلق الأمير محمد بعد أن وافق على الذهاب إلى جانب والده، وفي الطريق تعرّض لبعض الهجمات، وحينها أدرك "محمد شلبي" أن "تيمور" لم يُحكِم سيطرته على جنوده تمامًا كما يدّعي فالبلاد يعمّها الفوضى ويسودُها الاضطراب.

فلم يزر "محمد شلبي" "تيمور" بل قام بإرسال معلّمه "صوفو بايزيد" إليه بالهدايا القيّمة من أجل أن يُفهمه الوضعَ المأساويّ الذي تعيشه بلاد الأناضول، ثم عاد إلى "أماسيا".

أنصت "تيمور" جيّدًا إلى شيخ "صوفو بايزيد"، واطّلع بنفسه على الأوضاع السيئة التي حلّت بالأناضول وأدرك عدم إحكام سيطرته على حكم البلاد.

وهناك بعض الكتب التاريخية تروي أن "أبا بكر طغبدي" معلم ومستشار "تيمور" له دور مهم في توجيه "تيمور" إلى طريق العدالة عند إصدار قراراته وإعلامه بالأوضاع السيئة التي تمر بها البلاد والتي كان يغفل عنها "تيمور".

وقد وجد "تيمور" أن السبيل الوحيد للخروج من تلك الأزمة هو منح إدارة المدن التي استولى عليها في الأناضول للأمير محمد، وبالفعل قام "تيمور" بإصدار أمر سلطاني موثق بالختم الأحمر بتنفيذ ذلك، كما أرسل إليه تاجًا وحزامًا، والسترة السلطانية كما هو المتعارف عليه في عادات آسيا الوسطى آنذاك.

وهكذا اعتلى "محمد شلبي" العرش السلطاني بمساندة وعون "تيمور"، والملفت للنظر في هذا الأمر أن الدولة العثمانية كانت قد نهجت هذه السياسة مع عدة دول في المنطقة كـ"بيزنطة" من قبل ولكن قدر الله أن تُنتهج نفس السياسة معها الآن.

وفي مقابل ذلك أصدر الأمير محمد مرسومًا يشير إلى أنه قَبِل سيادة "تيمور" رسميًّا، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه أمر بِسَكِّ اسمه على العملات الصادرة حديثًا.

وفي هذه الفترة تزوج الأمير محمد -الذي تمكن من إصلاح كثيرًا من وضع الدولة العثمانية ووضع نظامًا للعُرج- من "أمينة خاتون" ابنة حاكم "بنو ذولقادر".

وبدأ العثمانيون ينهضون من كبوتهم مرة أخرى.

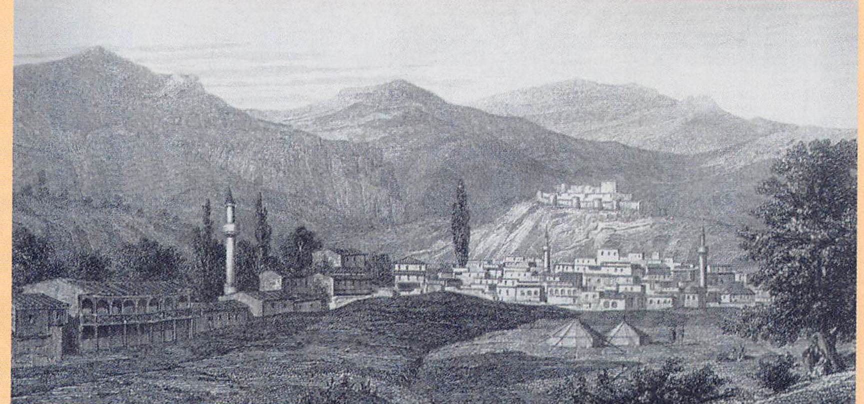
"تيمور" يتجوّل في الأناضول

مكث "تيمور" في "أنقرة" ثمانية أيّامٍ بعد المعركة، وانتقل بعدها في الخامس من أغسطس/آب إلى جنوب شرق الأناضول دون أن يُبالي بحرارة الصيف الشديدة.

واتّجه "تيمور" الذي أشرف عمرُه على السبعين إلى الغرب صوب مدينة "كُوتَاهْيَا"، وهي منطقة مفضّلة لديه ومكث لمدّة شهرٍ هناك.

وقد أحضر "تيمور" من مدينة "بورصة" من بين الأسرى عائلة "يلدريم" وبناته، وبعض الشخصيات البارزة كصهر "يلدريم" العالم الشهير والولي "أمير محمد بخاري" و"مولا فناري" و"شمس الدين جزري"، وقد اهتمّ بهم "تيمور" جيدًا، وقدم لهم الهدايا القيمة، وتجاذب معهم أطراف الحديث مُظهِرًا لهم الاحترام.

كما قام "تيمور" -الذي تعايشَ جيّدًا مع حكام الأناضول غير التابعين للعثمانيّين- بمكافأتهم على مجيئِهم ومبايعتِهم له، ووزّع عليهم المدن والأراضي والهدايا.



مدينة "كُوتَاهْيَا" قديمًا - تركيا رسم "تشارلز تكسيير (Charles Texier)"

وبعد أن قضى "تيمور" مدّةً من الوقت في مدينة "كُوتَاهْيَا" اتّجه إلى مدينة "دنيزلي"، ومن هناك إلى مدينة "آيدِين"، وبعد أن قضى شهرًا في هذه المدينة الجميلة" وصل إلى مدينة "تيره (Tire)"، وقد راقت له هناك صخرةٌ شاهدها في ذلك المكان، فأمر بكتابة نقشٍ يصف الانتصار الذي أحرزه ضدّ "بايزيد"، وهكذا خلّد انتصارَه في التاريخ.

وفي ذلك الوقت استولى "تيمور" على قلعة "إزمير" التي كانت تحتَ حكم "فرسان رودس" بمعاونة "سليمان شلبي"، ومع أن الفرسان قد دافعوا عن "رودس" لمدة خمسة عشر يومًا، إلا أنهم لم ينجوا من الهزيمة، وهكذا فإن "إزمير" التي استشهد الكثيرُ في سبيلها أمثال "غازي عمر بك" قد انتقلت إلى حوزة الأتراك.

وبعد هذه الحادثة بدأ "سليمان شلبي" يدير شؤون البلاد بصفته سلطانًا عثمانيًّا عيّنه "تيمور"، وفي غضون ذلك أعلنت "بيزنطة" أيضًا أنها خاضعةٌ لـ"تيمور" وقامت بدفعِ الجزية وتقديم الهدايا القيّمة له.

أشقّاء "محمد شلبي"





صور تخيُّلية للأميرين موسى وعيسى شلبي

كان لـ"يلدريم بايزيد" ستة أبناء آخرين على قيد الحياة بخلاف "محمد شلبي"، أي أن الأمير محمد أحد أبناء العائلة التي تتكوّن من سبعة ذكور، وكانت أسمائهم طبقًا لأعمارهم كما يلي: سليمان، مصطفى، وعيسى، وموسى، ثم يوسف وقاسم اللذان كانا لا يزالان في مرحلة الطفولة بعد.

والسؤال المطروح هنا كيف استطاع "محمد شلبي" أن يُبْرِزَ نفسَه من بين أشقّائه الستّة ويتولّى زمام الدولة بمفرده؟

لم يشترك الأمراء "قاسم ويوسف" في معركة "أنقرة" لكونهما أصغرَ الذكور وبقيا في مدينة "بورصة".

أما الأمراء الثلاثة أي "محمد وسليمان وعيسى" فقد اضطرّوا للانسحاب من ساحة المعركة نظرًا للتطوّرات السيّئة التي شهدتها المعركة.

وقد رأى وليّ العهد والأمير الأوّل "سليمان بك" أنه من المناسب الانسحاب من وادي "جوبوق" إلى الغرب، وكان في معيّته جزءٌ كبيرٌ من جنود "رُومَلِي" من الفرسان الشجعان، وعلاوة على ذلك يتواجد معه "جاندارلي زاده علي" باشا الصدر الأعظم، و"حسن" أغا الإنكشارية وزوجته و"إينه بك" القائم بأعمال البلدية و"مراد" باشا.

وقد كلف "تيمور" بعضَ جنوده بمهمّة القبض على الأمير "سليمان شلبي" وليّ العهد الأول، ولكن الأمير "سليمان شلبي" قد وصل إلى "بورصة" بخطّة انسحابٍ ناجحةٍ، لأنّ بقاءَه في هذا المكان كان من الممكن أن يجلب مخاطرَ أخرى، ولهذا السبب أخذ أخاه الأصغر "قاسم" وأخته "فاطمة سلطان" واتّجه صوب "رُومَلِي".

وبعد أن غادر "سليمان شلبي" مدينة "بورصة" دخل جنود "تيمور" إلى "بورصة"، واقتحموا القصر العثمانيّ واستولوا على كل ذي قيمةٍ فيه.

وقد دُمِّرت "بورصة" التي كانت -طيلةَ سبعةٍ وسبعين عامًا- عاصمةً للدولة العثمانية، وهي أكبر مدينة في الأناضول على مدى ربع قرن، لقد سحقها جنود "تيمور"، وقد دخل "شرف الدين علي سمناني" وزير "تيمور" إلى دائرة الخزينة العثمانية،

وقيّد الأموال القيمة في دفتر وأرسلها إلى "تيمور"، ومن بين ما تمّ الاستيلاء عليه الأرشيف العثماني أيضًا، وكان يشتمل هذا الأرشيف على عدّة وثائقَ قيّمة وكتبٍ لا يوجد لها مثيل، وما زال الغموضُ يكتنِف مصير كلّ تلك الأشياء، وما تزال النقاشات تدور حول ما فعله بها "تيمور".

ولم يكتف القادة التيموريّين بإرسال الغنائم إلى "تيمور"، بل أرسلوا إليه كذلك الأسرى المهمّين وذوي الشأن.

أما "عيسى شلبي" ولي العهد فقد انسحبَ إلى مدينة "باليكسير" بعد معركة "أنقرة"، وجاء فيما بعد إلى مدينة "بورصة".

أما الأميران موسى ومصطفى فقد تمّ إحضارهما إلى جانب والدهما السلطان "بايزيد" بعد معركة "أنقرة" بإذنٍ من "تيمور".

وأما "قاسم بك" الذي كان أصغرَ الأمراء سنًّا فقد تركه أخوه الكبير "سليمان بك" كأمانة لدى الإمبراطورية البيزنطية، ومكث الأمير الشاب لسنوات عديدة في "بيزنطة"، وتوفّي بعيدًا عن وطنه بسبب انتشار وباء الطاعون الذي ظهر عام (١٤١٧م)، ودُفِنَ في إسطنبول.

أما ولي العهد "مصطفى" فقد نُقل إلى آسيا الوسطى بأمرٍ من "تيمور"، وانقطعت أخبار الأمير "مصطفى" لعدة سنوات كان فيها رهينةً في أيدي التيموريّين.

ثمّ ظهر "مصطفى" -الذي عاش في تركستان لسنوات طويلة- على مسرح التاريخ بصفته مرشحًا لسلطنة الدولة العثمانيّة التي تمرّ بأزمةٍ كبيرةٍ.

صراعٌ بين الأمراء على السلطة

كانت هذه الأحداث تعكِس صدًى كبيرًا على الساحة، حيث إن خلوَّ العرش العثمانيّ ولو لفترةٍ قصيرةٍ يُبشّر بنهايةٍ محزنةٍ للدولة العثمانية.

هذه الفترة التي استمرّت أحدَ عشرَ عامًا والتي ذُكرت في التاريخ باسم: "فترة خلوّ السلطنة" بمعنى التوقّف أو فترة الاضطراب تُشير إلى عودة عقارب ساعة التاريخ إلى الوراء، كما حدث في السنوات التي أعقبت عام (١٣٠٠م) إذ اضطر العثمانيون إلى بناء الدولة بسواعدهم الكادحة من جديد وحاولوا توحيد الأناضول والقضاء على شتّى الاضطرابات في "رُومَلِي".

ولم يتوانى "تيمور" عن تضييق الخناق على الدولة العثمانية -التي أسّسها "عثمان غازي" في الأناضول- بكلّ ما أوتي من قوّة، وبالإضافة إلى ذلك فلقد انتهز باقي حكّام الأناضول -الذين لا تربطهم علاقة حبّ وودّ مع العثمانيّين- فرصةَ ضعف العثمانيّين فقاموا بالاستيلاء على بعض المناطق الخاضعة للحكم العثمانيّ في تلك الفترة.

وكان قادة السلطان العثماني "يلدريم" وكذلك أبناؤه مشتّتين هنا وهناك، حيث كان "موسى شلبي" في معسكر "تيمور" مع أبيه، و"سليمان شلبي" في "رُومَلِي"، و"محمد وعيسى شلبي" في "بورصة" كولاةٍ من قِبَلِ "تيمور" وتحت أمره وسلطانه، ولكن الوضع الأسوأ هو محاولةُ "تيمور" تقسيم الدولة العثمانية إلى أجزاء بِعَدَدِ الأمراء.

وفاة "يلدريم"

وفور وفاة "بايزيد" قام "تيمور" بتتويج كلٍّ من سليمان ومحمد وموسى وعيسى -أبناء "بايزيد" وورثة عرشه الشرعيّين- ليتسبّب بذلك في حدوث منافسة شرسةٍ بين الأمراء.

فلم يتحمّل "يلدريم بايزيد" الأيّام المليئة بالقهر والضيق والمرار التي استمرت عامًا ونصف العام بجانب "تيمور" فتوفي في الثالثة والأربعين من عمره، حيث إن اصطحاب "تيمور" معه في كلّ مدينةٍ يذهب إليها قد جرحت مشاعر هذا القائد العظيم والحاكم الكبير، لأنّ الكريم العزيز يفضل الموت على الذل والمهانة.

لقد كان "تيمور" يُعامل "بايزيد" بكل احترامٍ وتقديرٍ كسلطانٍ يجلس على عرش مملكته إلا أنه كان يجرح مشاعره عندما يصطحبه معه ويأخذه إلى كل مدينةٍ يذهب إليها، فكان هذا الأمر يُحزن "بايزيد" ويُضاعف من آلامه وأحزانه.

وقد ذَكَرَت بعضُ كتب التاريخ أن "تيمور" كان من أكثر الذين حزنوا على وفاة "يلدريم" حتى إنه كان واحدًا من الذين بكوا عليه، ويُذكَر في هذه الكتب أن "تيمور" أمر بإقامة صلاة الغائب على روح "بايزيد"، ويُعدُّ هذا تناقضًا لما جاء بعض الكتب التاريخية وهذا ما يُثير الدهشة والاهتمام.

وفي شهر مارس/آذار عام (١٤٠٣م) أي بعد معركة "أنقرة" بثمانية أشهر غادر "تيمور" الأناضول.

وطبقًا لما ذكره بعضُ المؤرّخين فقد كان أكبر خطإٍ ارتكبه "تيمور" في حياته هو استيلاؤه على الأناضول، أما الحلم الأكبر له فهو الاستيلاء على الصين، ولقد قام بالاستعدادات اللازمة وأعد العدّة لحملة الصين، ولكن قبل أيام قليلة من بداية الحملة توفّاه الله في الثامن عشر من فبراير/شباط عام (١٤٠٥م)، وورث عرشه حفيده السلطان "خليل ميرزا"، ثم تولّى العرش بعد السلطان خليل "شاهرخ ميرزا" وهو الابن الرابع لـ"تيمور".

وبالرغم من حرص "تيمور" الشديد على تأسيس دولة قوية إلا أنه فشل في تحقيق ذلك، وبعد وفاته بدأت شمس دولة التيموريين في الأفول ثم غابت عن مسرح التاريخ تمامًا بعد حوالي مائة عام.

مرحلة الخرزة الزرقاء

عقب وفاة "يلدريم بايزيد" بدأ "تيمور" يولي اهتمامًا أكبر بالأمير "موسى شلبي"، فقد ألبَسه التاجَ مثل أشقّائه الآخرين، وعندما حصل "موسى شلبي" على الدعم من "تيمور" أخذ جثمانَ والده الموجود في "آق شهير" وهدايا "تيمور" الثمينة وذهب إلى مدينة "بورصة"، وقام أوّلًا بدفن جثمان والده "يلدريم" في مكانه الجديد، وسط بكاء الأهالي واهتمامٍ لم يُسبق له مثيل.

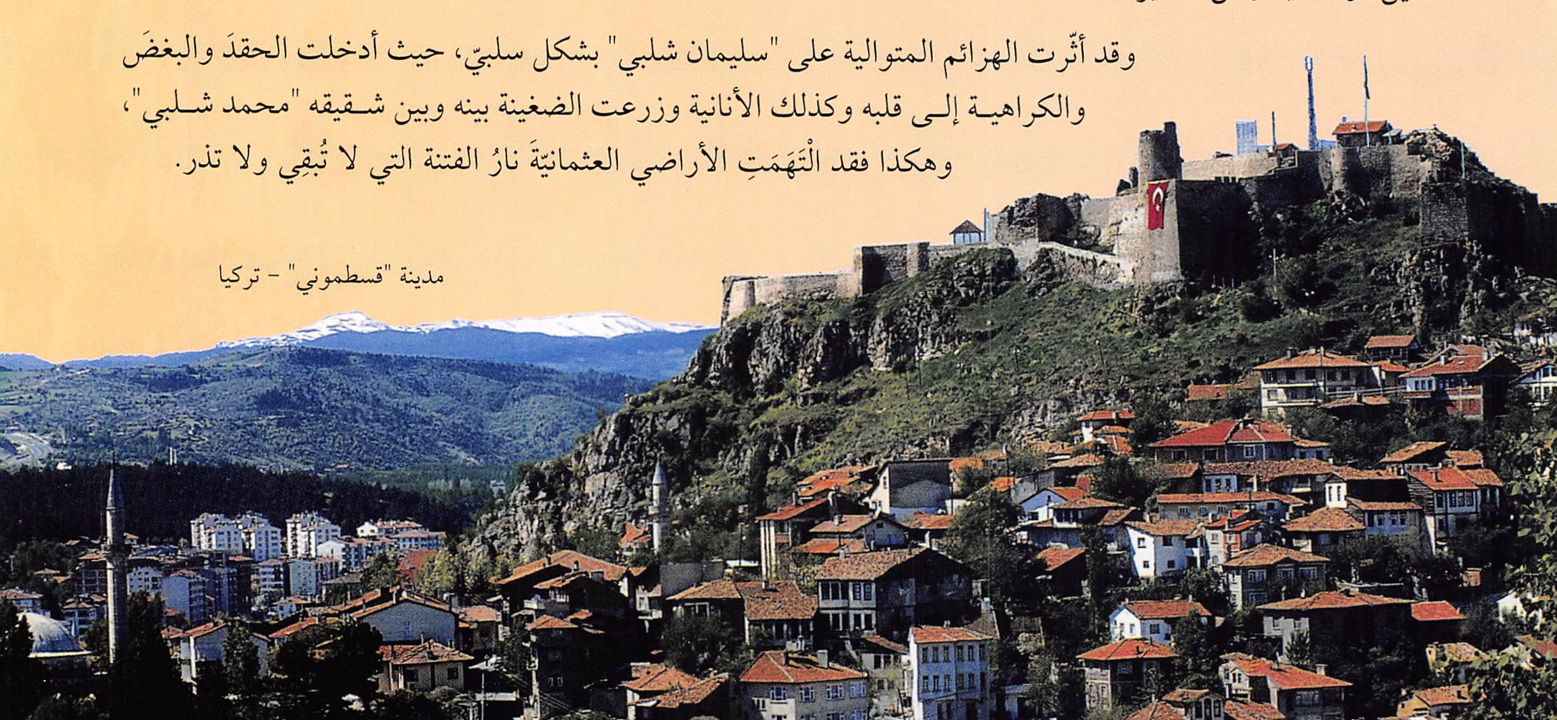
وفي تلك الأثناء غادر "عيسى شلبي" -الذي هو وريث العرش وأحد الأمراء الذين وزّع عليهم "تيمور" خرزةً زرقاء- "بورصة"، وعندما علم بالاضطرابات الموجودة في مدينة ""بورصة"" أبلغ على الفور شقيقه الكبير "سليمان شلبي"، وقام "سليمان شلبي" بإعادة "عيسى شلبي" إلى "بورصة" على رأس جيش صغير، وأمره بالتوجه إلى مدينة "بورصة" وتحرير المدينة من يد "موسى شلبي" الذي يخضع لسيطرة "تيمور"، مؤكدًا له أن هذه المدينة عاصمة دولة العثمانيّة وليست ولايةً تيموريّة.

وعندما اقترب "عيسى شلبي" من مدينة "بورصة" إذ فاجأه أخوه "محمد شلبي"، حيث كان الأمير "محمد" أيضًا يطمح في حكم "بورصة"، ودخل الشقيقان في معركة ضاريةٍ في المنطقة التي تسمى "أولوبات"، وهُزم "عيسى".

وبعد أن هُزم "عيسى شلبي" عاد أدراجه إلى مدينة "أدرنه" حيث أخيه "سليمان شلبي"، وأبلغ شقيقه الأكبر هزيمته أمام قوات "محمد شلبي" ووفاة "صاري دميرداش باشا" أحد أكبر قادة "بايزيد" أثناء المعركة.

كانت هزيمة "عيسى شلبي" تعني خسارة "سليمان شلبي" أمام الأمير محمد لأنه كان يتحرّك بالتنسيق مع أخيه "عيسى" منذ حين، وكان يعارض الأميرَ محمد.

وقد أثّرت الهزائم المتوالية على "سليمان شلبي" بشكل سلبيّ، حيث أدخلت الحقدَ والبغضَ والكراهية إلى قلبه وكذلك الأنانية وزرعت الضغينة بينه وبين شقيقه "محمد شلبي"، وهكذا فقد الْتَهَمَتِ الأراضي العثمانيّةَ نارُ الفتنة التي لا تُبقِي ولا تذر.



مدينة "قسطموني" - تركيا

وذهب "سليمان شلبي" إلى مدينة "قسطموني" -التي يحكمها أحد أقاربه وهو "أسفنديار بك"- ولجأ إليها، واصطحب معه "عيسى شلبي"، وبعد ذلك اتّحد الثلاثة وأعدّوا خطّةً للاستيلاء على "أنقرة"، وفي طريقهم إلى "أنقرة" صادفهم "محمد شلبي" ودارت بينهم معركةٌ في المنطقة التي تسمى "كرده" وانتصر "محمد شلبي" مجدّدًا في هذه المعركة.

وبعد أشهرٍ قليلةٍ قام "عيسى شلبي" الذي أراد أن ينتهز فرصة وجود "محمد شلبي" في "أماسيا" بمحاولة الاستيلاء على "بورصة" مرّةً أخرى، ولكنه هُزِم للمرّة الثانية، فلجأ أوّلًا إلى "جنيد بك" حاكم "بني آيدين"، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى أراضي "بني قرمان" ونجا بنفسه، ولكن الهزائم المتتالية لم تُثنِ عزم "عيسى شلبي" واستعدّ من جديد من أجل الاستيلاء على "بورصة" مرة أخرى، وذهب إلى "أسكي شهير" ولكن قُبض عليه هناك وقُتل.

وهكذا فقد خرج من صراع الإخوة الأربعة -الذين كانوا يتصارعون على العرش- الأميرُ "عيسى شلبي" وبقي الثلاثة الآخرون وهم "سليمان ومحمد وموسى" في سباق السلطنة.

ضراوة السباق بين الإخوة والوصول إلى مشارف "سلوفينيا"

عندما أدرك "سليمان شلبي" قوّة أخيه "محمد شلبي" مضى إلى الأناضول واستولى على "بورصة" من أجل تضعيف قوة أخيه في المنطقة، واضطر "محمد شلبي" إلى الفرار إلى "أماسيا"، وبعد ذلك استولى "سليمان شلبي" على "أنقرة"، ومع أن "محمد شلبي" يبدو الأقوى من بين إخوته في الأناضول إلا أن أخاه الأكبر "سليمان شلبي" كان يفرض سيطرته على "رُومَلِي" حيث كانت القوات التابعة له تتكوّن من جنود مدربين وأكثر كفاءة من غيرهم.

وفكر محمد شلبي في عقد اتّفاقٍ مع أخيه الأكبر، وفي سبيل ذلك تقابل مع "موسى شلبي" وأقنعَه بالانضمام إلى صفّه، وبموجب الاتفاق الذي عُقد بين الأخوين فإنه في حين انتصار "موسى شلبي" على أخيه "سليمان شلبي" فإنه سيحصل على "رُومَلِي" إلا أنه سيكون تابعًا لـ"محمد شلبي".

وبناءً على ذلك تحرّك "موسى شلبي" صوب "رُومَلِي".

وعندما علم "سليمان شلبي" بما يدبّره له أخواه؛ بادر بالاستيلاء على مدينتي "بورصة" و"أنقرة" من أجل تعزيز قوّته كما قام قائده "أورنوس بك" بإخضاع "بني قرمان".

وكان "سليمان شلبي" قد أمر بإنشاء قلعة ضخمةٍ في "جَلِيبُولُو"، ونظّم الغارات على أوروبا، وفي أوائل أكتوبر/تشرين الأول عام (١٤٠٨م) وصل المغيرون العثمانيون حتى حدود "سلوفينيا" الحالية واستولوا على "مويتلينج (*Mottling*)".

أما "محمد شلبي" فقد كان يتصرّف بشكلٍ أعقل من أخيه الأكبر "سليمان شلبي"، ولم يكن طماعا كأخيه "سليمان" إلا أنه لم يتوانَ عن تحقيق الانتصارات والفتوحات، وفي تلك الأثناء كان "موسى شلبي" يشنّ غاراتٍ على طول نهر "الدانوب".

ولا يخفى أن جميع هؤلاء الإخوة قد تربّوا على يدي "بايزيد" وتعلّموا في المدرسة نفسِها حتى صاروا جميعًا قادةً مهَرَةً، واضطرّ "موسى شلبي" -الذي كان يتقدّم بسرعةٍ كبيرةٍ تجاه "رومانيا"- إلى الاشتباك مع أخيه "سليمان شلبي" الذي حقّق نجاحاتٍ ملحوظةً في نفس المنطقة، وقد خسر "موسى شلبي" هذا الصراع الذي خاضه مع أخيه.

وفي هذه الأثناء فرض "محمد شلبي" سيطرَتَه على الأناضول، واستمال الحكّام الآخرين، وقد تسبّب نجاحه هذا في انزعاج قادة "سليمان شلبي"، وبدؤوا يقولون: "لا يمكن أن يكون هناك رئيسان في دولةٍ واحدةٍ، إما أنت وإما محمد شلبي"، وفي الواقع فإن "سليمان شلبي" كان معروفًا بين الشعب بأنه شخصٌ مولعٌ بالمِتَعِ ومنغمسٌ في الملذّات، وقد بدأ ينفضّ عددٌ كبيرٌ من الرجال والقادة ممّن كانوا حول "سليمان شلبي".

وقد ساءت تمامًا إدارة "سليمان شلبي" وخاصّة مع وفاة "جاندارلي زاده علي باشا" الوزير الأعظم، ولِلعِلمِ: فإنّ "جاندارلي زاده علي باشا" قد حقّق أطولَ مدّةٍ في شغلِ منصب الوزير الأعظم -وهو ما يعني رئيس الوزراء في عصرنا الحالي- فقد عمل وزيرًا أعظم لثلاثة سلاطين، حيثُ حافظَ على منصبه مدّة تجاوزت تسعة عشر عامًا.

وقد تحرك "موسى شلبي" -الذي لاحظ أن "سليمان شلبي" يفقد اعتبارَه شيئًا فشيئًا- على رأس جيشه يبغي مواجهةَ أخيه، ولم يأخذ "سليمان" الأمرَ على محمل الجدّ، بل كان يُقلّل من شأن أخيه، بل ويسخر منه، وهذ السخرية قد أغضبت "موسى شلبي" وجعلته أكثر عدوانيّة وحماسًا ضدّ أخيه إلى أن هاجم "أدرنه" واستولى عليها.

وعندما لم يستطع "سليمان شلبي" مقاومةَ أخيه لاذ بالفرار صوب إسطنبول، إلّا أنّه قُبض عليه من قِبَلِ سكّان إحدى القرى في طريقه إلى إسطنبول، وتوفّي، وانتهت لحظات حياتِه وقصص طمعه، وبعد وفاة "سليمان شلبي" فقد انحصر الصراع على العرش العثماني بين اثنين من الأشقاء هما الأمير "محمد شلبي" وأخيه الأمير "موسى شلبي".

"محمد شلبي" يعتلي على العرش العثماني

أصبح وليّ العهد "موسى شلبي" غريبَ الأطوار عجيب التصرُّفات، فلم يتذكّر الاتّفاقيّة التي عقدها مع شقيقه الأكبر "محمد شلبي"، وأعلن سيطرتَه على "أدرنه"، ونسي أنّه وصل إليها وإلى "رُومَلِي" بدعمٍ من أخيه "محمد شلبي"، وقطع الوعدَ ونقض العهد بأن يكون حليفًا له.

وعندما تلقى "موسى" مساعدةً كبيرةً من صهره "ميرجه" -أمير أفلاق- ازدادت ثقته بنفسه، وبالتالي أصبح جيشُه يتمتّع بقوّةٍ كبيرةٍ، فاستولى على بضعة مدنٍ منها "جطلجه (*Çatalca*)" في مدّة قصيرة.

ولم يكتف "موسى شلبي" بذلك بل حاصر إسطنبول أيضًا، ليُحقّق حلمَ أبيه "بايزيد" ويفوزَ باحترام الجميع، إلا أنَّ فتحَ إسطنبول ليس أمرًا سهلًا ولا تكفي القوّة وحدها في تحقيقِ ذلك الهدف السامي.

أما إمبراطور "بيزنطة" فكان يعلم جيّدًا أنه إذا اتّفق مع "محمد شلبي" فإنه يستطيع مواجهة "موسى شلبي"، فدعا محمّد إلى زيارة إسطنبول.

وقد احتفل أهالي إسطنبول بزيارة "محمد شلبي" للمدينة احتفالًا رسميًّا استمرّ ثلاثة أيام متتالية بلياليها.

وفي نهاية المشاورات التي أُجريت بين الطرفين تمّ التوصّل إلى اتفاقيّة تعاونٍ مشتَرَكٍ بينهما.

وكان "محمد شلبي" -الذي يُعدُّ أوّلَ حاكمٍ عثمانيٍّ يزور الإمبراطور البيزنطي رسميًّا مع العلم أن السلطان "أُورْخَان غازي" قد تقابل مع الإمبراطور البيزنطي في "أُسْكُودَارْ" وليس في إسطنبول- قد سعد كثيرًا بهذه الاتّفاقية.

ولكن الأحداث تجري على أرض الواقع لصالح "موسى شلبي" الذي لا يتجاوزُ عمره الرابعة والعشرين وهو ما يزال في ريعان شبابه، حيث استطاع أن يهزم أخاه الأكبر "محمد" بعد أن حاصره ومن معه من الجنود القليلة في "جطلجه" في طريق عودتهم من إسطنبول.

وعلى الرغم من إصابة "محمد شلبي" إلا أنه نجح في العودة إلى إسطنبول، وكان هذا التصرف لـ"موسى شلبي" لم يُستحسن من قِبَلِ أمراء الأناضول، فلقد كان "موسى شلبي" يسعى حثيثًا وبكلّ جهده واستطاعته من أجل الوصول إلى الحُكْم، وفي سبيل ذلك كان يسيءُ معاملةَ من حوله، وكان رجالُه وقوّادُه وعمالُه ووُلاتُه يتصرفون مثله، ولذا لم يكونوا محبوبين مِن قِبَل الشعب.

وعلى العكس من ذلك فإن "محمد شلبي" كان أكثر تفهّمًا وبصيرةً وتسامحًا وتعقّلًا من أخيه "موسى"، فكان يحظى بتقديرٍ ممّن حوله، حتى إنه فاز بتقدير واحترام ودعم القادة القدامى الذين أدركوا هذه الحقيقة وهذا الفارق.

وعندما علم "موسى شلبي" بما يشعره القادة القدامى تجاهه وتجاه أخيه، إضافةً إلى أنّ محاصرته لإسطنبول لم تُسفِر عن أيّ نتائج مرجوّة؛ شعرَ بخيبةِ أملٍ كبيرة، وقرّر رفعَ الحصار المفروض على إسطنبول ونظّم صفوف جيشِهِ وقام بحملةٍ عسكريّةٍ على أخيه "محمد شلبي"، وانتصر عليه مجدّدًا.

لم يفقد "محمد شلبي" عزيمتَه وهمّتَه على الرغم من خسارته أمام أخيه، واستمرّ في طريقه لأن عدد المؤيّدين له كان يزداد تدريجيًّا، وأعدَّ جيشًا من جديد قوامه ثلاثون ألف جنديّ، وحمل على "موسى شلبي" في "رُومَلِي"، حتى وصل إلى مشارف مدينة "أدرنه"، ولم يستطع أهالي "أدرنه" أن يُظهِروا ولاءهم لأيٍّ من الأخوين وفضلوا أن يكونوا محايدين.

وقبل أن تضع الحرب أوزارَها انضمّ بعضُ قادة "موسى شلبي" إلى صفوف جيش "محمد شلبى"، وخاصة عندما انضمّت وحداتُ الصرب إلى جيش "محمّد شلبي" ازداد الخِناق على "موسى شلبي".

ولا شكّ أن المنتصِر في هذه المعركة التي جمعت بين الأخوين سيحقّ له اعتلاء العرش دون مُنازع، ولهذا السبب فإن هذه المعركة التي وقعت بالقرب من "سموقوف (*Samokov*)" قد تتميّز بأنها المعركة الضارية الساحقة وعلى أرضِها تحدّد السلطان العثمانيّ.

انتصر "محمد شلبي" في هذه المعركة وتُوِّج سلطانًا على الدولة العثمانيّة وحاكمًا على الأناضول و"رُومَلِي"، وأُعدِم "موسى شلبي" في الخامس من يوليو/تموز عام (١٤١٣م) من أجل الحيلولة دون وقوعِ صراعٍ جديدٍ على العرش والسلطة.

وهكذا فإن فترة الاضطرابات التي بدأت بهزيمة الإمبراطوريّة العثمانيّة في معركة "أنقرة" والتي نستطيع أن نطلق عليها "فترة خلو السلطنة" قد انتهت، فكانت الجهود والتضحيات المبذولة في سبيل هذا الوطن قد آتت أكلها، وكأن الدولة العثمانية قد وُلدت من جديد.

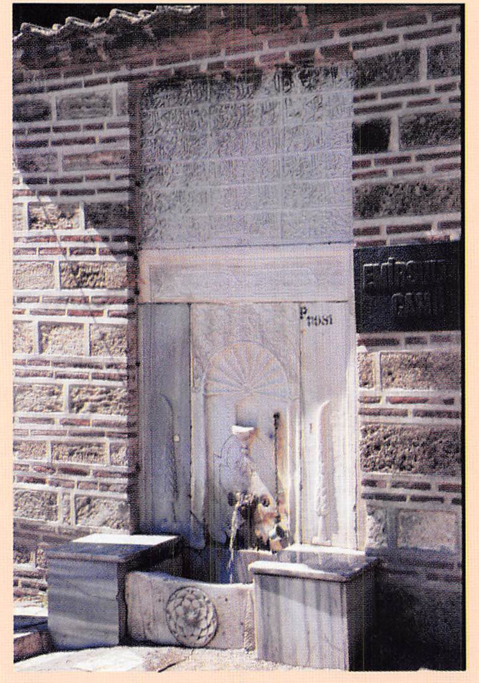
أقرّ كثيرٌ من المؤرّخين بأن السياسة الحكيمة التي اتبعها "محمد شلبي" قد لعِبت دورًا مهمًّا في القضاء على الصراعات الداخلية والاضرابات التي عمّت أرجاء الدولة العثمانية ما يقرب من عشر سنوات، مع أننا لا يمكننا أن نغضّ الطرف عن أن الأسس القويّة التي بُنيت عليها الدولة العثمانية لها المكانة الفضلى في القضاء على هذه النزاعات والعقبات، أضف إلى ذلك أن كثيرًا من المؤرخين القدامى والمعاصرين عبّروا عن شدة انبهارهم وذهولهم حيال استعادة الدولة العثمانية عافيَتَها وقُدْرَتها من جديد في ثوب إمبراطوريّة عظيمةٍ بعد عقدٍ من الزمن عانت فيه ما عانت من الفوضى والصراعات الداخلية.

"خير الأمور أوسطها"

وعندما علم السلطان "شاهروخ بن تيمور" خبرَ مقتل "موسى شلبي" واعتلاء "محمد شلبى" على العرش أرسلَ خطابًا شديد اللهجة إلى السلطان محمد، إلا أن "محمد شلبي" -الذي كان ناضجًا ومتسامحًا وواضعًا تأسيسَ الدولة غايةً أسمى من أيّ شيء- لم يُعر هذا الخطاب اهتمامًا، وإنما ردّ عليه برسالةٍ شرح فيها الوضع بالتفصيل.

كان "محمد شلبي" يختلف عن والده حيث كان يتعامل مع المشكلات التي يواجهها بعقلانيّةٍ وتدبّرٍ، وبذلك استطاع التغلّب على الكثير من المشاكل قبل أن يتفاقم خطرها.

فقد العثمانيّون قوّتهم ولم يُحرزوا أيّ تقدُّم وتخلّفوا متردّين في براثن الضياع والشتات -بسبب احتلال "تيمور" الذي استمرّ أحد عشر عامًا- فضلًا عن الصراع بين الإخوة والصراعات الداخليّة المؤسفة التي أسفرت عن تراجع قوة وهيمنة الدولة العثمانية في تلك الحقبة الزمنية.



سبيل مياه يعود إلى العصر العثماني،
مدينة "بورصة" - تركيا

كان هناك من حكّام الأناضول من يرغب في استغلال ضعف الدولة العثمانيّة للنيل منها، وكان في طليعة هؤلاء حاكم "بني قرمان"؛ حيث همّ بالاستيلاء على مدينة "بورصة"، راغبًا في نبشِ قبر السلطان "بايزيد" وتفتيت رفاته.

ويجب علينا أن نؤكّد أنه لم تنتهز أيُّ دولةٍ مسيحيّة أوروبّية فرصة ضعف الدولة العثمانيّة -بعد معركة "أنقرة"- لتنقضَّ عليها وتستأصل شأفتها، لأنّهم كانوا يؤمنون بعدالةِ وسماحة الدولة العثمانيّة وقلة توفّر مثل مبادئها وأسسها بين باقي الدول، وكانوا قد علموا هذه الحقيقة بسبب التجارب المريرة التي عاشوها، فأظهروا وفاءهم للعثمانيين الذين ظلّوا مرتبطين بهم في أكثر الأوقات صعوبةً، وقدّموا لهم الشكر بشكلٍ غير مباشر.

عودة السلام والهدوء والأيام الجميلة

لم ينته الأمر بانتهاء الصراع على العرش وإخماد الاضطرابات الداخلية وانقضاء تلك الحقبة الزمنية التي تسمى فترة "خلوّ السلطنة" فقد كانت هناك حاجة ماسة لحل المشكلات التي يعاني منها الدولة والشعب.

وقد قرر السلطان "محمد شلبي" -الذي فكر في هذا الأمر مليًا- عقد صلحٍ مع الدول التي يحاربها منذ زمن طويل، ولهذا السبب عامل الرسلَ الذين جاؤوا لتهنئته بالجلوس على العرش معاملةً حسنةً تنمّ عن حكمةٍ وتعقّل، كما أعاد إلى الإمبراطور البيزنطي "مانويل" الأماكن التي تمّ الاستيلاء عليها في نواحي "سَالُونِيكْ" وسواحل مرمرة والبحر الأسود في عهد أخيه "موسى شلبي"، بالإضافة إلى أنه وقّع اتّفاقيّات جديدة معه.

"إزمير"... وبداية جديدة

كان "سليمان شلبي" قد استولى على "إزمير" بدعم كبير من "تيمور" في وقت كان يتمتّع فيه بالقوة وشدّة البأس، ولكن عندما توقف "سليمان شلبي" عن استكمال انتصاراته؛ انتهز حاكم "بني آيدين" الفرصةَ واستولى على "إزمير".

وقد قرر "جنيد بك" عندما علم اعتلاء "محمد شلبي" العرش العثماني تقديم فروض الولاء والطاعة لـ"محمد شلبي" نفاقًا ورياءً بعد أن رأى ما أنجزه من انتصارات للدولة العثمانية، غير أن هذه الخطوة تستند في حدّ ذاتها إلى مصالحه الشخصية البحتة، إذ كان يسعى في الخفاء للنيل من دولة العثمانية كلّما سنحت له الفرصة، ولا يكتفي بذلك بل يدعم خفيةً كل الأنشطة المضادة والمناهضة لـ"محمد شلبي" ودولته.

ولما شعر السلطان "محمد شلبي" بذلك أصدرَ أوامره إلى جيشه بالتحرك صوب "إزمير" لفرض الحصار عليها والقضاء على فتنة "جنيد بك" من جذورها.

واستمر حصار "إزمير" لمدة عشرة أيام في عام (١٤١٤م)، واستسلم "جنيد بك"، وطلب العفو من محمد وأعرب للسلطان عن شعوره بالندم.

وعفا "محمد شلبي" عن "جنيد بك"، وتفضّل عليه بتعيينه في وظيفة إمارة سنجق "نِغْبُولُو"، وكان هذا التفضّل الذي قام به "محمد شلبي" عادةً تُطبّق في الدولة العثمانية آنذاك؛ وهي إظهار الاحترام والاهتمام بالملوك والحكام والقادة المهمّين والتصرف بشكل مناسب ودبلوماسيٍّ إزاء مواقعهم السابقة...

وقد ضربت الدولة العثمانية أروع الأمثلة في العدل والمساواة وحماية حقوق الغير وغير ذلك من الفضائل إبان محاصرة "إزمير" إلى جانب ما أظهرته من قوّةٍ عظيمةٍ أمام أسوار المدينة، ممّا أثر ذلك كثيرًا في نفوس مسيحي هذه المدينة، والدليل على ذلك أن سفراء مستعمرات "جنوة" من جزر "مدللي" و"فُوجَا" و"صقيز" أعلنوا عن ولاء بلادهم للدولة العثمانية، وفي مقابل ذلك وافقت الدولة العثمانية على هذا العرض مقابل دفع الجزية.

وفي هذه الأثناء لَحِقَت إمارة "بني منتشه" -التي تنتمي إلى أصول تركيّةٍ- نفس الطريق حيث أعلَنَت تبعيّتها للعثمانيين، وقام "إلياس" حاكم "بني منتشه" بوضع اسم السلطان العثماني على العملات التي أمر بسكّها عام (١٤١٥م).

وبعد فترةٍ أعلنت كذلك إمارة "بني تكه" ولاءها للدولة العثمانية بمحض إرادتها وحرّية اختيارها، وهكذا اتسعت رقعة الدولة العثمانية بعد فتح "إزمير" وإعلان عددٍ من الإمارات التركية والدول المسيحية في المنطقة ولاءهم للدولة العثمانية.



مدينة "إزمير" قديمًا - تركيا

خدعة "بنو قرمان"

كانت إمارة "بنو قرمان" تشكّل عقبةً أمام العثمانيين منذ تأسيسها وكانت هذه الإمارة دائمًا ما تُثير المتاعب لهم، وتُثيرُ حيالهم القلاقل والمشاكل، ولم تفلح معهم مبادرات السلام وروابط المصاهرة والصداقة.

وفي ظلّ الصراعات التي نشبت بين أولياء العهد خلت الأناضول من القوّة العسكريّة ممّا هيأ المناخ المناسب لـ"بني قرمان" في دخول "بورصة" وسلْب ممتلكاتها ونهبِ خيراتها ولم يتوقّفوا عند هذا الحدّ بل تجرّؤوا على نبش قبر "بايزيد".

وفي نهاية المشاورات التي أجراها السلطان "محمد شلبي" مع المقربين له قرّر التحرّك مع جيشه صوب أراضي "بني قرمان" للقضاء عليهم، وفي بداية خريف عام (١٤١٤م) حصل على مساعدةٍ عسكريّةٍ من إمارات "بني جَرْمِيانْ وجاندار" فاتّجه "محمد شلبي" على الفور إلى وسط الأناضول، وفي أول مرحلة استسلمت "آق شهير" دون وقوع قتال قطّ، وتمت محاصرة "قونية".

واشتعلت معركةٌ شرسةٌ في المكان الذي يُطلق عليه "أورتاجاهي (*Ortacahî*)"، وهزم "بنو قرمان"، ولكن الجيش العثماني تكبّد خسائر كبيرةً أيضًا بقيادة "محمد شلبي" في هذه المعركة، والأمر الذي يثير الاهتمام في هذه الواقعة أن كلا الدولتين يُدعى حاكمهما بمحمد وبالإضافة إلى ذلك فإن "محمد الثاني" حاكم "بني قرمان" هو ابن عمة "محمد شلبي".

واعتقد "محمد شلبي" -الذي لاحظ أن شهور الشتاء قد اقتربت- أنه من الأنسب عقدُ معاهدة سلام مع "بني قرمان" من أجل حقن الدماء، فرفع الحصار عن مدينة "قونية"، إلا أنّ "بني قرمان" لم يتوقّفوا عن العدوان ضدّ الدولة العثمانية على الرغم من هزيمتهم أمامها، حيث قامت قوات "بني قرمان" بشنّ هجمات على مدينتي "سيدي شهير" و"آق شهير" اللتين فقدتهما إثر هزيمتهم أمام العثمانيين.

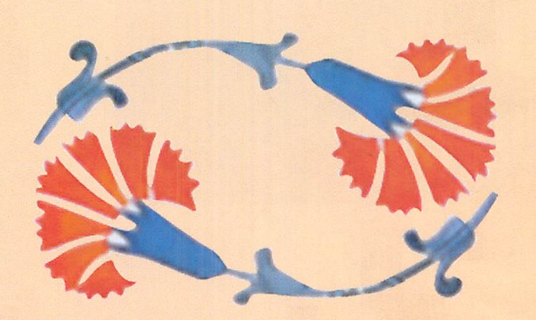
وعندما تفشّت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان "محمد شلبي" تعجّب واستغرب من تصرّفات "بني قرمان"، ثمّ قام بحملةٍ جديدةٍ عليهم خلال الأسابيع الأولى من الربيع، وهُزم "محمد بك" حاكم "بني قرمان" في المعركة مرّةً أخرى، بل إنه بعد الهزيمة وقع في شباك الأسر مع ابنه مصطفى وتمّ إحضاره بين يدي السلطان العثماني.

وقال السلطان "محمد شلبي" لنظيره "محمد بك":

- أريد منك أن تعدني بأنك لن تظلم الناس مرّةً أخرى!

فقال "محمد الثاني" الذي أحنى رأسه أمامه:

- الأمر لك أيها السلطان، أعدك بذلك!.



وطلب منه السلطان "محمد شلبي" أن يوقّع على اتفاقية مشتركة بين البلدين ضمانًا لمدى مصداقيته في طلب السلام، وبموجب الاتفاق فإن الأماكن التي استولى عليها "محمد شلبي" بما في ذلك "قيرشهير" و"آق شهير" تظلّ في يد العثمانيين، وبالإضافة إلى ذلك فإن حاكم "بني قرمان" سيرسل إلى السلطان جنوده متى طلب منه ذلك، وقد ورد أن حاكم "بني قرمان" قال لأحد أصدقائه الذين كانوا معه في اليوم الذي وقع فيه الاتفاقية ما يلي: "اعلم أن عداوتنا لأبناء عثمان سوف تستمرّ حتى يوم القيامة!".

التوجّه إلى أوروبا و"البوسنة" و"مولدافيا" من جديد

في خضمّ تلك الأحداث في الأناضول فإن السلطان "محمد شلبي" لم يغب عن ذهنه مطلقًا التوجّه إلى أوروبا وفتح بلاد "البلقان".

وقد سعى السلطان "محمد شلبي" في ذلك الوقت إلى توطيد العلاقات السلمية مع العالم المسيحيّ، لما يتميّز به "محمد شلبي" من هدوءِ طبعٍ وميلٍ إلى العيش في سلام، ومن المعروف أنه ليس كلّ الناس على هذه الشاكلة، وفي الواقع فإن المؤيّدين "لمذهب بوغوميل"[31] الذي انتشر بين المسيحيين في أوروبا آنذاك كانوا يتعرّضون للاضطهاد من قبل الكاثوليك، حتى وصل الأمر إلى إجبار ملك كرواتيا "هرقوي" على اعتناق المذهب الكاثوليكي وعندئذٍ قام العثمانيون بالتدخّل لحل تلك المشكلة التي بدأت تتفاقم يومًا بعد يوم.

وقد طلب "هرقوي" المساعدة رسميًّا من "محمد شلبي"، فأرسل السلطان العثماني -الذي لم يستطع أن يتجاهل طلب المساعدة- "أُورَانُوسْ زاده بك" إلى "البوسنة"، كما دخل "إسحاق باشا" أراضي "كرواتيا" عبر نهر "صاوه"، وعندما حاول "سيجيسموند" ملك المجر إيقافه -والذي أراد الاستيلاء على البوسنة- بدأ الاشتباك معه في المنطقة التي يُطلَق عليها اسم "دوبوج" ودارت هناك معركة شرسة بين الجيشين.

وهزم "سيجيسموند" هزيمة نكراء أمام القوات العثمانية، ودخلت "سراييفو" -عاصمة البوسنة والهرسك- تحت الحكم العثماني، وبعد فترة قصيرة سقط "إسحاق بك" شهيدًا عندما كان متجهًا إلى مدينة "طمشور".

(٣١) **حركة البوغوميل**: هي مذهب غنوصي، مركب من حركتي الإصلاح البوليشيانية الأرمينية والكنيسة الأرثوذكسية البلغارية، التي ظهرت في بلغاريا بين (٩٢٧-٩٧٠م)، وانتشرت داخل الإمبراطورية البيزنطية، روسيا الكييفية، صربيا، البوسنة، كرواتيا، إيطاليا وفرنسا، ظهرت هذه الحركة الاجتماعية الدينية المذهبية الغنوصية، الميتة الآن، زمن ملك بلغاريا بيتر الأول (٩٦٩-٩٢٧م) كردة فعل ضد الاضطهاد المدني والكهنوتي التي قامت به الكنيسة البيزنطية ضدهم، ورغم كل ألوان الاضطهاد، ظلت قوية وذات شعبية حتى سقوط بلغاريا نهاية القرن الرابع عشر، كانت البوغوميلية ناتج طبيعي لعدة عوامل ظهرت حتى بداية القرن العاشر الميلادي، أنتجت حركة النصرنة القسرية لشعوب السلاف والبلغار الأصليين على يد "تسار بوريس الأول (*Tsar Boris I*)" سنة (٨٦٣م).

ولـم يسـتطع "ميرجه" حاكم أفلاق -الـذي ظلّ كضيفٍ خاصّ في القصور العثمانية لسـنواتٍ عديدةٍ وزوّج ابنته للأمير موسـى بـن بايزيـد- أن يتأقلمَ مـع العثمانيين إطلاقًا فضلًا عـن أن يحبّهم، فقد كان يرغب في التخلّص من الحكم العثماني والضرائب المفروضة عليه وذلك من خلال تلقّي الدعم من "سيجسموند" ملك "المجر".

وقد اسـتخدم "سيجيسـموند" -الذي كان يحلم بالاسـتيلاء على "البلقان" منذ سـنوات- "ميرجه"، وكان يفكّر منذ وقت في تعزيز قوّته ضدّ العثمانيين.

وبدأ السلطان "محمد شلبي" -الذي علم بهذه العلاقات من خلال جواسيسه- البحثَ عن سبل لاتّخاذ التدابير اللازمة لمنع ذلك، لأنه لن يستطيع أن يبقى متفرّجًا والخطر قادمٌ إليه.

وفي عام (١٤١٦م) سنحت لـ"محمد شلبي" الفرصة التي كان يترقّبها منذ حين، إذ كان "دان" -أحد أقارب "ميرجه"- يريد أن يتولى حكْمَ "الأفلاق"، وكانت العَقَبَة الوحيدة أمامه هي "ميرجه"، وكان العثمانيون وحدهم هم من يستطيعون إزالة تلك العقبة، فبادر "دان" إلى مقابلة السلطان "محمد شلبي" للتشاور معه في هذه المسألة.

وفي نهاية اللقاء وعد السلطان "محمد شلبي" بتقديم المساعدة لـ"دان" من أجل تحقيق أهدافه، ولكن ملك "المجر" علم بما جرى بين السـلطان "محمد شـلبي" و"دان" فأرسـل خطابًا إلى السلطان العثماني قال فيه: "إن "ميرجه" هو رجل مخلص للدولة العثمانية، وقد ظلّ بجانبكم لسنوات، وهو يدفـع الجزية لكم، فعليكم أن تساعدوا "ميرجه" بدلًا من "دان".

وبنـاءً علـى ذلـك: فقد اختلط الحابل بالنابل لدى السـلطان، وأخذ "محمد شـلبي" -الذي رفض طلب "سيجيسـموند" بسبب مساعدة ميرجه قبل ذلك لموسى شلبي- في القيام بالاستعداد للحملة ضده، وأرسل"محمد شلبي" إلى إمارات "بني جاندار" و"بني قرمان" خطاباتٍ طلب فيها إرسـال الجنود، وتحرك دون أن يضيـع الوقت، وعبر نهر الدانوب، ووصل إلى أفلاق -"رومانيا" حاليًا-.

فتمركزت وحدةٌ عسـكريّة من الجيش المجريّ بقيادة "سـتيفان لوسـونز" في "أفلاق" بناءً على أوامر ملك المجر، ومن جهة أخرى فإن الوحدات التابعة لـ"ميرجه" كانت تترقّب وصول الجيش العثماني بفارغ الصبر وتنتظره في نفس المكان.

وقد حقق "دان" الذى يدعمه العثمانيون نصرًا مؤزّرًا على "ميرجه" الذي يدعمه المجريون.

لم يكن النصر في المعركة هو المكسب الوحيد من تلك الحملة وإنما استطاع العثمانيون الاستيلاء على منطقة "جورجيو (*Giurgiu*)" ومنطقـة "تورنـو (*Turnu*)" الواقعتيـن علـى الطريـق المؤدّية إلى البلقـان، والتي تُعتبَر من أهـمّ النقاط الحدوديّة الجمركيّـة الفاصلـة بيـن "رومانيا" و"بلغاريا" فـي وقتنا الحالي، وهكذا اقترب الأتراك حوالي ستين كم٢ من "بوخارسـت (*Bucharest*)"، هذا وقد واصل السلطان "محمد شلبي" طريقه، حتى وصل إلى مشارف مدينة "دوبروجه".

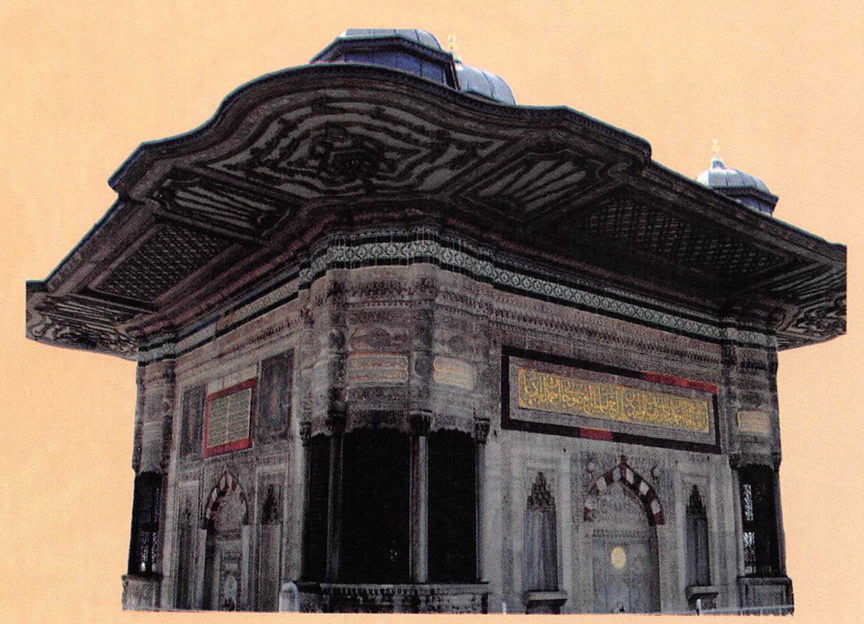
وقد بدأ الرعب يتسلّل إلى قلب "ميرجه" فأعلن موافقته حينئذٍ على عقد معاهدةٍ للسلام مع العثمانيين دون أي شروطٍ مسبقة، كما وافق "ميرجه" على أن يدفع ثلاثة آلاف دوقة ذهبية في السنة بمقتضى الاتفاقية التي عُقدت مع العثمانيين، وبالإضافة إلى ذلك فإنه بموجب ذلك الاتّفاق فإن ابنه سيظلّ رهينةً في البلاط العثمانيّ لأجلٍ غير مسمّى، بدءًا من عام (١٤١٧م)...

وهكذا اقترب الأتراك من الأراضي "مولدافيا"، وبعد فترةٍ من الوقت انتقلت "مولدافيا" أيضًا إلى سيطرة العثمانيّين، وحوصرت كذلك في تلك الفترة مدينة "آق قرمان" التي تقع ضمن مقاطعة "أوديسكا" في "أوكرانيا" الحالية.

وفي هذه الأثناء توفي "ميرجه" بعد أن طعن في السن، وكان ابنه "ميخائيل" الذي خلفه يتميّز بشخصيّة متعجرفةٍ لا تثق بأحدٍ أبدًا، وأعلن أنه لن يدفع الجزية للعثمانيين ونظم هجمات على الأراضي العثمانية، ولكن أثناء إحدى هذه الهجمات لقي حتفه، وبناء على ذلك؛ أعلن "محمد شلبي" "ألكسندرو" -الابن الآخر لـ"ميرجه"- واليًا على "أفلاق" خلفًا له.

وفي غضون ذلك قام الجنود العثمانيون ببضع حملات أخرى على "ألبانيا" و"المجر" و"ترانسلفانيا"، وفي نهاية هذه الحملات استطاع العثمانيون ضم المناطق المهمّة في ذلك الوقت مثل "آقجه حصار" الواقعة في ألبانيا و"براشوف (*Brasov*)" -الواقعة ضمن حدود "رومانيا" اليوم- إلى الأراضي العثمانية.

وبحلول عام (١٤٢٠م) بسط العثمانيون سيطرتَهم على "البلقان" و"الأدريتيك" حيث بدؤوا يتحكّمون في التوازن السياسيّ في المنطقة.



وعندما كانت تذكر كلمة "عثماني" في ذلك الوقت لا يتبادر إلى الذهن مفهوم الدولة فحسب، وإنما تمثل هذه الكلمة القوة العسكرية والإنسانية والحضارة المدنية والثقافة والعلم وغير ذلك من المفاهيم الحميدة.

وقد أصبحت كل قوى المنطقة وعلى رأسها "الألبان" الذين يُعرفون بمهارتهم في فنون القتال عاجزين أمام العثمانيين، ونتيجة لذلك فقد وافقوا على دفع الجزية للدولة العثمانية مقابل مواصلة حياتهم في أمن واستقرار.

أول معركةٍ بحريّةٍ خاضها العثمانيّون ضدّ البندقية

من الأحداث المهمّة في التاريخ العثمانيّ مهاجمة قائد البحرية العثمانية "جلي بك" بأسطول يضمّ ثلاثين سفينة حربية الجزرَ التابعة للبندقية -والتي تُسمى جزر "كيكلادس (*Cyclades*)"- وهذه الجزر هي "أندروس (*Andros*)" و"باروس (*Paros*)" و"ناكسوس (*Naxos*)" و"ميلوس (*Milos*)" و"وابية" وذلك بعد تلقّيه أوامر من السلطان بخصوص هذا الأمر.

وفي واقع الأمر فإن علاقات العثمانيين والبنادقة كانت قبل ذلك تسير بشكل جيّدٍ، إلّا أنّ البنادقة بدؤوا يقومون بأعمال نهبٍ وسرقات وقرصنة في عرض البحر وقوضوا أمن البحر.

وبعد أن هاجم "جلي بك" الجزر التابعة للبندقية تحرّك أميرال البحر "بترو لوريدانو (*Pietro Loredan*)" البدقي الأصل للهجوم على العثمانيين، وفي مايو/أيار (١٤١٦م) نشبت أوّل معركةٍ بحرية بين الطرفين.

وكانت بحرية البندقية أكثر تطوّرًا من البحرية العثمانية من حيث القوّة والعتاد، مما أدّى إلى استشهاد قائد البحرية العثمانية "جلي بك" وهزيمة أسطوله أمام البحرية البندقية، ولكن الأميرال "بترو" كان قد أصيب هو الآخر بجروح غائرة ممّا أجبر البنادقة على الانسحاب من المعركة.

وقد تكبّد كلا الطرفين خسائر فادحة، ثمّ أُبرمت معاهدة السلام بين الطرفين بوساطةٍ "بيزنطية"، وفي عام (١٤١٧م) أرسل السلطان العثماني رسولًا إلى البندقية من أجل عقد الهدنة، لأن العثمانيين اهتموا بأمان البحر وسلامه بقدر ما اهتموا بالتجارة الدولية، ومع أن الأدميرال "بترو" قد هاجم مضيق "الدردنيل" مرّة أخرى في العام التالي إلا أن السلام قد تحقّق من جديد بوساطة "بيزنطة".



العودة إلى الأناضول مرّة أخرى

كلّما توجّه الحكام العثمانيّون صوب أوروبا ووسّعوا رقعة أراضيهم ونشروا العدل والمساواة بين شعوب تلك المناطق أكثر؛ كلما كانوا يعيشون حالةً من الارتباك والقلق حيال الأخبار السيئة التي تردهم من الأناضول، حيث إن حكام الأناضول كانوا يستغلّون انشغال العثمانيين بالفتوحات لتحقيق مآربهم الدنيئة، ناكثين وعودهم التي قطعوها مع الدولة العثمانية ويقومون بالاعتداء على المناطق الخاضعة للعثمانيين مما يؤدّي إلى زعزعة الاستقرار في تلك المناطق.

وقد عاش العثمانيون أصعب مراحل تاريخهم بسبب معركة "أنقرة" وما لحقها من نزاع الأمراء فيما بعد، وقد هاجم حاكمي "بني قرمان" و"بني جاندار" -اللذين استفادا من تلك الحالة المزرية للدولة العثمانية- الأراضي العثمانية عدة مرات، ونجحا في الاستيلاء على بعض المدن، ونهبا كلّ ما هو موجودٌ في أيدي الناس.

إن تحقيق الأمن والاستقرار في الأراضي التي كان يحكمها أمراء الأناضول قد ألقى على عاتق السلاطين العثمانيين مرّةً أخرى، حيث إن العثمانيين كانوا هم الملاذ الوحيد بالنسبة لأمراء الأناضول عندما تتفاقم المشكلات لديهم، رغم أنّهم يكيدون المكائد ضدّ العثمانيين كلّما أتيحت لهم الفرصة.

والمثير للاهتمام في هذا الأمر أن حكّام الأناضول لم يستوعبوا الدروس والعبر من تلك الأحداث المتشابهة التي تكرّرت مرات ومرّات.

فقد مل الأهالي وسئِموا من انتقالهم من ظل حاكمٍ إلى آخر ما بين كلّ عام وآخر، وعمّ الضرر والمعاناة على الجميع سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين.

"محمد شلبي" في "سامسون"

قام السلطان شلبي محمد بتنظيم حملةٍ إلى "قسطمونو" و"سفرنبلو (*Safranbolu*)" و"طوسيا (*Tosya*) و"جانقيري" و"سِينُوبْ "، وأعاد النظام إلى تلك الأماكن مرّة أخرى، ثم اتّجه إلى مدينة "سامسون".

ومع أن "قباد أوغلو" قد نجح في استعادة "سامسون" التي كانت في حوزته في وقتٍ سابقٍ إلا أنّ "إسكندر بك" حاكم "بني جاندار" قد احتلّ المدينة، وعيّن ابنه "خضر" واليًا عليها.

وأرسل السلطان "محمد شلبي" "بيجر بن حمزة بك" -معلم الأمير مراد الثاني- إلى "سامسون" على رأس قوّةٍ عسكريّةٍ تمهّد الطريق أمام الجيش.

كان نصف سكّان مدينة "سامسون" من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين، حيث سبق أن فتحَها العثمانيون في وقت سابق عام (١٣٩٨م).

وفي البداية اتّجه "بيجر بن حمزة بك" إلى المنطقة التي كانت مستعمرةً لـ"جنوة" في "سامسون"، واستولى على الجانب المسيحي من المدينة دون مقاومة، وضمّ "محمد شلبي" الذي جاء في وقتٍ لاحقٍ النصف الآخر الذي يعيش فيه المسلمون إلى الأراضي العثمانية.

وقد قام "خضر بك" -الذي أهداه والده "إسكندر" حكم "سامسون"- بتسليم المدينة إلى "محمد شلبي" دون مقاومة، وذلك لعدم قدرته على مناهضة ومقاومة العثمانيين، وكانت "سامسون" في ذلك الوقت قد بدأت تفقد أهمّيّتها التجارية نتيجة دمارٍ وخراب إثر الحريق الذي نشب في المدينة، إلا أن ميناءها قد جعلها من أهم مراكز التجارة في المنطقة، أضف إلى ذلك أنّ ضمّ "محمد شلبي" هذه المدينة إلى الأراضي العثمانية قد خلقَ مناخًا آمنًا في المنطقة برمّتها.

حادثة تمرّد "الشيخ بدر الدين"

إن حادثة "الشيخ بدر الدين" لا تُعدّ واحدةً من أهمّ الحوادث في فترة حكم محمد شلبي فقط بل بلغ تأثيرها القرون اللاحقة، وهذه الحادثة تُعدّ حركة التمرّد الثانية في عهد "محمد شلبي".

وكان الشيخ "بدر الدين بن إسرائيل" المولود في مركز "سيماونة" الواقعة في مدينة "أدرنه" قد تلقّى تعليمًا جيّدًا بفضل أبيه، وقد تلقّى دراسته في مدارس المعلمين الممتازين في المدن التي تطوّر فيها العلم مثل "بورصة" و"قونية" ودمشق والقاهرة و"تبريز"، وقد استطاع أن يهزم علماء "تيمور" في المناظرة، ولكنه كان يمتلكُ أفكارًا حديثة لا تتلاءم مع الفكر الإسلامي الحنيف وكان يحاول نشرها وحتى إنه كان يحاول تأسيسَ دولةٍ جديدةٍ تعتمد على هذه الأفكار.

وفي البداية فاز بثقة "موسى شلبي" فقلّده منصبَ "قاضي القضاة"، وبعد وفاة "موسى شلبي" واعتلاء "محمد شلبي" عرشَ السلطنة؛ بدأ الشيخ بدر الدين -الذي أُعفي من منصبه- ينشرُ أفكارًا فاسدةً ممّا جعله هدفًا أمام سهام النقد من قبل علماء عصره، وكان يتلقّى دعمًا متواصلًا من قِبَلِ أعداء العثمانيّين في الخفاء.

وكان السلطان "محمد شلبي" قد أمر بمتابعة -عن كثبٍ- الشيخ بدر الدين الذي أصبح خطرًا ليس بسبب أفكاره فقط وإنما بسبب أنشطته المدمّرة التي كانت تستهدف هدم كيان الدولة العثمانية، وكان الشيخ بدر الدين يركز بشكل خاص على التأثير على البدو الرُّحل الذين يسهل خداعهم واقناعهم بسبب أمية أغلبهم، وكان يعارض كلّ أنظمة الحكم في تلك الآونة، ويمتلك مقدرةً لجذب الجماهير بصفته رجلَ دينٍ وكبيرًا للقضاة.

وعندما أدرك أنه لن يستطيع ترسيخ فكرته في الأناضول انتقل إلى "أدرنه"، وكان بمقدور "محمد شلبي" القضاء على الشيخ بدر الدين، إلا أنه رأى أن فكرة القضاء عليه ستجعل منه بطلًا قوميًّا في نظر الشعب، وبالتالي ستلقى أفكارُه رواجًا بين عامة الناس، ولذلك فضل السلطان محمد شلبي وضعه تحت الإقامة الجبرية في "إِزْنِيكْ"، ولكن الشيخ بدر الدين لم يتوان عن نشر أفكاره هناك، وبدأ في إثارة الفتن في المدينة، وقد لجأ الشيخ بدر الدين إلى "إسفندر بك (*Isfendiyar*)"

خوفًا على حياته، إلا أن "إسفندر بك" لم يعره أيّ اهتمامٍ، وعقب ذلك توجّه بدر الدين إلى مدينة "سينوب" ومنها إلى "رُومَلِي" عبر البحر خلسةً.

وعندما أدرك أنه لن يتمكّن من تلقّي الدعم اللازم من حكام المسلمين، طلب المساعدة من حاكم "أفلاق" فساعده، وبدأ بدر الدين في التجول في "زاغورا (*Zagora*)" و"سِلِيسْتْرَا" و"دبروجه"، وجمع المؤيدين له، ثم قرر الاستيطان في منطقة التي تسمى "دلي أورمان"، وقد شجعه على ذلك كثرة المؤيدين له هناك.

وكان الشيخ بدر الدين -الذي تلقّى تعليمًا جيّدًا في العلوم الإسلامية- يقوم بتفسيرات خاطئة مضللة حتى يستطيع أن يجعل من هذه المعلومات أداةً لأفكاره المنحرفة، وهكذا كان الشيخ بدر الدين يبذل قصارى جهده من أجل تحريض الناس على التمرّد ضدّ الدولة العثمانية ناثرًا الفتن والشائعات المناهضة للنظام القائم، وبطبيعة الحال كان هذا تيارًا في غاية الخطورة بالنسبة للمجتمع العثمانيّ الذي يضمّ أناسًا ذوي مستوى تعليميٍّ منخفضٍ وأممًا مختلفةً يعتنقون دياناتٍ مختلفةً.


صورة تخيلية تصور الشيخ "بدر الدين"

وكانت أفكار بدر الدين تتلخص في: "تغيير البنية الاجتماعية جذريًا، وإلغاء الملكية، وتقسيم الأملاك والأراضي بالتساوي واستخدامها بشكل مشترك، ويجب ألا يكون هناك فرق قط بين الأديان، بالإضافة إلى ذلك يجب ألا يقيد الناس أنفسهم بالحلال والحرام، وأن يكون لكل شخص حرية اختيار ما يحلو له في المسائل التي يواجهها في حياته اليومية".

وكانت مثل هذه الأفكار المناهضة للنظام والعقل تجد مؤيدين لها كما كان يحدث في كل مراحل التاريخ، وكان الشيخ بدر الدين يؤثر خاصة الطبقة غير المتعلمة والفقيرة من المجتمع، ولذلك فلقد بدأ يزدادُ يومًا بعد يومٍ عدد المؤيّدين له.

وأقنع المؤيدين له بأن هناك إشارةً إلهيّةً ستتجلّى عليه ذات يوم، وأنه سوف يتحرّك بمنطلق تلك الإشارة، ويؤسّس دولة الحرية، ولذلك فإن تدمير الدولة العثمانية مسألة وقت، ومن أجل ذلك فقد عمل الشيخ بدر الدين على تشكيل تنظيمٍ يدعم فكرَه وفي سبيل ذلك اتّخذ من مدينة "دلي أورمان" مركزًا له كما عين "بوكلوجه مصطفى" أحد مناصريه واليًا على شبه جزيرة "أورلا" كما كلّف "طورلاق كمال" يهودي الأصل بتحريض الناس ضدّ الدولة العثمانية في منطقة "مانيسه".

قطع رأس الحية

قام "بوكلوجه مصطفى" الذراع الأيمن للشيخ بدر الدين بإشعال فتيل التمرّد المنتظَر وقوعه بخمسة آلاف شخص بدعم من بعض أعداء الدولة العثمانية مثل زعيم المسيحيين في جزيرة "صاقيز".

ومضى المتمرّدون في بداية عملهم إلى "إسكندر بك" حاكم "إزمير" وقتلوه، أما "علي بك" حاكم "صاروخان" فقد نجا من القتل في آخر لحظة.

وبناءً على خطورة الوضع التي آل إليها الحال هناك؛ أرسل السلطان "محمد شلبي" الأميرَ "مراد" ابنه الأكبر الذي كان حاكمًا على "أماسيا" -السلطان مراد الثاني مستقبلًا- والصدرَ الأعظم "بايزيد باشا" إلى منطقة "إيجه"، وقد قضت القوّات العثمانية على المتمرّدين خلال بضعة أيام.

وقد أحيل "بوكلوجه مصطفى" إلى المحكمة بعد أن تمّ اعتقاله، وعندما أصرّ على آرائه المنحرفة أصدرت المحكمة الحكمَ عليه بالإعدام.

وهاجم الأمير "مراد" و"بايزيد باشا" المناطقَ بالقرب من "مانيسه" والتي يسيطر عليها "طورلاق كمال" والجنود التابعين له، وكان هذا الأخير قد أعلن تمرّده في وقتٍ سابقٍ على الدولة العثمانية في تلك المنطقة.

وفي السياق نفسه تمكن الجنود العثمانيّون من القبض على "طورلاق" ورجاله، وأصدرت المحكمة بعد النظر في قضيتهم حكم الإعدام في حقهم كسابقيهم، أما الشيخ بدر الدين فكان يناصره عدد غفير من الجنود الضالين والقادة القدامى الذين فقدوا مناصبهم الرفيعة بعد وفاة "موسى شلبي".

وقبض "بايزيد باشا" على الشيخ بدر الدين دون مقاومة تذكر، إذ تخلى عنه جميع مناصريه على خلاف ما كان يعتقد، ومَثُل الشيخ بدر الدين أمام السلطان "محمد شلبي" فاستمع إلى آرائه وأفكاره، ثمّ أمر بتشكيل وفدٍ يضمّ علماء ومفكّرين، يستمعوا إلى أفكاره ثم يُحاكموه محاكمةً عادلةً.

وفعلًا حقّقَ معه الوفد لعدة أيام، واستمع لبدر الدين بصبرٍ ورويّة، وفي النهاية سألوه قائلين:

- ماذا كنت ستفعل لو كنت في مكاننا يا بدر الدين؟

أجاب "الشيخ بدر الدين" قائلًا:

- كنت أحكم بالإعدام.

وهكذا انتهت المحكمة، حيث قرر الشيخ بدر الدين عقوبتَه بنفسه، وطُبِّقت عليه العقوبة التي أقرّها على نفسه أمام أحد الحوانيت في أحد أسواق مدينة "سيرس" الواقعة داخل حدود "مقدونيا" الحالية.

من تمرّد إلى تمرّد

سوف نتحدّث هنا عن تمرّد "مصطفى شلبي" أو المعروف في التاريخ باسم "دوزمجه مصطفى"...

كان "مصطفى شلبي" من أبناء السلطان "يلدريم بايزيد" قد وقع في الأسر في معركة "أنقرة" كما ذكرنا آنفًا، وهو ولي العهد الوحيد الذي أحضره "تيمور" إلى "أوزبكستان".

ومرّت عدّة سنوات وانقطعت أخبار "مصطفى شلبي" حتى لم يُعرَف إن كان حيًّا أم ميتًا، ولكنه ظهر فجأة في أحد الأيام، ولم يمر على القصر وأراضيه، ولم يشعر حتى بضرورة إخبار أخيه السلطان محمد بمجيئه، حيث اتّجه إلى أراضي "بني قرمان" ومن هناك إلى "رُومَلِي".

وبمرور الوقت اتّضح ما كان يرنو إليه "مصطفى شلبي"، ألا وهو اعتلاء العرش العثماني، وكما هو الحال دائمًا فإن الطيور على أشكالها تقع وبدأ يتلقى الدعم من "جنيد بك" حاكم "بني آيدين" الذي نسي الوعود التي قطعها مع السلطان "محمد شلبي" وأنه قد عينه حاكمًا على "نِغبُولُو"، وكذلك تلقّى دعمًا من حاكم "أفلاق"، وبدأ يجمع الناس حوله.

كان السلطان "محمد شلبي" على علمٍ تام بأن صراعات الأخوة على العرش تتسبّب بالعواقب الوخيمة التي تُؤدّي إلى انهيار الدولة، وليس الأمس ببعيد فقد عانت الدولة طوال أحد عشر عامًا من صراع الأخوة، ولذلك كان يجب عليه التحرك فورًا لاستئصال المشكلة من جذورها قبل أن تنمو وتتفاقم، ومضى "محمد شلبي" بسرعة إلى "رُومَلِي"، وهزم قوات "مصطفى شلبي" بعد أن حاصرها بالقرب من "سَالُونِيكْ"، ونجح مصطفى ومعاونيه "جنيد بك" حاكم "بني آيدين" في الفرار، ولجأ مصطفى شلبي إلى سَالُونِيكْ.

وقد أرسل "محمد شلبي" خطابًا إلى والي "سَالُونِيكْ" طالب فيه بتسليم أخيه مصطفى إلا أن الوالي رفض طلب السلطان وقال:

- إني لا أُسلِّم شخصًا لجأ إليّ.

وقد أجاب الإمبراطور البيزنطي "مانويل الثاني" إجابةً مماثلةً، ولكن أسلوبه كان يختلف عن أسلوب الوالي إلى حدٍّ ما، حيث قال:

- مولاي السلطان أعاهدك أنني لن أتخلّى عن مساندتك ولن أسمح لأحدٍ أن يزعزع استقرار الدولة العثمانية كما أنني لن أسمح لمصطفى شلبي وجنيد بك أن يشكّلا أيّ خطرٍ على الدولة العثمانية.

وقد رحب "محمد شلبي" بالموقف الذى اتخذه "مانويل" تجاه تلك المسألة، كما وافق على دفع مبلغٍ من المال قدره ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية في السنة لتلبية احتياجات أخيه ومعه ثلاثة وثلاثون شخصًا آخرين من مناصريه.

وأرسل "مصطفى شلبي" والوفد المرافق له فيما بعد إلى جزيرة "ليمنوس (*Lemnos*)" حتى يستطيع إحكام الرقابة عليهم.

وبعض المؤرخين رأوا أن "مصطفى شلبي" المذكور باسم "دوزمجه مصطفى" لم يكن ابنًا حقيقيًّا بالنسب لـ"يلدريم"، وإنّما هو ابنه بالتبنّي، إلا أن أغلب آراء المؤرّخين أجمعت على أنه ابنه الحقيقي، وقد سعد السلطان "محمد شلبي" لقضائه على الفتنة في مهدها بأفضل طريقة ممكنةٍ وقبل فوات الوقت.

وبعد هذه الأحداث عانى حاكم "أفلاق" من توتّرٍ كبيرٍ وضغوطٍ عثمانيّةٍ ثقيلة، حيث دفع ثمنًا باهظًا نتيجة خيانته للدولة العثمانية، إذ إنه نجا بنفسه من الموت إلا أن بلاده سقطت في قبضة المقاتلين العثمانيين إثر حملة عسكرة قامت بها العثمانيون على بلاده.

تحسن العلاقات مع "بيزنطة"

"وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا"، وقد نتجت حادثة "مصطفى شلبي" عن تحسين العلاقات الثنائيّة بين الدولة العثمانية والبيزنطيّة، حيث قام السلطان "محمد شلبي" بزيارةٍ رسميّةٍ إلى "بيزنطة"، وقد استقبله الشعب بحفاوةٍ كبيرةٍ عند مدخل إسطنبول وقدّموا له الهدايا القيمة والنفيسة، فالتقى "مانويل الثاني" و"محمد شلبي" في حي "بشيكطاش" على انفرادٍ لعدّة ساعات.


مدينة البندقية

وفي هذا الصدد يذكر عددٌ من المؤرخين البيزنطيين القدامى بعض الادعاءات المثيرة للجدل: ومن ذلك تردُّد بعض الأقاويل على لسان كبار رجال الدولة البيزنطية مفادُها: "لقد عانينا كثيرًا في الماضي من السلاطين العثمانيين، وعلينا أن نستغلّ فرصة مقدم أحدهم إلى بلدنا للمرة الأولى فنعتقله بحجّة أنه أساء في حقّ ملِكنا، وقد رفض الملك البيزنطي "مانويل الثاني" هذا الطلب الغريب والخطير والقبيح قائلًا:

"لا يليق شيءٌ مثل هذا الأمر بمملكتي، ولا أرضى أن يفسد ما بيننا إلى الأبد".

لم يكتف "مانويل الثاني" بذلك، بل إنه جاء حتى "أُسْكُودَارْ"، أي الأراضي العثمانية من أجل توديع السلطان وكأنه يعلّم

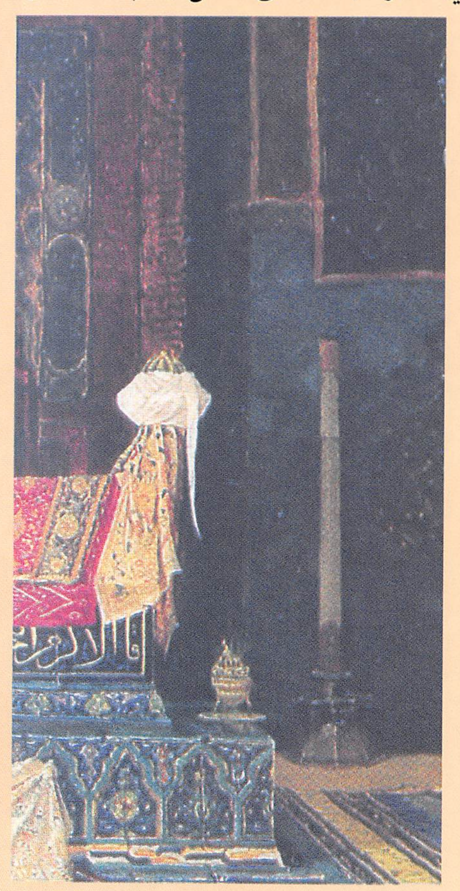
بطانتَه احترام المواثيق والوفاء بالوعود، وقد نالت المحادثات التي دارت في السفينة الحربية التابعة للدولة العثمانية رضا كلا الحاكمين.

وبعد أن انتهت مراسم الزيارة وبينما كان السلطان يسترخي لفترة من الوقت في الخيمة السلطانية التي نُصبت في "أُسْكُودَارْ" ركب إمبراطور "بيزنطة" زورقه الرائع وأبحرَ من "أُسْكُودَارْ" متجهًا إلى ساحل "بشيكطاش".

وقد خلّد هذا اللقاء الذي جمع كلًّا من الحاكمين "محمد شلبي" و"مانويل الثاني" ذكرياتٍ سارّةً جميلةً لدي شعبيهما.

وفاة السلطان "محمد شلبي"

وقد استطاعت الدولة العثمانية على يد "قَرَه دميرداش باشا زاده عمر بك" الذي أنجز مهمّته على أكمل وجهٍ أن تستردَّ كلًّا من مدن "قارتال (*Kartal*)" و"بنديك (*Pendik*)" و"جبزه (*Gebze*)" و"داريجه" و"هركه (*Hereke*)" الواقعة بالقرب من إسطنبول والتي سُلبت منها إثر معركة "أنقرة"، مما زاد من حدّة التوتر لدى الشعب البيزنطي حيال خوفهم من حصار إسطنبول مرّة أخرى من قِبل العثمانيين.


مشهد من داخل ضريح السلطان "محمد شلبي"

فأرسل محمد شلبي على الفور الرسالة التالية إلى الإمبراطور البيزنطي:

"لا أفكر في حصار إسطنبول على الاطلاق، وما أردناه هو استعادة الأراضي التي نُهبت منا إثر معركة "أنقرة" فقط، وهكذا سأحافظ على إرث أبي الراحل، وأطمئن جلالتكم أن إسطنبول لن تحاصَر ما دمتُ على العرش".

ومن المؤكّد أن هذه الضمانات التي ذكرها الرسول العثماني قد أحدثت حالةً من الفرح والسرور عمّت أرجاء "بيزنطة".

وفي مطلع الربيع اتجه السلطان محمد شلبي إلى "جَلِيبُولُو"، ومنها إلى "أدرنه"، فأصاب القلقُ مرة أخرى الإمبراطورَ البيزنطي الذي علم بذلك، ولكن هذه المرة أراد أن يفهم قصد السلطان بطريقةٍ رقيقةٍ جدًّا، وقال ما يلي في الرسالة التي نقلها الرسول الذي أرسله "مانويل الثاني" إلى السلطان "محمد شلبي":

"السلطان شلبي العظيم صديقي: تلقيتُ خبر رحلاتك، وعندما علمت أن رحلتكم كانت في غاية المتعة والسرور سعِدْتُ أنا أيضًا".

وبدوره ردّ السلطان "محمد شلبي" برسالة تتّسم بأسلوبٍ يبعث على الاطمئنان على غرار رسالة "مانويل"، وهكذا استمرّت الأيام الجميلة الهادئة التي تميّزت فيها العلاقات بحسن الجوار والرقّة في المشاعر الإنسانية المتبادلة...

وقد أصيب "محمد شلبي" في أحد الأيام أثناء رحلة الصيد بالشلل جراء إطلاقه رمحًا على خنزير بري كان يهرب منه، وعندما وصل إلى "أدرنه"، سقط من حصانه وهو فاقد الوعي، وبعد عرضه على الأطباء وتشخيصهم لمرضه، تبين أن السلطان أُصيب بالشلل، وقد حاول الأطباء علاجه إلا أن هذه المحاولات لم تجدِ نفعًا.

ومرت الأيام سراعًا، وكان السلطان يشعر بقرب ودنوّ أجله، وأن أيّامه في الحياة باتت معدودةً وأصدر أمرًا يُعَدُّ الأخير في حياته وهو إحضار نجله "مراد" إلى مدينة "بورصة"، من أجل اعتلاء عرش العثماني خلفًا له.

وفي ذلك الوقت كان "مراد بك" حاكمًا للسنجق في "أماسيا"، وكان لا يزال في السابعة عشرة من عمره.

وبناءً على أمر السلطان ذهب "ألوان بك" برفقةِ وفدٍ خاصّ رفيع المستوى إلى مدينة "أماسيا".

كان السلطان "محمد شلبي" يخشى أن يستغل الإمبراطور البيزنطي الأمير "مصطفى شلبي" في إثارة نار الفتنة على عرش السلطنة مرّةً أخرى بعد وفاته.

وفي الرابع من مايو/أيار عام (١٤٢١م) توفّي "محمد شلبي" قُبيل وصول "ألوان بك" إلى "أماسيا"، ولم يُعلن خبر وفاة "محمد شلبي" لمدة واحدٍ وأربعين يومًا، وذلك من أجل ضمان اعتلاء الأمير "مراد" على العرش نظرًا للمدة التي استغرقتها عمليّة استدعاء "مراد" وتحقّق مجيئه إلى عاصمة الدولة العثمانية لاعتلاء العرش.

في الواقع أن الدولة العثمانية لم تكن تحتمل أن تدخل في أيّ صراعاتٍ داخليّةٍ على العرش كما حدث في الماضي القريب من فترة خلوّ العرش ممّا جرّ على البلاد سوء الأحوال وتدهورَها، وفي نهاية المطاف أُعلن السلطان "مراد الثاني" حاكمًا على البلاد، وعلى إثر ذلك أُعلن خبر وفاة السلطان "محمد شلبي".

وقد حزن الشعب لفراق سلطانهم العظيم الذي لم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين والذي لم ينعم بالراحة أبدًا في حياته إذ أفنى حياته منذ الصغر في ميادين القتال وفي سبيل القضاء على الفِتن والاضرابات والصراعات الداخلية.

وفي غضون بضعة أيام نُقل جثمان "محمد شلبي" إلى مدينة "بورصة"، ودفن في المكان الذي يسمى "الجبّانة الخضراء" التي كان أعدّها لنفسه مسبقًا في نفس العام الذي توفّيَ فيه، واختلطت مشاعر الحزن والفرح في قلوب العثمانيين فالحزن لوفاة السلطان "محمد شلبي" والفرح لاعتلاء ابنه "مراد الثاني" على العرش كسلطانٍ عثمانيّ جديد.

سمات السلطان محمد الأول (شلبي)



المظهر الخارجي:

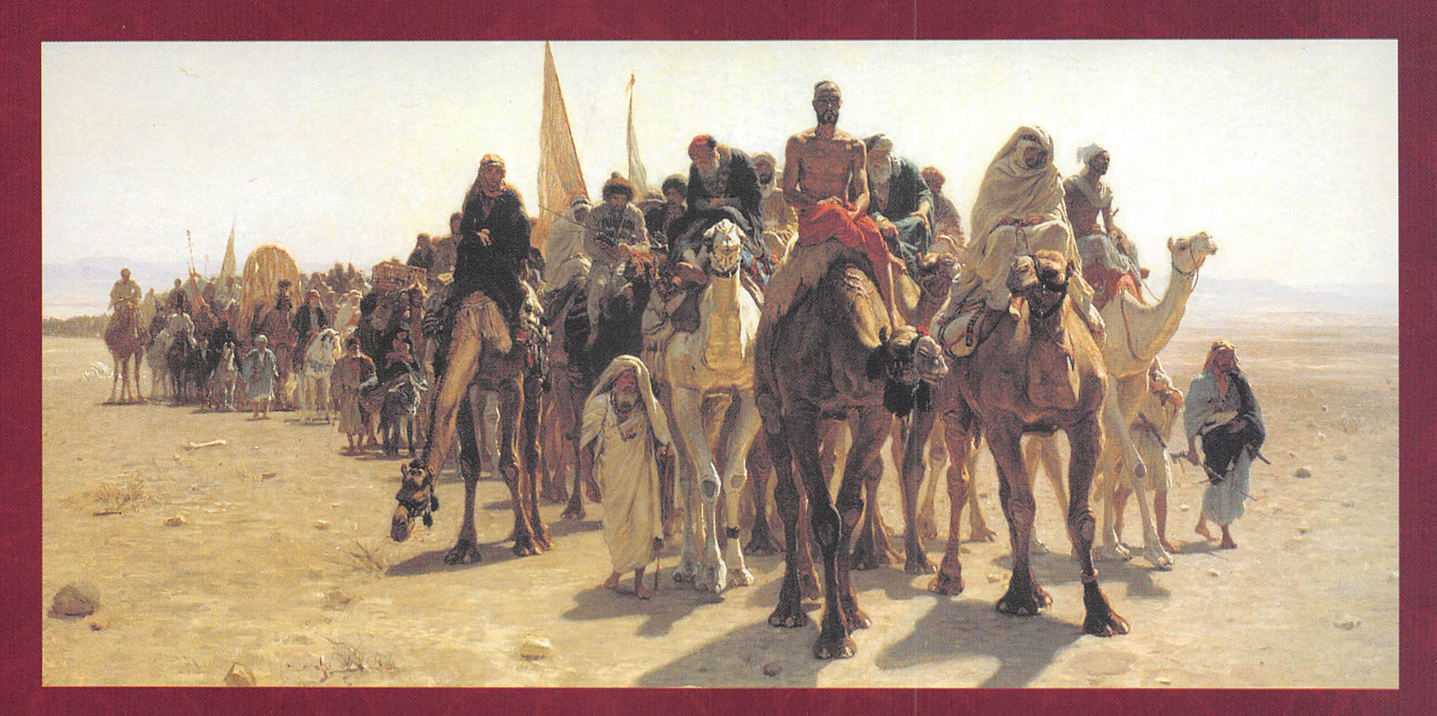
- كان السلطان "محمد شلبي" -الذي اعتلى العرش لمدة سبع سنوات وثمانية أشهر وعشرين يومًا بعد فترة خلوّ السلطنة- رجلًا طويلَ القامة وذا أذرع طويلة مثل جدّه الأكبر "عثمان غازي".
- وكان أبيضَ البشرة، مشرقَ الوجه، مقطب.
- كانت لحيته الكثيفة ملائمةً لوجهه المستدير بالتناسق مع شاربه.
- وقد خاض أربعًا وعشرين معركةً وبقي في جسده من آثارها ما بين أربعين إلى خمسين جرحًا.
- ومن بين صفاته الاهتمام بمظهره ونظافته مع البساطة والتواضع.

شخصيته وإدارته للدولة:

- يعد السلطان "محمد شلبى" مؤسّس الدولة العثمانية للمرة الثانية وذلك بسبب الجهد الفائق الذي بذله في الدولة التي كانت على شفا الانهيار بعد معركة "أنقرة" بالإضافة إلى العمل المخطط والأنشطة الإستراتيجية.
- وكان قائدًا حكيمًا، ورابط الجأش، واتصف بالقدرة على التفكير التحليلي.
- وكان يتصرف بشكلٍ حذرٍ في مواجهة المخاطر دائمًا، وقد اتّخذ سلسلةً من القرارات الوقائية لمنع ازدياد المخاطر.
- وفيًّا بالوعود التي قطعها على نفسه دائمًا، فلم ينقض وعودَه أبدًا.
- اعتمد على التشاور مع المحيطين به، وتصرف بشكلٍ متوازن في شؤون الدولة ونفّذ القرارات التي تمّ التشاور عليها.
- تميز بأخلاقه الحميدة والصفات الحسنة وكان متواضعًا ولطيفًا مع الجميع.
- كان يحب مساعدة الفقراء على وجه الخصوص، واشتهر عنه توزيعه للطعام بنفسه في مطاعم الحساء للفقراء.
- كان شغوفًا بأساتذة وطلاب العلم حيث كان يتعهّد زيارتهم بين الحين والآخر ويوزّع عليهم الهدايا.
- كان هو أول من بدأ عادة إرسال "الصرة الهومايونيّة (*Surre-i Hümayun*)" -موكب الحج والمحمل الشريف- إلى مكة والمدينة، وهكذا استخدمت إمكانيات الدولة العثمانية وقوّتها بسخاءٍ لخدمة مسلمي العالم خارج حدودها.

- وقـد أنشـأ جامعًا ومدرسـةً ومطبخًا للحِسـاء في مدينتـي "بورصة" و"أدرنه" وتعـدّ جميعها من الآثـار الفنّية الرائعة والتـي تميـزت بالجمـال الباهر وقدّمت خدمـاتٍ جليلة، وخصوصًا منهـا "الجامع الأخضر" الواقـع في "بورصة" والمشهور بخزفه الصيني حيثُ يُعدّ اليوم قبلةَ الأنظار للزوّار المحلّيّين والأجانب، والتي تُعتَبَرُ من المباني الأصيلة للعمارة العثمانية.
- ولقـد أمـر السـلطان محمـد الأول بإتمام "أسـكي جامـع" أي الجامـع القديـم الذي كان يُعـدّ أول جامعٍ عظيم في "أدرنه" والذي وُضِـعَ أساسُه في عهد "سليمان شلبي"، وأمر بإنشاء ضريحٍ من أجل أخيه "قاسم شلبي" الذي توفي عندما كان أميرًا على "أماسيا".
- وترك "محمد شلبي" الدولة العثمانية -التي كانت تعاني من الصراعات الداخلية- لابنه "مراد الثاني" وهي في حالٍ قويّةٍ جدًّا.
- وكان يحمي رجال الدولة الناجحين والموهوبين ويرعاهم، وهم الذين لعبوا دورًا محوريًّا في النجاحات التي حقّقها.
- كان شغوفًا بالصيد إلى درجة كبيرةٍ، ويتحدّث المؤرخون في تلك الحقبة عن أنه كان موهوبًا جدًّا في إصابة أهداف الصيد.
- وقـد عاشـت زوجتـه "سـلجوق خاتـون" فـي "بورصة" لسـنوات عديـدة بعد وفاتـه، وكانت تحظـى باحتـرامٍ كبيرٍ من السلطان "محمد الفاتح" و"بايزيد الثاني" وأطلقوا عليها لقب "العَمَّة الكبيرة".





موكب الصرة(*)

تميَّزَ السلطان محمد شلبي بشخصيته المحبة للأعمال الخيرية إلى جانب نجاحه في ساحات القتال وعلى طاولات المفاوضات.

وكان يسعى جاهدًا لتقديم المساعدات لشتى البقاع في العالم الإسلامي، وفي مقدمتها الكعبة المشرفة وأهل مكة المكرمة، كما قدَّم عديدًا من المساعدات إلى المدينة المنورة والأراضي المقدسة الأخرى، ولم يكن ذلك قاصرًا على التعمير والتجميل فقط بل كان يهتم أيضًا بسكانها ويقدم المساعدات لفقرائها، وللسلطان محمد شلبي كسلطان عثماني قصب السبق في إرسال موكب الصرة إلى مكة المكرمة، ووفقًا لما ذكره المؤرخ التركي الشهير "عاشق باشا زاده" فإن "قافلة الحج العثمانية" -التي أطلق عليها فيما بعد "موكب الصرة"- كانت تسافر سنويًّا في وقت الحج إلى مكة المكرمة حاملة كسوة الكعبة المشرفة، وما يلزم من الأشياء للعناية بالكعبة من نقود وأقمشة ومواد أخرى.

وقد تم إيصال أول "موكب للصرة" إلى مكة من قبل القبطان "كمال رئيس" عن طريق البحر، كما أرسل "مراد الثاني" نجل السلطان محمد شلبي ٣٥٠٠ قطعة ذهبية لتُوَزَّعَ على المحتاجين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد وصل هذا المبلغُ إلى ١٤ ألف قطعة ذهبية لاحقًا.

(*) ولمزيد من المعلومات حول "موكب الصرة" يمكنكم العودة إلى كتاب "المَحْمِل الشَّريف ورِحلتُه إلى الحَرَمَين الشَّريفين" الذي طبعته دار النيل للنشر.

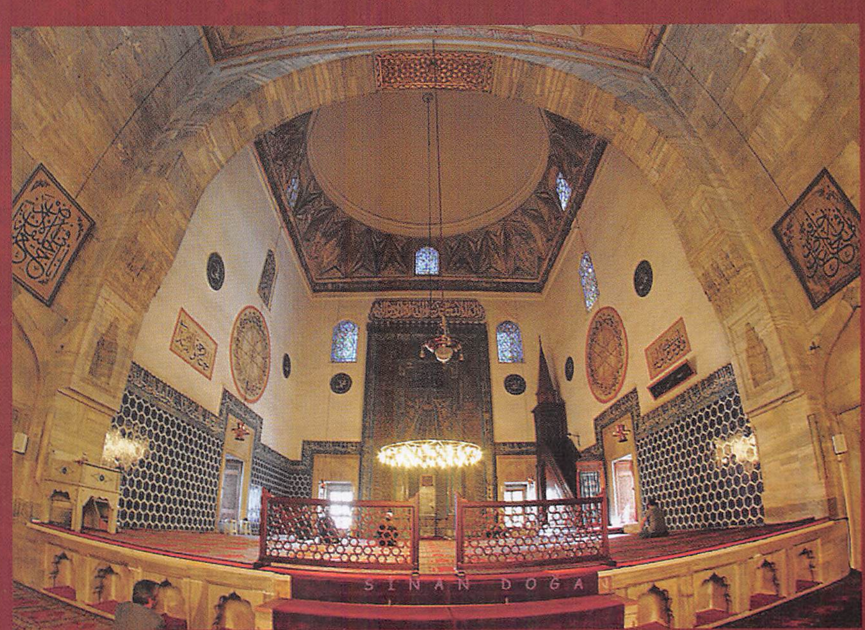
الضريح الأخضر والجامع الأخضر

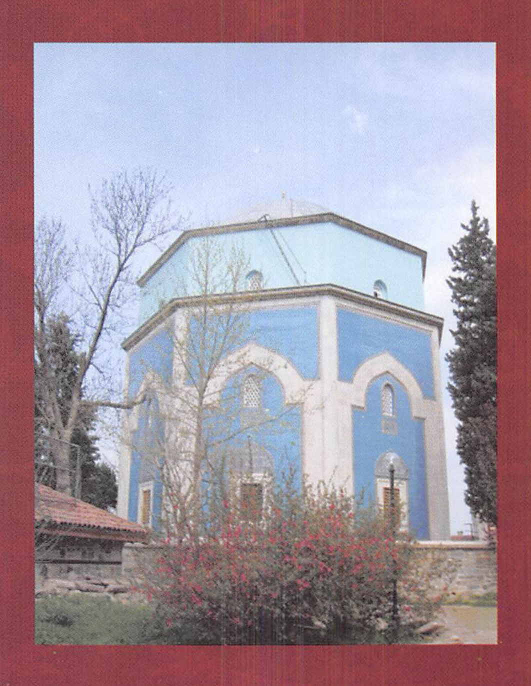
كان لمدينة "بورصة" مكانة خاصة لدى السلاطين العثمانيين عبر العصور، ومما يزيدها أهمية مولد السلاطين الدولة العثمانية الخمسةِ الأُوَلِ في نواحيها، وتوليهم الحكم فيها، وقد دُفِنوا في هذه المدينة المباركة، كما شُيِّدت فيها أجمل الإبداعات المعمارية والجوامع والمقابر والمؤسسات الاجتماعية والأسواق المسقوفة، وخاصة الضريح الأخضر والجامع الأخضر اللذان تم بناؤهما من أجل محمد شلبي...

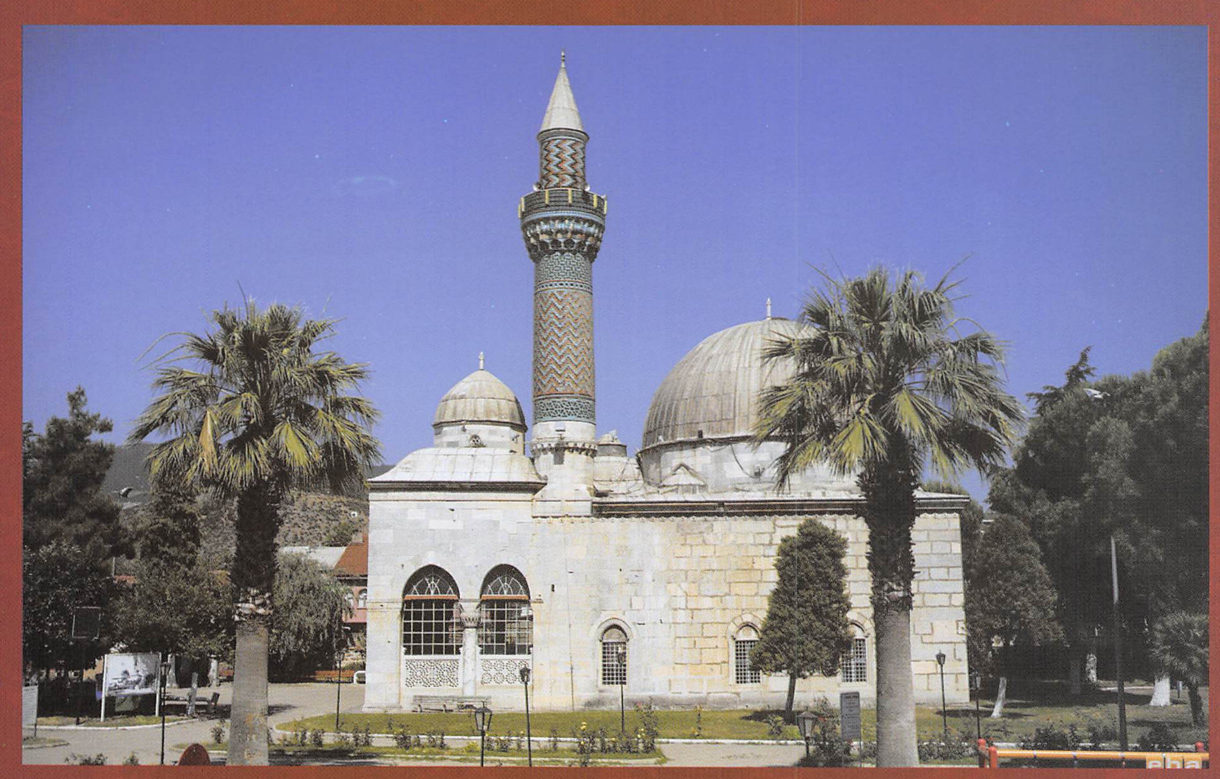
والجامع الأخضر الذي شيده "حاجي أيواز باشا" اشتهر بزخارفه الخزفية التي تجذب النظر بمجرد الدخول من مدخله، وقد زُيِّنَ الخزف بزهور زرقاء وخضراء حتى ارتفاع ثلاثة أمتار من الأرض، بينما الخطوط المكتوبة على اللوحة الزرقاء أضفت على الجامع قيمة وجمالًا آخر.

أما الضريح الأخضر ذو الثمانية زوايا الذي أنشئ من أجل محمد شلبي عام (١٤٢١م) فهو أثر نادر، وقبته التي تشبه الخيمة تكسب الضريح رونقًا مختلفًا.

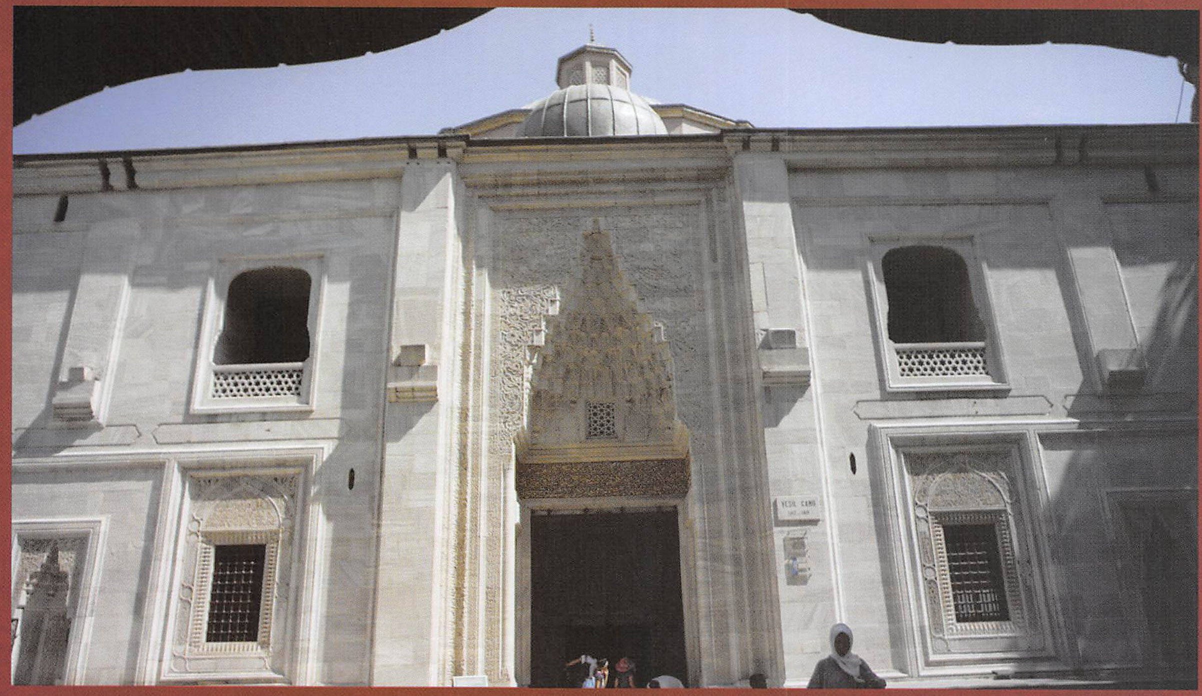
وهذا الضريح ذو الجمال اللافت للنظر بزخارف جدرانه ذات الزهور المتنافسة في الروعة والجمال يعد من أجمل النماذج الفنية على استخدام اللونين الأخضر والفيروزي، كما أنَّ مقابر كلًّا من محمد شلبي وأولاده موجودة في هذا الضريح.

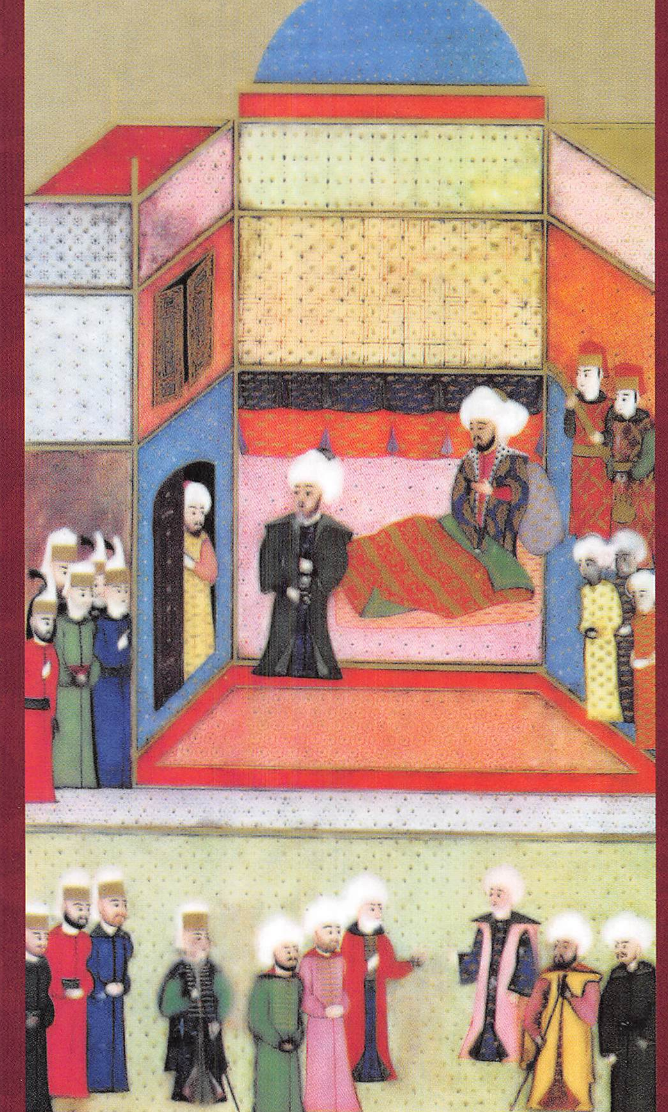






مشهد من الجامع الأخضر - مدينة بورصة - تركيا





خبر الوفاة الذي أُخفِيَ واحدًا وأربعين يومًا

في ربيع عام (١٤٢١م) أصيب السلطان الشاب محمد شلبي الذي يناهز من العمر اثنين وثلاثين عامًا بمرض شديد جعله طريح الفراش، وقد ازدادت وطأة المرض لدى السلطان فور وصوله إلى "أدرنه" بعد عودته من "جَلِيبُولو"؛ فاستدعى وزراءه وهو طريح الفراش يعاني آلام المرض، فجاءه "جاندارلي زاده إبراهيم" و"بايزيد" و"حاجي أيواز" منتظرين حديثه وهم يشعرون بالحزن والأسف لسوء حالته الصحية، وبعد صمت طويل بدأ السلطان محمد شلبي في الحديث ببطء:

"أيها الأمراء أشعر بأنني في الأيام الأخيرة من عمري والله أعلم، أرسِلُوا الخبرَ بسرعةٍ إلى ابني مراد فليأتِ إلى هنا! فإنني إذا مِتُّ قبلَ وصوله فستكون الدولة في غبار كثيف، ويتصادم الناس مع بعضهم، وإذا قابلت ربي قبل أن يأتي فأوصيكم ألا تعلنوا خبر وفاتي لأحد، هيا أرسلوا إليه فليأتِ بسرعة إلى "بورصة" وَلْيَعتَلِ العَرشَ".

فأخذ "ألوان بك" جوادًا من أسرع الأحصنة، واصطحب معه مجموعة صغيرة من الفرسان منطلقًا نحو المكان الذي يتواجد فيه مراد.

كان السلطان محمد شلبي مُحِقًّا في الإعراب عن قلقه هذا؛ إذ تمّ إنقاذ الدولة العثمانية حديثًا من الآثار السلبية لهزيمة حرب "أنقرة" وصراع الأمراء، وكما أنَّ صراعًا جديدًا على العرش قد يبدأ عقب وفاته سيتسبب في اضطرابات داخلية ربما تتعذر السيطرة عليها؛ ولذلك يجب جلوس الأمير مراد على العرش ولا يظل العرش فارغًا ولو لساعة واحدة، وإذا بادر الأمير مصطفى شلبي المدعوم من بيزنطة وتيمور للجلوس على العرش لأدى ذلك لهرج ومرج في البلاد، أضف إلى ذلك أن هناك قوى كثيرة جدًّا تتحين الفرصة لتدمير الدولة العثمانية...

وبينما كان "ألوان بك" في طريقه نحو "أماسيا" إذ أسلم محمد شلبي روحه إلى بارئها، فَأُخفِيَ هذا الخبر المرير طبقًا لوصية السلطان، وظلت جميعُ شؤون الدولة تُسيّرُ وكأن السلطان حي، وحتى لا يَشُكَّ أحدٌ في حياة السلطان تم إصدار مرسوم يأمر بأن يُبدَأ خلال أيامٍ في تجهيز حملة جديدة على" قَرَمَان أوغلو"، وأن يجتمع لذلك شجعان الأناضول في "بيجا" على وجه السرعة!".

وكانت المهام اليومية في قصر "أدرنه" تسير كما لو كان السلطان حيًّا يرزق، إلَّا أنَّه كلما مرَّت الأيام بدأ الشك يدبّ في قلوب الناس؛ إذ كان الجميع يعرف أن السلطان يعاني من مرض شديد، وبدأ الجنود يقلقون، مما زاد الوضع صعوبة.

وفي نهاية المطاف وجد طبيبان من أطباء القصر وسيلة لإزالة الشك من قلوب الناس؛ حيث نزعا الأعضاء الداخلية لجسم السلطان ودفناها في غرفته، وحَنّطا الجثمان، ووضعا موادًّا تجميلية على وجهه، وأُلبِسَ ثيابه المألوفة... كما أُجلِسَ على كرسي في غرفة يمكن مشاهدتها من الحديقة، وقد اختبأ خلفه موظفان أدخلا أيديهما من قفطان السلطان الواسع وبدأ يحركان رأس السلطان وذراعيه من وقت إلى آخر، فكان الناظرون من الحديقة يعتقدون أن السلطان يتحدث، مما ساعد على تهدئة الجنود وتبديد الشكوك، وهكذا أُخفِيَ خبر وفاة محمد شلبي بنجاح لمدة واحد وأربعين يومًا، حتى إنَّ المبعوث البيزنطي الذي كان مستضافًا في القصر في هذا الوقت لم يدرك حقيقة الأمر.

وعندما وصلت بشرى وصول "مراد الثاني" إلى "بورصة" أُجلِسَ على العرش بأمان، ثم أُعلِنَ خبرُ وفاة السلطان، وبعد ذلك أُخِذَ جثمانُ محمد شلبي من "أدرنه"، ونُقِلَ إلى "بورصة"، ودُفِنَ في الضريح الأخضر، وهكذا، وفي ظل استخدام الذكاء والعقل، أَمكَنَ تفادي أزمة -كادت أن تقضي على الأخضر واليابس- وهي ما زالت في مهدها.



مشهد لقبة المسجد الأخضر من الداخل - بورصة

المولد الشريف في مدح سيد المرسلين ﷺ

بينما كان صراع الأمراء على العرش عقب معركة أنقرة محتدما، كان الناس في مدينة "بورصة" يتناقشون ويتجادلون مع بعضهم في موضوع مختلف تمامًا، وكان السبب في هذا الجدال حديث أحد الوعاظ في أحد المواضيع المتعلقة بأمور الدين.

وهذا الموضوع هو أنَّ الواعظ فسر الآية الموجودة في أواخر سورة البقرة: ﴿...كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٨٥) بقوله لا يوجد فرق بين سيدنا محمد ﷺ والمسيح عليه السلام.

وفي السورة نفسها هناك آية أخرى تقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ..﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٢٥٣)، ووفقًا لهذه الآية، فإن سيدنا محمد النبي الخاتم هو أفضل الأنبياء.

ولكن الشيخ الواعظ لم يكن يؤيد تلك الفكرة، وكان يدافع بإصرار على أنه لا يمكن أن يكون هناك تفوق بين الأنبياء ولا تفرقة في المرتبة، وكلما طال الحديث كانت المناقشات تستمر، حتى إنه طُلِبت الفتوى من علماء ومفتي مصر وحلب حول هذه القضية، وفي النهاية تم التوصل إلى أنَّ سيدنا محمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله.

وكانت المناقشات قد انتهت ولكن تأثيرها في نفوس الناس كان لا يزال ساريًا، وكان سليمان شلبي من المؤيدين لأفضلية النبي ﷺ على سائر الرسل، حيث كان يقول: "كل الأنبياء يتصفون بعلو المنزلة وسمو المكانة وحسن الخلق، ولكن النبي محمدًا ﷺ هو آخر الأنبياء وأعظمهم- فداك أبي وأمي يا رسول الله-، وأخذ سليمان شلبي ينظم شعرًا في مدح الرسول ﷺ يعبر فيه عن مشاعر الحب للنبي ﷺ، وفي ذلك الوقت كان سليمان شلبي بين الستين والخامسة والستين من عمره، وبهذه الأشعار التي تمدح النبي ﷺ ظهر عمله الخالد المسمى بـ"وسيلة النجاة" والذي عُرِفَ فيما بعد باسم "المولد الشريف في مدح سيد المرسلين ﷺ".

ويعد هذا العمل الفريد الذي نظمه سليمان شلبي من أكثر المديح سماعًا وشهرة وتقديرًا لدى جميع المسلمين حتى يومنا هذا على الرغم من مرور أكثر من ستمائة عام على تأليفه منذ القرن الخامس عشر، وقد نظمت بعده الكثير من المدائح على طرز "المولد"، ولكنها لم تنل من الحب والتقدير والشهرة ما ناله "مولد" سليمان شلبي، وسبب ذلك أن مولد سليمان شلبي يمتاز بالحب والإخلاص للنبي ﷺ.

وهذا المولد يعبر عن الحب العميق والاحترام الكبير ومحبة الإنسان المؤمن لسيدنا محمد المصطفى خاتم الأنبياء وسلطان السلاطين ﷺ، ويتكون المولد من ٤٨٠ بيتًا مقسمة على تسعة أجزاء.

توفي سليمان شلبي صاحب "المولد" عام (١٤٢٢م) في مدينة "بورصة" ودُفِن هناك، علمًا بأن سليمان شلبي كان ابن حفيد الشيخ "أده بالي" الولي الصالح والمؤسس الروحي للدولة العثمانية.

أربعة دروس ذهبية مستفادة من معركة أنقرة:

١- يجب على الحاكم ألا يثق في نفسه أكثر من اللازم.

٢- يجب على الحاكم ألا يحقر خصمه أو عدوه، أو يستهين به.

٣- ينبغي للحاكم أن يعرف التراجع عن الخطأ في الوقت المناسب، وأن يلتزم بالقرارات التي اتخذت من قبل الشورى.

٤- مما يجب على الحاكم معرفته هو أنَّ استمرارية العصر الذهبي لأيَّة دولة على وجه الأرض لا يتحقق بالقوة فقط، بل ينبغي أن تُعضِّد الحكمةُ والعدالةُ القوةَ، وخيرُ دليلٍ على ذلك أنَّ دولة تيمور التي اعتمدت على القوة فحسب كما صعدت في وقت قصير قد انهارت بالسرعة نفسها.

خمسون جرحًا خلال أربع وعشرين معركة

خرج محمد شلبي يقاتل علَى رأس جيشه متقلدًا سيفه في كل الحروب كأسلافه من السلاطين العثمانيين، وثمَّة روايات تفيد أنَّ عددَ جروحه تراوح ما بين أربعين وخمسين جرحًا خلالَ أربعٍ وعشرين معركة خاضها في ميادين القتال.

ولقد كان لخوضه المعاركَ في مقدمة جيشه دائمًا أثرٌ إيجابيٌّ كبيرٌ على نفسية جنوده، وتحفيزهم.

"أُورَانُوسْ غازي"

كان "أُورَانُوسْ غازي" واحدًا من أكابر القوم في إمارة بني "قَرَه سي"، وقد عمل لصالح العثمانيين بعد ضم هذه الإمارة إلى الدولة العثمانية في عهد "أُورْخَان غازي"؛ فقد عُيِّن "أُورَانُوسْ" قائدًا على الغزاة في مدينة "سَرَزَ" في عهد السلطان مراد، كما لعب دورًا كبيرًا مع "حاجي إيلْبَي" في الدفاع عن أراضي "روملي"، وفتح مدنًا ومراكز مهمة جدًّا في الغارات التي قام بها على "مقدونيا" بالجيش الذي كان تحت قيادته، وقد ذهب للحج بعد ما قام به من حملات على "ألبانيا"، وبعد عودته شارك في موقعة "كوسوفو الأولى"، وكانت خبرته العسكرية الفائقة ذات تأثير كبير في انتصار العثمانيين في هذه الحرب، وقد شارك في عهد "يلدريم بايزيد" في الغارات على "ألبانيا" ومعركة "نِغْبُولُو" وحملة أفلاق، وقد دعم محمد شلبي في فترة خلو السلطنة، وتوفي "أُورَانُوسْ" في نوفمبر عام (١٤١٧م)؛ ودُفن في منطقة "واردار" الواقعة ضمن حدود دولة "مقدونيا" حاليًا، وقد واصل أبناؤه القيام بمهمة قيادة المغيرين لسنوات طويلة.

الأعمى والأعرج ...

من المعروف أن "يلدريم بايزيد" كان في أيام أسْره المريرة يتجاذب أطراف الحديث مع تيمور في كثير من الأحيان، وفي إحدى هذه المحادثات تصادفنا كلمات تيمور الآتية المثيرة للاهتمام: "إنَّ الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة يا "يلدريم بايزيد"، وإذا كانت هناك قيمة لها عند الله لما جعل لحاكمٍ لديه إعاقةٌ في إحدى عينيه مثلك ورَجُلٍ أعرج مثلي نصيبًا منها، بل لكان يمنحها لرجال أقوياء سلام البنية منزهين من العيوب".

العدالة واحترام الإنسان لدى العثمانيين

يذكر "طاش كبرولو محمد كمال الدين أفندي" العالم العثماني الشهير الواقعة الآتية في كتابه المسمى "التاريخ الصافي" فيقول:

"كانت قطعة الأرض التي سيُبنى عليها "الجامع الكبير" الشهير -ذو القباب العشرين في "بورصة"- يقع في وسطها منزلٌ تمتلكه امرأة مسيحية لم تكن توافق على بيعه بأيّ حال من الأحوال، ووفقًا للشريعة الإسلامية لا يمكن أن يتمَّ عُنوةً نَزعُ الملكية الخاصة لأي مواطن أيًا كانت ديانته حتى ولو كان هذا الأمر من أجل إنشاء مسجد، وعليه فقد تمَّ افتتاح هذا المسجد للعبادة على الرغم من أن وجود هذا البيت في وسط هذه الأرض.

وبعد سنتين من افتتاح المسجد توفيت هذه المرأة، وباع ورثتها هذا المنزل لأجل المسجد؛ فهُدِمَ المنزل وأقيمت مكانه نافورة جميلة في وسط فناء المسجد.

وهذه النافورة الجميلة الموجودة في وسط فناء المسجد ليست مجرد فن معماري متميز فحسب، وإنما تعتبر رمزًا للعدالة واحترام حقوق الإنسان يظل الماء يخر منه دون توقف".

"شيخي" الطبيب الشاعر

مرض السلطان محمد شلبي عندما كان في أنقرة؛ فاستُدعِيَ كُلُّ الأطباء المشهورين في البلاد، إلا أنهم عجزوا عن مداواته، وكانت صحة السلطان العظيم تتدهور يوميًا على الرغم من كونه في مطلع شبابه.

وفي تلك الأثناء ورد خبر إلى القصر السلطاني يفيد بأن هناك طبيبًا ماهرًا يعمل في خدمة يعقوب الثاني حاكم "بني جَرْمِيانْ"، وبناء عليه طُلِبَ من يعقوب بك الثاني إرسال طبيبه الخاص إلى أنقرة؛ فجاء إلى أنقرة يوسُفُ سنان -الملقب بـ"شيخي" المعروف بأشعاره والذي كان يقيم في مدينة "كُوتَاهْيَا" آنذاك-، وفحص السلطان، وتبين من تشخيص هذا الطبيب المشهور أنَّ السلطان يعاني مرضًا نفسيًا، ويُمكن أنْ يتعافى إذا حدث ما يَسُرُّه أو جاءه خبرٌ جميلٌ.

وفي اليوم التالي جاء رسولٌ إلى القصر، وبشر السلطان بأن إحدى القلاع التي عجز العثمانيون عن الاستيلاء عليها لفترة طويلة قد سقطت في قبضة العثمانيين الآن.

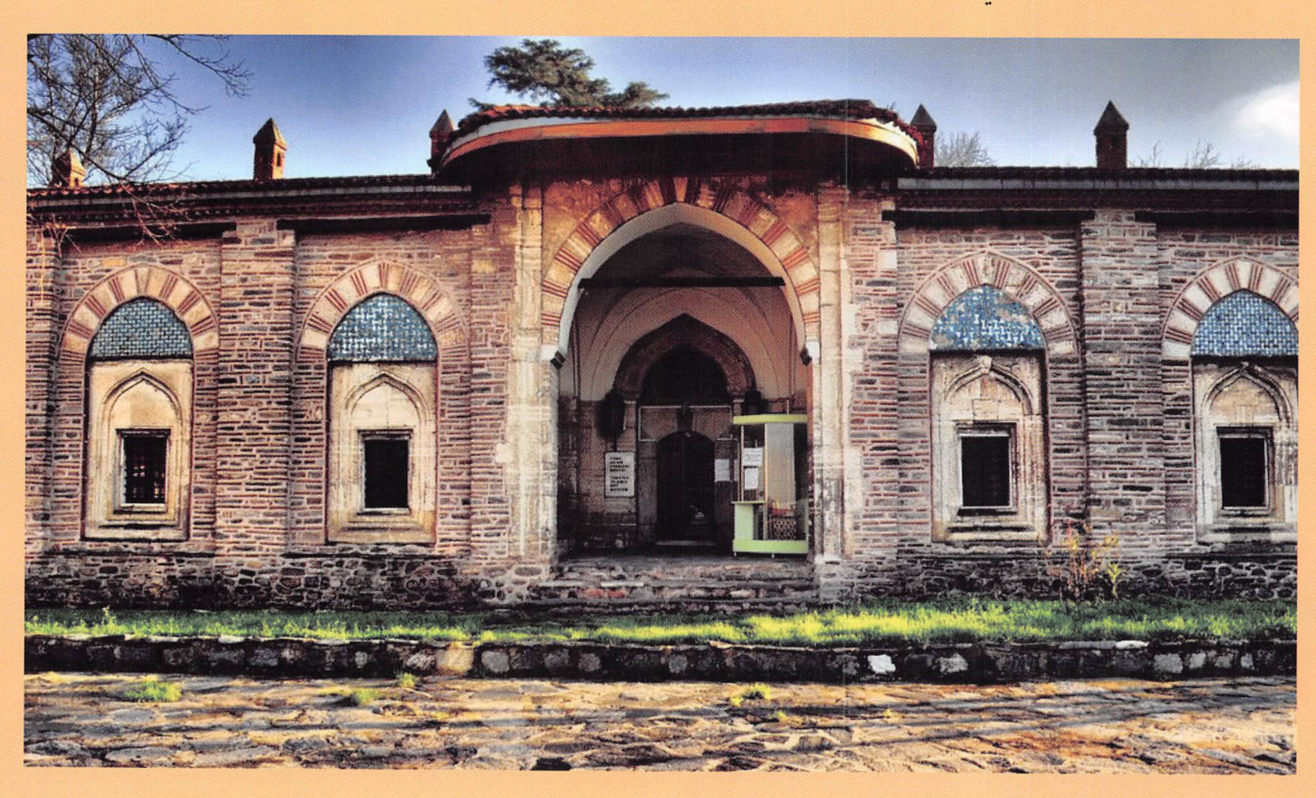
فأبهَجَ هذا الخبرُ محمد شـلبي لدرجة أنه وقف على قدميه ضاحكًا، وسَعِد وتَحسَّـنت صحته، وقال: "إنني أشـعر الآن بتحسن كبير أيها الشجعان"، ثم منح الطبيبَ شيخي الذي استطاع تشخيص المرض كثيرًا من الهدايا لمهارته.

المدرسة الخضراء

تُعد "المدرسة الخضراء" التي تم إنشاؤها في مدينة "بورصة" في عهد "محمد شلبي" واحدة من أهم الجامعات في ذلك العصر، وقد عمل "حاجي بايرام ولي" مدرسًا فيها.

ووفقًا لإحدى الوثائق الوقفية المؤرخة في (١٤١٩م) فقد كان يصرف مبلغ قدره عشـرون أقجه راتبًا يوميًا للمدرسـين العاملين في تلك المدرسة، كما كان يُمنح نصف طن من القمح ونصف طن من الشعير شهريًّا.

وتعد المدرسة الخضراء في يومنا هذا بمثابة متحف للآثار الإسلامية التركية.



المدرسة الخضراء - بورصة

العملة النحاسية "مانجير" والعملة الورقية الأولى "قايمه" عند العثمانيين

إن كلمة "مانجير" كانت تطلق على النقود النحاسية التي تعتبر من العملات الأولى عند العثمانيين، إلا أننا لم نعثر على هذه النقود، اللهم إلا تلك النقود النحاسية التي تعود إلى عهد مراد الأول فقط.

وأما كلمة "قايمه" فقد أطلقها العثمانيون على النقود الورقية، وهي أيضًا ليست كلمة عامية كما يُظنُّ.

النموذج النواة

يذكر الروائي التركي الشهير "كمال طاهر" نظرته الخاصة بتأسيس الدولة العثمانية حيث يقول:

"ألم تفكروا قَطُّ في سبب استمرار الإمبراطورية العثمانية لمدة ستمائة سنة مع أن أكثر الإمبراطوريات ضخامة في العالم قد انهارت معظمها في مدة لم تتجاوز مائة وخمسين إلى مائتي سنة؟ إنَّ السببَ في ذلك يكمُنُ في أنَّ الإمبراطورية العثمانية أخذت العِبرَ والتجاربَ من تاريخ الإمبراطوريات السابقة، ممَّا جعلها تنشئ نموذجَ نواةٍ لإمبراطورية قائمة على تفادي أخطاء ما وقع فيه الأولون".

الطريقة البكتاشية في وحدات الإنكشارية

يعد "حاجي بكتاش ولي" -أحد زعماء خراسان الروحيين- من أكابر المسلمين والأولياء الصالحين الذين لهم بصمة في التاريخ الإسلامي، وقد قدَّمَ دعمًا روحيًا كبيرًا من أجل تنظيم وحدات الإنكشارية، ودعا إلى ذلك، ولذا فإنَّه يُعَدُّ شخصيةً فعالةً مؤثرةً داخل وحدات الإنكشارية.

والمعلومات التي تم الحصول عليها والتسجيلات التاريخية المحدودة تفيد أنَّه كان رجلًا مسلمًا تقيًا وَرِعًا، ولا يليق بأحد أن يُشكِّك في مكانة هذا الرجل أو إيمانه.

قَسَم محمد بك حاكم "بني قرمان"

وفقًا لإحدى الروايات وضع "قَرَمَان أوغلو محمد بك" يده على قلبه وهو يؤدي يمين الولاء للعثمانيين، وقال: "سوف أكون وفيًا للعثمانيين طالما بقيت هذه الروح في هذا الجسد"، وعندما غادر مجلس محمد شلبي أخرج حمامة كانت في حضنه، وقطع رأسها، وقال "لقد انتهى القسم ههنا"، وقد أوضح "قَرَمَان أوغلو محمد بك" لاحقًا أنه أقسم على الحمامة التي أخفاها في حضنه، وأن يمينه انتهى بموت هذه الحمامة...

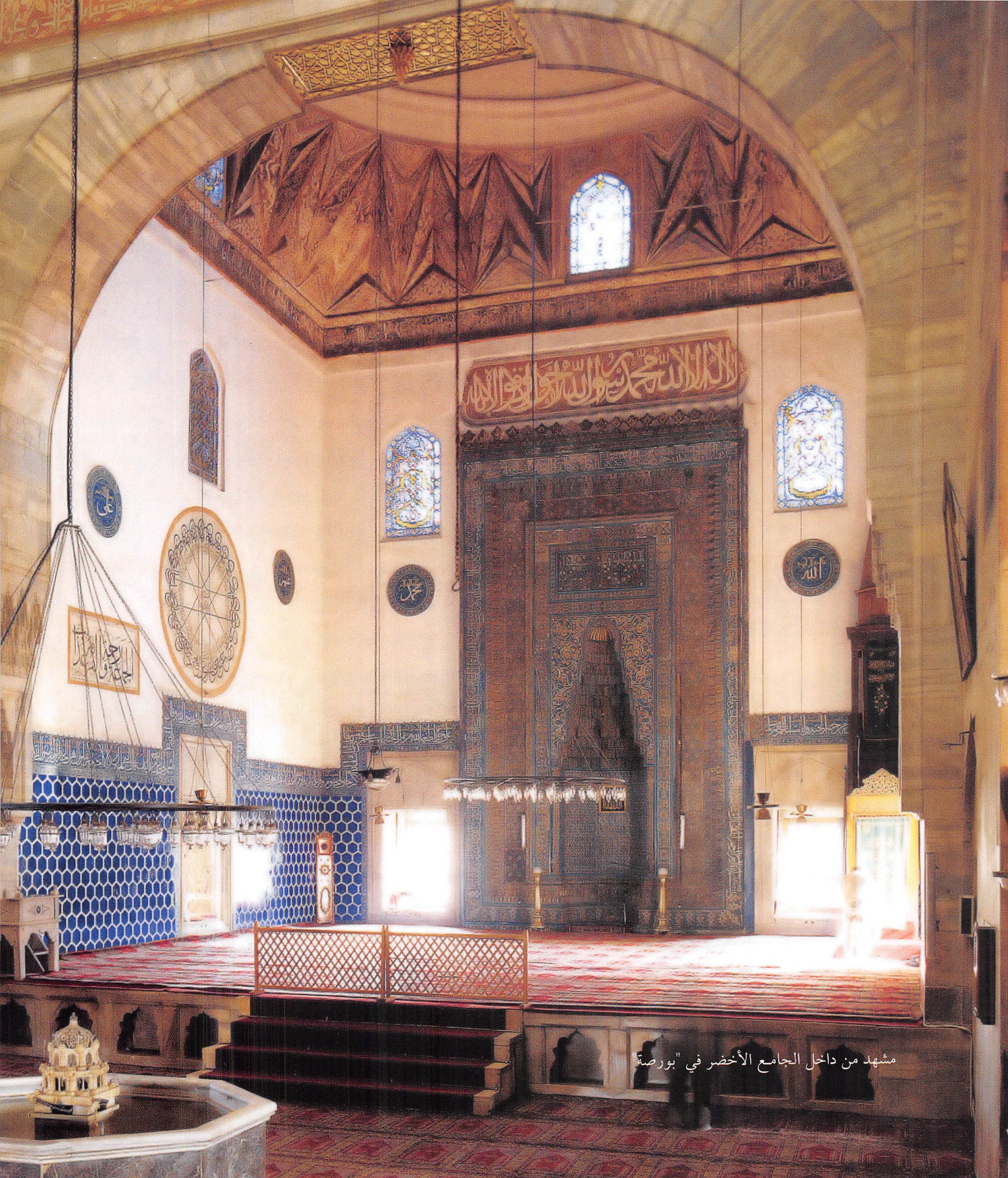
معركة بدأت بسبب الفهم الخاطئ

واجه الأسطول العثماني في مايو عام (١٤١٦م) أسطول البندقية في منطقة "جَلِيبُولُو"، وكان البنادقة قد قرروا عدم خوض المعركة ما لم يهاجمهم العثمانيون، وفي ذلك الحين رأوا إحدى السفن قادمة من إسطنبول فظنُّوها تابعةً للأسطول التركي؛ فهاجموها، واعتقد الأسطول التركي كذلك أن تلك السفينة القادمة تابعة له نفسه؛ فبادر بمهاجمة أسطول البنادقة دفاعًا عنها، بيد أن السفينة كانت تابعة لـ"مدللي" أو ما تسمى بجزيرة "لسبوس" وكانت في طريقها من إسطنبول إلى جزيرة "مدللي"، وقد انتهت هذه الحرب -التي بدأت بسبب الفهم الخاطئ- بهزيمة العثمانيين.



مشاهد من الجامع الكبير -بورصة





مشهد من داخل الجامع الأخضر في "بورصة"

الفصل السادس

السلطان "مراد الثاني"



اسم الوالد: محمد شلبي اسم الوالدة: أمينة خاتون

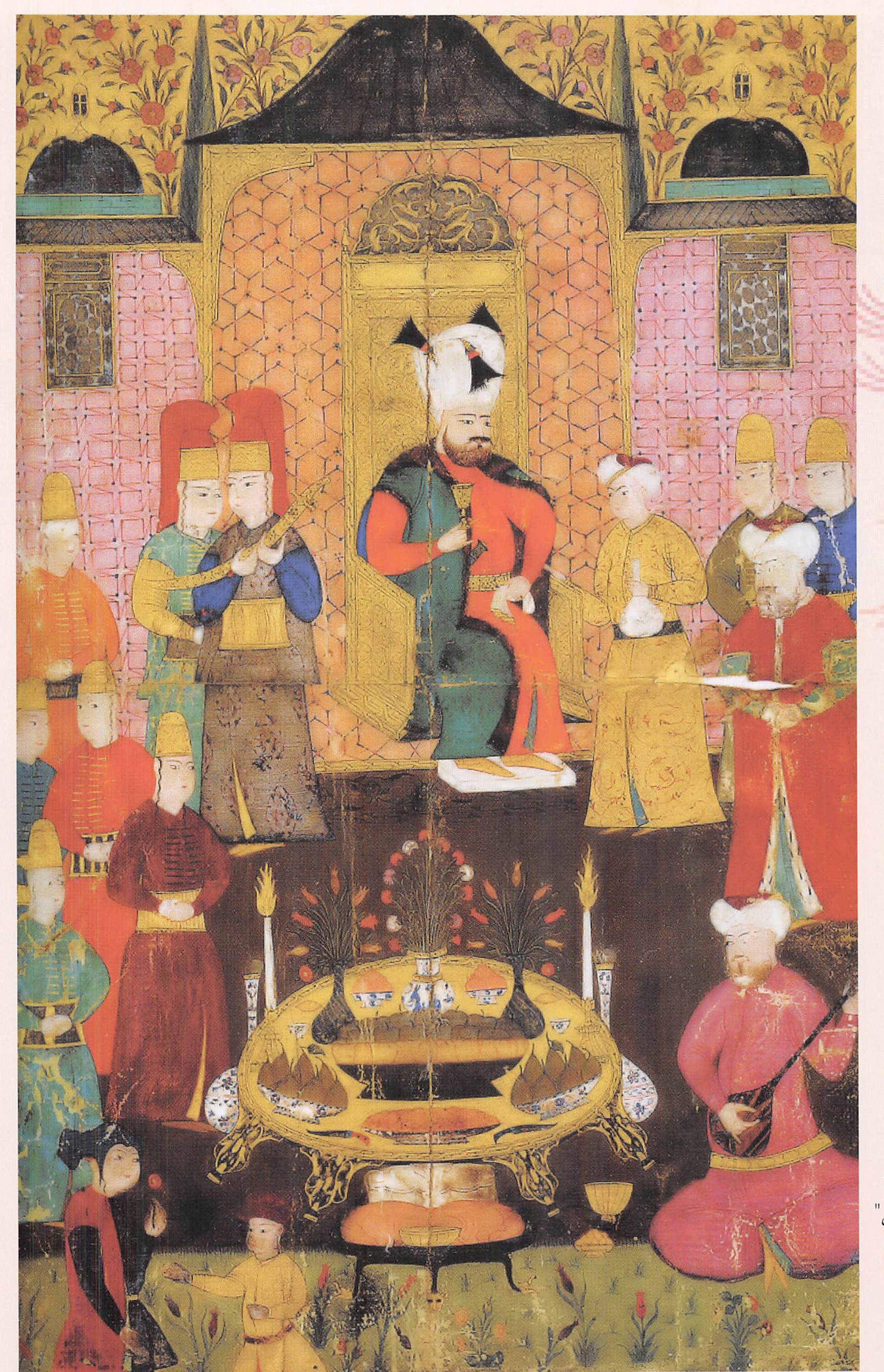
محل وتاريخ الميلاد: مدينة "أماسيا" عام (١٤٠٤م)

تاريخ اعتلائه العرش: (١٤٢١م)

محل وتاريخ وفاته : "أدرنه"، عام (١٤٦١م)

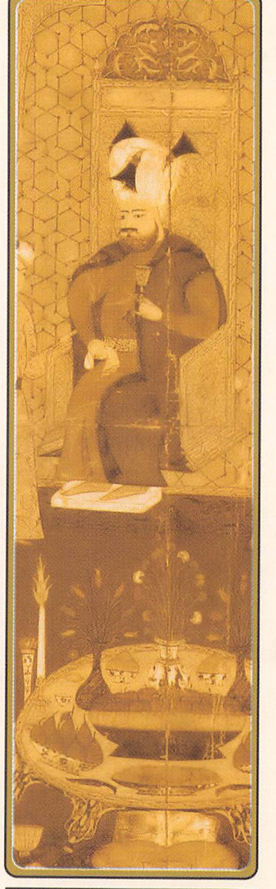
ضريحه : يقع في مدينة "بورصة"

أبناؤه: علاء الدين علي، محمد (السلطان الفاتح)، أحمد (توفي في حياة والده)، حسن، أُورْخَان، خديجة وفاطمة.



منمنمة تشير اعتلاء
السلطان "مراد الثاني"
العرش

السلطان المتميز المولع بالشعر والفن



إنه سلطان مولع بالفن وشاعر كبير يتميز بشخصية بارزة مبجلة، تولّى العرش وهو في السابعة عشرة من عمره وعلى الرغم من ذلك لم يرتكب خطأً فادحًا في إدارة شؤون الدولة.

وُلد "السلطان مراد الثاني" في مدينة "أماسيا" وقضى فيها أولى سني طفولته، حيثُ ترعرع في كنف قصص وحكايات أجداده المليئة بالغرائب والعجائب وغالبًا ما تكون نهاياتها مأساوية حزينة إلا أن أكثر ما كان يثير اهتمامه من تلك القصص هي التي تخصّ جده "يلدريم بايزيد" المليئة بالنجاحات والانتصارات والفتوحات وتنتهي بأحداث حزينة مؤسفة...

خاض غمار الحرب وهو صغير، فقد كانت أول حرب يشترك فيها هي تلك التي خاضها مع أبيه السلطان "محمد شلبي" وهو ما زال في السادسة من عمره، يوم أن سلكوا طريقهم من "أماسيا" إلى "بورصة" في يوم من أيام الربيع العليلة المشرقة التي يفوح أريجها في الأجواء ويتعطّر المكان بالرائحة الذكية للتراب والعشب.

كانت الأوضاع قد بدأت تستقرّ لوالده، حيث خضع الجميع تحت رايته، ممّا أسعد أباه كثيرًا.

كان الأمير "مراد الثاني" دائمًا ما تتردّد على مسامعه كلمات من معلّميه مفادها: "لقد استطاع السلطان "محمد شلبي" أن يصل بالبلاد إلى برّ الأمان كما تمكّن من السيطرة على مقاليد الأمور في الدولة"، وكانوا يقولون له أيضًا: "إن والدك السلطان "محمد شلبي" رجل قويٌّ وكفءٌ ومناسبٌ جدًّا لأن يحمل مسؤولية هذه الدولة، وبمشيئة الله تعالى ستغدو أنت أيضًا مثله عندما تكبر"، فكان الأمير الصغير "مراد" يردّ عليهم بقوله: "هذا الشبل من ذاك الأسد".

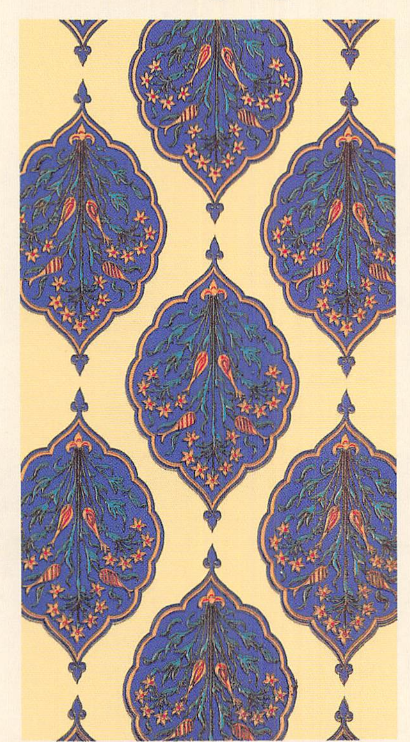


كان الأمير "مراد الثاني" يحبّ جميعَ معلّميه، إلا أن ابن عرب شاه أبا العبّاس شهاب الدين أحمد بن مُحمَّد الدمشقي -الذي كان متبحّرًا في التاريخ- يتمتع بمكانة خاصة في قلب الأمير.

آلت إليه الإمارة وهو في الثانية عشرة من عمره

وبعد أن تقهقرت الدولة العثمانية واضمحلّت خلال عصر الفوضى أو العصر الذي خلا فيه العرش من سلطان يدير شؤون البلاد وذلك بسبب الحروب الداخلية التي دامت زهاء أحد عشر عامًا عقب هزيمة "أنقرة"؛ سيطر السلطان "محمد شلبي" على مقاليد الحكم في البلاد، واعتلى عرش الدولة العثمانية.

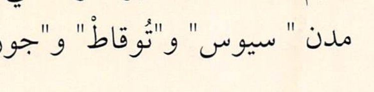
وفي الوقت الذي كان السلطان "محمد شلبي" يعمل جاهدًا على تحقيق الأمن والاستقرار في البلاد عمل أيضًا على انتخاب الرجال الأكفاء والموثوق فيهم ليُعيّنَهم في المناصب المهمّة في الدولة، وبالرغم من أنه كان لا يزال في الخامسة والعشرين من عمره إلا أن الهموم أثقلته وعجّلت بحياته ولذا كان في بعض الأحيان يشعر أنه شيخ يبلغ من العمر أرذله، لدرجة أنه كان يتغلّب على هذا الشعور ويحفّز نفسه بالتعامل مع من حوله وكأنهم في سنٍّ أكبر من سنّهم، وأحيانًا أخرى كان يقول لابنه الأمير "مراد" الذي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا: "إنني أرى أمامي رجلًا يبلغ من العمر أربعًا وعشرين عامًا"، وذات يوم في الصباح الباكر استدعى السلطان "محمد شلبي" ابنه "مراد" وقال له:



"لقد نصّبتُك أميرًا وواليًا على الروم و"دانشمندية" -أي وسط الأناضول-".

فعاد الأمير "مراد" إلى "أماسيا" التي قضى فيها أيّام صباه ولكن هذه المرّة بصفته أميرًا وواليًا عليها، حينذاك كان عمر "مراد" اثني عشر عامًا -أو كان عمره أربعة وعشرين عامًا حسب نظرةِ والده له- حقًّا إننا نستطيع أن نُطلق على سلاطين الدولة العثمانية اسمَ السلسلة الذهبية، أو "رجال يربّون رجالًا"، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يُنَصّب السلطان "محمد شلبي" ابنه السلطان "مراد" واليًا وهو في الثانية عشرة من عمره وأن يفتح حفيده محمد الفاتح القسطنطينية وهو يناهز الحاديَ والعشرين من عمره، وذلك بعد هذا التعيين بسبعة وثلاثين عامًا.

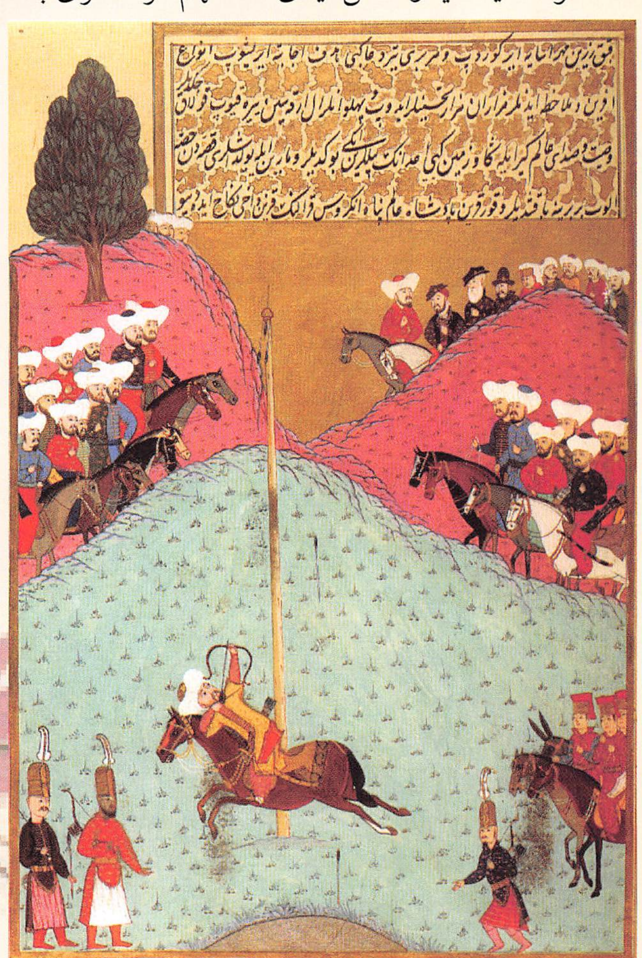
ليس من الغريب على رجلٍ تولّى الحكم وهو في الثانية عشرة من عمره أن يخلّف لنا شبلًا يحقّق نصرًا عظيمًا -كفتح القسطنطينية- وهو في الحادي والعشرين من عمره.



وقد كان السيد "لالا يورجوتش (*Lala Yörgüç*)" البالغ من العمر خمسين عامًا والذي يتميّز بالحنكة والإدارة الحكيمة يقوم بمساعدة الأمير "مراد" في وظيفته بأمرٍ من السلطان، وكانت إمارة "أماسيا" تُعتبر أيضًا ولايةً محوريّةً آنذاك، حيث إن مدن " سيوس" و"تُوقاطْ" و"جوروم" تتبعُ إداريًّا لهذه الولاية.

وبعد أن تولّى "مراد الثاني"إمارةَ "أماسيا" توجّه مع مساعده "يورجوتش بك" صوب "إيجه" بأمرٍ من السلطان "محمد شلبي" حيث أمرهم بالقضاء على " بوكلوجه مصطفى" الذي كان أحدَ العقول المدبّرة في أحداث الشيخ بدر الدين.

وكان "بايزيد باشا" القائد المحنك يتولّى شؤون الجيش أثناء توجه الأمير مراد صوب "إيجه"، وعندما التقى الجمعان لم يستطع "بوكلوجه" ورفاقه أن يواجهوا جيشَ "أماسيا" وهُزموا هزيمةً نكراء، لقد كانت الأوضاع في منطقة "إيجه" مستقرّة ومبشّرة إلا أن الوضع في "أماسيا" كان غير مطمئنٍ على الإطلاق فقد قام بعض أمراء الأناضول الصغار الذين كانوا يريدون استغلال وجود الوالي خارج "أماسيا" بتأجيج نار الفتنة في "أماسيا" والاستيلاء على بعض المناطق المحيطة بهم، وكان من بين المدن التي فقدها العثمانيون مدينة "سامسون"، إلا أنهم استطاعوا أن يستعيدوها من أيدى أعدائهم مرّة أخرى بعد ذلك بعامين.



منمنمة للسلطان "مراد الثاني" يطلق سهم

سلطانٌ في السابعة عشر من عمره

كان عمر الأمير "مراد" لا يتجاوز السابعة عشر عندما تمّ استدعاؤه إلى "بورصة" ليعتلي العرش خلفًا لوالده، وذلك بناءً على رغبة السلطان "محمد شلبي" الملحّة، إلا أن السلطان محمد فارق الحياة قبل وصول الأمير "مراد" إلى "بورصة"، ومن ثم فقد اعتلى الأمير "مراد" العرش بموجب وصية السلطان التي كتبها قبل وفاته، وهو بذلك يعتبر أصغر أميرٍ اعتلى عرش الدولة العثمانية منذ بداية تأسيسها حتى عام (١٤٢١م).

وهكذا بدأت وتيرة جديدةٌ أخرى من الأحداث، حيث طمعت بعض الدول المجاورة للدولة العثمانية فيها وتطلّعت للنيل منها والاعتداء عليها نتيجةً لتولّي شاب في مقتبل عمره عرش الدولة، ودار في أذهانهم أن الدولة العثمانية قد وهنت، وكان من بين هؤلاء الطامعين الأمير "مصطفى شلبي" أو من يسمى بـ"دوزمجه مصطفى" الذي سلّم نفسَه وعقلَه للبيزنطيين وسلك دربهم حتى إنهم كانوا يوجهونه كالآلة حيث كان يتطلّع إلى اعتلاء عرش الدولة العثمانية منذ زمن.

وفضلًا عن ذلك فقد بدت مرة أخرى مطامع أمراء الأناضول في نهش جسم الدولة العثمانيّة، ومن أبرز هؤلاء الأمراء "يعقوب بك" حاكم "بني جَرْمِيانْ" و"بني قرمان" الذين كانوا ينتظرون ذلك على أحرّ من الجمر للنيل من الدولة العثمانية، وفي غضون ذلك تمرّد "بني منتشه"، كما قام حكام "بني آيدين" و"بني صاروخان" بالاستيلاء على بعض ممتلكات وأراضى الدولة العثمانية، وعلى غرارهم فقد قام "إسفنديار بك" بالاستيلاء على "جانقيري" و"طوسيا" وضمهما إلى ممتلكاته.

وكان هؤلاء الأمراء والقادة يعتبرون أن هذا الوقت فرصةٌ لا يمكن تضييعها، حيث إن السلطان صاحب الخبرة والتجربة في الحروب وإدارة شؤون الدولة قد توفي وتولّى مكانه شابٌ لا يُناهز عمره السابعة عشر ويتّسم بقلّة الخبرة وانعدام التجربة، وتذكّرنا هذه الأحداث بما حدث عام (١٤٠٣م) التي ضعفت فيها الدولة العثمانية وتمزّقت على أيدي أعدائها.

ظهور "دوزمجه مصطفى" من جديد

لقد كان هناك من يخطط جاهدًا للقضاء على الدولة العثمانية وما إن سنحت لهم الفرصة حتى راجعوا دفاترهم وأوراقهم القديمة وفتشوا في ذاكرتهم عمّن كان مناهضًا ومعارضًا للدولة العثمانية أو من يُريد تصفية حسابه مع العثمانيّين أو يودّ الانتقام منهم، فكان "مصطفى شلبي" هو أول من تردّد اسمه في الأذهان، إن هذا الخنجر المسموم الذى انسلّ عن الدولة العثمانية وانزوى عنها فترةً من الزمن؛ سيُزج به داخلها لينخرَ في جسدها ويفتّ من عضدها.

وكانت أولى الخطوات التي خطتها الدولة البيزنطية تجاه الدولة العثمانية في هذا الوقت هي جلوسُهم مع "دوزمجه مصطفى" على طاولة المفاوضات وعقدهم لتلك الاتفاقية على هذا النحو:

"سيكون "مصطفى شلبي" حرًّا طليقًا يعتلي عرش الدولة العثمانية بتأييدٍ ودعمٍ من البيزنطيين وبعض أمراء الأناضول، وبمجرّد اعتلائه العرش يقوم بمنح البيزنطيين سواحل "تساليا" و"بلغاريا" و"جَلِيبُولُو" مقابل ما قدّموه من جهدٍ بالغٍ ومساندةٍ حكيمةٍ له ومساعدته في الوصول إلى العرش".

وبالإضافة إلى ذلك فلقد كان بعضُ أمراء الأناضول -الذين كانوا يقدّرون أعمال السلطان "يلديرم بايزيد" وما قام به من فتوحات- يدعمون ويساندون ابن "يلدريم" المتمرّد على الدولة العثمانية، دون إدراكٍ منهم أن ما يقومون به يصبّ في مصلحة البيزنطيين.

وكان أمراء الأناضول والإمبراطور البيزنطي لا يكلّون ولا يملّون من تحريض "مصطفى شلبي" ضدّ الدولة العثمانية بل كانوا دؤوبي العمل من أجل تحقيق ذلك، ولذلك دائمًا ما كانوا يثيرونه ويستميلونه بالكلمات الحارّة التي تثير حماسَه وتقوّي عزيمته فكانوا يهمسون في أذنه بكلماتٍ من هذا القبيل:

"لا شكّ أن العرش العثماني من حقّك أنت وليس لطفل في السابعة عشر من عمره، بل لا يوجد في الدولة العثمانية من هو أجدر منك لقيادتها وتطويرها، فلا تدعِ القلق والخوفَ يتسلّلان إلى قلبك فنحن معك وطوعُ أمرك حتى تحصل على حقّك وتجلس على العرش، فلا تضيّع حقك وتتركه لمن لا يستحقّه".

لقد أنصت لهم "مصطفى شلبي" واغترّ بكلامهم واقتنع بأنه سيحقّق مآربه بهذا الدعم الهائل من جنودٍ وقادةٍ وعتادٍ.



رسم للسلطان مراد الثاني - فنان (*John Young*)

سرعان ما أنهى تجهيزاته، وانطلق نحو "جَلِيبُولُو"، فقام شعب "جَلِيبُولُو" بالتسليم والإذعان له تقديرًا وعرفانًا منهم بحقّ والده عليهم، إلا أن "شاه ملك بك" قائد قلعة "جَلِيبُولُو" الذى كان يدين بالولاء للدولة العثمانية والسلطان الجديد؛ لم يستسلم ورفض تسليمَ القلعة له ولجيشه، فترك "مصطفى شلبي" أمر القلعة وحصارها لأحد الأمراء القدامى وهو "جنيد بك"، واتّجه هو بجيشه صوب "أدرنه".

وعلى الفور قام السلطان "مراد الثاني" الذي أدرك خطورةَ الموقف بعقد اجتماعٍ مع مجلس الشورى، وقد أصدر السلطان قراره بإرسال الوزير الأعظم "بايزيد باشا" إلى عمّه "مصطفى شلبي" وذلك بناءً على ما اتّفق عليه مجلس الشورى، فتوجه "بايزيد باشا" إلى "أدرنه" مارًّا بـ"رُومَلِي"، ووصلها رغم المعوقات التي افتعلها البيزنطيون، وقد استطاع بحنكته العالية أن يجمع حوله الجنود العثمانيين الموجودين هناك، إلا أنه قد حدث شيءٌ يصعب تفسيره حيث قال له الجنود: "إننا لن نحارب ضد "مصطفى شلبي" ابن السلطان "يلدريم بايزيد"، فحاول "بايزيد باشا" أن يقنعهم ويثنيهم عن هذا الرأي إلا أن كلامه في حق "دوزمجه مصطفى" لم يجد نفعًا ولم يغيّر من الأمر شيء.

وقد تخلى جنود "بايزيد باشا" الذين جمعهم حوله بصعوبةٍ بالغةٍ عنه في المعركة التي دارت في "سزليدره"، وانضموا إلى صفوف "مصطفى شلبي"، ولما ضاقت به السبل اضطرّ الباشا إلى قبول ولاية "مصطفى شلبي"، إلا أن فعلته هذه لم تنجيه من حكم الإعدام، حيث أصدر "مصطفى شلبي" حكم الإعدام على الرجل الذي خلد بخبرته وانتصاراته العسكريّة ذكرَ والده السلطان "بايزيد" عنه على أنه القائد الحاذق الذي تملّك زمام قيادة الجيش في فترة حكمه.

وبموت هذا الرجل قد أُزيلت عقبة فتح "أدرنه" أمام "مصطفى شلبي"، فدخل المدينة دون أيّ مقاومة تذكر، ثم بعد ذلك خضعت العديد من المناطق إلى سيطرة "مصطفى شلبي" مثل "جَلِيبُولُو" في "رُومَلِي"، وهكذا بدأ ناقوس الخطر يدقّ في الأروقة العثمانية بعد زعزعة هيمنة "مراد الثاني" في منطقة "رُومَلِي".

وتبدأ النزاعات الداخلية من جديد

على غرار هذه التطورات الأخيرة عين السلطان "مراد الثاني" "جاندارلي زاده إبراهيم باشا" وزيرًا أعظم خلفًا لـ"بايزيد باشا"، وكان "جاندارلي زاده إبراهيم باشا" يتمتّع بمهارة دبلوماسيّة كبيرةٍ في إدارة شؤون البلاد، حيث كان أوّل ما قام به هو الدخول مع البيزنطيين في مفاوضات إلا أن مقابلته الإمبراطور البيزنطي لم تؤت ثمارها وباءت بالفشل.

وفي تلك الأثناء كان "مصطفى شلبي" منشغلًا بفرض سيطرته على مناطق جديدة، وعلى إثر ذلك انضمّت السفن العثمانية الراسية في "جَلِيبُولُو" إلى صفوف جيشه، وبعث "مصطفى شلبي" برسولٍ إلى الإمبراطور البيزنطي يخبره

"إذا لم تتدخّل في شؤوننا الداخلية فسأتنازل لك عن "جَلِيبُولُو" عندما تستقرّ الأوضاع".

فرحب الإمبراطور البيزنطي بهذا العرض، وفي وقت قصير خضع مضيق "جناق قلعه" ومن بعده مضيق "البوسفور" لسيطرة "مصطفى شلبي"، ثم أبرم بعد ذلك اتفاقيةً مع دولة "جنوة" بشأن صنع سفنٍ جديدة، حيث أدرك أنه لن يتسنى له السيطرة على المضيقين إلا بامتلاك أسطولٍ بحريٍّ قويٍّ يحمي له هذه المنطقة.

وهكذا بدأ ابنا الأسرة الواحدة يستعدّ كلٌّ منهما عسكريًّا ودبلوماسيًّا من أجل شنّ معركةٍ كبيرةٍ على الآخر، إلا أن "مراد الثاني" كان يُبلي بلاءً أفضل في هذه المعركة؛ حيث كان يستعدّ عسكريًّا للحرب من خلال تجهيز جيشٍ قويٍّ يتصدّى به لعدوّه من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى عمل على استمالة البعض من أمراء الأناضول وجذبهم إلى صفّه، ومن ثم استطاع "مراد الثاني" أن يضمّ "جنيد بك" حاكم "بني آيدين" المعروف بالنفاق إلى صفوفه بمجرّد أن وعده بالولاية مقابل أن ينكث في وعده مع "مصطفى شلبي"، وقد قبل "جنيد بك" عرض السلطان "مراد الثاني" متناسيًا ما كان من أمره مع "مصطفى شلبي"، أما الخطوة الدبلوماسية الثالثة التي قام بها "مراد الثاني" هي قيامه بحملةٍ دعائيّة حيث أشاع بين الشعب أن "مصطفى شلبي" قد منح البيزنطيين جزءًا من أراضي دولته.

وكانت النتيجة الطبيعية لأعمال السلطان "مراد الثاني" العبقرية هذه أنه استطاع تحقيقَ مراده ومبتغاه، فقد نخرَ في عضد جيش "مصطفى شلبي" وأضعفه نفسيًّا وفرّقه وهزمه على أرض الواقع هزيمةً نكراء، فاضطرّ "مصطفى شلبي" إلى الانسحاب نحو "جَلِيبُولُو" تاركًا جيشَه من خلفه.

وفي تلك الأثناء حدثت تطوّرات أخرى لم تكن في صالح "مصطفى شلبي"، حيث انضمّ "الجنويّون" -الذين أبرم معهم "مصطفى شلبي" عقدًا يقتضي إمداده بالسفن الحربية اللازمة- إلى صفوف السلطان "مراد الثاني"، وعبر جنود "مراد الثاني" بهذه السفن الحربية إلى سواحل "جَلِيبُولُو".

لقد أدرك "مصطفى شلبي" أن من قطع له الأيمان بنصرته ومؤازرته بالأمس هم اليوم من تخلّوا عنه بكلّ سهولةٍ، وقرر الهروب إلى "الأفلاق" ولكنه قبض عليه في الطريق، وأُحضر إلى مدينة "أدرنه" التي دخلها منذ عدّة أشهر وهو في نشوة النصر وقمّة الفرح ولكنه في هذه المرّة أسيرٌ سجين، لقد راعت هيئة المحكمة التي كانت تُقاضيه وتحقّق في قضيّته موقفَه وأخذت بعين الاعتبار كلّ الجرائم التي ارتكبها من تمرّده على الدولة وإفسادِه للاستقرار الذي تنعم به وخرقه لما يتمتّع به المجتمع من نظامٍ واستقرار، ولذلك حكمت هيئة المحكمة عليه في مايو/أيار من عام (١٤٢٢م) بالإعدام، وقوبل هذا الحكم بترحابٍ كبيرٍ من قِبَلِ المجتمع العثماني بأسره.

المحاولة السادسة لحصار إسطنبول

بعد أن قضى السلطان "مراد الثاني" على الفتنة والصراعات الداخليّة للدولة العثمانية استتبّت الأمور لصالحه حيث أصبح باستطاعته أن ينعم بالراحة رغم ما في قلبه من أسًى وحزنٍ تجاه عمّه.

وفي غضون ذلك كان "مراد الثاني" قد ضاق ذرعًا بالحيل ووسائل الخداع التي لا يتوانى الإمبراطور البيزنطي عن استخدامها ضدّ الدولة العثمانية، إذ إن موقف الإمبراطور البيزنطي العدائي من الدولة العثمانية وتحريضه لـ"مصطفى شلبي" ضدّ الدولة العثمانية ثمّ مساندته من أجل الوصول إلى العرش رغمَ العهود التي قطعَها على نفسه مع الدولة العثمانية؛ لا بدّ له من ردّة فعلٍ حاسمةٍ.

وفي النهاية قرر السلطان "مراد الثاني" حصار إسطنبول، وهكذا حوصرت المدينة الساحرة الأثرية العريقة عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية للمرة السادسة في تاريخ العثمانيين، ومن الملفت للنظر في هذا الحصار أن الأسطول العثماني قد شارك في حصار المدينة لأوّل مرّةٍ في تاريخه، وإن دلّ هذا الوضع على شيءٍ فإنّما يدلّ على مدى التطوّر الذي وصلت إليه البحريّة العثمانية في هذا العهد عن سابقه، وبالإضافة إلى ذلك؛ فلقد كان الجيش المشارك في الحصار مسلّحٌ بالأبراج المرتفعة ذات العجلات ومزوّد بالمدافع الحربيّة، إلا أنهم كانوا على علم بأن هذه المدافع لن تكفي لهدم أسوار إسطنبول المنيعة الشهيرة لكن شكلها الضخم يرفع من الروح المعنوية لدى الجنود ويبثُّ فيهم روح التفاؤل والطمأنينة، وتحرّك الجيش العثماني الذي يُناهزُ قوامه ثلاثون ألف جنديّ صوب إسطنبول في العشرين من يونيو/حزيران عام (١٤٢٢م).

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي التوصّل إلى إبرام معاهدةٍ مع العثمانيّين من أجل رفع الحصار وذلك عن طريق إرسال وفدٍ إلى السلطان العثماني، ولكن السلطان "مراد الثاني" رفض هذه المعاهدة، واستمرّ الحصار نحو خمسين يومًا، إلا أنه في النهاية لم يتحقّق حلم الفتح الذي راودهم منذ زمنٍ بعيدٍ، لأن الله قدّر أن يكون ذلك الفتح من نصيب شابٍّ سيأتي بعد فترةٍ من الوقت.

والأمر الإيجابي من هذا الحصار أنه ساعد العثمانيين في معرفة ما ينقصهم من عدّةٍ وعتادٍ من أجل فتح إسطنبول، كما دوّنوا ملاحظاتهم واقتراحاتهم المهمّة، وحدّدوا ما ينقصهم من أجل هذا الفتح وحلّلوا المدينة تحليلًا دقيقًا، ولكن كانت هناك معضلةٌ كبيرةٌ تعرقل العثمانيّين وتمنعهم من متابعة الحصار والسير على طريق فتح إسطنبول ألا وهي أطماع أمراء الأناضول وغيرتهم الشديدة من العثمانيّين وتمرّداتهم المتواصلة.

ظهور منازع جديد على العرش

قام الملكُ البيزنطيّ "مانويل الثاني" بإحدى الحِيَلِ المشهورة عنه وهي بثّ النزاع في القصر العثماني حول العرش ومن أجل هذا الغرض عمد إلى الأخ الأصغر للسلطان "مراد الثاني" الذى يبلغ من العمر ثلاث عشر عامًا، حيث قام الملك "مانويل الثاني" بتعقّب ولي العهد مصطفى الذى يحكم مدينة "حميديلي" -"إسبرطة" حاليًا- واستطاع بمساعدة سفرائه هناك أن يُجنّد "إلياس بك" لحسابه لدى ولي العهد الشابّ، وبذلك أصبح على درايةٍ تامّةٍ بكلّ ما يفعله الأمير مصطفى وتودّد إليه وقال له على سبيل النصيحة: "لقد غصب أخوك "مراد الثاني" حقّك في السلطنة، فإما أن تثور عليه الآن وتطالب بحقّك وإلّا فإن تباطأتَ في هذا الأمر ستكون عاقبتُك غير محمودة، ولو تمرّدت على أخيك سأساندك بكلّ ما أوتيتُ من قوّة"، فانخدع الأمير مصطفى -الذي لم يتجاوز الثالثة عشرةَ من عمره- بهذه الكلمات كما أن تحريض وزيره لعِبَ دورًا مهمًّا في قبول عرض الإمبراطور، فقام بتشكيل قوّة عسكريّة بدعمٍ عسكريّ بيزنطيّ وكان من أهمّ المشاركين في صفوف هذا الجيش إمارتا "بني قرمان" و"بني جَرْمِيانْ" اللتين تُكنّان العداوة والبغضاء للعثمانيّين منذ زمنٍ بعيدٍ.

حاصر الأمير مصطفى بقوّاته مدينة "بورصة"، وعلى إثر ذلك أرسل "مراد الثاني" فرقةً عسكريّةً بقيادة "ميحال أوغلو" إلى "بورصة"، فهزموا جيش مصطفى هزيمةً نكراء فرّ على إثرها الأمير مصطفى هاربًا ولاجئًا عند الإمبراطور البيزنطيّ "مانويل الثاني" محتميًا به، إلا أن "مانويل" تخلّى عنه وأرسله إلى مدينة "إِزْنِيكْ".

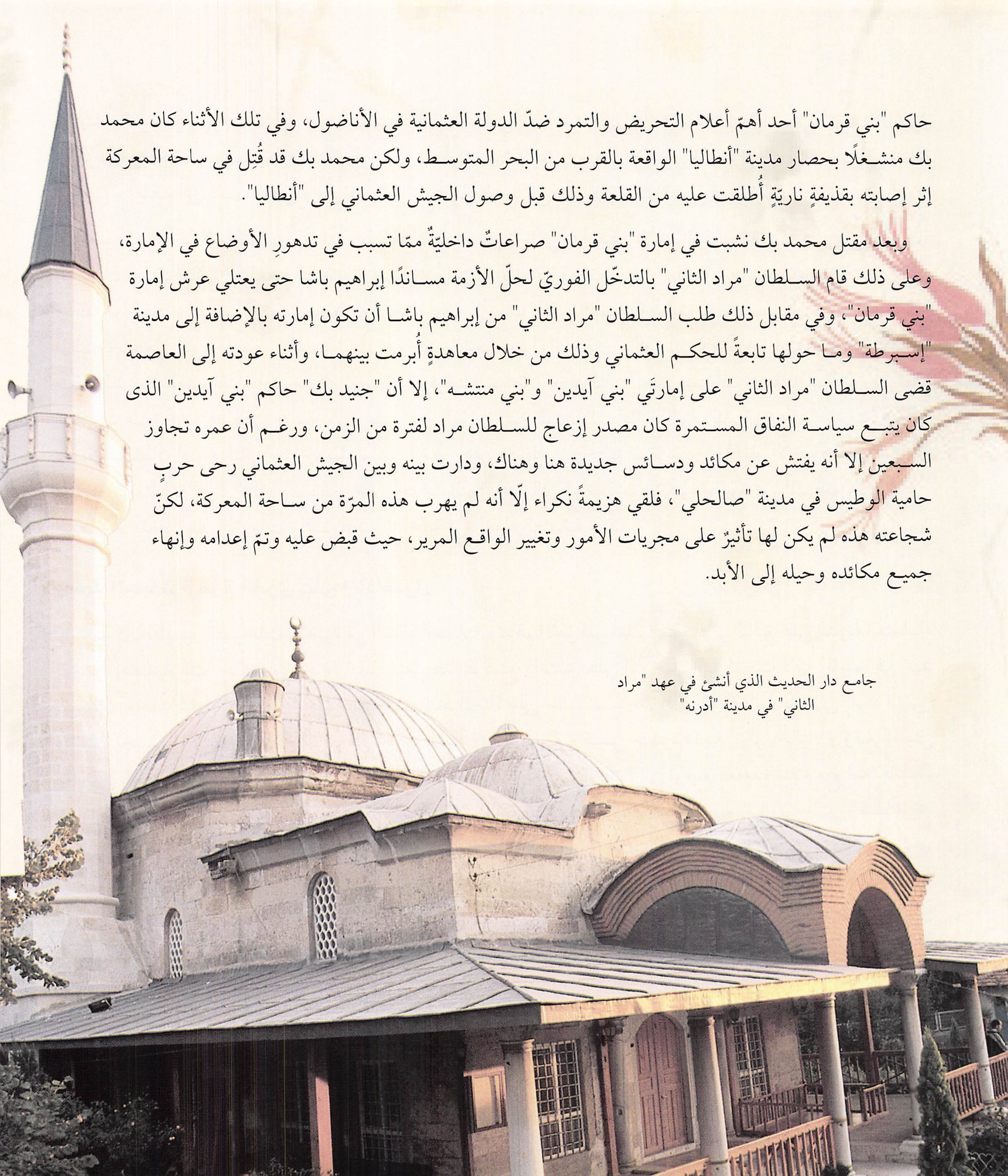
مشهد من مدينة إسطنبول

ولقد أثبتت هذه الأحداث التي واجهها السلطان "مراد الثاني" أنّ أعداء الدولة العثمانية لا يُختَزلون في أمراء الأناضول والبيزنطيّين فحسب وإنّما تطرّق الأمر إلى استيلاء أمير "أفلاق" على بعض الأراضي التابعة للدولة العثمانية في منطقة "رُومَلِي"، أضف إلى ذلك البغضَ والكراهيةَ التي بدت من المجريّين والبنادقة تجاه الدولة العثمانية.

كما وردت أخبارٌ سيئةٌ من "إِزْنِيكْ"، مفادُها أن الشعب الإِزْنِيكي بدأ يدعم الأمير الشاب مصطفى، وعلى الفور قام السلطان "مراد الثاني" -المعروف بقدرته على درءِ وإخماد الأزمات قبل تفاقمها- بالتحرّك من "أدرنه" صوب "بورصة"، وبعد أن أخضع "بورصة" تحت سيطرته، اتّجه صوب "إِزْنِيكْ"، لكن المواجهة بينهما لم تحصل لأن موجات الصقيع فتكت بجزءٍ من جنود مصطفى وشتت شملهم، والتفَّ الشعبُ حول السلطان "مراد الثاني" مرّةً أخرى، وأما الجزء المتبقّى من جيش مصطفى فقد خاضَ معركةً شرسةً مع قوات السلطان "مراد الثاني" على مشارف مدينة "إِزْنِيكْ"، وفي نهاية المطاف هُزِمَ جنود مصطفى هزيمةً نكراء على أيدى القوات التي يقودها السلطان "مراد الثاني"، وهكذا صارت "إِزْنِيكْ" تابعةً للسلطان "مراد الثاني" من جديد، وأُلْقِيَ القبضُ على مصطفى ورجاله المقرّبين واحدًا تلوَ الآخر، وبهذه الطريقة استطاع السلطان "مراد الثاني" أن يقضي على أحداث التمرّد هذه التي لم تستمر إلا فترة قصيرة، وبذلك فإن "مراد الثاني" استطاع أن يقضي على الأزمات والصراعات الداخلية في الدولة العثمانية مؤقّتًا.

بسط السيطرة مرّة أخرى على الأناضول

لقد كان لظهور الصراعات الأخيرة في الدولة العثمانيّة وتفاقم الأمر في تلك الفترة الأثر البالغ على الدولة العثمانية، فها هو "إسفنديار بك" حاكم "بني جندار" قد استغل هذا الوضع واعتدى على الأراضي التي مُنحت لابنه "قاسم" في عهد السلطان "محمد شلبي"، فقد قام الجيش العثماني بالتحرّك بناءً على طلب المساعدة الذي قدمه قاسم بك إلى "مراد الثاني" والتقوا بجيش "إسفنديار بك" بالقرب من "جرده (*Gerede*)" -التي تقع ضمن حدود مدينة "بولو" حاليًا- وأوقع الجيش العثمانيُ بأتباع "إسفنديار" هزيمةً نكراء، وفي نهاية المطاف اضطرّ "إسفنديار بك" إلى توقيع معاهدة سلام مع ابنه "قاسم"، ووفقًا لهذه المعاهدة فإنه سيعيد الأراضي التي استولى عليها إلى ابنه، وكذلك فإن العثمانيين سيعيدون مدينتي "قسطمونو" و"كورا (*Küre*)" التي فتحوها إلى "إسفنديار بك"، وتنصّ الاتفاقيّة أيضًا على أن النسبة الكبرى من الدخل الذي يدرّه منجم النحاس الذي تمَّ اكتشافه في "كورا" تكون من حقّ العثمانيّين، بالإضافة إلى ذلك عليه أن يُرسل إلى العثمانيين جنودًا إذا طلب منه ذلك، وفي تلك الأثناء زوّج "إسفنديار بك" المسنّ ابنته الأميرة "خديجة" من السلطان مراد الثاني، وأُقيمت مراسم الزواج في مدينة "دَفْركاني (*Devrekani*)"، فكان هذا الزواج سلاحًا ذا حدّين بالنسبة للسلطان الشاب فهو قد تزوّج وانتهى من مرحلة العزوبية من جانب، ومن جانبٍ آخر فقد ربطته بأكبر أمراء الأناضول رابطة مصاهرةٍ، وبهذا استطاع أن يُخمد جزءًا كبيرًا من الصراعات الداخلية في الأناضول، ثم ولّى السلطان العثماني وجهه هذه المرّة للقضاء على محمد بك



حاكم "بني قرمان" أحد أهمّ أعلام التحريض والتمرد ضدّ الدولة العثمانية في الأناضول، وفي تلك الأثناء كان محمد بك منشغلًا بحصار مدينة "أنطاليا" الواقعة بالقرب من البحر المتوسط، ولكن محمد بك قد قُتِل في ساحة المعركة إثر إصابته بقذيفةٍ ناريّةٍ أُطلقت عليه من القلعة وذلك قبل وصول الجيش العثماني إلى "أنطاليا".

وبعد مقتل محمد بك نشبت في إمارة "بني قرمان" صراعاتٌ داخليّةٌ ممّا تسبب في تدهورِ الأوضاع في الإمارة، وعلى ذلك قام السلطان "مراد الثاني" بالتدخّل الفوريّ لحلّ الأزمة مساندًا إبراهيم باشا حتى يعتلي عرش إمارة "بني قرمان"، وفي مقابل ذلك طلب السلطان "مراد الثاني" من إبراهيم باشا أن تكون إمارته بالإضافة إلى مدينة "إسبرطة" وما حولها تابعةً للحكم العثماني وذلك من خلال معاهدةٍ أُبرمت بينهما، وأثناء عودته إلى العاصمة قضى السلطان "مراد الثاني" على إمارتَي "بني آيدين" و"بني منتشه"، إلا أن "جنيد بك" حاكم "بني آيدين" الذى كان يتبع سياسة النفاق المستمرة كان مصدر إزعاج للسلطان مراد لفترة من الزمن، ورغم أن عمره تجاوز السبعين إلا أنه يفتش عن مكائد ودسائس جديدة هنا وهناك، ودارت بينه وبين الجيش العثماني رحى حربٍ حامية الوطيس في مدينة "صالحلي"، فلقي هزيمةً نكراء إلّا أنه لم يهرب هذه المرّة من ساحة المعركة، لكنّ شجاعته هذه لم يكن لها تأثيرٌ على مجريات الأمور وتغيير الواقع المرير، حيث قبض عليه وتمّ إعدامه وإنهاء جميع مكائده وحيله إلى الأبد.

جامع دار الحديث الذي أنشئ في عهد "مراد الثاني" في مدينة "أدرنه"

سلوكٌ مثالي من يعقوب بك حاكم "بني جَرْمِيانْ"

في تلك الفترة وقعت حادثة غريبة، حيث إن "يعقوب بك حاكم "بني جَرْمِيانْ" -ذا الباع الطويل في إثارة الفِتن وإحداث الخلل والنزاعات والذي كان من المناهضين والمتمرّدين ضدّ الدولة العثمانية- قد أوصى المقربين منه قبل وفاته قائلًا:

"حذارِ من الوقوع في الخطإ الذي وقعتُ فيه، اعملوا على تسليم إمارتنا للدولة العثمانية واجعلوها تابعةً لهم، ولا تتنازعوا على العرش، وإياكم أن تُولّوا أحدَكم على العرش بل اجعلوا السلطان "مراد الثاني" هو الوالي عليكم فإن هذا سيكون خيرًا لكم جميعًا".

وبالفعل نفذوا وصيته بحذافيرها، وانضمت إمارة "بني جَرْمِيانْ" ومدينة و"كُوتَاهْيَا" إلى الأراضي العثمانية.

إن السبب الكامن وراء تصرّف "يعقوب بك" المثالي هو ما قام به السلطان "مراد الثاني" تجاهه أثناء زيارته "أدرنه" حيث أراد "يعقوب بك" الذي طعن في السن زيارة السلطان العثماني ليتشاور معه في بعض الأمور التي تشغل باله منذ فترةٍ، وفي سبيل ذلك أرسل "يعقوب بك" خطابًا إلى السلطان "مراد الثاني" أخبره فيه أنه يريد مقابلته، ولم يمض وقت حتى ردّ عليه السلطان "مراد الثاني" بخطاب جاء فيه "على الرحب والسعة نحن بانتظاركم في أي وقت" وقد أظهر "مراد الثاني" احترامًا كبيرًا لـ"يعقوب بك" الذي يكبره بسنوات، وقد بلغ من هذا الاحترام أنه نزل من قصره حتى وصل إلى المكان الذى يلتقى فيه نهر "مريتش (*Meritsa*)" بنهر "أرجنه (*Ergene*)" من أجل مقابلته، وعندما وصل "يعقوب بك" إلى "أدرنه" وجد حفاوةً وترحيبًا من قبل الشعب لم يُرَ مثله من قبل، كما عزفت فرقة الموسيقى في مراسم استقباله أعذبَ وأجمل الألحان.

وقد منح له السلطان "مراد الثاني" مجموعةً منتقاةً من أفضل الجنود ممن يكونون في خدمته وحمايته وجعلهم تحت تصرّفه أثناء الزيارة، وكان على رأس تلك المجموعة المكلفة بخدمة وحماية "يعقوب بك" رجل يعرفه عن قرب وأحد أشهر أطباء عصره والعالم والشاعر "يوسف سنان الدين" الملقّب بـ"شيخي"، وقضى "يعقوب بك" أيامه في "أدرنه" وعومل معاملةَ ملك، فمن أجل كلّ هذه الحفاوة والاهتمام والاحترام الذي لقيَه وسَعِدَ به وسُرَّ منه "يعقوب بك"؛ قام بإهداء كل

رسم لمدينة "أيدين" قديمًا - تركيا



ما لديه من ذهبٍ وعملاتٍ نقديّة وأشياء ثمينة قيّمة إلى من حولَه، وكان هذا السخاء وهذا الكرم الزائد سببًا في أنه سيعود إلى بلده صفر اليدين حتى إنه اضطرّ إلى الاستدانة من السلطان "مراد اثاني"، وهذه الحادثة تظهر لنا مدى تفوّق السلطان "مراد الثاني" في التصرّفات الإنسانية فضلًا عن حنكته في السياسة الخارجية.

وقد أدرك "يعقوب بك" أن العثمانيّين لا يمتلكون القوة فحسب وإنما هم أبلغ مثال على الإنسانية والأخلاق واحترام حقوق الغير والقانون، لذلك قرّر أن يضمّ دولته تحت سماء الإمبراطورية العثمانية، ويتّضح من ذلك أن الإنسانية والتعاملَ بإيجابيةٍ مع الأحداث هما السبيل للوصول إلى الهدف السامي.

العلاقات الثنائية بين العثمانيين والصرب

بعد وفاة "ستيفان لازارافيج (*Stefan Lazarrevic*)" حاكم الصرب وحليف العثمانيّين تولّى مكانه ابن أخته "دوران برانكوفيج (*Duran Brankovic*)" والذي عرف باستبداده وظلمه للشعب الصربي، وكان هذا الطاغية لا ينوي التحالف مع العثمانيين، كان يثق بنفسه إلى أبعد الحدود، ويستمدّ بعض قوته من إمبراطور "ألمانيا" وملك "المجر".



السلطان مراد الثاني

أراد حاكم صربيا الشاب المستبدّ أن يمنح الألمان والمجريّين قلعة "جولوباش (*Golubac*)" الواقعة على ساحل نهر الدانوب؛ من أجل عرقلة تقدّم الأتراك تجاه أراضي "المجر"، في حين أن قائد القلعة الصربي قد توصّل إلى اتّفاقٍ سرّيٍ مع العثمانيّين يقتضي أن يترك لهم هذه القلعة كيلا يستولي عليها "سيجيسموند"، وهكذا فشلت محاولات ملك "المجر" الرامية للاستيلاء على القلعة، واضطر حاكم "الصرب" بعد تسليم القلعة أن يعقد اتفاقًا مع العثمانيّين يقتضي دفع الجزية للعثمانيين وأن لا يتحالف مع المجر ثانية وأن يدعم الجيش العثماني بالجنود الصرب.

وفي تلك الأثناء قد تملّك الخوف من "دان الثاني" أمير أفلاق فبعث بسفيرٍ إلى الدولة العثمانيّة يطلب إبرام معاهدة سلام، وقَبِل السلطان مراد أيضًا توقيع اتّفاقٍ معه، ثم أكمل مسيرته تجاه أوروبا حتى وصل "كرواتيا".

إن الهزيمة النكراء التي مُنِيَ المجريّون في حربهم ضدّ العثمانيّين كان لها دويّ يتردّدُ في شتى أسقاع أوروبا، ولذلك فقد رأى بعض

الحكام في أوروبا أنه من الأفضل لهم التحالف مع السلطان "مراد الثاني"، وقابل "مراد الثاني" ذلك بالترحاب مقابل دفع الجزية، وهذا يعني أن يأخذ العثمانيون الجزية مقابل حماية الأرض، وفعلًا فلقد قام العثمانيّون بحماية كل الممالك التي دفعت لهم الجزية وأدّوا مهمّتهم على أكمل وجهٍ دون تقصير.

وكانت كلّ هذه التطوّرات تُثير قلق البنادقة على الرغم من تفوّق أسطولهم البحريّ على سائر الأساطيل في ذلك الوقت، إلا أن القوات البرّيّة العثمانيّة بالإضافة إلى القوّات البحريّة -التي تتطوّر يومًا بعد يومٍ- كانت تُفزعهم وتُثير قلقَهم، وقد قام البنادقة بتقديم شكوى إلى البابا -الذي يُعَدُّ الأعلى مقامًا في العالم الكاثوليكي- ضدّ ملك المجر، جاء فيها أن المجريّين عقدوا اتّفاقًا مع الدولة العثمانية، إلا أن البابا لم يكترث بشكواهم، فلما ضاقت السبل بالبنادقة في أوروبا اتّجهوا نحو الشرق، وهناك طرقوا على الفور أبواب "بني قرمان" الذين يُكنّون العداوة والبغضاء منذ زمنٍ بعيدٍ للدولة العثمانيّة فعرضوا عليهم الشراكة والتحالف ضدّ الدولة العثمانية، وتوسّط في هذا الاتّفاق حاكم قبرص.

التيموريّون.. أمل أوروبا الجديد

في تلك الآونة انتشرت بين الأوساطِ شائعةٌ كانت مفاجأةً بالنسبة للعثمانيّين والغربيّين على حدٍّ سواء وهو: أن التيموريّين عائدون إلى الأناضول من جديد.

فبعد وفاة "تيمور" خلفه ابنه "شاهروخ"، الذي جاء برفقةِ أبيه إلى "أنقرة" عام (١٤٠٢م)، لقد كان هذا الخبر مفاجأةً بالنسبة إلى الغرب أضِف إلى ذلك أنه كان بمثابة بشرى عظيمة بالنسبة لهم، فالأوروبيّون يعتقدون أن الأمور ستسير كما كانت في عهد "بايزيد"، حيث يقتتل حاكمَان تركيّان كبيرَان فيعود هذا الأمر على الأوروبّيين بالنفع، ومن ثمّ يتخلّصون من هيمنة العثمانيّين.

وبينما كانت الآمال كلّها قد بُنيت على ما سيفعله التيموريّون، إذ بالتيموريّين يُخفقون ولا يستطيعون الوصول إلى سقف الأمنيات، فقد خانهم القدر في هذه المرة، حيث إن نجل "تيمور" قام بهزيمة "قراقيونلو *(Karakoyunlu)*"[٣٢] أثناء مسيرته إلى أراضي الأناضول إلا أنه رغم انتصاره قد ضعف جيشه، علاوة على أنه تلقّى أخبارًا سيئةً وصلته من الصين، ممّا أدّى ذلك إلى عدول "شاهروخ" عن فكرة الاستيلاء على الأناضول فقرّر العودة إلى تركستان، ولهذا فقد حزن الغربيّون جرّاء هذه الأحداث التي لم يكونوا يتوقّعونها، بينما اطمأنّ أهالي الأناضول والعثمانيين على حدٍّ سواء، وهكذا عادت مصيبة التيموريّين أدراجَها قبل أن تدقّ باب العثمانيّين.

(٣٢) **"قراقيونلو" أو الخرفان السود**: هي قبيلة من أصل التركمان حكمت شرق الأناضول، القفقاس"، أذربيجان، وبعض الأجزاء من إيران والعراق حاليًا، سنوات (١٣٨٠- ١٤٦٩م). (المترجم)

لم يكن "مراد الثاني" يعرف الفتور والكسل، فقد عمل على تقوية الصلة بينه وبين الدولة المملوكيّة في مصر، وكذلك مع دولة "القبيلة الذهبية"(٣٣) الواقعة شمال البحر الأسود.

وقد حان الوقت بالنسبة للسلطان "مراد الثاني" للتوجه إلى أوروبا من جديد، وكانت "سَالُونِيكْ" هي المحطة الأولى في أجندة فتوحاته في الغرب، حيث إن سليمان شلبي كان قد سلّم "سَالُونِيكْ" للبيزنطيين بعد أن فُتحت في عهدٍ سابقٍ من قبل السلطان "يلديرم بايزيد"، أما البيزنطيون فقد قاموا ببيعها للبنادقة، وممّا يثير الانتباه أن شعب "سَالُونِيكْ" لم ينعم بالسعادة مطلقًا في ظلّ حكم "البنادقة" لهم وذلك وفقًا للأخبار القادمة من هناك، حيثُ كان "البنادقة" ينحدرون من أصول "لاتينية" ويتبعون المذهب الكاثوليكي فكانوا ينتهجون في "سَالُونِيكْ" منهجَ توطين المهاجرين الأجانب ذوي الأصول اللاتينية مكان الشعب "السَالُونيكي" ويقومون بطرد السكان الأصليين منها، ولم يكتف البنادقة بهذه التجاوزات التي ارتكبوها في حقّ شعب "سَالُونِيكْ" فقد كانوا يعاملون هذا الشعب المسكين أسوأ معاملة، ويفرضون عليهم الضرائب الجائرة، ممّا أدّى إلى انبهار شعب "سَالُونِيكْ" بالأتراك وترسيخ فكرةٍ في أذهانهم، وهي أن العثمانيين فقط هم من يمكنهم دحر "البنادقة".

السهام المحمّلة بالرسائل واسترداد "سَالُونِيكْ"

تقبّل الله صلوات شعب "سَالُونِيكْ" وأمنياتهم حيث إنهم لم يلبثوا كثيرًا حتى عادوا إلى سابق عهدهم تابعين للدولة العثمانية، وقد حدث ذلك بعد مقابلة السلطان مع سفير البندقية حيث قال له:

"إن "سَالُونِيكْ" مدينة تابعة للدولة العثمانية حيث كانت تحت سيطرة جدّي "بايزيد"، ولنا الحقّ فيها، والدليل على ذلك أن شعب "سَالُونِيكْ" يحبّنا ويقدرنا، فهذه المدينة في الأصل مدينة بيزنطية، إلا أن البنادقة يريدون أن يضمّوها إلى ممتلكاتهم اليوم وهذا لن يحدث، لأنه إذا كان هناك حقّ للملك البيزنطي في حكمها؛ فإنه لا حقّ مطلقًا للبنادقة اللاتينيين في امتلاكها أو حتى حكمِها، اذهب وأخبر قادتك وحاكمك بأنه إما أن تتخلّوا عن "سَالُونِيكْ" وإما أنّكم ستلقون ما لا قِبَلَ لكم به، وستجدونني بجيشي فوق رؤوسكم وعندئذٍ لن يمنعكم مني أحد".


مخطوطات في "سانوليك" ترجع إلى عهد "مراد الثاني"

(٣٣) **القبيلة الذهبية**: هي قبيلة مغولية ثم أصبحت بعد ذلك إمارة تركية، وقد عرفت بالبداية بإمارة "القبجاق" أو مملكة "جوجي"، انتشرت في الجزء الشمالي الغربي من إمبراطورية المغول الآن روسيا و"أوكرانيا" و"مولدوفا" و"كازاخستان" و"القوقاز". (المترجم)

وما إن غادر السفير حتى أمر السلطان بانعقادِ مجلس الشورى ، فاستمرّ الاجتماع مدّة يسيرةً، على إثره امتطى السلطان "مراد الثاني" صهوةَ جواده متّجهًا من مدينة "أدرنه" إلى مدينة "سرز" آمرًا جيشه بالتأهّب والاستعداد للخروج لملاقاة البنادقة، وفي الطريق التقى بالأمير حمزة قائدِ قوّات الأناضول، فالتحمت القوات وتابعت زحفها.

وما إن وصل السلطان "مراد الثاني" إلى "سرز" التي كانت تابعة في وقتٍ سابقٍ للدولة العثمانية حتى أمر بفرض حصارٍ خانقٍ عليها، وبينما هم في اليوم الأول من الحصار إذ وقع زلزال عنيفٌ في "سَالُونِيكْ" ممّا جعل القادة السلونيكيّين ذوي الأصل البندقي يعتبرون هذه الكارثة نذير شؤم وفألًا سيّئًا بالنسبة لهم، لأن كلمة زلزال ليس لها تفسير لدى السكان الأصليين إلا سوء الطالع والشقاء المستقبلي، وفي هذه الأثناء كان حمزة بك قد قام بعمل مثيرٍ جدًّا، حيث أمطر المدينة بوابل من السهام المحمّلة بالعديد من الرسائل المكتوب فيها "ألا ترون أن الأرض والسماء راضيةٌ عمّا نقوم به، وتريدنا أن نستردّ "سَالُونِيكْ"؟ ألا تستسلمون؟!"، وغرضُ الباشا من ذلك هو إقامة جسرٍ من التواصل مع الشعب "السَالُونِيكي" وإقناعهم بتسليم المدينة دون إراقةٍ للدماء، وكان الشعب ينحاز إلى العثمانيين ويدعمهم من صميم قلبه، إلا أنهم يعيشون حالةً من التخبّط والتردّد، فلجأ جزءٌ منهم إلى الكنيسة والبعض الآخر أغلق عليه بابه.

أصبح الشعب في حيرةٍ من أمره بسبب الأقاويل التي زعمت بأن "البنادقة" سيتخلّون عن الدفاع عن المدينة، إلا أن الحاكم البندقي رفض عرض تسليم المدينة، وبناءً على ذلك فقد هاجم الجنود العثمانيون المدينة بغيةَ الاستيلاء عليها، فشبّ الذعر بين الجنود البنادقة بمجرّد رؤيتهم بعضَ الجنود العثمانيّين يصعدون أبراج القلعة، فراحَ البعض من هؤلاء الجنود يُلقون بأنفسهم من فوق جدران القلعة إلى الأرض والبعض الآخر ألقى بنفسه في البحر، فلما وصل الجنود العثمانيون إلى قمم القلعة لم يجدوا من يتصدّى لهم من فوق أبراج القلعة، وهكذا سقطت "سَالُونِيكْ" للمرة الثانية في يد العثمانيين في الثالث عشر من مارس/آذار (١٤٣٠م).

وبعد فتح مدينة "سَالُونيكْ" قام العثمانيون باستيطان المهاجرين من ذوي الأصول التركية الذين جُلبوا من سهل "وارادار" إلى هذه المدينة من قِبَلِ العثمانيّين، وإنّ قصر مدة الحصار وسرعة تحقيق الفتح ليبرهن بوضوحٍ تامٍّ على مدى القوة العسكرية التي توصل إليها العثمانيون.

قلعة "سَالُونِيكْ"

الخوف من زحف العثمانيين

فـي خضـمّ تلـك التطـورات التـي جـرت فـي "سَـالُونِيكْ" قام البنادقـة بالاعتـداء علـى الأسـطول العثماني في عـرض البحر على مقربـةٍ مـن سـواحل "جَلِيبُولُـو"، آملين بذلك أن يُفـكَّ الحصار عن البنادقـة المحاصرين في "سَـالُونِيكْ"، ووقعت معركـةٌ حربيّةٌ بحريّةٌ بيـن الطرفيـن علـى سـواحل "جَلِيبُولُو"، مما أسـفرت عـن انتصار الجيش العثماني، واضطر الأسـطول البندقي إلى الانسحاب، وفي عـام (١٤٣١م) قام البنادقـة بمهاجمة مضيق "الدردنيل" ثأرًا للهزيمة النكراء التي لحقتهم في "سَالُونِيكْ".

وكانت نتيجة هذا الهجوم إلحاق أضرار بالغةٍ في قلاع العثمانيين الواقعة على سواحل المضيق من جهة الأناضول، فدعاهم السلطان "مراد الثاني" إلى توقيع معاهدة سلام فيما بينهم، فقبل البنادقة على الفور هذا الاقتراح خوفًا من زحف العثمانيين صوب جزيرة "وابية".

ترحيب شعب "إبيروس (*Epirus*)"(٣٤) بالعثمانيين

لقـد كانـت "إبيـروس" دولـةً صغيـرة إلا أنهـا اعتبـرت في عهد مـن العهود دولـةً فعّالةً ومؤثّرة في المنطقة، وهـي اليوم تقـع ضمن الحـدود الألبانيّـة، ومن أشـهر مدنهـا "بريفيـزا (*Preveza*)" ويوانينا (*Loannina*)"، وقـد كانـت هـذه الدولة الصغيرة محـلًّا للصراع بين العثمانييـن واليونانييـن والألبانيّيـن والصـرب حتـى نهايـة الحرب العالميّـة الأولـى، ولأهمّيّـة الموقـع الإسـتراتيجي الـذي تتمتّـع به هذه الدولـة الصغيرة التي فُتحت من قبـل العثمانيين في عهد السـلطان "بايزيد"، فقد طمـع السـلطان "مراد الثاني" في فتحها وضمّها إلى الدولة العثمانية مرة أخرى بعد أن استقلّت بحكمها وتمرّدت على العثمانيين إثر معركة "أنقرة".

كانـت منطقـة "إبيروس" تخضـع لحكم أسـرة "توكو" الإيطالية، ولما توفي "كارلو توكو الأول" شـهدت الدولة نزاعات وصراعـات علـى الحكم، وكما هو الحال في كلّ زمانٍ ومكانٍ فإن الشـعب يكون هو أكثـر المتضرّرين من تلك النزاعات،

(٣٤) إقليم إبيروس: هو أحد أقاليم اليونان الشمال غربية. (المترجم)

وعلاوةً على ذلك فإن شعب "إبيروس" يعتقدون أن حكامهم الإيطاليين لا يمتّون لتاريخهم العريق بأيّ صلة، ولذلك بدت بوادر التفكير في الحكم العثماني وبدأت هذه البوادر تنتشر شيئًا فشيئًا في العاصمة "يوانينا"، حيث تولّدت لدى الشعب فكرة فتح العثمانيّين لبلادهم، ونظرًا لجدّية الموقف ولرغبتهم الشديدة في أن يتحقق ذلك شكلوا وفدًا منهم وأرسلوه إلى السلطان "مراد الثاني" المتواجد آنذاك في "سَالُونِيكْ"، وفي نهاية المشاورات قاموا بتسليم المفتاح الرمزي للمدينة إليه، وأثناء اللقاء فهم السلطان "مراد الثاني" أن القادمين هم مجموعة مفوضة من قبل الشعب، فسألهم قائلًا:

- ما الذى تريدونه مني بالضبط؟"

قال الوفد "إن شعب "إيبوس" فوّضنا للتحدّث باسمه ونحن بدورنا نستطيع تسليم مفاتيح البلاد إليكم وفي مقابل ذلك نطالب سيادتكم ألا تعزلوا أحدًا منّا عن وظيفته في الدولة وكما نطلب منكم الحكم بيننا بالعدل والمساواة وتحقيق الأمن والاستقرار في البلاد، ونحن نثق بكم في هذا الشأن ثقةً عمياء".

وأعرب السلطان عن موافقته على مطالبهم، وانطلقَ على الفور إلى بلاد "إبيروس" ففتحها وأخضعها للتاج العثمانيّ من جديد، وهكذا تم فتح بلاد "إبيروس"، وهذه الحادثة كانت كافيةً لإظهار مدى القوة التي وصلت إليها الإمبراطورية العثمانية في بلاد "البلقان"، ومدى حبّ شعوب تلك المناطق للعثمانيين.

تضارب الأحداث الحسنة بالسيّئة

كانت هناك أحداث مؤسفة بجانب تلك الأحداث السعيدة، حيث إن الزلزال الذي حدث أثناء حصار "سَالُونِيكْ" لم تتأثّر به تلك المدينة فحسب وإنما تأثرت به جميع البلاد العثمانية و"البلقان"، وقد أسفرت تلك الكارثة عن انتشار الوباء الذي قضى على الأخضر واليابس في تلك المناطق، كما راح ضحية ذلك الوباء كلًّا من يوسف ومحمود إخوة "مراد الثاني" بالإضافة إلى أُورْخَان ابن سليمان شلبي، وتوالت الوفيّات يومًا بعد يوم وأسفرت عن وفاة كلٍّ من "جندارلي إبراهيم باشا" والشيخ "بيرام ولي" الذي يُعتبر الحامي المعنوي للأناضول و"أمير سلطان"[٣٥] والطبيب المشهور والشاعر "شيخي" والمعماري والوزير "حاجي إيواز باشا"، واعتبر الناس -ولا سيما أهالي "رُومَلِي"- كسوفَ الشمس الذي حدث في تلك الأيام نذير شؤمٍ، بل إن الأمر لم يتوقّف عند ذلك وإنما عمّ البلاد الجفافُ والقحط.

لقد عاش السلطان "مراد الثاني" كثيرًا من الأحزان جراء فقده المقربين منه واحدًا تلو الآخر وعانى كثيرًا بسبب ما آل إليه حال الدولة من القحط والبؤس والمصائب.

(٣٥) أمير سلطان: هو الشريف الشيخ "محمد بن علي البخاري" (١٣٦٨-١٤٣٠م) الملقّب بـ"شمس الدين" وأُطلِقَ عليه لقب "أمير سلطان" بعد أن صاهَرَ السلطان "بايزيد الأول" وتزوّج من ابنته. (المترجم)

ولكن الحال تبدل عام (١٤٣٢م)، وتبدّدت الغمامة السوداء ببريق الخبر السار الذي يتلألأ كالشفق البازغ بعد ظلمة الليل، إنه خبر ميلاد الأمير "محمد" الذي سيعرف بعد واحد وعشرين عامًا من ذلك الوقت بالسلطان "محمد الفاتح" الذي غيّر مسار التاريخ، وسطر التاريخُ اسمه بحروفٍ من ذهبٍ على جنبات صفحاته.

فقد وقع خبر ميلاد هذا الأمير في تلك الفترة العصيبة على قلوب العثمانيّين بردًا وسلامًا فطبّب جراحهم التي أسفرت عنها تلك الكارثة، وخففت هذه البشرى من أحزانهم، وفتحت أمامهم باب أمل نحو المستقبل.

تمرد "الألبانيين"

وقد أدّى انضمام "سَالُونِيكْ" و"يوانينا" إلى أراضي الدولة العثمانيّة إلى إعادة الأمن والاستقرار في المنطقة إلى حدٍّ ما إلا أن هذا الانتصار لم يكن كافيًا لتعميم الأمن والاسقرار في أرجاء المنطقة بأكملها، وكان السلطان "مراد الثاني" يسعى جاهدًا إلى تقوية وترسيخ الاستقرار والأمن مستغلًّا فرصة مرور هذه الأيام الجميلة التي يعمّها الفرح والسرور عقب ميلاد الأمير محمد.

وكان الأمراء "الألبانيون" الذين يعيشون في المناطق الجبلية وفي الشمال يدينون بالولاء للدولة العثمانية ويدفعون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، إلا أن الدولة العثمانية كانت على علمٍ بطبائعهم العنيدة وأنه من الممكن في أيّ لحظةٍ أن ينقضوا العهد وينسفوا الاتّفاق، وهذا علاوةً على شهرةِ علاقتهم الوطيدة مع "البندقية".

لقد كان "الألبانيون" أصحاب شخصيّاتٍ وطباع حادّة، ويتصفون بالغِلظة والصرامة والقسوة في كلّ شيء وهذا نابعٌ من أصلهم وطبيعتهم الصعبة التي تتميّز بها المناطق الجبلية التي يُقيمون فيها، ممّا أدّى ذلك إلى وقوع الخلافات بينهم وبين الدولة العثمانية في أزمنة متعدّدة، وعندما لم يستطع "أورنوس علي بك" قمع المتمرّدين "الألبان" تدخّل السلطان "مراد الثاني" وقضى على هذه الفتنة عقب وصوله إلى "بيتولا"، فلجأ المتمرّدون هذه المرة إلى ملك "المجر"، وطلبوا منه العون على العثمانيين، ونظرًا لتوتّر العلاقات الثنائية بينه وبين العثمانيين منذ فترةٍ فقد قام بتدعيم "الألبان" ومساعدتهم وتحريضهم ضدّ الدولة العثمانية، وهكذا ظلّ العثمانيون يواجهون هذه المسألة -التي أصبحت عقبة كبيرة بالنسبة لهم- قرابةَ نصف قرن من الزمان.

تعدّد المتآمرون وهدفهم واحد

قد بدا للعيان أن العقبات في طريق الزحف نحو أوروبا لا تقتصر على مشكلة "الألبان"، بل كان هناك ملوك ورؤساء آخرون في أوروبا وعلى رأسهم ملك المجر "سيجسموند" ممّن كانوا ينقضون معاهداتهم مع الدولة العثمانية وذلك كلّما شعروا بتدهور الأحوال فيها، كما أنهم يشكلون من حين لآخر تحالفات ضدّ الدولة العثمانية من خلال المباحثات والمراسلات التي تتمّ بينهم سرًّا أو جهرًا.

تعدّد المتآمرون وهدفهم واحدٌ ألا وهو القضاء على الدولة العثمانية، ومن بين هؤلاء المتآمرين من كان يُظهرُ ولاءَه للدولة العثمانيّة ويهتمّ بتقوية العلاقات معها إلى أعلى المستويات، وفي طليعة هؤلاء "جيورجا فولكوفيش" أمير الصرب الذي عرض على السلطان العثماني دفع مبلغ باهظٍ لجهاز العرس وذلك من أجل تزويجِ ابنته "ماريا" من السلطان العثماني، كما نلاحظ أيضًا أنه كان من بينهم من قال في وقتٍ سابقٍ إنني مستعدّ للموت في سبيل السلطان مراد الثاني.

وفي تلك الأثناء قام الجيش المجريّ بالاعتداء على قلعة "جولوباش" في أوروبا، ولم تكن الأوضاع في الأناضول أفضل حالًا، فقد كان "بني قرمان" كعادتهم مشغولون بالنخر في عضد الدولة العثمانية كلّما سنحت لهم الفرصة بذلك، حيث قام "إبراهيم بك الثاني القرماني" باغتنام فرصة ابتعاد الجيش العثماني عن المنطقة.

وقام على الفور بالاستيلاء على مدينتي "إسبرطة" و"بَيْ شَهِيرْ" غير عابئٍ بمصاهرته للسلطان "مراد الثاني" وزواجه من أخته، ولذلك كان هناك الكثير من الأعمال التي تنتظر السلطان "مراد الثاني" وفريق عمله المقرّب منه، فأرسل على الفور أمير "رُومَلِي" القائد "سنان باشا" لواجهة ملك "المجر"، وتحرك السلطان "مراد الثاني" هو الآخر من "رُومَلِي" إلى الأناضول للقضاء على الفتن.

ففي البداية طرد "بني قرمان" من الأراضي التي استولوا عليها، ثم فتح مدينة "قونية"، حتى إن إبراهيم الثاني حاكم "قونية" هرب دون أن يواجه السلطان "مراد الثاني"، كما قام السلطان أيضًا بفتح مدن "آق شهير" و"بَيْ شَهِيرْ" عقب فتحه لـ"قونية"، وفي الوقت نفسه لم يتغاض عن تعقب زوج أخته "إبراهيم الثاني القرماني".

ولما وجد "إبراهيم الثاني" أنه ليس هناك بدٌّ من تعقّب السلطان "مراد الثاني" له اعتراه الندم وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولكنه ظلّ في المكان الذي يختبئ فيه وأرسل الشيخ "مولانا حمزة" أشهر علماء عصره مع زوجته إلى السلطان "مراد الثاني" يطلب له الأمان والعفو والسماح، فأظهر السلطان مراد رحابة وسعة صدره، وأعرب عن أنه من الممكن أن يسامح "إبراهيم باشا" وتصرّف بهذا الشكل ليطمئن قلبه، فأرسل إلى "إبراهيم الثاني" رسولًا ليأخذ منه العهود والمواثيق بخصوص هذا الأمر.

وعلى أية حال قطع "إبراهيم بك" العهد على نفسه وأعطاه العهود والمواثيق على ألا يتمرّد ثانية، ثم سمح له السلطان "مراد الثاني" أن يعود حاكمًا على "بني قرمان" مرّة أخرى وذلك بعد أن وقّع على هذه المعاهدة، وتنفّس "إبراهيم باشا" وزوجته والمقربون منه الصعداء مرّة أخرى بعد هذه المعاهدة، إلا أنهم أضاعوا وقتًا وجهدًا كبيريين من وقت وطاقة السلطان "مراد الثاني" التي كان من الأولى لها أن تكون ضد أعداء الدولة في أوروبا، وعلى إثر ذلك لم يضيع السلطان "مراد الثاني" وقتًا أطول من هذا فولّى وجهَه شطرَ أوروبا مرة أخرى، فهناك أعمال أكثر أهمّيّةً من التي يقوم بها في الأناضول.

الأميرة الصربية عروس القصر العثماني

في الحقيقة كان ملك "المجر" وراء تمرّد " إبراهيم باشا القرماني" وتحريضه ضدّ الدولة العثمانية، وكانت هذه العلاقة التي نشأت بين "إبراهيم بك" وملك "المجر" بوساطة الأمير الصربي، وعندما سمع أمير الصرب "برانكوفيج" بهزيمة "بني قرمان" اعتراه القلق والخوف معتقدًا أن السلطان العثماني سيهاجمه في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وحسب ما يراه "برانكوفيج" فإن هذا هو الوقت المناسب لكي تُقامَ مراسم زواج ابنته "ماريا" من السلطان العثماني "مراد الثاني" بعد أن خطبها في وقتٍ سابقٍ، وقد كانت "ماريا" صغيرةَ السن عندما خُطبت من السلطان، أما الآن فقد أينعت وكبرت، كان الجميع يعرف أن الهدف الأساسي من هذا الزواج يتمثّل في المصلحة السياسيّة لأمير الصرب، كما أن الهدف من ذلك هو التخلّص من المخاطر التي يمكن أن تلحق به من قبل السلطان، وعلى الفور أفاد "برانكوفيج" السلطان "مراد الثاني" بأنه تم الانتهاء من جهاز العروس وتجهيزه وأبلغه كذلك أنه يمكنه البدأ في مراسم العرس، وبناء على ذلك قام السلطان "مراد الثاني" بمشاورة وزرائه بخصوص هذا الأمر، فاتخذوا قرارهم بتأجيل الحرب ضد الصرب إلى ما بعد الآن، على أن يهتمّوا في الوقت الحاليّ بشؤون الزواج.

ولا شك أن عقد قران السلطان مراد على ابنة أمير الصرب له أبعاد إستراتيجية كبيرة، وبعد أن تمّت مراسم الزواج قام السلطان "مراد الثاني" بإرسال العروس الجديدة إلى مدينة "بورصة"، وبعد وفاة السلطان "مراد الثاني" عادت "ماريا" مرّة أخرى إلى كنف والدها.

الجيوش العثمانية تدقّ أبواب أوروبا

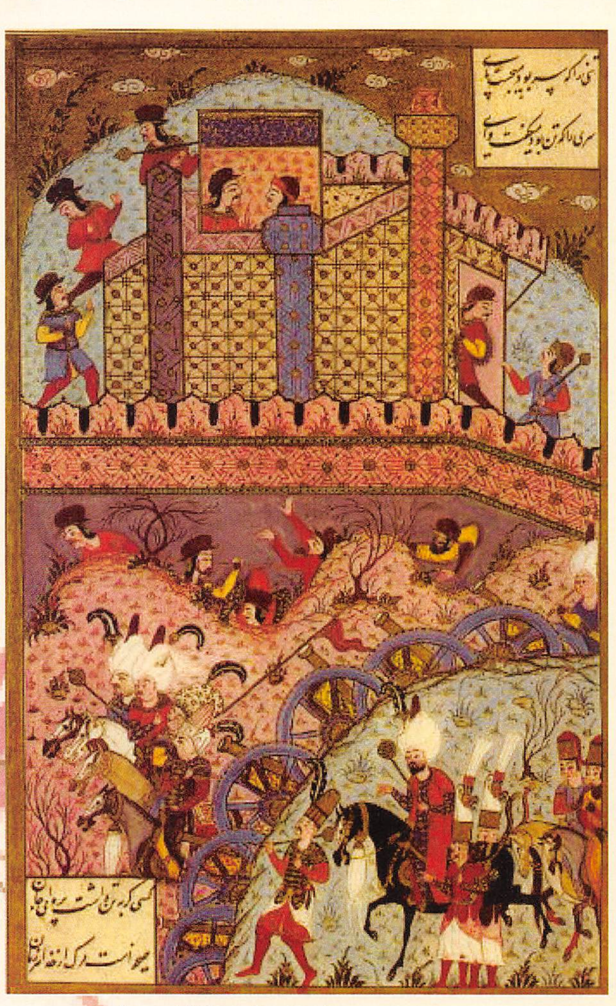
لقد قصدت القوات العثمانية في السابق خلال أكثر من مرّة تحقيقَ النصر في أوروبا ولكن هذه المرّة تختلف عن سابقاتها، فقد ازدادت قوّة العثمانيين وارتفع سطح المطالب والأهداف، فاختار السلطان مراد إقليمَ "ترانسيلفانيا (*Transilvania*)"[٣٦] ليكون موقعًا للتجمع والانطلاق للحملات العسكرية.

وقد قامت القوات العثمانيّة بقيادة "أورنوس على بك" بالاستيلاء على مدينة "تيميشوارا (*Timisoara*)" وما حولها وذلك بعد رحلة استغرقت شهرًا كاملًا، وقد وصل عدد الجيش العثماني -الذي يتكوّن من الجنود والفرسان بالإضافة إلى المعدات العسكرية والفرقة الموسيقية التي ترافق الجيش في جميع الحملات- إلى سبعين ألف جنديّ وفي نهاية المطاف تمّ أسر ما يقرب من سبعين ألف جنديّ كما تمّ الاستيلاء على إقليم "ترانسيلفانيا" التابعة لمملكة المجر، وفي مقابل ذلك لم يستطع "سيجسموند" مواجهة الجحافل العثمانية، عاد السلطان "مراد الثاني" إلى مدينة "أدرنه" بعد فتح إقليم "ترانسيلفانيا" الذي استمرّ خمسةً وأربعين يومًا، وبمجرّد خروج السلطان "مراد الثاني" من الإقليم وعودته إلى "أدرنه"

(٣٦) **إقليم ترانسيلفانيا**: بالرومانية:"*Transilvania*" يقع في قلب "رومانيا" وهو واحد من أقاليم "رومانيا" التسعة، ويعتبر القلبَ التاريخي لـ"رومانيا"، ويضم عدّة محافظات رومانية.

استعاد "سيجسموند" جسارته وهاجم الأراضي الخاضعة للحكم العثماني، فاستطاع "سيجسموند" أن يهزم "علي بك" أمير لواء "فيدن" الذي هبّ لإيقاف تقدمه.

وفي اليوم الذي اعتقد فيه "سيجسموند" ملك المجر أنه يمتلك قوةً لا قِبَلَ لأحدٍ بها وافته المنيّة وواراه التراب، وفي تلك الأثناء قد وصل السلطان "مراد الثاني" -الذي خرج موليًا وجهه شطر الأراضي المجرية دون أن يكون لديه خبر عن وفاة "سيجسموند" ملك المجر- إلى صربيا، وبعد مناوشاتٍ حادّةٍ وقعت "سمندريا (*Smederevo*)" عاصمة بلاد "الصرب" في يده، أما الأمير الصربي "جيورجيا برانكوفيش" فقد احتمى بدولة المجر التي هي الهدف الأساسي للسلطان العثماني، ومن ناحية أخرى فقد تمّ اعتقال ابنه -الذي تولّى عرش الصرب مكانه- دون أدنى مقاومةٍ تذكر، وها نحن الآن نرى السلطان "مراد الثاني" على أعتاب دولة المجر.



منمنمة توضح حصار العثمانيين لـ "بلجراد".

وقد كانت أولى الأعمال التي قام بها ابن "سيجسموند" الذي تولّى العرش عقب وفاة والده؛ هي مهاجمة "صربيا" الخاضعة للسيطرة العثمانية، إلا أنه هزم عندما واجه القوات العثمانية بقيادة "غازي إسحاق بك" و"دميرداش عثمان بك"، وقد دبّ الخوف والقلق في نفوس الأوربّيين عقب الانتصارات والفتوحات التي يحققها العثمانيون في الأراضي الأوروبية، وعندما أذيع خبر قدوم العثمانيين إلى "المجر" ارتعد الجنود المجريون وبدأ شملهم يتشتت، وأما صهر "سيجسموند" الذي أُصيب بالذعر والقلق فقد لقي مصرعه أثناء هروبه إلى ألمانيا ليحتمي بـ"ألبرتش الثاني" ملك ألمانيا.

العثمانيون على مشارف "بلجراد"

كان من الضروري جدًّا بالنسبة للعثمانيين الاستيلاء على مدينة "بلجراد" التي تُعتبر المدينة الأهمّ بين مدن "المجر"، وجديرٌ بالذكر أن تلك المدينة لم تكن تابعة لـ"صربيا" آنذاك، بل كانت الغالبية العظمى من سكّانها مجريّي الأصل.

فقد قام "أورنوس علي بك" الذي كُلّف بفتح "بلجراد" بتأسيس مقرٍ لقيادة جيشه بالقرب من المدينة، وأمر بالاستعداد للمعركة،

وبعد ذلك فرض حصارًا خانقًا على المدينة إلا أنه في النهاية لم يستطع فتحها، حيث إن الجنود المكلفين بحماية المدينة دافعـوا عنهـا دفاعًـا بطوليًّا، وجديرٌ بالذكر أن المجريّين اسـتخدموا البنادق للمـرة الأولى في تلك المعركة، وأما السـلاح الناري الذي استخدمه الجيش العثماني في تلك المعركة فقد كان المدافع الحربية، وإضافة لذلك فإن هذه المدافع بدائية الصنع غير كافيةٍ لهدم أسوار القلعة، أضف إلى ذلك صعوبة حشو تلك المدافع وتجهيزها لإطلاق النار مرّةً أخرى، ونظرًا لاقتراب فصل الشتاء أصدر "علي بك" أوامرَه برفع الحصار وانسحاب الجيش، وأما الأوضاع في "البوسـنة" فكانت تسير لصالح العثمانيين، حيث إنه -بموجب الاتفاق الذي توصّل إليه الطرفان- لن يسـتطيعَ أيُّ أميرٍ اعتلاءَ عرش البوسـنة دون موافقـة العثمانيّيـن، وفـي نهاية المطاف اقتنعت جميـع الدول الأوربيّة بأن الدولة العثمانيّة هـي الدولةُ الأجدرُ والأقدرُ في منطقة "البلقان" ولها حقُّ السيادة على الجميع.

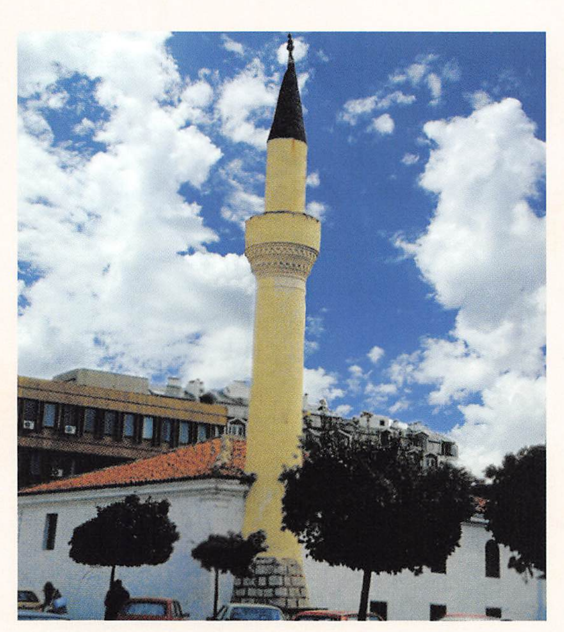


منمنمة السلطان مراد الثاني و"إيوان دي هونيدوارا (*John Hunyadi*) - هورنامة

ولم تكن القوة التي يمتلكها العثمانيون تُستَخْدَم في أيّ وقتٍ من أجـل الاعتـداء على الأهالي المقيمين ضمن حـدود الدولة العثمانية بغضّ النظر عن أصولهم بل كانت تُستَخدَمُ من أجل تحقيق العدالة والمساواة بين الشعوب.

"إيوان دي هونيدوارا" بطل أوروبّا الجديد

فـي تلك الحقبة الزمنيّة ظهر فـي أوروبّا بطل جديد يُدعى "إيوان دي هونيـدوارا (*John Hunyadi*)"، الـذي كان يتولّـى قيـادة الجيـش المجـريّ، وقد تلقّـى "إيوان" تعليمًا جيدًا، وكان قائدًا محنّكًا تسـبقه انتصاراتـه، وعنـد تولّيـه قيادة الجيش المجريّ كانت لـه عدّة مهام، الأولـى منها: إعاقـة الجيش العثمانـي وتعطيله عـن الفتوحات التي يقـوم بها في أوروبا، أما مهمّته الثانية فكانت متابعة القوّات العثمانيّة ومباغتهـم بالهجوم والحرب وإعمال السـيف فيهـم دون هوادةٍ ولا رحمـة، ونظـرًا للحصـار الذي فرضـه "مزيد بك" على قلعة "سـيبيو (*Hermannstadt*)" التـي تقـع في إقليم "ترانسـيلفانيا" قام "إيوان دي هونيـدوارا" بالتحرّك صوب الجيش العثمانـي ومهاجمته، وعلى إثر ذلك قام "مزيد بك" برفـع الحصار والزحف بجيشه لقتال "إيوان".



من الآثار العثمانية في "بلجراد"

لـم تنجـب المجر قبل ذلك قائدًا مثل هذا القائد المحنّك الذي يتمتّع بقـدرٍ عالٍ مـن الذكاء والدهـاء، ونتيجةً لخبرته في الحـروب فقد وضـع خطّةً معقّدة في غاية الغرابة والدهاء ليُباغت بها الدولة العثمانيّة في ميدان المعركـة، وفعلًا لم يُرَ مثلها في مجـال الحرب آنذاك، حيث عمد "إيوان دي هونيـدوارا" إلـى أحد جنوده فألبسـه زيّه الذي اعتـاد الناس والجنود أن يـروه بـه ثـم أمـره بالنزول إلى سـاحة المعركـة، فلم يستطعِ الجنودُ العثمانيّون أن يُدركوا هذه الحيلة، وقضوا على شبيه "إيوان" وثلاثة آلاف من جنوده، وعلى إثر ذلك قام جنود قلعة "سيبيو" بالهجوم المباغت على القـوات العثمانيـة بقيادة "مزيد بك" فانحصر الجيش العثماني بين مقاتلي القلعـة من الأمام وجنـود "إيوان" من الخلف، وهكـذا دارت هناك رحى معركةٍ شرسة بين الطرفين.

لقـد كان "إيـوان دي هونيدوارا" يتحكّم بجنوده جيدًا ويسـيطر عليهم تمامًـا، وإلـى جانـب وحـدات الجيـش المجـري فقد انضمـت وحدات عسكريّة أمير "أفلاق" لدعم المجريّين في الحرب ضدّ الدولة العثمانية، وبذلك ارتفع عدد أعداء العثمانيّين في المعركة.

وكانت حصيلة تلك المعركة أن استشـهد عشرون ألف جنديٍّ عثمانيٍّ من أصل خمسـة وعشـرين ألفًا، وكانت خسـائر الجيش المجري فادحة أيضًا إلا أنها لا تقارن بالخسـائر العثمانية، ومن بين القتلى الذين سـقطوا في سـاحة المعركة "مزيد بـك" ونجـلاه، وأما الجـزء المتبقّي من الجيش فقد تمكّن بعض عناصره من الهرب، وأما من لم يسـتطع الهرب فقد وقـع في الأسر ومنهم مَن لقي مصرعه جرّاء التعذيب الوحشيّ من قِبَلِ جنود وقادة جيش "المجر" في فاجعة لم يُر مثلها، ودخل "إيوان دي هونيدوارا" بعدها بلاد "أفلاق" واسـتولى على المدن الخاضعة للحكم العثمانيّ في منطقة نهر "الدانوب"، فقام بأفظـع المجازر والمذابح في تلك المناطق التي استولى عليها.

صفعةٌ قويّةٌ على وجه العثمانيّين

كانت تلك الهزيمة النكراء التي مُنيَت بها القوّات العثمانيّة بقيادة "مزيد بك" قد وقعت بالقرب من إقليم "ترانسـيلفانيا"، وكانت هذه الهزيمة التي جاءت بعد خيانة أمير "أفلاق" صفعةً قويّةً على وجه العثمانيّين.

لقـد اسـتهان العثمانيـون بالأمـر وتراخوا في وقتٍ مبكرٍ وهم في سـاحة المعركة وحدث ما كان يريـده الأعداء، فأضاع العثمانيون من أيديهم النصر الذي حقّقوه في أول اليوم، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأن هذه الوحدة الصغيرة التي واجهتهم

هي الجيش المجري كله واعتقادهم بأنهم سيلحقون بهم الهزيمة بكل سهولة ويسر ودون عناء كل ذلك كان خطأ لا يمكن تداركه أبدًا، وربما حلت هذه الهزيمة بالجيش العثماني جزاءً على ثقة "مزيد بك" المفرطة بنفسه وبجنوده.

إن هذا النجاح الذى اشتاقت إليه أوروبا منذ سنين طويلة قد أبهر المجريين وقائدهم "إيوان"، حتى إن "إيوان" كان يأمر بإحضار الأسرى إلى مجلسه وكان يتابع تعذيبهم وقتلهم أثناء تناول الطعام وهو يطلق القهقهات العالية، لم ينسى "إيوان دي هونيدوارا" من دعمه وسانده في حربه ضد العثمانيين ولذا أمر بتجهيز عربةٍ مليئة بالهدايا وأرسلها إلى أمير الصرب، وكانت هذه العربة الفخمة التي يجرّها عشرة من الخيول تحتوي على مجموعة من الهدايا عبارة عن أموال الغنائم التي استولوا عليها من العثمانيين، وبالإضافة لذلك أحدث الأسلحة النارية التي استخدموها في الحرب، وفوق هذه الهدايا وضع رأس "مزيد بك" إلى جانب رؤوس أبنائه المقطعة والمنفصلة عن الأجسام، وبجانب تلك الرؤوس كان يجلس رجل تركي مسنّ ممن اشتركوا في المعركة، حيث كانت هيئته تفيد أنه سيعرض الهدايا بيديه، وكان المشهد مرعبًا ومقلقًا بكل ما للكلمة من معنى.

أوروبا تتّحد

إن هذه التطوّرات التي عرّضت السيادة العثمانية في بلاد "البلقان" للخطر وعطّلت وأعاقت التقدّم العثماني في أوروبا قد جعلت السلطان "مراد الثاني" يقلق على وضع الدولة العثمانية في أوروبا، وكان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان، وعلى الفور فقد أمر "قولا شاهين باشا" بالتحرّك صوب الأراضي المجريّة بجيشٍ قوامه ثمانون ألف جندي، وقام الجنود العثمانيون بنصح قائدهم "قولا شاهين باشا" عدة مرّات حتى يكون على حذرٍ من أعدائه ولكنه كان على ثقة كبيرة بجيشه الجرّار، إلا أنّ ثقته الزائدة بنفسه وبجيشه سرعان ما تبدّدت وهُزم الجيش العثماني في مواجهاته ضد "إيوان" للمرة الثانية في المنطقة المسماه بـ"فارساج" التي تقع حاليًا ضمن حدود "رومانيا"، وبالإضافة لذلك استشهد عدد كبير من قادة وجنود الجيش العثماني.

وعندما علم السلطان "مراد الثاني" بهذه الأخبار عزل "شاهين باشا" عن منصبه في قيادة الجيش وعين مكانه "قاسم باشا"، وازدادت انتصارات "إيوان" القائد المجري أمام العثمانيين، وأصبحت مكانته تزداد وتنمو يومًا بعد يوم، إلى أن أصبح في نظر الأوروبيين فارسًا همامًا وبطلًا عظيمًا، حيث إن هذه الانتصارات قد أحيَتْ أحلام أوروبا القديمة مرة أخرى، حيث ظهر في هذه الفترة من ينادي بأن هذا هو الوقت المناسب لحملة صليبيّة جديدة ضدّ المسلمين، وهكذا قد اتحدت أوروبا وتوحّدت كما تفعل دائمًا عند مواجهة الدولة العثمانية.

كانت "المجر" وألمانيا وفرنسا و"بولونيا" و"بلجيكا" تتصدّر الجيش الصليبي وتحتل الزعامة، وإلى جانب ذلك أعلن "بنو قرمان" مساندتهم لهذه الحملة، وبالإضافة لذلك لا يمكن التناسي الدور المهمّ الذي يلعبه البابا في كلّ حملةٍ صليبيّة ضدّ الجيوش الإسلامية، وعلاوة على ذلك فإن كلٌّ من "صربيا" و"أفلاق" وإقليم "مولدوفا" و"ألبانيا" و"البوسنة" و"بيزنطة" كانت تدعم هذه الحملة، وقد كانت تلك الحملة مختلفةً عن سابقتها حيث قامت أوروبا بالإعداد لها على وجه السرعة، وبمجرّد الانتهاء من التجهيزات أصدرت الأوامر بالهجوم.

في بداية الأمر استولى الجيش الصليبي على "صربيا"، وقام بمجازر فادحة في حق الشعب إذ لم يفرقوا بين مسلم ومسيحي، واستمر الجيش الصليبي على ذلك إلى أن قابلهم "قاسم باشا" على سواحل نهر "مورافا" بالقرب من مدينة "نيش"، وقد حقق "إيوان دي هونيدوارا" النصر في هذه المرّة أيضًا بشقّ الأنفس، واضطرّ "قاسم باشا" المنهزم إلى الانسحاب في نهاية المعركة.



الهزيمة الثانية للعثمانيّين على مشارف "صوفيا"

أحسّ السلطان "مراد الثاني" بخطر يزعزع وحدةَ الأناضول، وفي تلك الآونة كان يرسل قادته إلى جبهات الحرب مفضّلًا المكوث في "بورصة"، إلا أنه أيقن فيما بعد أنه لا بدّ أن يتدخل في الموقف خاصّةً بعد هزيمة العثمانيّين في الحرب التي كان يقودها "قاسم باشا" والتي عانى السلطان "مراد الثاني" بسببها آلامًا نفسيّة جمّة، وعلى الفور أعدَّ جيشه وخرج للحرب، والتقت قوات التحالف الأوروبي أو ما يسمونه الجيش الصليبي مع الجيش العثماني في المنطقة المسماه بـ"إزلادي درباندي" الواقعة شرقي مدينة "صوفيا"، وأسفرت المواجهات الأولى عن هزيمة الجيش العثماني، حيث نجح قوات المجر في عبور ممرٍّ ضيّق يقع بين جبلين، ولكنهم واجهوا مصاعب عدة نتيجة الشتاء القارس، وعلى الرغم من ذلك كانت أحوالهم تسير بشكل أفضل مقارنة بالعثمانيين، وعلى ذلك قام السلطان "مراد الثاني" بإصدار أوامره بانسحاب جزءٍ كبيرٍ من الجيش بناءً على تحذيرات مجلس شوراه، واتجهوا صوبَ "أدرنه"، تنفيذًا لقرار مجلس الشورى الذي أدلى بأن القتال في فصل الربيع سيكون أفضل بالنسبة للجيش، في حين أن الجيش الصليبي واصل سيرَه حتى وصل إلى وادي "فِيلِبّة"، وقد هُزِمَتِ القوات العثمانية في المعركة التي دارت رحاها في تلك المنطقة، إلا أن القوات الصليبية كادت تهلك من البرد القارس فبدؤوا في الانسحاب، فتتبّعتهم القوات العثمانية وطاردتهم، فقام "إيوان دي هونيدوارا" بإذاقتهم من كأس الحيلة والخداع الذي كثيرًا ما يستخدمه العثمانيّون في حروبهم، حيث نفذ خطّة انسحابٍ تكتيكيّةٍ تستهدف استدراج العثمانيين إلى شباكهم وفي نهاية المطاف حلّت الهزيمة بالجيش العثمانيّ للمرة الثانية.

خلال تلك المعارك وقع "محمود بك" صهر السلطان "مراد الثاني" وواليه على مقاطعة "بولو" في الأسر من قِبَل الجنود المجريّين، لقد كانت هذه الأيام حالكة السواد على الدولة العثمانية حيث إنها لم تمر بمثل هذه الظروف العصيبة في "رُومَلِي" حتى عشية حرب "أنقرة".

العدو الحقيقي للدولة العثمانية

اتّضح مؤخّرًا أن السلطان "مراد الثاني" الذي فضّل البقاء في مدينة "بورصة" من أجل ضمان أمن واستقرار الأناضول بدلًا من خروجه بنفسه إلى الحرب والاكتفاء بإرسال قادات جيشه إلى أوروبا لمجابهة الصليبيين كان مُحقًّا في مخاوفه بشأن مصير الدولة العثمانية عقب خروج الجيش الصليبي للقضاء على الدولة العثمانية.

وفي ظلّ تلك الأحداث ظهر "إبراهيم الثاني القرماني" زوج أخت "مراد الثاني" الذي عُرف بكثرة التمرّد على الدولة العثمانية والذي عفا عنه السلطان "مراد الثاني" مرات عدّة وأعاده إلى إمارته بعد أن أقسم بالله على وفائه وإخلاصه للعثمانيين من جديد، ولكن هذه المرة قام بالاتحاد مع الصليبيين ضدّ القوّات العثمانية، فبعث برسالة إلى قائد القوات الصليبية مفادها "ما رأيك لو قمنا نحن بخنق الدولة العثمانية من الداخل وأنتم من الخارج ونستأصل بذلك شأفتهم وننهي وجودهم، وبعد ذلك لنجلس ونتفاوض معًا".

أجاب ملك "المجر" على هذه الرسالة بقوله: "سنهجم نحن من الأمام وأنتم من الخلف، ونقضي على الدولة العثمانية ولنستول على "رُومَلِي" وأنتم تستولون على الأناضول".

وعلى ذلك لم يتوان "بنو قرمان" عن الاعتداء على بعض المدن العثمانية المجاورة لهم كمحاولةٍ منهم لقطف ثمرة الهزائم المتتالية التي حلت بالدولة العثمانية في منطقة "رُومَلِي"، وبناء على هذه التطورات فقد قام والي "أماسيا" "علاء الدين علي باشا" أحد أبناء السلطان "مراد الثاني" بشنّ حربٍ على "بني قرمان"، ولكن "إبراهيم باشا" كعادته فضل الاختباء على الحرب، وفي تلك الأثناء وصل السلطان "مراد الثاني" هو الآخر إلى أراضي "بني قرمان" بعد أن سبقه ابنه في الوصول إليها، وفي طريقه قام السلطان "مراد الثاني" بالاستيلاء على "قونية"، وقد أثبت السلطان مراد طيبة نفسِه وإنسانيّته الحميدة حيث صفح عن صهره هذه المرّة أيضًا، حيث استمع السلطان "مراد الثاني" إلى أخته التي تذلّلت له حتى يعفو عن زوجها،

ثم استمع إلى وزير صهره "إبراهيم بك"، ثم قال متوكّلًا على الله وهو ينظر إلى أخته ووزير "إبراهيم بك" اللذين يرتعدان من الخوف "حسنا...، لقد عفوت عن "إبراهيم باشا" ابتغاء وجه الله، اذهبوا إليه وأبلغوه بالأمر، ولكن الله أعلم يا أختي إلى أين سيجرنا هذا الأمر، وما هي عواقبه".

لم يمكث السلطان "مراد الثاني" هناك كثيرًا فبمجرّد إصداره العفو عن "إبراهيم باشا" منحَ له أراضي "بني قرمان" التي فتحها، وكان السلطان "مراد الثاني" على علم بأن منافسه الحقيقي وعدوه اللدود ليس من نفس جنسه وعرقه التركي في الأناضول، وأن الهزائم المتتالية له في بلاد "البلقان" وأوروبا قد ستخلّف جروحًا عميقةً في صلب دولته، وأنها ستُضعف معنويّاتها أكثر وأكثر، كما أنه أيقن بأن عليه التوجّه صوب أوروبا و"البلقان" من جديد لاستعادة الأمجاد السابقة.

وا عجبًا لأمر الدنيا

كان السلطان "مراد الثاني" بمجرّد عودته من حملته على "بني قرمان" قد حلّ التعب بجسدِه وروحه جراء الأحداث السالفة الذكر وأيام "رُومَلِي" العصيبة والآلام الحزينة في الأناضول التي نتجت عن الهزائم المتتالية على الجبهة الغربية، ونتيجة لهذه الأحداث فقد حلّ بالسلطان من الحزن أعمقه، حتى إنّ الابتسامة كاد يستحيل ارتسامها على وجهه، واستمر هكذا حتى جاءه الخبر الذي قصم ظهره، وترك في نفسه جرحًا لا يلتئم، حيث علم السلطان بوفاة نجله الأمير "علاء الدين" والي "أماسيا" الذي يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا وهكذا لم يبق من أبنائه سوى الأمير محمد.

لقد كان السلطان "مراد الثاني" يحب "علاء الدين" حبًا جمًّا ويثق به ثقة عمياء، ولقد نزل خبر وفاة "علاء الدين" على مسامع السلطان العثماني كالصاعقة، فكلمة "الحزن" تعجز عن وصف ما ألمّ بالسلطان "مراد الثاني" من آلام جراء وفاة ابنه "علاء الدين"، فغاص شاردًا في تفكير عميق، ثم بدأ بتقييم كلّ شيء من جديد مفتّشًا عن الأسباب الحقيقية وراء كلّ هذه الهزائم، وبدأ يردّ كلّ شيء لأصله ويضع كل شيءٍ في موضعه، وأخذ ينظر إلى الأمور من كلّ اتجاه، وينظر إلى جوهرها وحقيقتها، وكأن لسان حاله يقول: "ما هذه الدنيا، وماذا تريد منا، وما الذي يمكننا أن نعطيه لها؟ وبماذا أمرنا الله أن نفعل في هذه الدنيا؟ وماذا فعلنا مما أُمرنا به؟ وماذا كان يجب علينا فعله؟ وما الذي نكسبه عندما ننتصر، وما الذي نفقده عندما ننهزم في دنيانا التي يختبرنا الله بها؟ وأي حملة كان يمكنها إنقاذنا من مصائد الهزيمة بينما كنا نبحث عن الانتصار؟ وهل نحن من نتحكم في الدنيا والأرض، أم الدنيا هي من تتحكّم بنا وتسيطر علينا؟"



وفـي النهايـة قـرّر السـلطان "مراد الثاني" بعـد أن فكر كثيرًا في المصائـب التي حلّت بالدولة والتطـورات الأخيرة على الساحة أن يهتم بالسلام والتقرب إلى الشعب من الناحية الإدارية والإنسانية على حدٍّ سواء.

وربما كان السلطان العثماني العظيم مثله في هذا الشأن مثل أي شخصٍ آخر يمرّ من اختبار إلى اختبار، اختبار الضعف بعد القوة، والهزيمة بعد النصر، وفقدان عزيز لديه في عنفوان شبابه.

إن السلطان "مراد الثاني" هو أكثر الناس درايةً بأن سلطنة الدنيا زائلة، وكان ينوي الانزواء بغرض نيل قسطٍ من الراحة والهدوء، وا عجبًا لأمر الدنيا فبينما كان السـلطان يُفكّر في هذه الأمـور إذ قـام زوج أختـه "إبراهيم بك" بتكـرار الحنثِ في يمينه مرّة أخـرى بالاعتداء على الأراضي العثمانية عندما أحسّ بضعف الدولة العثمانية.

وا عجبًا لأمر الدنيا.. كيف لإبراهيم باشا أن يخون السلطان "مراد الثاني" على الرغم من كونه صهرًا له وزوجًا لأخته ووالدًا لأبناء أخت السلطان، كيف له أن يفعل ذلك بعد أن عفا السطان عنه وأنقذ رقبته من حدّ السيف مرّات ومرّات؟!!

الدنيا ما هي إلا دار اختبار

أول ما يتبادر إلى الذهن اليوم عند ذكر إمارة "بني قرمان" هو حاكمهم الشهير محمد بك الـذي يُـروى عنه أنه قال كلمة شـهيرة عام (١٢٧٧م) حـول الأدب التركي مفادها: "من الآن فصاعدًا ستسـتخدم اللغة التركيّة في القصر والديوان والتكايا والأسـواق والمحال التجارية وفي كل مكان"، وكان "بنو قرمان" اشتهروا في التاريخ بأنهم أول من أعلنوا اللغة التركيّةَ لغةً رسميّةً لدولتهم، لكنّنا على صعيدٍ آخر نجِدُ إمارة "بني قرمان" هي المصدر الدائم للمشاكل والنزاعات للدولة العثمانية كما أنها شكّلت في كثيرٍ من الأزمنة خطرًا يهدّد وحدة الأناضول.

إن إمارة "بني قرمان" التي اعتبرت نفسَـها الوريثَ الشـرعي للدولة السـلجوقية وخليفها فـي الأفـكار والرؤى وامتدادًا لمجدها كانت رائدة وقائدة للإمارات التركية في القرن الثالث عشر، ولكنّها لم تعترف بمكانة الدولة العثمانيّة -التي تنحدر من نفس العرق- ولا بالنجاحات التي حققتها سواء كانت على السـاحة السياسـية أو غيرها من المجالات الأخرى كما أن إمارة "بني قرمان" أقدمُ تأسيسًـا من الدولة العثمانية مما صعّبَ عليهـا الإقـرار بمكانـة الدولة العثمانية أو تقبّـل النجاحات التي حققتها، ولذلك نجدهم دائمًـا حجر عثرةٍ أمام الانتصارات والوحدة في الأناضول، ومن المعروف أن هذه الدنيا ما هي إلا دارُ اختبارٍ لبني آدم، حيث يواجه فيها شـتى المصاعب من أجل الوصول إلى السعادة الأبدية.

والسؤال المطروح هنا: لماذا كان السلاطين العثمانيون متسامحين لهذه الدرجة الكبيرة مع أمراء "بني قرمان" في حين أن هؤلاء السلاطين لم يتوانوا عن قتلِ إخوتهم من أجل بقاء الدولة العثمانية؟ والإجابة على هذا السؤال تكمن في سعيهم الحثيث كيلا تنفصم عرى الهدوء والاستقرار بين الدول الشقيقة وكيما تتزايد العداوة والبغضاء بين الدول الشقيقة.

تعالوا لنعش في سلام

لقد خطا "مراد الثاني" أكبرَ خطوةٍ نحو تحقيق السلام، حيث أرسل خطابًا إلى "المجر" التي كانت تُعتبر في هذا الوقت زعيمةَ ورائدةَ أوروبا، أعرب فيه عن رغبتِهِ في عقد معاهدة للسلام معهم، وقد سعِد ملك "المجر" من هذه الرسالة، وقام بإرسال سفرائه على الفور إلى مدينة "أدرنه" لبحث سُبُلِ تحقيق السلام بينه وبين العثمانيّين، ثم وُقِّعَتْ معاهدة السلام بينهما بعد مباحثاتٍ ولقاءاتٍ دامت طيلةَ ثلاثة أسابيع، واشتهرت هذه المعاهدة في التاريخ باسم "معاهدة "أدرنه" وسجدين" وتمّ توقيع تلك المعاهدة في يونيو/حزيران عام (١٤٤٤م).

فقد أقسم السلطان "مراد الثاني" على المصحف في "أدرنه" بأنه سيلتزم بتنفيذ بنود تلك المعاهدة، وعلى الجانب الآخر فقد قطع الملك المجري "لاديسلاس الأول (*I.Ladislas*)" العهد على نفسه في مدينة "سجدين" المجرية أن يلتزم هو أيضًا بما جاء في المعاهدة.

كانت المعاهدة التي توصل إليها الطرفان تنصّ على أن: "صربيا" دولة مستقلة ولها السيادة الكاملة والمطلقة على أراضيها، على كلا الطرفين العثماني والمجري أن لا يتجاوزا نهر "الدانوب" كلّ طرفٍ من جهته، كما تنصّ المعاهدة على قبول الطرف الآخر بالسيادة العثمانية على "بلغاريا"، وأن تدفع بلاد "أفلاق" الجزية للعثمانيّين، إلا أنه بناءً على بنود المعاهدة فإن أمراء "الأفلاق" سيُعفَون من الزيارة الإجبارية للقصر العثماني، وتسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات".

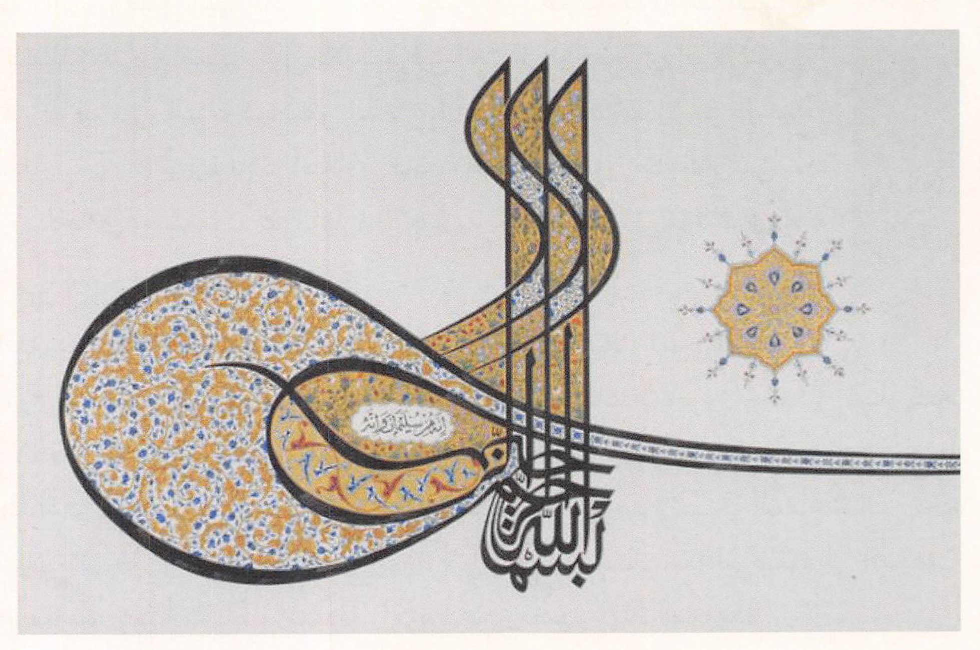
لم تحظَ هذه المعاهدة -التي سعِد الجميع بها- بإعجاب وحبّ القائد المجريّ الشهير "إيوان دي هونيدوارا"، وكان "هونيدوارا" في تلك الأثناء وزيرًا للملِك المجري يحلم ليل نهار بالحروب الجديدة على الدولة العثمانية والانتصارات التي سيحقّقها عليهم ولكن هذه المعاهدة تقفُ حجر عثرة في طريق تلك الأحلام، وقد رفض "إيوان" مقابلة "بلطه أغلو سليمان بك" -الذي وصل إلى "سجدين" ليوصل نسخة المعاهدة التي تحمل توقيع السلطان "مراد الثاني" إلى ملك "المجر" ويأخذ النسخة التي تحمل توقيع ملك المجر معه ليوصلها إلى السلطان العثماني- لاستيائه الشديد من تلك المعاهدة، كما أن البابا و"البنادقة" أعربوا عن رفضهم لهذه المعاهدة.

أما في الأناضول فكان إبراهيم بك حاكم "بني قرمان" هو أشد المعارضين لهذه المعاهدة، إذ كان متأكّدًا من أن عيشَ العثمانيّين في سلامٍ يتعارض مع مصالحه وأطماعه الشخصية.

بدأ السلطان "مراد الثاني" يتنفّس الصعداء بعض الشيء

كان السلطان العثماني "مراد الثاني" يعتقد أنه بموجب معاهدة "سجدين" سترفرف راية السلام ولو لفترة محدودة في الجبهة الأوروبية، ولكنه كان قلقًا بالنسبة للوضع في الأناضول لا سيما بعد تلقيه أخبار المكائد والنوايا السيئة لحاكم "بني قرمان" الذي يتحرّك مع الأوروبّيين ضدّ الدولة العثمانية.

فكان لا بد من تلقين إبراهيم بك درسًا لا يُنسى، ولذلك امتطى السلطان "مراد الثاني" جواده وسار من "أدرنه" حتى وصل إلى الأناضول ومنها إلى إمارة "بني قرمان"، وفي طريقه استولى على الأراضي التابعة لـ"بني قرمان" بالإضفة إلى بسط سيطرته على مدينة "قونية"، إلا أن إبراهيم بك لم يمتلك الشجاعة لمواجهة السلطان "مراد الثاني" هذه المرة أيضًا، وتدخلت زوجة إبراهيم أخت السلطان "مراد الثاني" من جديد وأخذت تتوسّل لأخيها حتى يعفو عنه، وأثبت السلطان "مراد الثاني" مرة بعدَ أخرى أنه يمتلك قلبًا رقيقًا، فعفا عن صهره، ولكن هذه المرة قام بعقد معاهدةٍ مكتوبة مع "بني قرمان"، تنصّ على ألّا يعتدي "بني قرمان" على الأراضي والممتلكات العثمانيّة، إلى جانبِ إلزام "بني قرمان" بإرسال جنودٍ لمساندة العثمانيّين حالَ نشوبِ حرب، وأما أهم بند من بنود المعاهدة فكان أن لا يمت حاكم "بني قرمان" بأي صلة مع الدول الأوروبية، ولن يربطه بهم أي لون من ألوان الارتباط والتعاون فيما بعد.



وبعد أن استتبّ الأمر في الدولة العثمانية بعقد معاهدة "سجدين" مع المجر، وعقدِ معاهدة للسلام مع "بني قرمان" في الأناضول بدأ السلطان "مراد الثاني" يتنفّس الصعداء بعض الشيء، وقد رأى السلطان "مراد الثاني" أنه الآن يمتلك فسحة من الوقت للاهتمام بشؤون الدولة الداخلية والأحوال الخاصّة بالشعب، وأن هذا هو الوقت الذي يجب أن تخصَّصَ فيه الأموال لتحقيق النهضة في جميع المجالات، وللارتقاء بمستوى المعيشة للفرد والمجتمع، والارتقاءِ بالعلوم والفنون والحِرَف، وإنشاء المشاريع المهمة التي يستفيد منها الناس من تعبيدٍ للطرقات وإنشاءٍ للكباري، وعلاوةً على ذلك فقد كان السلطان "مراد الثاني" في قِمَّةِ سعادته لأنه سيجد وقتًا يتفرّغ فيه للعبادة والطاعة بعدَ أن قضى أعوامًا في ساحات القِتال.

تنازل السلطان "مراد الثاني" عن العرش بمحض إرادته

بعد عودة السلطان "مراد الثاني" من حملته الأخيرة على "بني قرمان" اتّخذ قرارًا مهمًّا جدًّا، كان سيعلنه في منطقة "ميهاليج" بعد عدة أسابيع.

وحينما حان الوقت للإفصاح عن قراره دعا السلطان كل أمرائه وقادته إلى "ميهاليج" -التي هي اليوم بلدة "قَرَاجَه باي" التابعة لمدينة "بورصة"- وجلس مع الكوكبة المشرقة من رفقاء دربه الذين شاركوه الأفراحَ والأتراح والذين لم يتخلّفوا عن معركةٍ خاضها أبدًا، وبدأ حديثه قائلًا:

- أصدقائي الأوفياء وقادتي الشجعان أريدُ إطلاعكم على فكرة مهمّة أرجو من الله أن تكون فاتحةَ خيرٍ لنا جميعًا.

فانتبه الجميع واشرأبّت أعناقهم وشُنِّفَت آذانهم لما سيقوله، وواصل السلطان حديثه قائلًا:

- أحيطكم علمًا بأنني قررت التنازل عن العرش العثماني الذي أجلسُ عليه منذُ ثلاثةٍ وعشرين عامًا لصالح ابني محمد".

ولما سمع الحاضرون كلمات السلطان أخذتهم الحيرة والدهشة ولم يصدقوا ما سمعوه وذلك لأن الأمير محمد الذي يريد السلطان أن يوليه العرش مكانه يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة فقط، إلا أنه بالنظر إلى طبيعة خُلق الأمير محمد -الذي عرفه التاريخ فيما بعد هذه الحادثة بثماني سنوات فقط باسم محمد الفاتح صاحب أعظم فتح في عصره- نجد أن الله وهبَهُ ذكاء فذًّا وتمّت تنشئته على أكمل وجه على أيدي كوكبةٍ من العلماء الأجلّاء، ثم تابع السلطان "مراد الثاني" بالحديث مرّةً أخرى وكأنه يريد أن يطمئنهم، فقال:

- لقد ولّيتُ ابني العرش في حياتي لأنظر إلى أين سيصير مآل تلك البلاد.

بعد ذلك الخطاب بيومين ترك السلطان "مراد الثاني" العرش متّجهًا إلى ولاية "مانيسه" برفقة العديد من أصدقائه الأوفياء الذين اختارهم ليكونوا بجواره، لقد كان يريد أن يملأ ما تبقّى له من حياته الدنيوية بالدعاء والعبادة والأذكار.

لقد كان خبر تخلّي السلطان العثماني "مراد الثاني" الذي يتمتع بالخبرة الواسعة والأفكار والتحليلات الإستراتيجية الصائبة عن عرشه لصالح ابنه الأمير محمد الذي لا يزال في سنّ الطفولة خبرًا سارًّا لأعداء العثمانيين، فلقد أُثْلِجَت صدورهم، وظنوا أن فرصةً لا يمكن تفويتها قد لاحت لهم.

فمثلًا كان اليوم الذي سمع فيه القائد المجريّ "إيوان دي هونيدوارا" هذا الخبر بمثابة عيدٍ سعيد، إذ إن إيوان لم يأخذ معاهدة "سجدين" على محمل الجدّ منذ توقيعها، أما "كاردينال جساريني (*Kardinal Cesarini*)" مفوّض البابا فقد استطاع أن يُقنع "لاديسلاس الأول" الملك المجري بتعطيل العمل بالمعاهدة وجعله يحنث في يمينه، وسرعان ما انتشرت أخبار تلك التطوّرات في منطقتي "البلقان" و"رُومَلِي"، وبمجرد سماع تلك الأخبار بدأت الفوضى والاضطراب تشيعان بين عموم الشعب شيئًا فشيئًا، حتى إن بعض الأسر التركية بدأت في النزوح من "رُومَلِي" إلى الأناضول.

حملة صليبية جديدة على العثمانيين

اتخذ الأوروبيون القرار بإعداد حملة صليبية جديدة على الدولة العثمانية بتحريض من البابَاوية، واتحدت أوروبا مرة أخرى، وبدأ الحشد للحملة تحت قيادة "المجر" و"بولندا"، وكان الهيكل الأساسي للجيش الصليبي هذه المرة يتكوّن من "التشيك" و"كرواتيا" و"سلوفينيا" و"سلوفاكيا" و"ليتوانيا"، وأما ألمانيا وفرنسا فكانتا في الصدارة، وبالإضافة لذلك فقد انضمّت البندقية إلى هذا الاتحاد بأسطولها الحربي الذي كان يُعتبر في ذلك الوقت أقوى وأفضل قوّة بحرية في العالم، لم يكتف البابا في هذه الحرب بدوره الإرشادي التحريضيّ الديني كما فعل في سابقتها من الحروب، ولكنه شارك هذه المرة بأسطول تابع للبابوية، وقد شاركت كلٌّ من "بيزنطة" و"أفلاق" وإقليم "مولدافيا" و"بورغوني (*Bourgogne*)" في هذه الحملة الصليبية إذ كانت كلّ واحدةٍ من هذه الدويلات تبحث عن ضالتها بكل حماسٍ وأملٍ، وبالإضافة لهؤلاء اشتركت أيضًا مقاطعة "دوبروفنيك" -أحد أهم مراكز التجارة العالمية في ذلك الوقت- في تلك الحملة الصليبية بغيةَ الحصول على مدينتي "فلوره" و"كانينا (*Kanina*)" عند تقسيم الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب، وتختلف هذه الحملة عن سابقتها بعدم انضمام "صربيا" ضمن صفوف الجيش


رسم يعبر عن الحروب العثمانية الصليبية

الصليبي، حيثُ كانت "صربيا" قد حصلت -قبل عامٍ من ذلك التاريخ- على استقلالها بمساعي السلطان "مراد الثاني"، ولذلك أعلنت عدم انضمامها إلى تلك الحملة الصليبية تحسُّبًا لما قد تُسفر عنه هزيمة الجيش الصليبي.

وبعد أن أتم الجيش استعداداته انطلقت القوات الصليبية الجرارة التي يبلغ عددها مائة ألف جندي، يترأسها القائد المجري "إيوان دي هونيدوارا" الذي يتمتّع بشهرةٍ واسعة بين دول أوروبا، وكانوا يعتبرون أن النصر محقّقٌ لا محالة على يديه، وهكذا تم تعطيل العمل بمعاهدة "سجدين" التي لم يمض على توقيعها عام واحد فقط، على الرغم من أن تلك المعاهدة كان من المفترض لها أن تستمر عشْر سنوات.

تقدم الجيش الصليبي على سواحل البحر الأسود حتى وصل إلى مدينة "فارنا"، وكعادتهم في كل زمان ومكان لا يمرون بمكان إلا ويعيثون فيه فسادًا ويرهبون أهله، فلا يفرقون بين دم مسلم أو مسيحي ممن يلقونه في طريقهم، بل كانوا لا يتوانوا عن سلبِ ونهبِ أموال الناس، وكان هدفهم الأول هو تطهير "البلقان" من العِرق التركي، وكانوا على ثقةٍ كبيرة بأن الجيش العثماني لا يمتلك الشجاعة الكافية للوقوف أمام هذا الفيضان المتدفق من القوات الصليبية، كما يرون أن القوات العثمانية الموجودة في "أدرنه" ستفرّ إلى الأناضول هاربةً بمجرّد وصولهم، وإذا اختاروا الحرب فإن القوات الصليبية ستقضي عليهم في لمح البصر.



من هو السلطان العثماني؟

تُرى بينما كانت تحدث كل هذه التطورات في الجانب الأوروبي؛ كيف كانت الأمور تجري في بلاد العثمانيّين؟!

وبينما كان العدو الصليبي يقترب بسرعة فائقة من "أدرنه" كان السلطان الجديد محمد الثاني متواجدًا في "أدرنه" في حين أن أباه السلطان "مراد الثاني" كان يقيم في "مانيسه"، وفي تلك الأثناء أوصى مجلس الشورى -الذي انعقد برئاسة السلطان محمد الثاني من أجل تقييم الموقف- بعودة السلطان "مراد الثاني" مرة أخرى نظرًا لتلك الظروف العصيبة التي تعصف بالبلاد، وقد أعرب الصدرُ الأعظم "جاندارلي خليل باشا" أنه من الضروري عودة السلطان "مراد الثاني" مرة أخرى إلى العرش ولو لمدّة مؤقّتة، وإلا سيكون من الصعب جدًّا مواجهة الجيش الصليبي، كما قال أنه يمكن له عودته إلى العرش مرة أخرى بعد تفادي الدولة لهذه الكارثة"، وبقية القادة شاركوا أيضًا الرأي نفسه، ولكن هذا الرأي قد أثار استياء السلطان محمد في البداية، ظنًّا منه أن تنازله عن العرش لوالده الذي وثق فيه لا يليق به.

لكنه بعد أن تباحثَ مع القادةِ وسمعَ آراءَهم قرر أخيرًا التنازل عن العرش، فأرسل رسولًا إلى "مانيسه" يطلب من والده الحضور إلى "أدرنه" ليعتلي العرش مجدّدًا، ولكن والده فاجأه بالرفض، فأرسلَ له السلطان محمد الثاني خطابًا ثانيًا جاء فيه: "إن كنتَ أنت السلطان فتعال وتولّ قيادة جيشك ورئاسة دولتك وإن كنتُ أنا السلطان فإني آمرك بقيادة الجيش"..

الانتصار في معركة "فارنا"

وما إن بلغت الرسالة الثانية إلى السلطان "مراد الثاني" حتى نهض على الفور قاصِدًا "أدرنه"، وفي هذه الأثناء كان الأسطول الصليبيّ القويّ قد بسط سيطرته على مضيقي "جناق قلعة" و"البسفور"، ورغم ذلك استطاع السلطان "مراد الثاني" اجتياز المضيق والوصول إلى "أدرنه".

وعندما وصل "مراد الثاني" إلى القصر نهض السلطان الشاب محمد من مكانه حتى يجلس والده على العرش، ولكن "مراد الثاني" لم يقبل بهذا الأمر وقال "أنت السلطان، وأنا قائد الجيش".

ولقد وقعَ خبرُ وصول السلطان "مراد الثاني" -صاحب الخبرة الواسعة بالحروب والقائد المحنّك- إلى "أدرنه"، وتولّيه قيادة الجيش؛ كالصاعقةِ على مسامعِ الصليبيّين، حيث أذهبَ فرحتَهم وسعادتهم، وضاقت به أرواحهم، وتسلل الخوف إلى قلوبهم، لأنه لن يكون من السهل تحقيق النصر على مثلِ هذا القائدِ المحنّك.

لقد ألغى ملك المجر "لاديسلاس" معاهدة "سجدين" بعد توقيعها بعشرة أيام فقط، وبدأ يُحضِّرُ لحملةٍ جديدةٍ ضد العثمانيين، وكان من أهم الأسباب التي حفزته على إلغاء تلك المعاهدة الضغوطاتُ المستمرّة التي تعرض لها من قِبَلِ ملك بولندا "كاردينال جساريني" وقائد الجيش المجري "إيوان دي هونيدوارا" بخصوص هذا الأمر.

وكان يقول "إيوان دي هونيدوارا" قائد الجيش المجري لمن حوله: "إن هذه الحملة الصليبية ترمي إلى هدفين أساسيين، الأول: هو الانتقام لهزيمة معركة " نِغْبُولُو"، والثاني: هو القضاء على العثمانيين واستئصال شأفتهم من البلقان"، معتقدًا أن جيشه يستطيع بسهولةٍ ويُسرٍ التغلبَ على جيش يقوده صبيٌّ لا يناهز عمره الثلاثة عشر عامًا.

عبر "مراد الثاني" الذي تولى قيادة جيشٍ قوامه أربعون ألف جندي جبالَ "البلقان"، ووصل إلى "فارنا"، وتواجه الطرفان بالقرب من ميناء "فارنا"، وأمر "مراد الثاني" جنوده بأَخْذِ مواقعهم في ساحة المعركة.

كان الجيش الصليبيُّ يفوق الجيشَ العثماني في العدد، لذا أصبح من الصعب تغلُّبُ الأخيرِ على الصليبيّين، وقد قام العثمانيّون بتعليق الصحيفة التي كُتبت فيها معاهدة "أدرنه" و"سجدين" على رأس رمحٍ وثبتوا الرمحَ في مقدمة الجيش مشيرين بذلك إلى استنكارهم نقضَ الأوروبّيين لهذه المعاهدة.

وكان "مراد الثاني" يتمتّع بقوة الإيمان بالله ورباطةِ الجأش مما يجعله يثير المخاوف في قلوب أعدائه ولا يخاف، لقد حباه الله ذكاءً فذًّا وحنكةً عسكريّةً بالغة؛ حيث أمر الجنودَ بتفريغ قلبِ ساحة المعركة، وكأنه يقوم بعملية انسحاب تدريجيّ، فقام ملك المجر "لاديسلاس" -الذي كان يرى أمامَ عينيه انهيارَ وهزيمةَ العثمانيّين- بإصدار أوامره بالهجوم الكاملِ الشامل رغم تحذير القائد "إيوان دي هونيدوارا" ومحاولته إثناءه وإعاقته عن هذا الأمر، إلا أنه لم يلتفت إلى ذلك، ولم يعلم أنه إنما يأمر الجيشَ بالسير إلى حتفه... وعندما حانت اللحظةُ المناسبة ووقع الصيد الصليبي في مصيدة الجيش العثماني -الذي أخذ شكلَ هلال مستدير- أصدر "مراد الثاني" أوامره بالتحرّك واستئناف الهجوم، فقام طرفا الهلال بشنّ هجومٍ مضادٍ مباغتٍ جعلَ الصليبيّين بين فكّي كمّاشة، وانطلَقَتْ صيحات وعزفُ فرقة الإنكشارية للموسيقى العسكرية التي تبعث



الفرح والسرور والطمأنينة في أعماقِ الجنود، وانهالت هتافاتهم -التي تثير الحماس في القلوب- بقولهم "الله أكبر" على قلوب الأعداء كالصاعقة، ودارت هناكَ رحى معركةٍ حامية الوطيس، كان من جملةِ ضحاياها ملك المجر "لاديسلاس"، حيثُ قُطِعَ رأسُه على مرأى ومسمَعِ الجميع.

وعندما رأى الجنود الصليبيون رأسَ الملك المجريّ المقطوعة دبّ الرعب في قلوبهم وانحطّت معنوياتهم، وقد حاول "إيوان" القائد المجري رفع معنويات الجنود بتطبيقه ما يعرفه من فنون وتكتيكات الحروب إلا أن كل تلك المحاولات باءت بالفشل الذريع، فلما حلّ الظلام فرّ من ساحة المعركة هاربًا يُجَرْجِرُ أذيال العار ومعه بعض الجنود التابعين له.

إن هذه المعركة التي انطلقت شرارتُها مع إشراقة أول ضوء للنهار قد وضعت أوزارها حوالي الساعة التاسعة مساءً[٣٧]، بعد أن استمرت حوالي ثماني أو تسع ساعات، وقد استطاع العثمانيون بهذا النصر المؤزّرِ أن يُعيدوا الأمن والاستقرار إلى "رُومَلِي" علاوةً على ما حقّقوه من شفاءٍ للصدورِ؛ بأخذِ الثأرِ وإعمالِ السيوف في ذلك الخائن "إيوان دي هونيدوارا".

ولم تتمكّن بقية الجيش الصليبي الذي حاول المقاومة وخوض غمار الحرب في اليوم التالي من تفادي الهزيمة الساحقة التي حلّت بهم تحتَ ضربات الجيش العثماني، وغَنِمَ العثمانيون غنائمَ وفيرةً تقارب مائتين وخمسين عربة محملة



(٣٧) كتاب التاريخ لمؤرخ البيزنطي طوقاس، ص ٣٢، ١٣٤.

بالمُقْتَنَيات والأموال، ومع أنّ الصليبيّين إنما جاؤوا -في العاشر من نوفبر عام (١٤٤٤م) لمنازلةِ العثمانيّين في "فارنا"- من أجل الثأر لهزيمة أجدادهم في معركة "نِغْبُولُو" إلّا أنّهم باؤوا بالفشلِ الذريعِ مجدّدًا، وعادوا يجرجرون ذيول الخيبة والعار، ولم يصمد منهم ثبيتٌ ولا هبيت، وبينما كان "إيوان" يسعى لإنقاذِ نفسه من الموت المحقّق هاربًا مع بعضِ فلول "البولنديّين"؛ كان جسم الجيشِ الصليبيّ قد تمزّقَ تحتَ ضربات العثمانيّين فلقي الآلاف مصرعهم، وأصبحت أسلابهم وعرباتهم المحمّلة بالعدّة والعتادِ غنائمَ بيد الجيشِ العثمانيّ، وبهذا النصر أصبحت السيادة العثمانية في "البلقان" واقعة لا محالة.

لقد اتفق المؤرّخون على أن معركة "فارنا" هي من النقاط الفاصلة في التاريخ العالمي إذ كانت تعني بداية سلسلة من الهزائم والخسائر المتتالية للعالم المسيحي، أما العالم الإسلامي فكانت تغمره النشوةُ والسعادة، ومن ذلك على سبيل المثال: الاحتفالاتُ التي أُقيمت في مصر عدة أيام من أجل مشاركة الدولة العثمانية فرحتَها بهذا النصر، وصدعت القلوب ولهَجَت الألسنة إلى الله بالدعاء والشكر، كما قام السلطان المملوكي "تشاقمق" بإرسال برقيات التهنئة إلى السلطان "مراد الثاني".



فرقة "مهتر" الموسيقية العسكرية

"مراد الثاني" يعتلي العرش العثماني مجددًا


منمنمة إعتلاء السلطان مراد الثاني العرش

إن المصائب التي واجهتها الدولة العثمانية -سواء كانت أثناء معركة "فارنا" أو ما سبقها من إرهاصاتٍ وأحداث- أثبتت أن الدولة العثمانيّة لا تتحمّل أعباءَ وتبعاتِ التوريثِ المبكّر في وقت ازدادت فيه التهديدات من الخارج والداخل، حتى إن الأسطول الصليبي وصل إلى البحر الأسود وتجوّل فيه، كما قام "إيوان دي هونيدوارا" بالهجمات على مدن "رُومَلِي"، وكذلك قام أمير أفلاق بالاستيلاء على مدينة "يركوي (*yerkoy*)".

ونظرًا إلى ما طرأ على المنطقة من تغيُّراتٍ وتطوّرات كان لا بدّ من عودة "مراد الثاني" إلى سدّة الحكم وإدارة شؤون البلاد، وهذا المطلبُ يدعمه الجيشُ الذي كان يرى المخاطرَ أكثر مما يراها الآخرون.

قام الوزير الأعظم خليل باشا بتشجيع "مراد الثاني" لذهابه إلى "أدرنه"، وعلاوة على ذلك فقد تنازل السلطان "محمد الثاني" عن العرش لأبيه حتى لا يكون حجر عثرة في طريق الدولة العثمانية، وهكذا اعتلى "مراد الثاني" عرش الدولة العثمانية مجدّدًا وأرسلَ ابنه محمد الثاني إلى "مانيسه" بصفته خليف العرش العثماني ووليّ العهد، وبقي السلطان "مراد الثاني" على رأس الدولةِ مرابطًا إلى أن وافته المنية.

القضاء على المتمرّدين

كان انتصار "فارنا" له تداعيات كبيرة بالنسبة للعثمانيين في شتى المجالات حيث استطاع العثمانيون على سبيل المثال بسطَ سيطرتهم على المنطقة "البلقان" من جديد كما تمكّنوا من ترسيخ الأمن والنظام العام في الدولة، إلا أنّ أنباءَ تواردت إلى أروقة القصر تُفيدُ بقيامِ بعضِ حركات التمرّد في مدينة "بيلوبونيز (*Peloponnese*)" وبلاد "الأفلاق" و"ألبانيا".

ولا جرمَ أنّ حركات التمرد إن لم تُعالج وهي في مهدها يصعبُ التعامل معها بعد أن تكبر وتستفحل، ومن هنا فإن السلطان -ذا النظرِ الثاقب والإدارة الرشيدة- استشعرَ هذا الخطر فتحرّك على الفور متّجهًا إلى مدينة "بيلوبونيز"، ثم قام

بنشر قواته في شبه الجزيرة واستولى على المراكز المهمّة فيها، وفي النهاية أحكم سيطرته عليها وقضى على المتمردين فيها، ولما تنامى الخبر إلى مسامع إمبراطور "بيزنطة" أرسلَ سفراءه للتفاوض مع السلطان من أجل السلام في المنطقة.

معركة كوسوفو الثانية



منمنمة تعبيرية عن معركة كوسوفو الثانية

لاحظ "فلاد دراكولا" أمير أفلاق ازدياد القوة العثمانية في المنطقة، فبادر إلى تحسين العلاقات الثنائية مع الدولة العثمانية، أما "إيوان دي هونيدوارا" القائد المجري فكان يتحين الفرص للانقضاض والقضاء على الدولة العثمانية، ولما علم بتودّد أمير "أفلاق" إلى العثمانيّين جنّ جنونه، وقام بقتله رغمَ أنه كان حليفًا سابقًا له، ولم يكتف بذلك بل عقد مباحثات مع البابا حول كيفيّة القضاء على العثمانيّين، واتفقوا في النهاية على شن حملة صليبية جديدة على الدولة العثمانية، ولمّا تنامت الأخبار إلى مسامع السلطان "مراد الثاني" المشغول حينئذ بإخمادِ نار التمرّدِ في "ألبانيا" طارَ على جناحِ السرعة قاصدًا "صوفيا" لمواجهة الجيش الصليبيّ، وفعلًا التقى الجيشان عند "وادي كوسوفو"، هذا الوادي العريق الذي شهدَ قبل تسعةٍ وخمسين عامًا من تلك اللحظة معركةً مماثلةً وشبه متطابقة، حيث دارت معركة طاحنةٌ بين السلطان مراد الأول -جدّ مراد الثاني- وبين الصليبيّين قاطبة، مُنيَ الصليبيّون يومها بهزيمةٍ نكراء وأي هزيمة.

وها هو التاريخ يكرّر نفسه على نفس الأرض والمكان وبنفس الأسباب والدواعي فهي حرب الصليبيّين والعثمانيّين، فلقد كانت قيادة الجيش الصليبي تحت إمرة القائد المجري "إيوان دي هونيدوارا" كما كانت في معركة "فارنا"، وكان "إيوان" يتمتع بصلاحيات واسعة في الدولة المجرية، ويشغل منصب وكيل الملك وذلك لأن ملك المجر الجديد طفلٌ صغيرٌ عديم الخبرة، وقد اتخذ "إيوان" قرار الحرب بنفسه بصفته وكيل الملك، كما قام بإقناع الدول الأوروبّية لخوض الحرب إلى جانب "المجر"، وكان جلّ ما يفكّر فيه القائد المجريُّ هو إعادة هيبته المفقودة بين قادة أوروبا بعد الهزائم المتتالية التي ألحقها به العثمانيون وكذلك الانتقام والثأر منهم، كما كان يهدف إلى القضاء على العثمانيين نهائيًا في "البلقان" بصفته القائد العام لجيوش أوروبا.

ما أشبه الليلة بالبارحة، حيث قامت كل الدول الأوروبية بتقديم جنودها والانصياعِ تحت إمرة هذا الجيش الصليبيّ، إلا أن قوام الجيش هذه المرة كان قليلًا مقارنة بالحملة الصليبية السابقة، إذ لم يكن يتجاوز الستين ألف جندي.

وعلى الجانب الآخر قام السلطان "مراد الثاني" بتدعيم جيشه المنشغل بالحرب ضدّ متمرّدي "ألبانيا" بجنودٍ من "بني قرمان"، تفعيلًا منه للاتفاقيّة المنعقدةِ بينه وبينهم، حيث وصل تعداد الجند في الجيش العثماني زهاءَ خمسين ألف جندي.

وجديرٌ بالذكر أن كِلا الجيشين متقاربان في العدد والعتاد هذه المرّة.

تقابل الجيشان في "كوسوفو" في السادس عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٤٤٨م)، وكعادة السلطان "مراد الثاني" قام بإرسال وفد مكوّن من ثمانية أشخاص إلى الجيش الصليبي لعرضِ الصلح والسلام، وكان يرمي من وراء ذلك ألّا يحمل مسؤوليّة الحرب على عاتقه، فلا يكون هو البادي لأن البادي أظلم، إلا أنّ الصليبيّين رفضوا عرضَ السلام رفضًا مطلقًا لا نقاش فيه.

وفي النهاية دقت طبول الحرب واشتعلت نيرانها، وتميّزت هذه المعركة عن سابقاتها أن كِلا الطرفين استخدما عددًا كبيرًا من المدافع أثناء المعركة، وبدأت المعركة صباح يوم السابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول، وبعد الظهيرة شنّ "إيوان"



رسم تعبيري عن معركة "كوسوفو".

قائدُ الجيوش الصليبية هجومًا شديدًا على الجيشِ العثماني بعد أن وزّع جنودَه على الأطراف، ولكنه لم يتمكّن من تحقيق مراده ومساعيه، وأما بالنسبة للهجوم الذي حاول إجراءَه ليلًا فقد تمكّن الصناديدُ العثمانيّون من التصدي له وإزهاقِهِ بكلّ سهولة، إلا أن "إيوان" حاول مرة أخرى اختراق الجيش العثمانيّ من الميمنة والميسرة.

أما السلطان "مراد الثاني" فقد بدأ ينسحب انسحابًا تكتيكيًا، فظنّ الصليبيّون أن النصرَ يلوح لهم في الآفاق، فأرادوا أن يوجّهوا ضربةً قاضية إلى قلب الجيش العثماني؛ فشنّوا هجومًا كاسحًا بكلّ ما أوتوا من قوّة على قلب الجيش العثماني، فأمر "مراد الثاني" قوات مركز الجيش بالانسحاب التدريجيّ كي يستدعي الأعداء إلى وسط الميدان.

ولم يكن "إيوان" قد فهمَ بعدُ التكتيكَ والإستراتيجيةَ التي يتبعها العثمانيون، فواصل تقدّمه نحو قوات المركز في الجيش العثماني وهو يظنّ أنه يُطاردُ فلولها المنهزمة، لكن الحقيقةَ أن الجيشَ االصليبيّ كان كلّما توغّل نحو القلب أكثر كلّما وقع في المصيدة أكثر، حيثُ بدأت وحدات الميمنة والميسرة العثمانيّة بالإطباقِ عليه شيئًا فشيئًا إلى أن أحكمت القبضةَ عليه تمامًا وطوّقته من جميع الجهات.

وعندئذ قامت القوات الإنكشارية بالهجوم على القوات الصليبية بسرعة البرق، وذهل الجيش الصليبي من هذا الهجوم المفاجئ الذي لم يكن يتوقّعه أبدًا، حتى إن الواحد منهم بدأ يقاتل صاحبه وهو لا يدري من هول المفاجأة، ثم حاولوا الهرب بعد ذلك ولكن القائد العثماني "طوناخان بك" قطع عليهم طريق الهروب، وما كان من أمر "إيوان دي هونيدوارا" قائدِ الجيشِ الصليبيّ الذي أدرك حينئذ أنه على وشك الهزيمة إلا أن أمر بعض جنوده الذين ما زالوا صامدين معه بالهجوم على خيمة السلطان "مراد الثاني".

وكان هدفُهُ من ذلك أن يصرفَ أنظارَ جنوده عنه ويستفيد من حالةِ التخبُّطِ التي تعتريهم ويهرب من ساحة المعركة دون أن يلاحظه أحد من الجنود، وقد نجح في ذلك بالفعل.

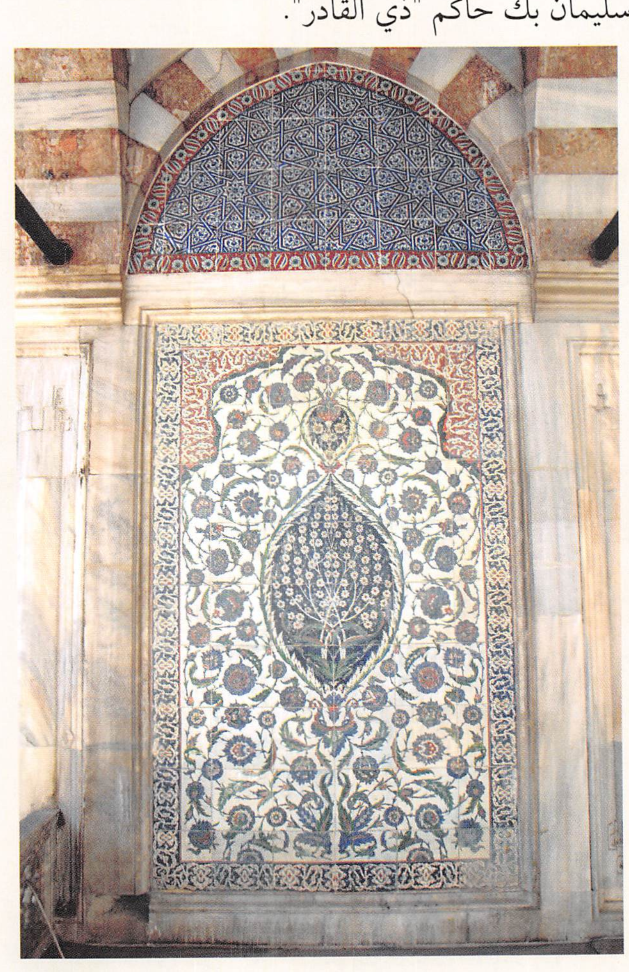
انتهت المعركة في غضون ثلاثة أيام وفي صباح يوم التاسع عشر من أكتوبر/تشرين الأول (١٤٤٨م) كان العثمانيّون يمشّطون أرض المعركة، كما مشّطوها قبلَ تسعةٍ وخمسين عامًا من أرجاسِ الصليبيّين أيضًا بقيادة السلطان "مراد الأول"، وبالإضافة لذلك فإنه لم تعد لدى الجيوش الصليبية القدرة على خوض حملات صليبية جديدة بعد تلك الحملة، لقد سطر التاريخ الدعاء الذي دعا به السلطان "مراد الثاني" صاحب الخبرة الواسعة في فنون القتال وهو كالتالي:

"اللهم لا تخذل هذه العصابة المؤمنة بك والموحدة لجلالك، ولا تؤاخذها بكثرة ذنوبي، اللهم إني أتوسل إليك بحبيبك المصطفى ﷺ أن تجعل هذه الفئة المؤمنة من المنتصرين، واحفظهم وكن معهم بنصرك وتأييدك إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وإنك نعم المولى ونعم النصير".

لقد كان للنصر في معركة "كوسوفو الثانية" طعمًا مختلفًا لم يشعر به إلا السلطان "مراد الثاني"، حيث وفّى أمير "بني قرمان" بعهده الذي قطعه على نفسه هذه المرة وأرسل جنودَ إمارتِه للمشاركة في الحرب، فقاتل أبطالُ "بني قرمان" في خندقٍ واحدٍ إلى جانب القوات العثمانية في مواجهة الجيوش الصليبية، كما انضمّ أمير الصرب إلى صفوف الجيوش العثمانية أيضًا.

وفاة السلطان "مراد الثاني"

وبعد حرب "كوسوفو الثانية" تفرّغ السلطان "مراد الثاني" للقضاء على المخالفات الأمنية والتمردات في بعض المناطق التي ظهرت فيها أحداث الشغب لمدة من الوقت، وما إن عاد إلى "أدرنه" حتى استدعى ابنه وولي عهدِهِ الأمير محمد من "مانيسه" وأمر بتزويجه وأعدّ له مراسم زواج فخمة تليق بشخص السلطان وولي عهده في "أدرنه"، وكانت زوجة الأمير محمد التي اختارها له والده السلطان مراد هي "ستي هانم" سليلة سليمان بك حاكم "ذي القادر".



كان الأمير محمد حينذاك على رأس التاسعة عشر من عمره ولا يشغل باله إلا فتح إسطنبول، وقد فضل الأمير محمد العودة إلى "مانيسه" بصفته واليًا عليها بغيةَ ألا يكون عقبةً في طريق والده، ولم يكن السلطان "مراد الثاني" يعلم أن هذا اللقاء هو آخر لقاء يرى فيه ابنه الأمير محمد، وكان "مراد الثاني" صاحب الشخصية الغنية بجميل الصفات يشعر بدنوّ أجله وأنه وصل إلى المطاف الأخير في رحلته الدنيوية، لقد أوشك عمره على الخمسين عامًا، قضى منها ثلاثين عامًا سلطانًا على الدولة العثمانية، لقد أفنى السلطان "مراد الثاني" حياته كلها في سبيل الدولة العثمانية وتوسيعِ رقعتِها ومن أجل توفير حياة وعيشة كريمة لكل أفراد الشعب وطبقاته، وضمان أمن واستقرار من يعيشون على أرض الدولة العثمانية بغضِّ النظر عن انتماءاتهم الدينية والعقدية، كما قضى حياته على صهوة جواده مجاهدًا في سبيل الله من قُطْر إلى قُطْر، ومن دولة إلى دولة، نستطيع أن نقول إن "مراد الثاني" لم يهنأ بالراحة يومًا واحدًا، الأمرَ الذي انعكس على صحّته سلبًا، فلقد بلغ منه التعبُ والنصبُ والجَهدُ مبلَغَه قبلَ حينه الطبيعيّ عند أترابِهِ، ولقد بلغ من قُرْبِهِ إلى الله مبلغًا جعله يستشعرُ ويحسّ باقتراب أجله.

وذات يوم من أيام الشتاء القارسة مَرِضَ السلطان "مراد الثاني"، وأصبح طريحَ الفراش، لم ينل منه القتال في ميادين الحروب مثلما نال منه المرض الناتجُ عن النصب والتعب، وبعد ثلاثة أيام من المرض وافته المنية في الثالث من فبراير/ شباط عام (١٤٥١م) حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا.

كان السلطان "مراد الثاني" لا يزال في الثامنة والأربعين من عمره حين وافته المنية في قصرِ "أدرنه"، إلا أن أعماله التي قام بها واستطاع إنجازها ليَصْعُبُ إنجازها وتحقيقها من رجلٍ عمّرَ مائة عام، وقد دُفِنَ في مدينة "بورصة" بموجب وصيته التي أوصى بها قُبَيل وفاته.

السمات الخاصة بالسلطان مراد الثاني:

المظهر الخارجي:



السلطان مراد الثاني

- كان السلطان مراد متوسّطَ القامة قويَّ البنية ذا جبينٍ واسع وعينين سوداوين وبشرةٍ ورديّة، أما شعره فكان أشقر اللون.
- كان مفتولَ الشاربِ طويل اللحية، بشوش الوجه.
- قائدٌ محنّكٌ، وفارسٌ مغوارٌ ومحاربٌ يصعب النيل منه.

شخصيته وقيادته

- يتمتّع السلطان "مراد الثاني" برباطة جأشه، وتفكيره السديد القويم، وتحليلِهِ العميق للأحداث والأزمات.
- يمتلك حسَّ الشعراء، وذوقَ الخطّاطين المهرة، حتى إنه أُثِرَ عنه بعض الأشعار الجميلة المنظومة.
- دائم الحيطة والحَذَرِ، اتخذَ لنفسه منهجَ الحكمة والتعقّل في حياته السياسيّة، وعلى سبيل المثال فقد تحاشى "شاه روح" حاكم التيموريّين كيلا يجرّ البلاد إلى ما لا يُحمَدُ عقباه.
- في عهده كانت قيمة ميزانية الدولة العثمانية تعادل نصفَ مجموعِ ميزانية الدول الأوروبية كلها.

- يمتلك شخصية تحبّ السلام وتميلُ إليه، وتنبذُ العنفَ والحربَ، إلا أنه ذو بأسٍ شديدٍ إذا اضطرّه الأمر.
- وقد أولى اهتمامًا بالغًا بالحياة العلمية، ووفّر للعلماء خلالَ عهده المناخَ المناسب للبحثِ العلميّ والاستكشاف والتطوير والابتكار.
- راعى مسألة الإعمار والإسكان، فقد أسهمَ في بناء العديد من الآثار في مدن العثمانية كمدينتي "بورصة" و"أدرنه" وغيرهما، ومن بين هذه الأعمال الطرقات والجسور والمساجد والمدارس والمآذن وسبل المياه.
- بالإضافة لذلك فإن الحيّ الذي أنشأ فيه السلطان "مراد الثاني" مسجدًا ومدرسة في مدينة "بورصة" يعرف حتى الآن بحيّ "المراديّة".



نماذج من العمارة العثمانية

الأعمال الخيرية لدى العثمانيين



كانت أماكن رعاية الفقراء لدى العثمانيين عبارة عن مؤسسات اجتماعية خيرية يقدَّم فيها الطعام مجانًا للطلاب والفقراء، وقد أنشأ العثمانيون أماكن لرعاية الفقراء يُوزّعون فيها الطعام على الفقراء والمحتاجين، ما زال بعضها يواصل عمله الخيري حاليًا، ويحدوهم على هذا أنَّ مدَّ يد العون لمن يحتاج المساعدة سلوك إسلاميٌّ مهم، وكانوا يعدون ذلك زادهم في الآخرة.

وتوجد مئات من أماكن رعاية الفقراء التي أنشأها بهذا الشكل السلاطين وزوجاتهم وبناتهم والأمراء وكبار رجال الدولة والقادة الكبار والأثرياء.

إن تعدد المؤسسات الاجتماعية لدى العثمانيين بهذا الكم الهائل يدل على أنهم كانوا أكثر الدول تقدمًا في عصرهم من حيث تطبيقهم الإسلام في حياتهم اليومية.

وفي أماكن رعاية الفقراء كان طعامُ الغداء والعشاء يُقدَّمُ لأربعة آلاف إلى خمسة آلاف شخص يوميًا، وأولئك الذين يحق لهم الحصول على وجبات مجانية يوميًا هم الفقراء والمسنون الذين لا يجدون من يعتني بهم، وطلاب المدارس، وموظفو المساجد والخدم العاملون في المؤسسات الخيرية المتنوعة، والضيوف المارون من تلك المنطقة بغض النظر عن ثرائهم، فالعثمانيون قد ضمنوا كذلك حماية النظام الاجتماعي للدولة بما قدموه من أعمال خيرية بتوفير أماكن رعاية الفقراء، كما أنَّ خيام الإفطار التي تقام في رمضان اليوم هي امتداد لعادة إطعام الجياع لدى المسلمين ابتغاء مرضاة الله تعالى.

الإسهامات الثقافية المهمة للسلطان "مراد الثاني"

قضى السلطان العثماني السادس "مراد الثاني" أيام صباه في مدينة "أماسيا"، وأصبح فيما بعد واليًا عليها، حيث كانت "أماسيا" إحدى المدن التي تحيا فيها عادات الأغوز القديمة ومشاعرهم الجياشة في الأناضول، ولهذا السبب نشأ السلطان مراد على الثقافة الشرقية والعادات والتقاليد التركية القديمة، وعندما اعتلى عرش الدولة العثمانية بدأ تأثير تلك العادات والتقاليد والثقافة التركية القديمة ينعكس على الدولة العثمانية والحياة اليومية على حدّ سواء، حتى إن مسألة انحدار العثمانيين من نسل عشيرة "قَايِي" قد أثبتت للمرة الأولى في عهده، بالإضافة إلى ذلك فقد سُكّت العملة باسم عشيرة "قَايِي".

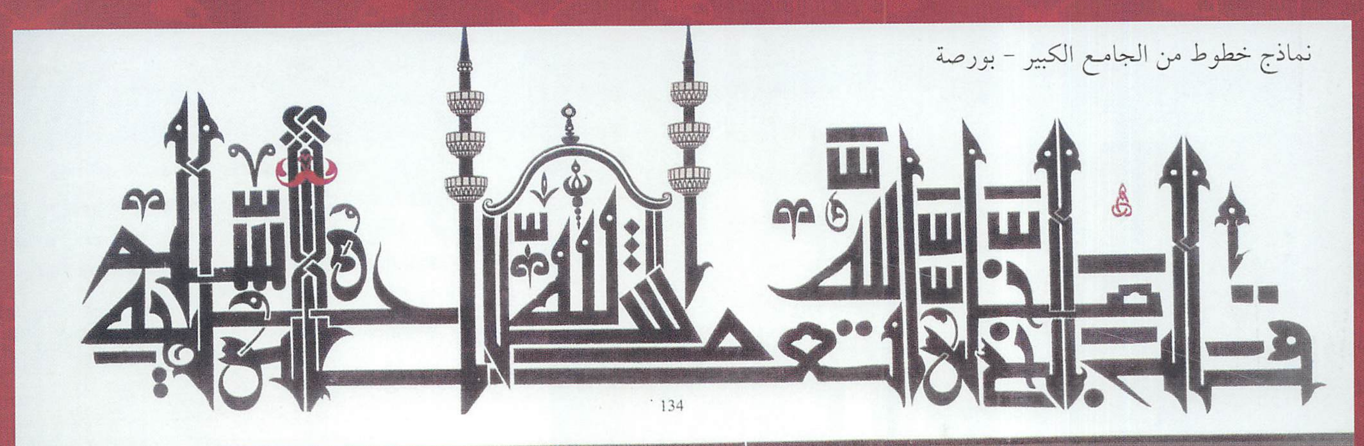
وقد بلغ من تأثره بالثقافة التركية القديمة أنه سمّى أبناءه بأسماء تركية الأصل مثل "كوركوت" و"أوغوز"، وإلى جانب ذلك فقد قام بجهود مضنية من أجل تطوير اللغة التركية.

ونلاحظ أن السلاطين الذين جاؤوا من بعده لم يكترثوا بالأدب التركي من حين إلى آخر على نحو ما قام به السلطان مراد من دعم وتشجيع للتأليف في مجال اللغة والأدب التركي، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد تلك الأعمال قد أُلِفت في عهده، ففي مجال الأدب الديني نجد "المحمدية" لـ"يازيجي أغلو محمد أفندى (*Yazıcıoğlu Mehmed Efendi*)".



وفيما يختصّ بعادات وتقاليد الترك الأغوز نجد "تواريخ علي سلجوق" لـ"يازيجي أغلو علي (*Yazıcıoğlu Ali*)".

أما كتاب "دانشماند نامه" لـ"مُلا عارف علي" فيبحث في فتوحات الأناضول، وكذلك هناك كتاب "خسراف وشرين" لـ"شيخي (*Şeyhî*)" وكتاب "قابوس نامه" المترجم عن الفارسية لـ"مرجماك أحمد" وقد أصبحت هذه المؤلفات منهلًا عذبًا يستقي منه العلماء حتى يومنا هذا، إننا من الممكن أن نتفهّم جيّدًا مدى الدقة والاهتمام الذي تبنّاه وأظهره السلطان مراد في تأليف كتب التراث الثقافي من خلال الواقعة التالية:


نماذج خطوط من الجامع الكبير - بورصة



أثناء مجالسة السلطان السلطان مراد الثاني لأحد أشهر أدباء عصره وهو "مرجماك أحمد (*Mercimek Ahmed*)" استغرق الاثنان في حديثٍ شيّقٍ ممتعٍ حول كتاب قابوس نامه قال السلطان:

"لقد قرأت هذا الكتاب فوجدته كتابًا جيّدًا إلا أنه باللغة الفارسية، وقد ترجمه أحدهم إلى اللغة التركية ولكن هذه الترجمة غير مفهومة ومعقّدة ومليئة باللبس، يا ليتني أجدُ أديبًا بليغًا يقوم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة التركيّة، وفي مقابل ذلك يحوز على ثقتنا وحبّنا وتقديرِنا".

فقد اعتبر "مرجماك أحمد" هذا التمني أمرًا موجّهًا إليه، فبادرَ بترجمة الكتاب وفي النهاية نجح في الوصول إلى ترجمة صحيحةٍ خالصةٍ عذبةٍ نقيّةٍ بعيدةٍ عن الضعف والتعقيد.

وقد وصل المصريّون والفارسيّون والشاميّون إلى مستوى راقٍ في الأدب والثقافة والفنّ على عكس جارتهم الدولة العثمانية في تلك الآونة، أما في عهد السلطان مراد وبعد حملة التجديدات التي قام بها والنشاطات والجهد الوافر في الناحية الثقافية فقد دخل الفن والثقافة والمدنية العثمانية مرحلةً جديدة من التطوّر والرقيّ ممّا جعل الثقافة العثمانية تحتل مكانة بارزة في طليعة الثقافات آنذاك، ولم تتوقّف هذه الحملات عند هذا الحدّ بل وصلت إلى ذروتها في عهد ابنه السلطان محمد الفاتح، فلقد حقق الأدب التركيّ والثقافة التركية أفضل المستويات في ذلك العصر.

أَفَأُطْعِمُ جنودي من مال حرام!

فـي عهـد "مـراد الثاني" مرّت الدولـة العثمانية بأزمة مالية، فقام أحد الوزراء بعرض مسـودّة مشـروعِ قرارٍ تتضمن زيادة الضرائب المفروضة على الشعب من أجل الخروج من الأزمة المالية.

وقد ذُكر في تاريخ "عاشق باشا" تحت عنوان "حكاية" كيف أن السلطان "مراد الثاني" غضب من هذا العرض وكان ردّ فعله شديدًا على النحو الآتي:

كان هناك رجل يدعى "فضل الله"، وهو شخص مغتربٌ وفدَ إلى الأراضي العثمانية من إحدى الدول الأجنبية، وقد نجح هـذا الرجـل فـي أن يُصبح من المقرّبين لدى السـلطان "مراد الثاني" إلى أن عينه السـلطان وزيرًا لـه، وكان من عادة الدولة العثمانية أن تُرسل الأموالَ إلى الأراضي المقدسة في كلّ موسم حج تحتَ مسمّى الصرّة السلطانية أو "الصرة الهمايونيّة"، وفي إحدى المرات أمر السلطان "مراد الثاني" وزيره أن يرسل هذه النقود إلى مكة والمدينة والقدس، وقال له: إنّ صديقنا الوفيّ "مولا يكان" نوى الحجَّ هذا العام فلترسِل إليه الأموال والمستحقّات والنفقات حتى يوزّعها على فقراء مكة والمدينة والقدس، ولكن لم يكن في خزينة الدولة ما يكفي من النقود، مما جعلهم يقترضون هذا المبلغ من "خليل باشا".



فسأل السلطان "مراد الثاني" خليل باشا:

- من أين لك هذا المال؟

فأجابه خليل باشا قائلًا:

- اطمئن يا مولاي السلطان، فهذا المال هو ممّا ورثته عن أبي.

ولـمّـا رأى الوزير "فضل الله" هذه الضائقة الماليّة التي تعصِفُ بالدولة عَرَضَ حلاًّ أرادَ به التزلُّفَ إلى السلطان قائلًا:

- مـولاي السـلطان علينـا أن نوفّر مزيدًا من المال لتحسـين الأوضاع الدولة الماليّة، ولدي فكرة بخصوص هذا الأمر.

- ما هي تلك الفكرة؟

- مولاي إنَّ الشـعب -ولله الحمد- يمتلك أموالًا ونقودًا وفيرة، ويمكننا أن نطالبهم بمزيد من المال.

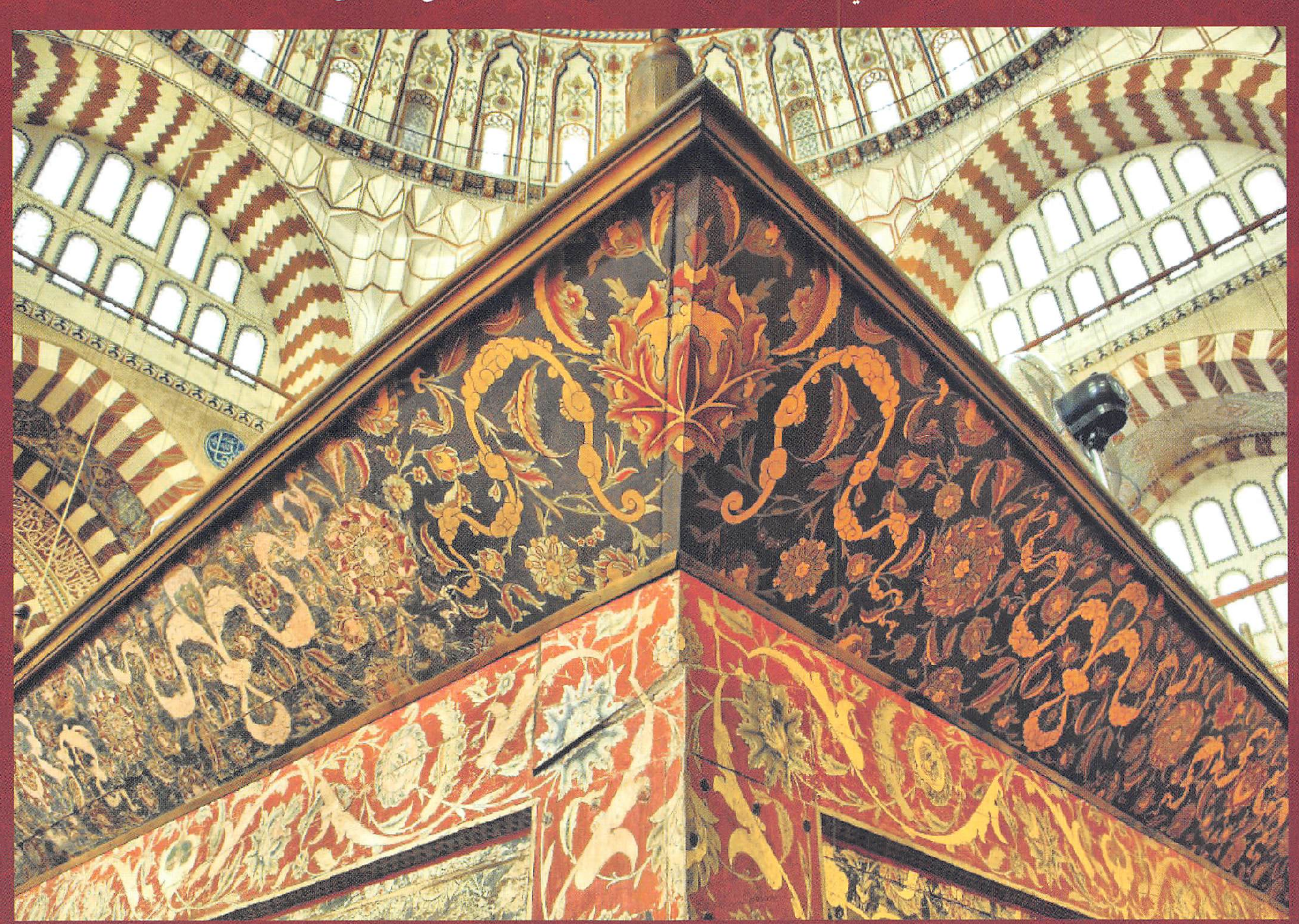
- إنهم يدفعون الضريبة!... فماذا عساهم أن يفعلوا أكثر من هذا؟

- فلنجمع منهم زكاة أموالهم يا سيدي!

استشاط السلطان غضبًا إثرَ سماعه هذه الكلمات، وقال معاتبًا وزيره:

- هل جُننت أيها الرجل؟ ما هذا الهراء الذي تتفوّه به؟ هل تُنْفَقُ الزكاة على الدولة؟ أخبرني أليست الزكاة والصدقة حقّ الفقير؟ كيف تطلب مني أن أجمع الزكاة من المسلمين لأصرفها في غير موضعها أو آكل أموال الزكاة، ألا تعلم أن هذا من المحرمات؟ وإنما أحلَّ الله لي من المواردِ ثلاثة؛ الأول: الجزية التي تدفعها الدول الأجنبية، والثاني: معادن الفضة التي تستخرج من مملكتي، والثالث: غنيمة الحرب، ومن هذه الأموال فقط تصرف رواتب الجند، أَفَأُطْعِمُ جنودي من مال حرام، كلّا! سيحاسبنا الله على كلّ شيء، فماذا أقول عندما أقف بين يديه! لا، لن أقبل بالحرام أبدًا.

وبمجرد أن انتهى السلطان "مراد الثاني" من هذه الكلمات أعلن أنه عزل "فضل الله" عن منصبه.



"مُلّا فناري" أوّل من تولى منصب شيخ الإسلام

إن شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد الفناري يُعدّ من أبرز علماء عهد السلطان "يلدريم بايزيد"، وقد كان يعمل قاضيًا في مدينة "بورصة"، وكان على درايةٍ بعلوم أخرى غير العلوم الدينية كالرياضيات والفلك، وقد ذاع صيته واشتهر في الأناضول ومنطقة "رُومَلِي" باسم "ملّا فناري"، وألف العديد من الكتب الزاخرة بالمعلومات القيمة في مختلف فروع العلم، وكان هذا العالم الجليل يتمتع بالشجاعة والثقة بالنفس، وقد بلغ من شجاعته أنه رفض شهادة السلطان "يلديرم بايزيد" في محكمته؛ حيث كان لا يفرّق في محكمته بين رئيس ومرؤوس فالكل -عنده- أمام القضاء سواء، وهذا دليل على شخصيته القوية؛ إذ كان لا يزيغ أو ينحرف في حكمه أبدًا عن معايير العدالة، ولذا كان حائزًا على ثقة الشعب وحبّهم فضلًا عن تقدير الحُكّام له.

كما أن السلطان "مراد الثاني" حاول أن يستفيد من هذه القدرات الفائقة، فعيّنه في منصب المفتي العام للديار العثمانية، وقد عرف هذا المنصبُ فيما بعد بـ"شيخ الإسلام"، وهكذا وُضِع حجر الأساس لمنصب شيخ الإسلام عام (١٤٣٠م) واستمر حتى عام (١٩٢٢م)، وكان شيخ الإسلام في الدولة العثمانية يتمتّعُ بصلاحيّات واسعة ومؤثرة في العديد من المجالات، وكان تُوكَلُ إلى منْ يشغلُ هذا المنصب ثلاث مهمات رئيسية -هي أشبه ما تكون بالحقائب الوزارية اليوم- وهي العدل والتعليم والشؤون الدينية.



وقد حقق "ملّا فناري" -الذي أُطلِق اسمُه على العديد من الشوارع والأحياء في تركيا اليوم- العديدَ من الإنجازات منذ توليه منصب مفتي الديار العثمانية وحتى وفاته عام (١٤٣٠م).

وجدير بالذكر أنَّ عدد من تولوا منصب شيخ الإسلام خلال أربعمائة وثمانيةٍ وتسعين عامًا وَصلَ إلى مائةٍ وخمسين شخصًا، كان من بينهم "أبو السعود أفندي" الذي شغل هذا المنصب مدة أطول من نظرائه جميعًا تجاوزت تسعةً وعشرين عامًا.

وصية السلطان "مراد الثاني"

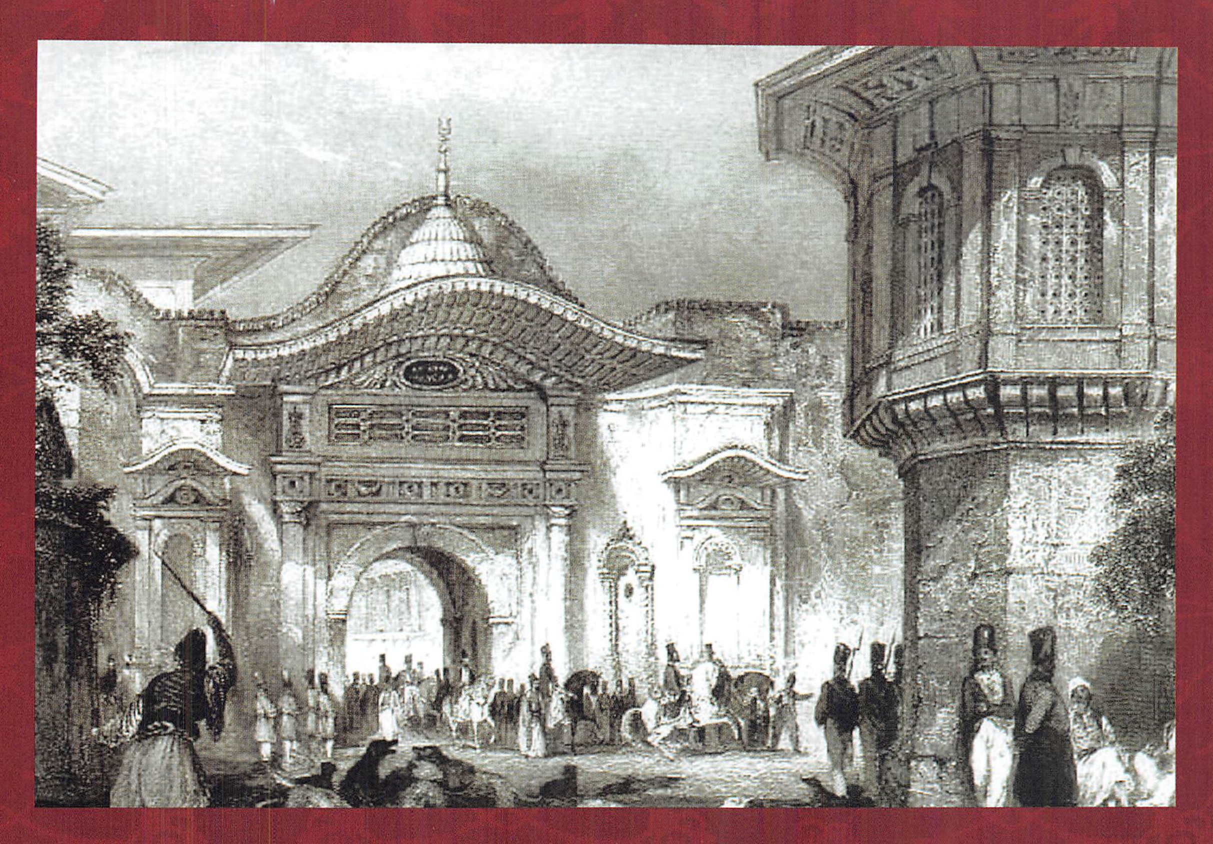


قبر السلطان "مراد الثاني" - بورصة

قد أوصى السلطان مراد الثاني أن يدفن في "بورصة" جنب ولده السلطان علاء الدين بعيدًا منه مقدار ثلاثة أذرع أو أربعة، ويوضع على التراب كما هو السنة المتوارثة، ولا يُجعل له سرداب كسائر السلاطين، وأوصى أن يبنى حول مرقدهما الشريف جدران أربعة ويسقف فوقها من الجوانب الأربعة ليجلس تحتها القراء ويكون وسط السقف مكشوفًا لينزل على المرقد غيث هو من آثار رحمة الله ويصرف إلى بنائها خمسة آلاف فلوري من ذلك المال، وأوصى بأن لا يوضع فيها بعده أحد من أولاده وأقربائه، وأوصى أنه إن لم يُتوفّ طوّل الله تعالى عمره بالتوفيق في مدينة "بورصة" يُؤت به إليها بحيث يصل إليها في يوم الخميس ليكون أول ما يبيت تحت الأرض ليلة الجمعة، ثم قال كل عبد أملكه الآن وسأملكه من بعد المسمى في التركي "إيج أوغلني (iç oğlanı)" سواء كان عندي الآن أو خرج إلى المنصب فليكن حرًّا قبل مرض موتي بأربعين يومًا، وقال كل عبد جاء معي من مملكة صاروخان إلى "أدرنه" من جميع الطوائف وممن معي في "أدرنه" في التاريخ المذكور فليكن حرًّا قبل مرض موتي بأربعين يومًا، ثم أوصى تقبل الله حسناته إلى من يكون وزيرًا كبيرًا في المملكة العثمانية في ذلك الحين ليصرف ذي الأموال المذبورة حسب ما ذكر، وجعل من يكون قاضيًا في "بورصة" ونايبًا فيها ومدرسًا في مدارسها ناظرين على الوصي يعرفون جهات تصرفه، ويعاونونه في تنفيذ الوصية وصرف الأموال المذبورة إلى مصارفها المسفورة، وعلى جميع ذلك وقع التحرير والإشهاد في أواسط شهر جمادى الأخرى من شهور سنة خمسين وثمانمائة.

شهد بذلك:	شهد بذلك:	شهد بذلك:
خليل بن أدهم	صادق بن عبد الله	إسحاق بن عبد الله

قام السلطان محمد الثاني بتنفيذ وصية والده بحذافيرها، وشُيِّعت الجنازة، ودفن بضريحه الموجود في حي المرادية، والحي المرادية الموجود الآن في بورصة هو من أكثر المناطة التي تبعث الراحة والاطمئنان في نفوس زائريه، وإلى اليوم هذا الجو المعنوي يأسر قلوب القادمين لزيارته من كل البقاع منذ أن أنشأ عام (١٤٥١م).



القرن الخامس عشر العثماني بوجهة نظر فرنسية

لقد طاف الرحالة الفرنسي "برتراندون دى لا بوركويرو (*Bertrandon de la Broquière*)" بالأناضول بين عامي (١٤٣٢ و١٤٣٣م)، ثم نشر أهم ملاحظاته في أثناء رحلته.

وهذا بعض من أهم الملاحظات التي استحوذت على لبِّ الكاتب فقام بنشرها:

أنَّ الأتـراك ينهضـون مـن نومهم كلَّ يوم في الصباح الباكر، ويذهبون إلى أعمالهم بهدوء، وهم أناس يتمتعون بالرشـاقة والخفة مستعدون للعمل في أي وقت وتحت أيَّة ظروف، كما أنهم يعيشون في رخاء ورفاهية مقارنة بمستوى المعيشة في أوروبا إلا أن مظاهر الترف لا تدعوهم إلى الإسـراف، والأطعمة المفضلة لديهم عبارة عن اللبن الخاثر واللحم والعسـل بنوعيه الأبيض والأسود والجبن والعنب إضافة إلى الفاكهة والخضروات.

يحبون النظافة ويولونها اهتمامًا بالغًا، حتى إنه بلـغ من ولعهم بالنظافة أنهم كانوا لا يخرجون إلى الطرقات والشـوارع دون التأكد من نظافتها، ومما صادفته أيضًا أنه لا يوجد من يتجول في الشوارع بدون حذاء كما هو الحال عندنا في أوروبا، كذلك فإن العثمانيين مولعون بالشعر والفن والعلم، ويتبنون مبادئ الصداقة والوفاء ويحافظون عليها ويولونها اهتمامًا كبيرًا أكثر مما عليه الوضع في بلادنا.

يرتدي العثمانيون الملابس القطنية الطويلة، ومما يميز ملابسـهم المِرْط الذي يلفونه حول خصرهم، كما أن من ملابسهم القفطان المصنوع من الجلد، ويتميز بتحمله للمطر مع خفة وزنه.

خيولهـم متأنقة جدًّا وتبعث السـرور في من يراها، إنهم يهتمـون بخيولهم ولذلك يزودونها بالطعام كلَّ ليلة، كما أنَّ مِنْ مُميزات تلك الخيول أنها تتحمل السـفر لمسـافات بعيدة ولفترات طويلة، وعندما ترى ممتطي تلك الخيول تحسبه متكئًا على أريكته.

يتميز العثمانيون باحترامهم الشـديد لسـلاطينهم وقادتهم، وكانوا رهن إشـارتهم لا يتأخرون عن طلب يريدونه منهم، ويرجـع الفضل في انتصاراتهم وتقدمهم إلى طاعتهم لهؤلاء السلاطين والقادة,

وبالإضافـة لـكل هذه الأوصاف تجد الشـعب التركي متماسـكًا في المصائـب والأزمات، صابرًا لا تتزعزع عقيدته، يتغلبون على هذه الأزمات ويتكيَّفون معها، كما أنَّهم مفعمون بالنشوة والسعادة ودائمًا ما تراهم يتغنون بالمواويل الشعبية الجميلة.

العثمانيون يمتازون بصفاء القلب ورقته، حتى إنَّه إذا مر بجانبهم أيُّ شـخص أثناء تناولهم للطعام لم يتوانوا عن دعوته إلى هذا الطعام أيًّا كان هذا الشـخص وأيًّا كانت جنسـيته أو ديانته، أما هذه العادات والتقاليد المثالية فنفتقر إليها في بلادنا أوروبا التي تدّعِي المدنية والتحضر.





نماذج من بعض الملابس العثمانية

استقبال أحد السفراء من عهد السلطان "مراد الثاني"

الديوان أحد أعمدة الدولة العثمانية، وتطلق هذه الكلمة "الديوان" على تلك الاجتماعات التي تناقش القضايا المطروحة على الساحة وكذلك أفكار التطوير والارتقاء بالدولة العثمانية، وتعقد برعاية السلطان العثماني وفي كنفه وبحضور كلٍّ من الوزير الأعظم ووزير المالية (دفتر دار) وقاضي القضاة (قاضي عسكر) والقائم بأعمال رئيس الديوان، وكانت هذه الاجتماعات تعقد كل صباح مع أول ضوء للنهار عقب صلاة الفجر مباشرة، وفي الغالب كانت تستمر حتى الغداء حيث كان من عادة السلطان أن يتناول الغداء مع وزرائه، وقد ألغيت تلك العادة في عهد السلطان محمد الفاتح، ورغم أهمية تلك الاجتماعات إلا أنه لا تتوفر لدينا معلومات كافية عنها في فترة تأسيس الدولة العثمانية، وقد سُمح للرحَّالة الفرنسي "برترانـدون دى لا بوركويرو (*Bertrandon de la Bourquiere*)" في عهد السلطان مراد بحضور أحد اجتماعات الديوان والاطلاع عليه، وقد سطر ما رآه في كتابه على النحو الآتي:

"تقريري هذا يتعلق باستقبال السلطان سفيرَ ميلانو في مقر الاجتماع (الديوان)، أحيث أُجلس السفيرُ في الديوان لينتظر مجيء السلطان، وعندما وصل الوزراء الثلاثة وأمير "روملي" وبقية الأمراء خرج السلطان من الجناح الخاص به، وكان يرتدي قفطانًا من القماش الأحمر القاتم اللون.

سار السلطان نحو العرش الموجود في أحد جوانب حجرة الديوان الكبيرة، وحينها بدأت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف السلام الوطني، وعندما انتهى العزف جلس السلطان على العرش، وبالقرب منه جلس الوزراء في الأماكن المخصصة لهم، كما جلس باقي أعضاء الديوان في مكان يبعد قليلًا عن الوزراء، وبعد أن استقر كلٌّ في مكانه دخل شخص قادم من إقليم "البوسنة" إلى الديوان، وأُجلِس بجوار الوزراء، وكان هذا الرجل يقسم على الولاء والتبعية للسلطان بينما كان يوضح للسلطان أنَّ العرش البوسني من حقه هو، وكان هدفه من وراء ذلك نيل مساعدة السلطان.

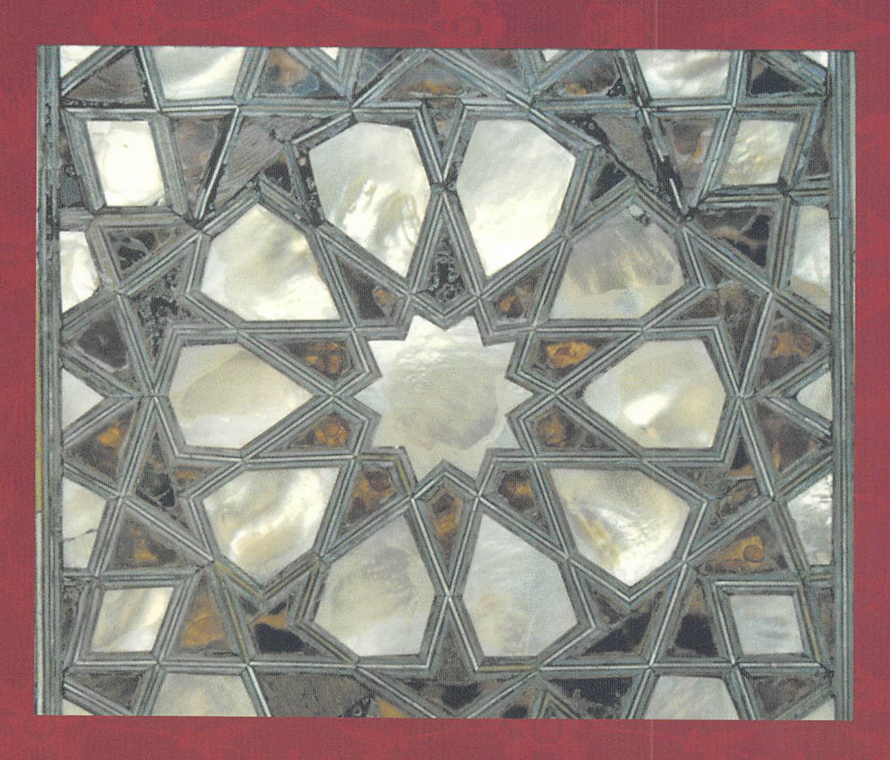
وبعد ذلك أُدخِلَ عشرون رجلًا-علِمتُ بعد ذلك أنهم أسرى قبيلة "أولاه"- حجرةَ الديوان، وكانت وجوههم شاخصة نحو السلطان، علاوة على ذلك وقبل مجيء السلطان إلى حجرة الديوان بوقت قليل وُضِعَ مائة وعاء مملوء بالأرز واللحم على مائدة الطعام الموجودة في منتصف الحجرة، وبعد مدة من الوقت دُعِيَ سفير "ميلانو" للمثول بين يدي السلطان، فدخل السفير ومن بعده الهدايا التي جلبها معه، ووضعت الهدايا في بادئ الأمر بجوار مائدة الطعام، ثم قُرِّبت من العرش حتى يراها السلطان، وفي تلك الأثناء تقدم السفير مع موظفي القصر العثماني نحو العرش بخطوات متئدة، فلما اقترب السفير من سُلَّم العرش أحنى قامته تبجيلًا واحترامًا للسلطان.

وفي هذه الأثناء نهض السلطان من على العرش، ونزل درجتين من درجات السلم، فَهَمَّ السفيرُ بتقبيلِ يدِ السلطان ولكن السلطان لم يسمح له بذلك، وسأله قائلًا:

- كيف حال جاري وأخي العزيز حاكم "ميلان"، وكيف هي صحته؟

- هو بخير، وصحته على ما يرام يا مولاي.

وبعد هذه الإجابة القصيرة تراجع السفير للخلف دون أن يستدير بظهره للسلطان، وجلس بجوار أمير البوسنة، بينما توجه السلطان إلى عرشه بعد أن جلس السفير في مقعده، لقد أظهروا لي الاحترام والتوقير، وفسحوا لي مكانًا بجوار أمير البوسنة.



الموسيقار العالمي عبد القادر المراغي

نُظِّمت أكبر مسابقة للألحان الموسيقية للمرة الأولى في التاريخ في أواخر القرن الرابع عشر بمدينة بغداد، وتتميز هذه المسابقة العالمية بأن جائزتها تقدر بمائة ألف دينار وهو ما يُعادِل حوالي خمسمائة ألف دولار أمريكي في يومنا هذا.

وقد حصل على هذه الجائزة الكبيرة عبد القادر المراغي، واسمه الأصلي "ابن غيبي" الذي ترعرع في مدينة "مراغة" بأذربيجان بعد أن تم اختيار مقطوعته الموسيقية كأفضل مقطوعة في المسابقة، وقد زاد حصوله على هذه الجائزة من شهرته.

أجل، لقد تزايدت شهرته لدرجة أنه جذب انتباه التيموريين، فاصطحبوه معهم إلى مدينة "سمرقند" بعد استيلائهم على بغداد عام (١٣٩٣م)، وفي أحد الأيام تملك تيمور الغضب وأصدر أوامره بإعدام جميع العازفين العاملين في قصره، ولكن عبد القادر المراغي تمكن من الهرب إلى بغداد بعد أن تخفى في زي شيخ، واحتمى بالسلطان أحمد الجلائري، إلا أنَّ "تيمور" لما حضر إلى الأناضول من أجل معركة أنقرة استولى في طريقه على بغداد مرة أخرى، وأمر بإلقاء القبض عليه، ثم بإعدامه، فلما أدرك عبد القادر أنه لا مفر من الموت، سُئِل عن آخر ما يتمناه، فقال "أريد أن أقرأ صفحة من القرآن الكريم"، فوافقوا على مطلبه، وبدأ عبد القادر حافظ القرآن عن ظهر قلب بالتلاوة، فتلا تلاوة خاشعة ندية تدمي عيون السامعين وتشفي صدور المؤمنين وترتجف منها قلوب الصادقين الموحدين، فجهش الجميع بالبكاء...

وفي النهاية عفا تيمور عن عبد القادر وأخلى سبيله، واصطحب هذا الموسيقار الشهير مرة أخرى إلى سمرقند، وفي عام (١٤٢١م) سلك عبد القادر طريقه إلى "بورصة"، وهناك عرض على السلطان مراد مقطوعته التي ألفها من أجله، إلا أنه لم يجد منه الاهتمام الذي كان يتوقعه؛ وذلك نظرًا لانشغال السلطان مراد بالصراعات الداخلية في الدولة آنذاك، وعلى إثر ذلك عاد من الأناضول إلى سمرقند للمرة الثالثة، وتوفي في مدينة هرات عام (١٤٣٥م) بسبب الطاعون.

كان تركيَّ الأصل إلا أنَّه كتب باللغة الفارسية أعماله الأدبية التي نالت شهرة واسعة في عصره، وكان من أشهر الموسيقيين في القرن الخامس عشر، وبلغ من مهارته وحرفته في مجال الموسيقي أنَّه كان بإمكانه أن يؤلِّف مقطوعة موسيقية جديدة كل يومٍ.

من الآلآت الموسيقية عند العثمانيين





وصايا السلطان "مراد الثاني" لابنه الأمير محمد الفاتح

استقبلَ السلطان "مراد الثاني" سفير البندقية "أندريه كوسكولو" في قصره، وفي هذه الأثناء تابع سفير البندقية -بكلّ دقّة- الحوار الذي دار بين السلطان مراد وابنه الأمير محمد الذي اشتهر فيما بعد باسم السلطان محمد الفاتح، وبعد ذلك سطر ذلك الحوارَ بقلمه في كتابه الذي ألفه باللغة الإيطالية، وترجمه "مارينو دي كافالو (*Andrea Coscolo*)" -حفيد السفير البندقيّ- فيما بعد إلى العثمانية، وقدمه للسلطان "سليمان القانوني" عام (١٥٥٩م).

وكان هذا الكتاب يتحدث عما يجب أن يفعله الناس في مراحل عمرهم المختلفة، وكان يحمل اسم "نصائح السلطان مراد"، وعلاوة على ذلك فهو يحتوي على بعض الخواطر المهمّة التي وجّهها السلطان مراد إلى ابنه فيما يتعلّق بإدارة شؤون الدولة، وتلك هي الوصايا:

"لقد وهب الله تعالى الأمراء والسلاطين العقلَ إلى جانب القوة والسلطة، لكي نستخدم كِلا الأمرين في محله، وإذا استخدمنا واحدةً واستغنينا بها عن الثانية فلن تجدي نفعًا، فالسلطان الحكيم هو الذي يجيد استخدام هاتين النعمتين معًا ويضعهما في مكانهما المناسب".

وهناك وصايا أخرى من السلطان مراد لابنه محمد وردت في أجزاء أخرى من الكتاب ومنها:

"ينقسم الناس في هذه الدنيا إلى ثلاثة أقسام:

الأول: هـم الأشـخاص الذين يمتلكـون ذكاءً حادًّا وعقليّة مستنيرةً تجعلهم يستلهمون المستقبل.

الثاني: هم الأشـخاص الذين يواصلون حياتهم دون التفكير في المسـتقبل، ومن المحتمل أن يتعـرض هؤلاء لأخطاء وزلّات نتيجـةَ البيئـة المحيطـة بهـم، إلا أنهم فـي أغلب الأحيـان ينصتون إلى النصح ويجدون الطريق المستقيم.

الثالث: وهؤلاء هم الأشـخاص الذين لا يعقلون شـيئًا مما يفعلون، ولا يسـتمعون إلى التحذيرات والمنبهات التي تُقدَّم إليهم، ويسـيرون وراء رغباتهم وما يتناسـب مـع عقولهم وأهوائهم الشخصية، وهؤلاء هم اللئام من البشر.

أي بُنَي إذا جعلك الله من أهل القِسْـمِ الأول من البشـر فسـأكون في غاية السـرور لهذا، وإذا كتب الله عليك أن تكون من القسم الثاني فأنصحك أن تستمعَ وتُنْصِتَ إلى النصح والإرشـاد، واحذر أن تكون من القسـم الثالث فإنهم لا يراعون الله ولا يراعون الناس في شيء.

إن الحـكام هـم من يمتلكون الحكم والقضاء بين الناس، فإن حكمت بينهم بالعدل ستحظى برضا الله تعالى والفوز في الدارين.

والله بكل شيء عليم.

وفاة السلطان "مراد الثاني"

خرج السلطان مراد الثاني في رحلة إلى ريف "أدرنه"، وأثناء عودته إذ به يرى شيخًا يقف عند بداية جسر "أدا (*Ada*)"، كان وجهُ هذا الرجل المسنّ مُقْمِرًا كوجه البدر ليلةَ تمامه، وعندما رأى السلطان قريبًا منه أخذ يتحدث إليه قائلًا: "أيها السلطان، يوشك أن تستريح من تعب الدنيا، فأكثر من التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله قدر ما تستطيع".

تأثر السلطان مراد مما سمعه كثيرًا، وانطلق لسانه بالاستغفار، ولم يتوقّف عن الابتهال والدعاء، وما إن يشرع في الدعاء والاستغفار إلا ويجهش بالبكاء حتى تبتلّ لحيته التي يُرى عليها آثار الكِبَر، ثم توجّه إلى "ساروجا باشا" الموجود بجانبه وقال:

"فلتشهد يا ساروجا أنني تبتُ إلى الله، وندمتُ على الذنوب والمعاصي التي ارتكبتها مرة أخرى"، ثم وجه سؤالًا إلى "إسحاق باشا" المتواجد في الجهة الأخرى:

- هل تعرف من يكون هذا الشيخ؟

- مولاي السلطان وفقًا لمعلوماتي عنه، إنه أحد مريدي "أمير سلطان"(١) في مدينة "بورصة"، ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ السلطان يشتكي من ألم شديدٍ ألمّ به في رأسه، فكتبَ بضعةَ أسطرٍ إضافةً إلى وصيّته التي كان قد كتبها من قبل وأعطاها لابنه الأمير محمد، وجمع الوزراء والأمراء حوله وأوصاهم بطاعة ولده، في تلك الأثناء طلب من مقربين له إحضار ذلك الرجل المسن الذي صادفه في الطريق إلى القصر، ولكن رجال السلطان لم يستطيعوا العثور عليه رغم بحثهم عنه لمدة طويلة.

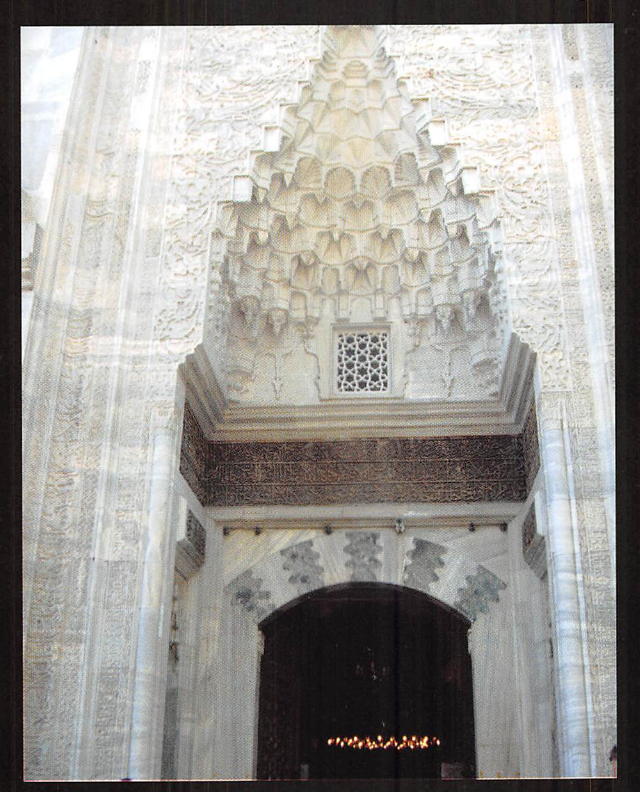
وقد وافته المنية في الثالث من فبراير/شباط عام (١٤٥١م) عقب مرضٍ شديدٍ جعله طريحَ الفراش لمدة ثلاثة أيام.

ولما وصل الخبر إلى الأمير محمد بوفاة والده توجه مباشرةً إلى مدينة "أدرنه"، وقد أُخفي هذا الخبر ثلاثة عشر يومًا حتى تتم الاستعدادات اللازمة لتولّي السلطان الجديد عرش الدولة، وعندما وصلَ الأمير محمد إلى "أدرنه" اعتلى العرش ونفَّذَ وصيَّةَ والدِهِ بحذافيرها.

---

(١) الشريف الشيخ "محمد بن علي البخاري" (١٣٦٨-١٤٣٠م) الملقّب بـ"شمس الدين" وأُطلِقَ عليه لقب "أمير سلطان" بعد أن صاهَرَ السلطان "بايزيد الأول" وتزوّج من ابنته.

مشهد رائع من داخل الجامع الكبير - بورصة





مشاهد من الجامع الأخضر - بورصة

مقتطفات خاصة بالفصل السادس

تكية الكُسالى

قد حملت تكية الكسالى أهمية اجتماعية كبيرة خلال العهد العثماني، وبغض النظر عن الاسم الذي أطلق على هذه التكية فإنَّ المقيمين فيها لم يكونوا أناسًا كسالى وإنما مرضى بالجذام، وقد افتتحت تكية الكسالى في مدينة "أدرنه" لأول مرة في عهد "مراد الثاني"، وذلك للحدِّ من انتشار مرض الجذام الذي يُعد مرضًا مُعديًا ومميتًا في ذلك الوقت.

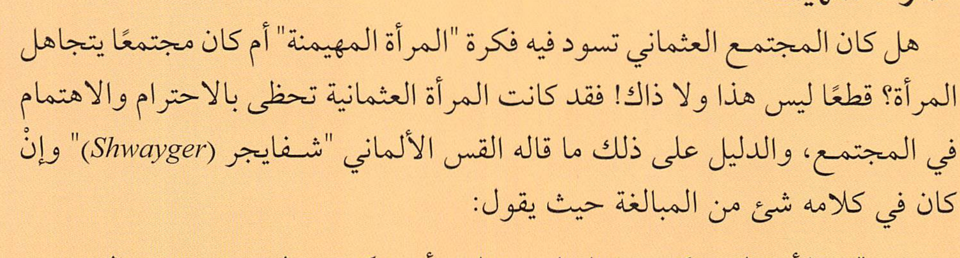
وتم توفير حياة كريمة للمرضى المقيمين في هذه التكية حتى نهاية عمرهم، في حين كان مرضى الجذام في الدول الأخرى وفي الفترة نفسها يُقتلون حرقًا أو بإلقائهم من قمم الجبال في البحر، أو بتركهم في جزيرة غير مأهولة.

وتعتبر "تكية الكسالى" واحدة من أجمل النماذج للحب والعطف والرحمة بالإنسان لدى العثمانيين.

قوس الرماية (كَبَازه)

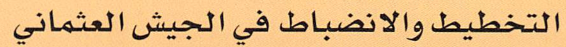
"كَبَازه" كلمة تركية تعني الشخص سيئ السمعة، وتُطلقُ كذلك على قوس التدريب الذي يستخدم خلال أعمال التدريب على الرماية لأنَّ هذا القوس يسوء بكثرة الاستخدام.

المرأة المهيمنة



هل كان المجتمع العثماني تسود فيه فكرة "المرأة المهيمنة" أم كان مجتمعًا يتجاهل المرأة؟ قطعًا ليس هذا ولا ذاك! فقد كانت المرأة العثمانية تحظى بالاحترام والاهتمام في المجتمع، والدليل على ذلك ما قاله القس الألماني "شفايجر (*Shwayger*)" وإنْ كان في كلامه شئ من المبالغة حيث يقول:

"إن الأتراك يحكمون العالم، والمرأة تحكمهم، لم ينتشر في المجتمع العثماني تعدد الزوجات أو الطلاق كما يعتقد البعض".



التخطيط والانضباط في الجيش العثماني

كان الجيش العثماني يتميز بتحركه بشكل منظم ومنضبط على الرغم من ضخامة عدد أفراده الذي يتجاوز غالبًا مائتي ألف جندي، وكان يجري التخطيط بشكل تفصيلي بدءًا من الطريق الذي سيسلكه الجيش والأماكن التي



سينزل فيها أثناء سيرهم وصولًا إلى الأماكن المخصصة لقضاء الحوائج الأساسية من الأكل والشرب والعبادة؛ كل ذلك كان يُقرر قبل انطلاق الجيش، بينما يكاد يكون من المستحيل اليوم تحرك مائتي ألف شخص بنفس النظام والانضباط من إسطنبول نحو النمسا على الرغم من التطورات والإمكانية الحديثة.

أمير الأمراء

كانت الولايات تشكل أهم جزء في الهيكل الإداري للدولة العثمانية، وكان هناك على رأس الولايات مديرون يطلق عل كل منهم لقب " أمير الأمراء"، وكان منصب أمير الأمراء يُعَدُّ من أعلى المناصب في الدولة العثمانية، حيث إنَّ شاغله كان يتمتع بصلاحيات المحافظ ورئيس البلدية حاليًا، كما يعد أمير الأمراء -الذي لا يتدخل في السلطة القضائية فقط في منطقته- أعلى سلطة عسكرية في المنطقة التي يديرها.

حب السلطان "مراد الثاني" الشعر...

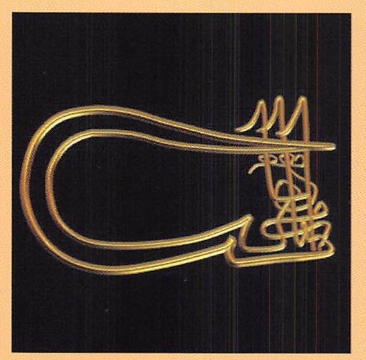
يعتبر السلطان "مراد الثاني" أول سلطان عثماني نظم مجموعة من الشعر تكفي لتشكيل ديوان، وقد تنوعت موضوعات أشعاره فنظم في بعض المجالات بدءًا من الحياة اليومية وصولًا إلى موضوعات تتعلق بالبطولة في المعارك، وكان يستخدم لقب "مرادي" كمخلص له في أشعاره...

"حاجي بكتاش ولي" والطريقة البكتاشية

لم نجد معلومات كافية وموثّقة بحق "حاجي بكتاش ولي" على الرغم من شهرته في الثقافة التركية، ولكننا حين ننظر إلى هذه الشخصية بصفة عامة نجد أننا أمام شخصية مسلمة تقية محترمة، وتبين أعماله ونمطُ حياته أنَّه كان من أهل السنة، حتى إنه يمكننا القول إنَّه كان واحدًا من الزعماء الروحيين لوحدات الإنكشارية.

قوةُ الدولة العثمانية الاقتصاديةُ

على الرغم من أن الدولة العثمانية مرت بمواقف صعبة في فترات معينة من تاريخها العريق إلا أنها وقفت شامخة من حيث التجارة والاقتصاد، وخاصة أن مدينتي "بورصة" و"أدرنه" كانتا تُعدَّانِ مركزين تجاريَّين تتوفر من خلالهما مبالغ مالية طائلة.



طغرة للسلطان مراد الثاني

وقد ذكر الرحالة الفرنسي الشهير "برتارندون دي لا بورقويرا (*Bertrandon de la Brocquiére*)" أن الدخل السنوي للعثمانيين كان يصل إلى اثنين ونصف مليون قطعة ذهبية في سنوات القرن الرابع عشر، ولو كان "مراد الثاني" استغل هذه الموارد التي كانت متاحة في متناول يده لاستطاع الاستيلاء على أوروبا بسهولة.[1]

ما قاله الحاخام الأكبر لـ"كمال درويش"

ألقى "كمال درويش" وزير الدولة لشؤون الاقتصاد في الحكومة رقم (٥٧) لجمهورية تركيا كلمة أمام فريق عمل "أبانت" الذي اجتمع في أمريكا عام (٢٠٠٤م)، قال فيها:

"أثناء تقلدي بعض الوظائف الرسمية في "البوسنة والهرسك" جلست في أحد الأيام مع المفتي والحاخام الأكبر في مدينة "سراييفو" عاصمة "البوسنة والهرسك"، وقال لي الحاخام الأكبر الزعيم الديني لليهود في ذلك اليوم ما يلي:

"نحن اليهود لدينا كتاب مهم جدًا يُوصفُ فيه تاريخ اليهود الذين هاجروا إلى "سراييفو" هربًا من الاضطهاد في "أسبانيا"، وقد بحث "النازيون" عن هذا الكتاب في كل مكان خلال الحرب العالمية الثانية، إلَّا أنَّهم لم يستطيعوا العثورَ عليه، حيث أعطى الحاخامُ الأكبرُ الموجودُ في تلك الفترة كتابنا القيم جدًّا لأحد أئمة الجامع حيث إنّه كان يراه رجلًا أكثر ثقة... وقد أعاد الإمام الكتاب إلينا بعد الحرب"، وهذا الكلام يؤكد مدى أمانة المسلمين العثمانيين في ذلك الوقت.

(١) (الإمبراطورية العثمانية، الأستاذ الدكتور هـ. اينالجيق، ص ٢٨)

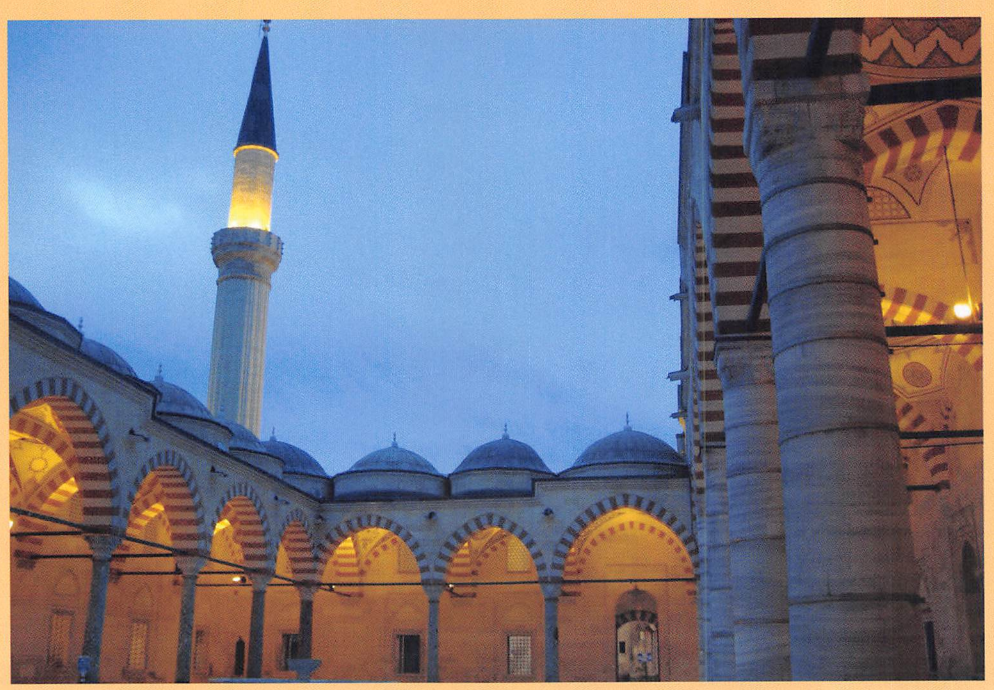
العثمانيون واليهود

لقد اعتبرَ اليهودُ المقيمون في بيزنطة -والذين تعرضوا لألوانٍ من الظلم والاضطهاد من قبل الحكام هناك- العثمانيين مُنقذًا لهم ولا سيما بعد فتحهم مدينة بورصة عام (١٣٢٦م)، وعندما كانت "أدرنه" عاصمة للعثمانيين هاجر إليها يهود أوروبا بما في ذلك يهود "كرايت (*Karait*)"، وقد استوطن اليهودُ الذين هاجروا من "المجر" عام (١٣٧٦م) و"فرنسا" و"صقلية" عام (١٣٩٤م) "بورصةَ"، وحظوا بالأمن والأمان هناك.

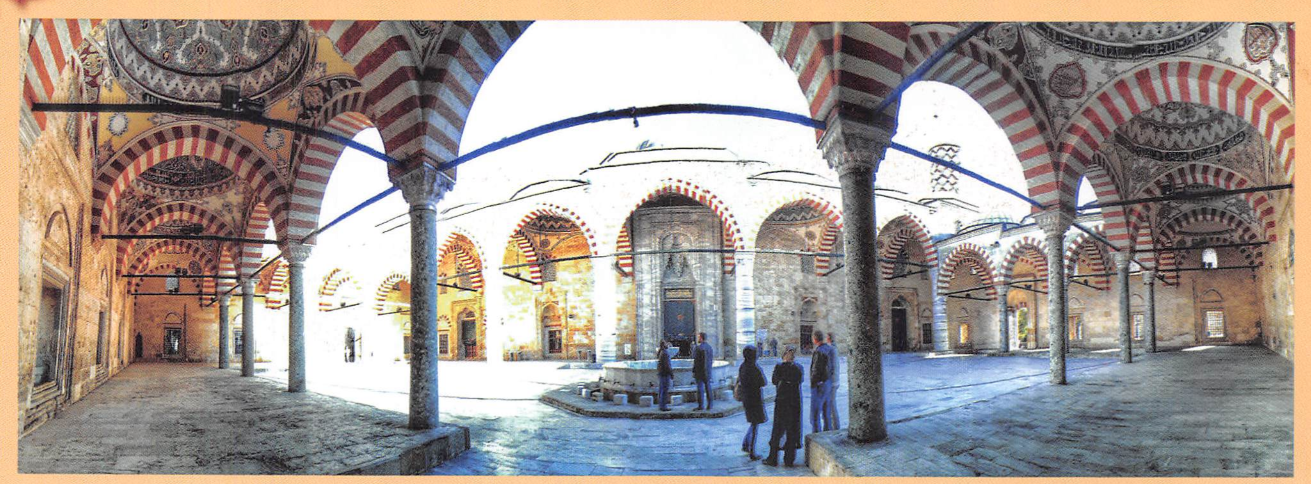
وفي الرسالة التي بعثها الحاخام "إسحاق صفراتي" إلى الجاليات اليهودية في أوروبا أوصاهم بالهجرة إلى الأراضي العثمانية التي ساد فيها الأمن والازدهار.

الجامع ذو الشرفات الثلاث في "أدرنه" نقطة تحول في العمارة التركية

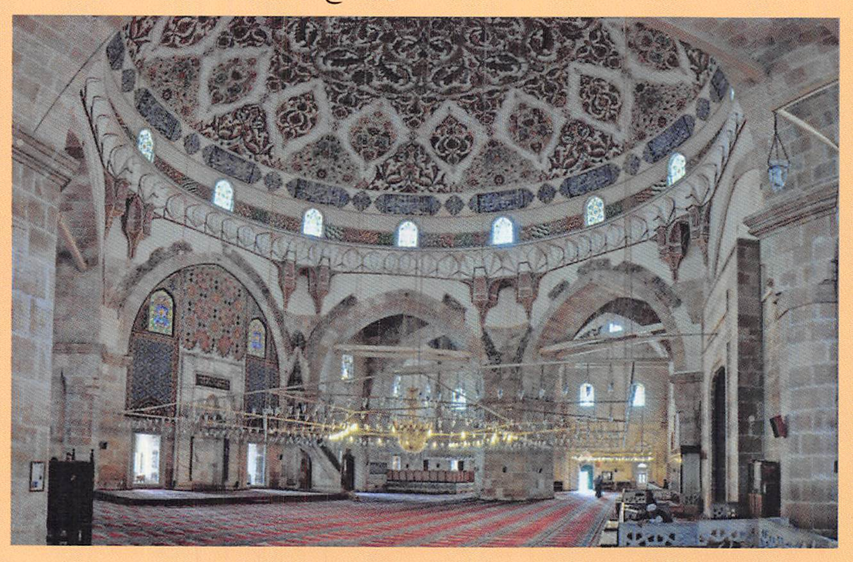
فيما يلي سنورد ما ذكره "أكرم حقي آي ويردي" المهندس المعماري الشهير عن الجامع ذي الشرفات الثلاث الموجود في "أدرنه" والذي توجد صورته أدناه:



مشهد من جامع ذو الشرفات الثلاثة - أدرنة



مشاهد من جامع ذو الشرفات الثلاثة - أدرنة



"إن هذا الجامع الأثري الرائع من حيث البناء والفن يُعَدُّ نقطة تحول في العمارة العثمانية!، كما أنه يُعَدُّ نقطةَ انطلاقٍ للعمارة العثمانية للوصول إلى ذروتها، حيث وصلت العمارة العثمانية بعد هذه الفترة إلى ذروتها بعد إنشاء جوامع السليمانية والسليمية وجامع السلطان أحمد".

بشرى فتح إسطنبول

يُعتبرُ "حاجي بايرام ولي" من أعظم العلماء الذين عاصروا السلطان مراد الثاني، وكان يُكِنُّ احترامًا كبيرًا للشيخ "آق شمس الدين" معلم "الفاتح".

وذات يوم قَدِمَ "حاجي بايرام ولي" إلى أدرنه لزيارة السلطان مراد الثاني، وكان الأميرُ محمدُ -الذي سيطلق عليه العالم لقب "الفاتح" لاحقًا- طفلًا صغيرًا وقتها يرقد في المهد، وقد سَعِدَ السلطانُ كثيرًا بهذه الزيارة، وقال له:



"أستميحكم عذرًا في أن أطلب منكم أن تدعوَ لي الله ﷻ أنْ يجعل فتح إسطنبول من نصيبي؛ فأنا أدعوه وأتضرع إليه دائمًا لأنال هذا الشرف وأخاف أن تفلت تلك الفرصة من يدي".

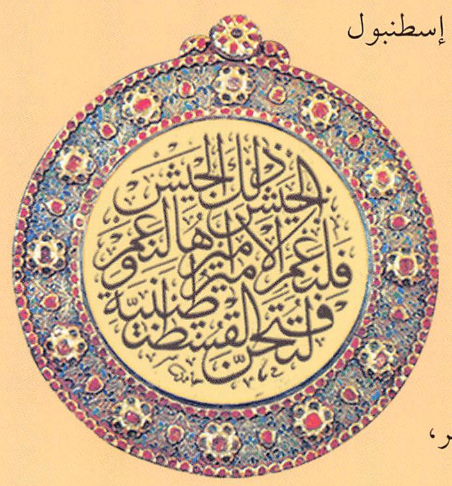
فرد "حاجي بايرام" بعد أن نظر إلى الطفل الموجود في المهد:

"إن فتح هذه المدينة لن يكون من نصيبك يا مولاي والله أعلم، ولكنني أرى أن الفتح المبارك لإسطنبول سوف يكون من نصيب كوسه أفندي مع الأمير الموجود في المهد".

فكان ذلك إشارة إلى أن الأمير الطفل محمد ومعلمه "آق شمس الدين" سينالان شرف فتح إسطنبول بعون الله وفضله.

وقد أشار بعض المؤرخين أن سبب عدم محاصرة "مراد الثاني" إسطنبول هو سماعه بأنَّ نصيب فتحها سيناله نجله محمد الفاتح.

ووفقًا للروايات أيضًا فقد أخذ مراد الثاني يُحَفِّزُ محمد الفاتح من حين لآخر قائلًا: "سوف يكون فتح إسطنبول من نصيبك يا بُني، وحذار أن تتخلى عن الشيخ "آق شمس الدين".



حديث نبوي عن فتح "إسطنبول"

سبب تسمية محمد الفاتح بهذا الاسم

في صباح يوم ٣٠ مارس (١٤٣٢م) رزق الله مراد الثاني بابن ذكر، وقد روي أن السلطان مراد كان في هذا الوقت يتلو آياتٍ من سورة "محمد"؛ لذلك أَطلَقَ على ابنه المولود اسم محمد.

انتصار "فارنا"

بعد أن وضعت الحربُ أوزارها في معركة "فارنا" -الواقعة ضمن الحدود البلغارية حاليًّا- تفقد السلطان "مراد الثاني" ساحة القتال، وكان يشعر بالحزن والأسى وهو يشاهد مناظر الجنود القتلى الذين يرقدون على الأرض، فاستدار إلى "عزب بك" الذي كان بجانبه وقال له:

- أليس ذلك شيئًا مثيرًا للدهشة؟، لا يوجد بينهم قط جندي في منتصف العمر، كلهم من الشباب.

فأجاب "عزب بك":

- نعم يا مولاي معظمهم من الشباب، ولو كان بينهم رجل مُحنَّكٌ لما أتى إلى هنا وألقى بنفسه إلى التهلكة.

الفتاوى ...

كانت الدولة تطالب العلماء المسلمين بإصدار الفتاوي في الشؤون المتعلقة بأمورها، وقد طلب "مراد الثاني" أيضًا الفتوى من علماء المذاهب الأربعة الكبرى قبل خوضه الحرب مع "بني قرمان".

وقد أفادت الفتاوى بأن "اعتداء حاكم مسلم على ممتلكات حاكم مسلم آخر يحارب في سبيل الله يخالف الدين والشريعة الإسلامية الغراء"، وبناء على هذه الفتوى قام السلطان "مراد الثاني" بحملة عسكرية على "بني قرمان".

هل الحملات الصليبية تُعد من قبيل الحروب الدينية؟

إن الحروب الصليبية والأحداث التي جرت أثناء هذه الحروب أثبتت أنها لم تكن لدواع دينية، وأنَّ الدين بريء منهم، وقد اتخذ هؤلاء من الدين أداة لحصد مصالحهم الشخصية ومكاسبهم الدنيئة، والواقع أنَّ استيلاء القائد الصليبي "هنيادي ينوش" على عرش بلغاريا في إحدى الحملات الصليبية باسم الدين خير دليل على ما قلناه.

السهم

كان السهم سلاحًا استخدمه الأتراك منذ زمن بعيد جدًّا، وبرغم ادعاء بعض المؤرخين أنَّ السهم اختراع تركي إلا أنَّه ليست لدينا معلومات مفصلة بشأن هذه المسألة، وبخلاف الأتراك فإنه من المعروف أن العرب كانوا مهرة بارعين في إطلاق السهم أيضًا.

وقد ورد في كتاب "دده قورقوت" الأسطوري الشهير: أن التركي لا ينال لقب "البطل" إلا إذا تمكن من اصطياد الطيور بالسهم كقتله النمر بالرمح".

ويفضل في صناعة السهام أن تُستخدم أخشاب شجر الزان، وكذلك شجر الصنوبر الذي يمكن أن ينمو في أماكن كثيرة جدًّا، ولكن نوع الصنوبر الذي ينمو في "بايراميج (*Bayramiç*) إحدى مقاطعات محافظة "جاناق قلعة" كان الأكثر تفضيلًا في صناعة السهام.

بيت شعر حول السهم:

حتى وإن قذفني الدهر كالقوس إلى مكان غريب

إلا أنني أسير مُستقيمًا كالسهم ولا أخطئ هدفي.

الترصيع

الترصيع: هو فن صناعة الأشياء من الخشب دون استخدام المسامير والغراء وتزيينها بإدخال الأشكال الهندسية بعضها في بعض لدى العثمانيين، والترصيع فن يظهر في منابر الجوامع ومنصات الخطابة والنوافذ والأبواب.

والمنبر الموجود في الجامع الكبير في "بورصة" هو أحد أروع النماذج الفنية للترصيع.

أضرحة السلاطين العثمانيين

دفن جميع السلاطين العثمانيين الذين توفوا في فترة تأسيس الدولة في مدينة "بورصة".

الخاتمة

وهكذا نأتي وإياكم إلى خاتمة هذا الكتاب الذي تناوَلَ -كما رأيتم- مرحلةَ تأسيسِ الدولة العثمانية بسلاطينِها الستّة الأوائل، الذين وضعوا حجرَ الأساسِ للإمبراطوريّة التي حكمَت العالم قرونًا عدّة، ومما لا شكَّ فيه أنه لولا ما كانوا يتمتّعون به من شجاعةٍ وقوّة وإخلاصٍ، ورباطة جأشٍ وفتوّة، وكرم أخلاقٍ وجَودَةِ خصالٍ حتى في أوقاتِ المعارك؛ لما استطاعوا أن يَصِلوا إلى ما وصلوا إليه؛ ولما استطاعوا بسطَ نفوذهم على قارّاتٍ ثلاث، ولما حازوا بشارةَ النبيِّ ﷺ بفتح القسطنطينيّة، لقد جسَّدوا العزيمةَ والإصرارَ والهمّةَ العاليةَ والأخلاقَ الحسنةَ أحسنَ تجسيدٍ وأجودَ تمثيل..

ولقد ظهرت واضحةً جليّةً بسالةُ الجنود والقادة في فتحِ البلادِ ودكِّ الحصون والقِلاعِ، وفي الذودِ عن حياضِ الأمّة وتبليغِ الإسلامِ إلى شتّى بقاعِ الأرضِ من مشارقِها إلى مغاربها، إلى جانبِ وضوحِ عدمِ تخلّيهم يومًا عن مكارمِ الأخلاقِ وجيّدِ الخِصالِ حتى في وقتِ الشدائدِ والخطوب..



التسلسل الزمني للأحداث التاريخية

(١٢٨١م) تولّى "عثمان بك" منصب رئيس عشيرة "قَايِي".

(١٢٨١م) ولادة "أُورْخَان غازي".

(١٢٩٩-١٣٠٠م) بداية التاريخ العثماني.

(١٢٩٩م) فتح مدينة "إِينَاكُولْ".

(١٣٠١م) الاستيلاء على مدينة "يَنِي شَهِيرْ"، واتخاذها مركزًا للإمارة.

(١٣٠٢م) انتصار "عثمان غازي" في " قويون حصار".

(١٣٠٢م) وفاة "علاء الدين كَيْقُبَاذْ الثالث" حاكم سلاجقة الأناضول.

(١٣١٤م) حصار مدينة "بورصة" للمرة الأولى.

(١٣٢٤م) جلوس "أُورْخَان غازي" على العرش.

(١٣٢٦م) وفاة "عثمان غازي".

(١٣٢٦م) فتح مدينة "بورصة".

(١٣٢٦م) ولادة "مراد الأول".

(١٣٢٩م) معركة "بيليكانون".

(١٣٣١م) فتح "إِزْنِيكْ".

(١٣٣١م) تأسيس أول مدرسة عثمانية في "إِزْنِيكْ" من قِبَلِ "أُورْخَان غازي".

(١٣٣٤م) ارتباط إمارة "بني قَارَسِي" بالعثمانيين.

(١٣٣٧م) الاستيلاء على منطقة "قُوجَه أَلِي".

(١٣٤٦م) زواج "أُورْخَان غازي" من ابنة "قَانْتَاكُوزِين" وتحالفه مع "يزنطة".

(١٣٥٤م) عبور "سليمان باشا" إلى منطقة "رُومَلِي" من أجل مساعدة "بيزنطة"، واتخاذه من قلعة "جيمبه" قاعدة له.

(١٣٥٤م) فتح "جَلِيبُولُو".

(١٣٦٠م) ولادة "يلديريم بايزيد".

(١٣٦١م) بداية القيام بالمصارعة الزيتية في "قيرقبينار".

(١٣٦٢م) وفاة "أُورْخَان غازي" و جلوس "مراد الأول" على العرش.

(١٣٦٢م) تشكيل منصب قاضي العسكر.

(١٣٦٣م) انضمام مدينة "أدرنه" إلى الأراضي العثمانية.

(١٣٦٥م) الاستيلاء على " دوبروفنيك".

(١٣٧١م) معركة "ماريتزا".

(١٣٧٦م) اعتراف مملكة "بلغاريا" بالهيمنة العثمانية.

(١٣٧٩م) ولادة "محمد شلبي".

(١٣٨٥-١٣٨٦م) الاستيلاء على "نيش" و"صوفيا".

(١٣٨٥م) تمرّد "صاوجي بك".

(١٣٨٩م) نصر "كوسوفو الأول".

(١٣٨٩م) استشهاد "مراد الأول"، وجلوس "يلديريم بايزيد" على العرش.

(١٣٩٠م) ارتباط إمارات "بني آيدين" وبني منتشه" وبني جَرْمِيانْ" و"بني صاروخان" بالعثمانيين.

(١٣٩٠م) حملة "بني قرمان" وحصار "قونية".

(١٣٩٠م) إنشاء حوض بناء السفن في "جَلِيبُولُو".

(١٣٩١م) محاصرة إسطنبول للمرة الأولى من قبل العثمانيين.

١٣٩٦ انتصار " نِغْبُولُو".

(١٣٩٧م) الاستيلاء على مدينة "قرمان" عاصمة إمارة "بني قرمان" و"نيده" و"آقسراي".

(١٣٩٨م) وفاة القاضي "برهان الدين".

(١٤٠٠م) احتلال "تيمور" لمدينة "ملاطية".

(١٤٠٠م) "يلديريم بايزيد" يبني أول جامع في "بورصة"، وإنشاء أول مشفى عثماني.

(١٤٠٢م) هزيمة "أنقرة" وأَسْر "يلديريم بايزيد".

(١٤٠٢-١٤١٣م) فترة خلو السلطنة والاضطرابات الداخلية.

(١٤٠٣م) وفاة "يلديريم بايزيد".

(١٤٠٤م) ولادة "مراد الثاني".

(١٤٠٩م) "سليمان شلبي" يكتب العمل المسمى "وسيلة النجاة" الذي يُعَدُّ أول صيغة مولد في الأدب التركي، ولم يُسبَق إليه من قبل.

(١٤١١م) جلوس "محمد شلبي" على العرش.

(١٤١٣م) إعدام "موسى شلبي".

(١٤١٦م) الحرب البحرية بين العثمانيين و"البندقية" وتمرد الشيخ "بدر الدين".

(١٤١٦م) الحملة على "المجر".

(١٤١٧م) فتح مدينة " فلوره".

(١٤١٨-١٤٢٠م) الاستيلاء على "سامسون".

(١٤١٩-١٤٢٤م) تكليف "حاجي ايواز" بإنشاء مجمع "الأخضر" من قبل "محمد شلبي" في مدينة "بورصة".

(١٤٢١م) وفاة "محمد شلبي" وجلوس "مراد الثاني" على العرش.

(١٤٢٢م) محاصرة "مراد الثاني" لإسطنبول.

(١٤٢٢م) القضاء على "دوزمجه مصطفى".

(١٤٢٥م) تعيين "مولا فناري" كأول شيخ للإسلام.

(١٤٢٥-١٤٢٦م) إعدام "جنيد بك" حاكم "إزمير".

(١٤٢٥-١٤٢٦م) انضمام إمارة " بني تكه" للعثمانيين.

(١٤٢٧-١٤٢٨م) انضمام إمارة "بني جَرْمِيانْ" للعثمانيين.

(١٤٤٤م) (يونيو/حزيران)، عقد معاهدة "أدرنه - سيجيدين" للسلام.

(١٤٤٤م) (أغسطس/آب) عقد "مراد الثاني" الصلح مع "بني قرمان".

(١٤٤٤م) (نوفمبر/تشرين الثاني) ترك "مراد الثاني" العرش لابنه محمد الثاني.

(١٤٤٤م) (نوفمبر/تشرين الثاني) معركة "فارنا".

(١٤٤٥م) جلوس "مراد الثاني" على العرش مرة أخرى.

(١٤٤٨م) نصر "كوسوفو الثاني".

(١٤٥١م) وفاة السلطان "مراد الثاني".

المصادر

- قامـوس المصطلحـات التاريخية العثمانية، "محمد ذكي بكلين *(M.Zeki Pakalın)*"، منشـورات وزارة التعليم العالي التركية، (١٩٧١م).
- التاريـخ العثمانـي، المجلـد الأول، أ. د "إسـماعيل حقي أوزن شرشـلي *(I. H. Uzunçarşılı)*"، منشـورات "مجمَع التاريخ التركيّ *(TTK)*".
- العصر التقليدي للدولة العثمانية، أ. د "خليل إينلجيك *(Halil Inalcık)*"، (٢٠٠٤م).
- الحضارة العثمانيّة، خليل إينلجيك، "جونسل رندة *(Günsel Renda)*"، وزارة الثقافة التركية، (٢٠٠٣م).
- الدولة العثمانيّة والعالم، أ. د "كمال قرباد *(Kemal Karpat)*"، منشورات أفق، (٢٠٠٤م).
- التاريخ العثماني، "همر *(Hammer)*"، منشورات وزارة التعليم العالي التركية، (١٩٩١م).
- تاريخ الدولة التركية، "يلماز أوزتونه *(Yılmaz Öztuna)*"، منشورات الحياة، (١٩٦٨م).
- تاريخ الدولة العثمانية، أ.د "أكمل الدين إحسان أوغلو"، منشورات صحيفة زمان التركية، (١٩٩٩).
- تاريخ الترك، أ. د "سنا أكشين *(Sina Akşin)*"، منشورات صحيفة ملية.
- المؤلفات العثمانية، "أ. أحمد حلوق دورسون *(A. Haluk Dursun)*"، منشورات "أوتوكن *(Ötüken)*"، (٢٠٠٣م).
- ألبوم السلاطين العثمانيين، دار الثقافة.
- موسوعة السلاطين العثمانيين، منشورات الشباب الترجمان.
- موسوعة المعلومات بالصور، منشورات الحياة، (١٩٦٦م).
- الثقافة التركية، أ.د "إبراهيم كفسوغلو *(Ibrahim Kafesoğlu)*"، (١٩٧٥م).
- موسوعة "لاروسا *(Larousse)*" الكبيرة، منشورات الميدان، (١٩٨٨م).
- "آنا بريطانيكا *(Ana Britannica)*"، دار "آنا" للنشر، (١٩٨٤م).
- الأناضول الخالدة، "محمد أوندر *(Mehmet Önder)*"، منشورات "سومر بنك *(Sümerbank)*"، (١٩٧٠م).

- من مدينة إلى مدينة، "محمد أوندر"، (YKB) للنشر، (١٩٧٢م).
- مائة وخمسـون سـرًّا جَعَلَتْ الدولة العثمانية من أكبرِ دولِ العالم، "أ. علي كرجم (A.Karaçam)"، منشـورات "دار بلجة (Bilge)"، (٢٠٠٤م).
- الأتراك القادمون يا أماه، "جبريال مندل (Gabriele Mandel)"، (٢٠٠٤م).
- الفن التركي القليدي وتأثيره في الغرب، "فؤاد كوبرولو (Fuat Köprülü)"، منشورات بنك "إيش (Iş)".
- مجلة "أمانامه (Emanname)"، منشورات أمان للسياحة.
- مجلة الحياة للتاريخ.
- مجلات الأدب التركي.
- الحقائق التاريخية، "أ. إسماعيل حامي دنشمند (I. Hâmi Danişmend)"، منشورات (T.K.)، (١٩٧٩م).
- المدن العثمانية، "برس طوغلجي (Pars Tuğlacı)"، منشورات صحيفة ملية، (١٩٨٥م).
- الأوائل في إسطنبول، "فاروق جونجو أوغلو (Faruk Göncüoğlu)، منشورات "كانتم (Kentim)"، (٢٠٠٣م).
- قطرات من التاريخ، "حسين جوكجه (Hüseyin Gökçe)"، منشورات "سوغوت (Söğüt)"، (١٩٧٨م).
- الآثار التركية في أوربا، "ألطن أرسلي (Altan Araslı)"، مكتبة ترجمان، (١٩٨٦م).
- تاريخ عاشق باشا أوغلو، منشورات وزارة التعليم العالي التركية، (١٩٩٢م).
- سلاطين هذه الأراضي، "نجدة سكاأوغلو (Necdet Sakaoğlu)"، منشورات "أوغلق (Oğlak)"، (١٩٩٩م).
- تاج التواريخ، الجزء الأول والثاني، "خوجه سـعد الدين أفندي (Hoca Sadettin Efendi)"، إعداد: عصمة برمقسيز، منشورات وزارة الثقافة التركية، (١٩٩٩م).
- موسوعة الإسلام، المجلد الثاني والخامس والتاسع والحادي عشر، منشورات وقف رئاسة الشؤون الدينية التركية، (١٩٨٩م)، (١٩٩٢م)، (١٩٩٤م)، (١٩٩٥م).
- الدروس التاريخية، "مدحت سرت أوغلو (Mithat Sertoğlu)"، منشورات مجمع التاريخ التركي (TTK)، (١٩٩٢م).